# بيني وبين نفسي

# بيني وبين نفسي

محمّد السعدي

*By Mohammad Al-Saadi*

الطبعة الأولى: أغسطس ـ آب، 2021 (1000 نسخة)

Copyrights@Dar Al-Rafidain2021

(C) جميع حقوق الطبع محفوظة / All Rights Reserved

حقوق النشر تعزز الإبداع، تشجع الطروحات المتنوعة والمختلفة، تطلق حرية التعبير، وتخلق ثقافةً نابضةً بالحياة. شكراً جزيلاً لك لشرائك نسخةً أصليةً من هذا الكتاب ولاحترامك حقوق النشر من خلال امتناعك عن إعادة إنتاجه أو نسخه أو تصويره أو توزيعه أو أيٍّ من أجزائه بأي شكلٍ من الأشكال دون إذن. أنت تدعم الكتّاب والمترجمين وتسمح للرافدين أن تستمّر برفد جميع القراء بالكتب.

بغداد ـ العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: 9647714440520+ / 9647811005860+

info@daralrafidain.com

daralrafidain@yahoo.com

www.daralrafidain.com

dar alrafidain

Dar.alrafidain

@daralrafidain

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 643 - 55 - 7

# بيني وبين نفسي

## حكايات من أرشيف الحركة الشيوعيّة العراقيّة

محمّد السعدي

www.daralrafidain.com

# الفهرس


الإهداء ..... 9
مقدّمة بقلم عبد الحسين شعبان ..... 11
لماذا «بيني وبين نفسي»؟ ..... 23
الولادة والنشأة ..... 25
المحيط السياسي والبيئة العائلية ..... 30
بداية الوعي والانتماء السياسي ..... 33
ثانوية الانتصار ..... 37
بداية هجمة 1978 ..... 41
غياب قيادة الحزب ومحاولات لمّ الشتات ..... 45
صدّام والحرب ..... 54
التسفير وما بعده ..... 63
الانتقال إلى بغداد ..... 74
بين بعقوبة وبغداد ..... 78
منظمة (الصدى) 1982 ..... 86
أنور المزوري والمصادفات الثلاث ..... 91
بداية العمل في الجبل ..... 96
بداية العمل مع الأنصار ..... 99
صراعات داخلية ..... 104
عزل بهاء الدين نوري ..... 114
أبو جيفارا والخط المائل ..... 121

أبو بهاء والاختراق الأخطر ........ 124
أعضاء اللجنة المركزية تحت المراقبة ........ 129
تجربة الكفاح المسلّح ........ 132
قضية سامي حركات وجماعته ........ 134
جبهات وطنية ........ 139
فندق المعارضة ........ 143
في جبال سورين ........ 145
حديث مشتّت مع النفس ........ 150
خورنوزان: حدث وهزيمة ........ 154
النزول إلى بغداد ........ 159
«كبسة» جديدة الشطّ ........ 171
عودة للحديث عن نشاط بغداد ........ 177
بداية العمل السرّي في بغداد ........ 184
الجواسيس: أبو بهاء، أبو هيمن، شهاب ........ 187
في بيت الحاج غازي ببغداد ........ 192
تقصّي أخبار «الكبسة» ........ 195
العودة إلى الجبل بالتقرير ........ 198
عودة إلى بيت الحاج غازي ........ 201
الاختراق الآخر والعودة للجبل ........ 214
أعضاء شبكة الأمن في الجبل ........ 218
قرار العودة النهائي للجبل ........ 221
المقرّ الصيفي ........ 225
التحرّك نحو لولان ........ 227
قلعة دزه وبشدر ........ 231
معركة قرداغ ........ 233

معركة دربندخان ..... 236
قادر رشيد والشعبة الخامسة ..... 239
التوجه إلى إيران ..... 242
بيان 3087 ..... 249
أيّام الشام.. مراجعة مع الذات ..... 251
دمشق وبراغ وعامر عبد الله ..... 259
حول التحالف مع البعث ..... 265
السويد وإعادة التفكير ..... 275
أوّل الكارثة.. آخر الكارثة ..... 278
عودة واستذكار ..... 280
حياتي كلاجئ سياسي ..... 297
تقييم للتجربة الشيوعية ..... 309
في بغداد المحتلّة ..... 312
من وحي الزيارة ..... 343
من الزيتوني إلى الأسود ..... 352
أمّي ..... 356
خالي خزعل السعدي ..... 361
بين السعديّين.. خزعل وعلي ..... 363
ملحق: وثيقة تقييم حركة الأنصار التابعة للحزب الشيوعي العراقي في الفترة ما بين **1979 ـ 1988** ..... 369

# الإهداء

***إلى جنان***

*أيّة خيبة!*

*أيّ خذلان!*

*كنتُ وعدتُكِ أن نجوب معاً*

*أزقّة (الهويدر)، موسمَ القدّاح*

*موسمَ الشذى*

*بيدَ أنّ المكان.. لم يعُد هو إيّاه*

*لقد قُتلَ الأمل وماتت الذكرى*

*مات شجر الصبا*

*والسواقي لم تعُد تهدُر.*

# مقدّمة بقلم عبد الحسين شعبان[1]

## - I -

حين طلب منّي الرفيق محمد السعدي (أبو بيدر) كتابة مقدّمة لكتابه الجديد (بيني وبين نفسي ـ حكايات من أرشيف الحركة الشيوعية العراقية)، عدتُ إلى قراءة كتابه السابق (سجين الشعبة الخامسة)، لارتباط الكتابين بتجربةٍ شخصيّة لمناضل في صفوف الحركة الشيوعية، سواء في حركة الأنصار أم في ظروف العمل السرّي، في فترة من أخطر المراحل السياسيّة في تاريخ العراق. ولعلّ تجربته الغنيّة هي جزء من تجارب شخصية لمناضلين شيوعيين في مستويات مختلفة، ومن مواقع عمل عديدة، تبقى بحاجة إلى دراسة ومراجعة وتمحيص وتدقيق ونقد لأخذ العِبرة منها بما لها وما عليها.

يروي محمد السعدي كيف وقع في فخّ الاستخبارات العسكرية في العام

(1) أكاديمي ومفكّر من جيل المجدّدين العراقيّين والعرب الثاني. يُعدُّ من روّاد حركة المجتمع المدني العربية، وهو حائز على جائزة أبرز مناضل لحقوق الإنسان في العالم العربي (القاهرة 2003) بدفاعه عن الحقوق والحريّات، لا سيّما في المجالين العربي والدولي. له أكثر من 70 كتاباً ومؤلّفاً، بدءاً من حقل اختصاصه الأساس في القانونين الدولي والدستوري، إلى حقول الفكر والسياسة والثقافة والأدب والأديان، كما أن له مساهمات وانشغالات خاصة بقضايا التجديد والتنوير والحداثة والفكر الاشتراكي والأديان والتسامح واللاعنف. عمل منذ مطلع الستّينيات في صفوف الحزب الشيوعي العراقي، لكنّه لم يتقيّد بتعاليم المدرسة الماركسية التقليدية ولم يلتزم أُطرها التنظيمية التي تمرّد عليها. ويُعدُّ من المثقّفين الماركسيّين الإشكاليّين الذين سلكوا طريق التجريب متخلّياً عن اليقينيّات الإيمانية، مختاراً طريق العقل والأسئلة والنقد، لا سيّما محاولاته إعادة قراءة الماركسية وتجاربها العملية. (الناشر).

1987 بخديعةٍ أو تواطؤ أو قُصر نظرٍ على أقلّ تقدير، لا فرقَ في ذلك فقد كان لُقمة سائغة بيدِ الخصم، ليجد نفسه «نزيلاً» في الشعبة الخامسة لمدة 87 يوماً تعرّض فيها لأنواعٍ شتّى من التعذيب، وضغوط جسدية ونفسية اضطر فيها للاعتراف بمهمّته والكشف عنها، حيث اقتيد إلى (محكمة الثورة) مع سبعة أو ثمانية أشخاص من حزب الدعوة، ومن حُسن الصُدف، كما يقول، أن البتّ في قضاياهم قد تأجّل، فأُعيدوا من حيث أتوا لتتمّ مساومته بإطلاق سراحه مقابل التعهد بالعمل لصالح الاستخبارات العسكرية، وهي طريقة اتّبعت في الكثير من الأحيان مع من يلقى القبض عليهم، خصوصاً ممّن كانوا يتوجّهون إلى داخل العراق لإعادة بناء التنظيم. وفي الكثير من الأحيان كان هؤلاء تحت أعين الأجهزة الأمنية بأنواعها واختصاصاتها التي غالباً ما كانت تخترق خطوطاً حزبيّة وتتغلغل فيها وتسهّل مهمّاتها لتكون في حدود السيطرة باللحظة المعنيّة، وقد استدرجت إدارات حزبية متقدمة وهيّأت لها أماكن إقامة و«بيوتاً حزبية» راصدة جميع تحرّكاتها واتصالاتها، متعقّبة أثرها في أكبر عمليّة اختراق في مطلع التسعينيات.

كتابا الرفيق أبي بيدر جعلاني أتوقّف عندهما، في مراجعة محطات مهمّة من تجربته الشخصية، خصوصاً وأنّهما يكمّلان بعضهما البعض ويتداخلان أحياناً في بعض التفاصيل، بل أنّ تكرار المشاهد يجعلك تتصوّر أنّك تقرأ في كتاب واحد، وإن جاء كتابه الذي أتحدّث عنه ليستعيد فيه طفولته ونشأته وحياته في قرية (الهويدر)، حيث بساتين البرتقال والأشجار الباسقة، والمقاهي الشعبية والأصدقاء وحركة الناس، لينتقل إلى بدايات وعيه السياسي واندفاعاته وحماساته وتطلّعاته ومدارسه في إطار تأمّلات سوسيولوجيّة ولفتات ذكيّة ومواقف لا تخلو من أخطاء ومراجعات ونقد، ومن ثمّ تناول بدايات نشاطاته الطلّابية والنُويّات الحزبية والمواجهات المباشرة وغير المباشرة في إطار الاصطفافات السياسية في القرية مع البعثيّين ومنظّماتهم أيام الجبهة الوطنية التي انفرط عقدها في أواخر العام 1978 والثلث الأول من العام 1979.

ولعلّ المرحلة الثانية من نشاطاته وحركّيته جاءت حين انتقل إلى بغداد للالتحاق بالجامعة في العام 1980، والتي تداخلت مع الحرب العراقية ـ الإيرانية، حيث انتظم في نواةٍ شيوعية أُطلق عليها اسم (منظمة الصدى) ليلتحق بقوات الأنصار في العام 1983، وهنا يستعيد أسماء الشهداء ويُعدّد المواقع والقرى الكردية وخطوط التواصل، وحياة الأنصار والصعوبات التي كانوا يمرّون بها، والبطولات التي يجترحونها والتضحيات التي يقدّمونها، ثمّ يخبرنا عن تكليفه بالتسلّل إلى بغداد في مهمّات خاصّة يستغرب هو الآن كيف كان يقوم بتنفيذها بكل رحابة صدرٍ، وكأنّه متوجّه إلى نزهة، في حين أن الموت كان ينتظره عند أيّ منعطف أو أيّة محطة ولأيّ خطأ يقوم بارتكابه أو سهو يقع فيه. ويذكر الحِرمانات التي عاشها دون أن ينسى تلك الرومانسية الحزينة التي لم تتركه، ودون أن يهمل الأخطاء والعيوب والإخفاقات والبيروقراطية وإسقاط الرغبات على الواقع.

ويتوقف السعدي بذهول أحياناً عند بعض المحطات المهمّة في تجربته الفتيّة، حين التقى بعض قادة الحزب الذين كان يسمع عنهم، ومنهم بهاء الدين نوري، أمين عام الحزب الأسبق (من العام 1949 وحتى العام 1953) الذي تمّ عزله ومقاطعته اجتماعيّاً والتشهير به، وكيف كان «يخاطر» بالذهاب إليه والالتقاء به. ويستعرض بشكل متفرّق حيثيّات ما حصل في بشتاشان حين شنّ الاتحاد الوطني الكردستاني (أوك) هجوماً غادراً ضدّ أنصار الحزب الشيوعي راحَ ضحيّته عشرات الرفاق، ويتناول الحساسيّات التي حصلت جرّاء مواقف البعض الضعيفة.

أمّا بخصوص المؤتمر الرابع للحزب، فهو يتناول تعقيداته وملابساته وما أثاره من انقسامات، خصوصاً في التحضير له، وذلك حين ألقى عزيز محمد (الأمين العام للحزب حينها) كلمة قال فيها «اجتمعنا ليُلغي نصفنا النصف الآخر»، واتّضح أنّها خطّة للتضحية والتفريط بقيادات تاريخية وكوادر متقدّمة

ومجرّبة بسبب وُجهات نظرها الفكرية والسياسية، لا سيّما بصدد الموقف من الحرب العراقية ـ الإيرانية. كما يُسلّط الضوء على الاختراقات العديدة لأجهزة المخابرات والأمن العراقية التي تمّ اكتشاف بعضها والتحقيق مع عدد من المتّهمين بعد إخضاعهم للتعذيب، حيث اعترفوا بتعاونهم مع الأجهزة العراقية، وصدر قرار بإعدامهم، دون أن يذكر مصدر هذا القرار ومَن هو الذي قام بتنفيذه، لكنّه يلمّح له، علماً أن ثمّة أسماء تردّدت على هذا الصعيد من خلال روايات عديدة لم يتمّ الإفصاح عنها أو كشفها على الرغم من مرور ثلاثة عقود ونيّف من الزمان.

ويروي كيف أنه، بعد إطلاق سراحه بالمساومة المذكورة وجد أنها فرصة مناسبة للهرب في اليوم التالي والوصول إلى مدينة كفري في كركوك حيث حلّ ضيفاً على عطاالله الطالباني مدير بلديّتها الذي كانت تربطه به علاقة سابقة عبر نجله آشتي رفيقه الذي كان يلتقيه في المعهد البريطاني في بغداد. وهناك التقى مكرّم الطالباني (القيادي الشيوعي السابق) وقصّ عليه ما حصل له، فشجّعه على ذلك ونصحه بالابتعاد عن كل ما له علاقة بتلك الأجواء، وهكذا التحق بالجبل مرّة أخرى ليروي ما جرى له لقيادة الحزب وللرفيق طه صفوگ (أبو ناصر) الذي اعتُبر من العشرة «المبشّرين بالجنّة» الذين اختارهم عزيز محمد ليصبحوا أعضاء في اللجنة المركزية دون أن يعلن عنهم بحجّة العمل السرّي، لكن الدنيا ضاقت بالسعدي بعد أشهر وأخذ يفكّر بترك موقعه والتوجه إلى الخارج فعسى أن يجد في حياته الجديدة ما يعوّضه عمّا تعرّض له وما خسره وما عاناه خلال اعتقاله، إلّا أنّه فوجئ بعدم تقديم أيّة مساعدة له، فاتّخذ قراره بعبور الحدود إلى إيران معتمداً على نفسه وعلى بعض الأنصار من أصدقائه ومن بيشمرگة الأحزاب الكردية، ومن هناك رتّب أموره ووصل إلى سوريا واستقرّ فيها لبضعة أشهر وحصل على جواز سفر يمنيّ بواسطة عامر عبدالله ومنها توجّه إلى براغ ومن الأخيرة إلى السويد طالباً اللجوء السياسي ليستقرّ في مدينة مالمو منذ العام 1989 وحتى الآن،

وهي رحلة شاقة ومضنية قطعها مئات الرفاق الذين وجدوا أنفسهم في المنافي البعيدة بعد تبدّد أحلامهم وتشتّت شملهم.

- II -

أربع ملاحظات أساسية أتوقف عندها خارج الآراء السياسية أو الحزبية التي وردت في الكتابين، سواء بالاتفّاق أو بالاختلاف أو بالتناول والتقويم.

أوّلها ـ عرّفني الكتابان بالرفيق محمد السعدي أكثر ممّا كنتُ أعرفه، وكنت أوّل مرّة قد تعرّفت عليه بواسطة الرفيق عامر عبدالله الذي استقبله في الشام ليستمع إلى تجربته المؤلمة، فضلاً عن كون الشهيد الجنرال خزعل السعدي خاله، إضافةً إلى معرفة لاحقة بواسطة الرفيق طه صفوگ (أبو ناصر). كما أني اكتشفت أنّ لديه رغبة في التعلّم وحبّ المعرفة، والمعرفة حسب كارل ماركس تعني «الذهاب للّقاء بالواقع». وقد حاول السعدي في الكتابين أن يعرض تجربته بأسلوب قصصيّ لا يخلو من حبكة دراميّة، إذ استخدم الحكاية بطريقة موحية، وقد جاء الكتابان بصيغة مجموعة حكايات أو قصص أو حتّى أقاصيص منفصلة ومتّصلة أحياناً في إطار هارموني متآلف ومتخالف في الوقت نفسه، وهو أسلوب استخدمه للتخفيف من عبء الكتابة بمعناها الحرفي والمهني دون أيّة ادّعاءات أو تضخيم للذات.

وثانيها ـ امتاز محمد السعدي بجرأة وشجاعة نادرتَين بكتابه الأول والثاني، حين اعترف بالكثير من أخطائه ومثالبه وعيوبه، ومنها تعاونه مع أجهزة الاستخبارات العسكرية حين تمّ اعتقاله وذلك إنقاذاً لنفسه بعد أن لم يتمكن من الصمود في التعذيب إلى النهاية، حيث قرّر قبول عرض الاستخبارات بعد أن رفضه في السابق بإصرار، ولكنّه في الوقت نفسه قرّر تضليلها ثمّ الهروب في أوّل فرصة سُنحت له إلى الجبل مرّة ثانية وإخبار الحزب بجميع التفاصيل التي جرت له، خصوصاً وأنه يمتلك خزيناً هائلاً من المعلومات عن بعض من

أُلقي القبض عليهم وتعاونوا مع الأجهزة الأمنية، ويعتقد أنّ قسماً منهم أخفى المعلومات عن الحزب وكان لا يزال يعمل في مواقع متقدّمة دون أن يبلّغ عن ذلك، علماً بأنّ من يُلقى القبض عليه وتتم مساومته ويوافق على ذلك يُطلق سراحه بسرعة ليعود إلى وضعه الطبيعي وكأنّ شيئاً لم يكن، حيث يكون نقطة استقطاب لكشف المزيد من الذين يكلَّفون بمهمات داخل العراق، فيكون تحت علم وبصر الأجهزة الأمنية.

وكما يقول أبو بيدر فإن الغالبية الساحقة من الذين توجّهوا إلى الداخل وقعوا في شرك الأجهزة الأمنية، فإن قسماً منهم استشهد، بينما القسم الآخر أُطلق سراحه باتفاقات معها. وعلى هذا الصعيد يذكر العديد من الأسماء وبعض مهمّاتها واستدراجاتها، وتحفظُ ذاكرته أسماء عشرات الشهيدات والشهداء الذين ذهبوا ضحيّة الغدر والخيانة وضعف اليقظة. كما ويتناول أخطاء بعض إداريّي الحزب وصراعاتهم ومنافساتهم غير المبدئية التي سهّلت على هؤلاء الذين عملوا لمصلحة الأجهزة الأمنية التحرّك بحرّية، بل إن البعض كان يُبدي إعجاباً بشجاعتهم، ولولا بعض المصادفات لكان هؤلاء قد استمرّوا وألحقوا أضراراً لا يعلم بها إلّا اللّه، مُستدرجِين عشرات آخرين من الرفاق.

وثالثها ـ إنّه ينتقد تجربته، لا سيّما مشاركته في التحقيق «الحراسة» ضدّ آخرين أو قبوله بفكرة تعذيب آخرين لانتزاع اعترافات منهم، سواء كانوا يعملون لمصلحة الأجهزة الأمنية أم أنهم رفاق اتُّهموا بالتكتّل أو الاحتجاج ضدّ ممارسات بيروقراطية وسياسات خاطئة، كما حصل للضحيّة المغدور مشتاق جابر عبداللّه من مدينة الثورة الذي كان اسمه الحركيّ (منتصر)، والذي استشهد تحت التعذيب على أيدي رفاقه، وستّار غانم (سامي حركات) الذي استشهد خلال تسلّله إلى الداخل على يد المخابرات العراقية، وأحمد الناصري (أمين) الذي هو أحد الشهود الأحياء على ما حصل له ولرفاقه من سوء معاملة وتعذيب، وسبق له أن روى قصته ومفارقات تعذيبه على أيدي

البعثيّين وعلى أيدي رفاقه الشيوعيّين. ويذكر محمد السعدي عدداً من الأسماء التي شاركت بالتعذيب أو التحقيق وفي اتخاذ القرارات صراحةً أو تلميحاً، وكان الرفيق قاسم سلمان (أبو الجاسم) قد عرض أدوات التعذيب والوسائل التي استُخدمت لانتزاع اعترافات من الرفاق المعارضين أمام الرفيق عزيز محمد (الأمين العام الأسبق) في اجتماع أمام جمع من الرفاق الأنصار، وهو ما تمّ تداوله في حينها ونشرته بعض المطبوعات الحزبية.

ورابعها ـ إنّه يشخّص عدداً من المسؤولين عن النواقص والعيوب والثغرات بما فيها الأمنية إمّا لعدم خبرتهم أو قلّة معرفتهم أو حتى جهلهم، ناهيك عن أنّ بعضهم يريد تحقيق مكاسب أو منجزات لتُدرج في سجلّه الشخصي. ويعرض السعدي حكايات وقصصاً عن الاختراقات وبدائيّة التعامل معها، إذ يتناول سذاجة بعض المسؤولين وانفصالهم عن الواقع، ناهيك عن «المغامرة» بالرفاق تحت عنوان إعادة التنظيم. وحسب بعض التقديرات، فإنّ بضع عشرات من هؤلاء قد غُيّبوا في السجون ولم يُعرف مصيرهم حتى الآن، بمن فيهم رفيقات بطلات، دون أن تكون النتائج مُجزية، وكان يمكن ادّخارهم لليوم المناسب. وهكذا لم تكن حسابات الحقل منسجمة أو حتى متوازية مع حسابات البيدر، ولكن الغريب هو الإصرار بعد كل هذه الخسائر على إرسال الرفاق إلى الداخل كما يقول.

ـ III ـ

في الكتابين دعوة للنقد الذاتي ولكشف الحقيقة ومصارحة الرفاق والاعتذار لمن تمّت الإساءة إليهم أو لعوائلهم في حالة استشهادهم، والكفّ عن مثل هذه الأساليب التي لا تخدم إلّا أعداء الحزب والشيوعيّة، وقد عبّر السعدي عن انتقاده الشديد لمن أنكر أو سكت معتبراً ذلك تواطؤاً لا بدّ من كشفه. وقد بدأ بانتقاد نفسه على ذلك، ويأمل أن يتحلّى آخرون بالشجاعة ليقولوا الحقيقة

وهو ما استوضحتُهُ منه، وحسب شكسبير «الحقيقة تُخجل حتى الشيطان»، وقد وجدتُ في اعترافه بأخطائه وندمه على القيام بذلك فضيلةً، وكما يقال «الاعتراف بالخطأ فضيلة»، وهو أوّل الطريق للمصارحة والمكاشفة بممارسة رياضة روحية مع النفس للتطهّر وعدم تكرار ما حصل.

ومهما كانت المبادئ سامية إلّا أنها تتعرّض للتشويه حينما تتحوّل إلى أيديولوجيا «صمّاء»، وهي ما تستخدمه إدارات الأحزاب لتبرير انتهاكاتها، سواء كانت في السلطة أم خارجها، ولفرض هيمنتها، فحتى الأحلام الوردية واليوتوبيا ليست معصومة من ارتكاب الآثام والجرائم، ولعلّها ذاتها تصبح أداةً للجريمة طالما أنها تضع الفكرة بمقام أسمى من الإنسان، وهذا الأخير حسب كارل ماركس «أعظم رأسمال»، ووفقاً للفيلسوف الإغريقي بروتوغراس فإن «الإنسان مقياس كل شيء». ولعلّ التبرير بامتلاك الحقيقة وادّعاء الأفضليات يُعطي المسوّغ لبعض المتأدلجين باستخدام جميع الوسائل للوصول إلى غاياتهم عن طريق العنف أو الخداع والكذب والتدليس، إضافة إلى استغلال «إيمانيّة» و«براءة» البعض الذين يعتبرون ما يرِدهم «حقائق مطلقة» حتى دون أن تستفزّهم طوابير الضحايا، فالأمر ليس مهمّاً بقدر المستقبل المنشود.

وباختلاف الفعل عن الفكرة السامية أو القصد الأصلي تتّسع دائرة الافتراق بين الغاية والوسيلة، فلا غايات شريفة وعادلة دون وسائل شريفة وعادلة، فالوسيلة من شرف الغاية، علماً بأنّ الوسيلة ملموسة وعملية في حين أنّ الغاية بعيدة ونظريّة، وحسب المهاتما غاندي رائد المقاومة المدنية اللّاعنفية «الوسيلة إلى الغاية مثل البذرة إلى الشجرة» أي أنّهما مرتبطان عضوياً ولا يمكن فصلهما.

بتقديري إنّ الممارسة هي مصدر كل حقيقة ومعيارها وفقاً لماركس، لأن النظرية لا تنفصل عن الفعل وهي حسب وصفه «توصل المجتمع إلى الوعي بذات المجتمع»، والممارسة تمثّل «حياة الفكرة» مثلما أن الأخيرة «دليل الممارسة» ومفتاح لكل الأقفال.

## - IV -

وإذ كان الرفيق أبو بيدر قد عانى أشد المعاناة وتركت تجربته تلك ندوباً نفسيّة وجسديّة على حياته اللاحقة، إلّا أنها فتحت عينيه على آفاق جديدة، وهو ما يتّضح من بعض استنتاجاته، سواء التي توصّل إليها أم تلك التي تترشّح من بين السطور، ومنها السؤال: ما جدوى مثل تلك المغامرات؟ حيث تبقى تعتصر قلبه على فقدانه مقعده الدراسي في كلية الآداب (قسم اللغة الروسية). وهو يتذكّر عدداً من أساتذته بمن فيهم حياة شرارة التي ودّعها حين قرّر الصعود إلى الجبل فعلّقت «إنت همْ راح تهرب مثل جماعتك؟»، وهي الأخرى كانت قد عانت من مرارة علاقتها الشيوعية مع البيروقراطية الحزبية عند دراستها في موسكو، أو ضياء نافع وجليل كمال الدين ومحمد يونس الساعدي.

لكنّ التعويض الأهم لكل تلك العذابات والمظالم بما فيها من ذوي القُربى «رفاق الدرب» جاءه من الحبيبة والزوجة التي مسحت دموعه ونوّرت حياته وأزهرت مستقبله، وكانت بمثابة البلسم الذي داوى جروحه، حيث ظلّ لسنوات، بل لحدّ اليوم يستيقظ مرعوباً وفزِعاً حين يشاهد كوابيس مخيفة في أحلامه، ليجد زوجته (جنان) إلى جانبه، فتهدّئ من روعه وتناوله قدح ماء ليلتقط أنفاسه ويستعيد توازنه، خصوصاً بلمسة دافئة وكلمة حلوة.

## - V -

إن تجربة محمد السعدي تُقرأ دون إسقاطات مُسبقة بالـ «مع» أو الـ «ضد»، وحتى خارج نطاق السياسة لأنّها تجربة إنسانية وهي تصلح أن تكون فيلماً دراميّاً بغضّ النظر عن سوداويّتها، فثمّة كوّة ضوء ويقظةٍ لأملٍ جديد وروح جديدة. إنها تجربة حيّة لنصيرٍ وشيوعيّ رواها بصدقيّة كما أعتقد، وسيكون مفيداً لمن عايشه في تلك الفترة أن يدلي بدلوه بما تناوله من حكايات وسرديات، إن كان

إضافة أو حذفاً أو تصحيحاً أو تدقيقاً أو حتى تخطئةً، لأنّني أعتقد أنّها تجربة تستحق القراءة والنقد هي ومثيلاتها، فقد حاول عرضها بطريقة لا تخلو من عفويّة وخارج دائرة القيود والتستّر.

لم يُهمل السعدي نقاط ضعفه ولم ينشغل بتلميع شخصه، ولم يدّعِ بطولة، بل عرضَ بعض مغامراته تلك بتلقائيّة لا تخلو من براءة وطفوليّة، لاعتقاده أنه كان يقوم بعملٍ مهمّ يؤدّيه بإخلاص كواجبٍ محبّب، ولو استعدنا الزمن فإنّ ما فعله في تلك الأيّام باعتباره عملاً اعتياديّاً سيتوقّف عنده كثيراً، بل سيتردّد أكثر وربّما سوف لا يُقدم عليه لأنّه قد لا يجده ضروريّاً، بل إنّه انجراف غير محسوب النتائج، وتلك واحدة من دروس الحياة.

بتقديري، ليس المهم الحركة، بل لا بدّ من معرفة ما الهدف من الحركة؟ وماذا يمكن أن تنتج؟ وكيف يمكن تحقيق الهدف؟ وهل الأساليب المُستخدمة تنسجم مع الواقع والتطوّر؟ فقد كانت الخسائر تكبر دون نتائج ملموسة تُذكر، وأستعيد هنا قولاً أثيراً كان عزيز شريف (أبو عصام) غالباً ما يردّده بعقلانيّته المعروفة: «نحن الشيوعيّين مثل شخص راكب درّاجة، لا يريد أن يتوقف خوفاً من الوقوع ويبقى يتحرك بكل الاتجاهات، ولكن دون هدىً خشية من التوقّف»، أقول ذلك لأن على القائد السياسي أن يراجع باستمرار نفسه وخطط عمله وأساليبه وتكتيكاته كل يوم، بما لها وما عليها، خصوصاً وأن متغيّرات عديدة وسريعة تحصل وظروفاً وأوضاعاً كثيرة تتبدّل، وعليه التفكير والتحرك بطرق واقعيّة ورسم سياساته في ضوء المتغيّرات.

«أيّها السائر ليس ثمّة من طريق... السّير يصنع الطريق... كلّ شيء يمضي... كلّ شيء يبقى»، حسب الشاعر الإسباني أنطونيو ماتشادو الذي توفّي في فرنسا هارباً من حصار قوات فرانكو لمدريد بعد نشوب الحرب الأهلية الإسبانية، ولذلك على قيادات الأحزاب أن تبتدع طُرقها الخاصة، بما في ذلك اختلاف مرحلة عن أخرى، فما كان يصلح لزمن الرفيق فهد ربّما لم يعد يصلح في زمن

الرفيق سلام عادل، وما هو صالح في العهد الملكي ليس صالحاً في العهد الجمهوري على سبيل المثال، كما أنّ ما هو صالح للعهد الجمهوري الأول لم يعد مناسباً لعهديّ البعث، سواء بالاستراتيجية أم بالتكتيكات، وما يصلح في مواجهة أنظمة وطنية بما فيها فرديّة أم ديكتاتورية، ليس يصلح لمواجهة الاحتلال، فتغيّر الأحكام بتغيّر الأزمان.

في كتاب محمد السعدي ثمّة دهشة مستمرّة لكلّ ما حصل، وهي دهشة كبيرة ما تزال تتوالد أحياناً، فقد كان يقيس حياته بما يحصل في قرية (الهويدر)، وإلى حدٍّ ما في محافظة ديالى (بعقوبة) وحتى بغداد التي تردّد عليها طالباً أو متسلّلاً ليعيد بناء التنظيم الجديد فهو لم يعرفها كثيراً، لكنّ قنديل الطفولة الذي بداخله يريد أن يبقى مضيئاً، وإذا به «لا يضيء زنزانة خالية، بل يضيء كتاباً» حسب باشلار، فتلك الباقة من الحكايات والمرويّات أراد لها أن ترى النور، في منولوج داخلي بينه وبين نفسه ولمن يرغب في قراءتها، أو أنه كان يقيس حياته «بعدد ملاعق القهوة التي يتناولها» وفقاً للشاعر ت. س. إليوت، وإذا بالحياة أكثر إدهاشاً وأشدّ تعقيداً من كلِّ ذلك في مواجهة الجمال للقُبح والخير للشرّ والعدالة للظُلم والحقّ للباطل والعمران للخراب، لكن الخطأ والخطيئة ومحاولات إذلال الإنسان وجدت طريقها إلى تلك الدروب الوعرة والألغام الكثيرة والمرايا المحطّمة والمصائر المُحزنة، وهو ما يكشف عنه في أرشيفه الشخصي.

**ع. الحسين شعبان**

**بيروت ـ أواخر ديسمبر (كانون الأول) 2020**

# لماذا «بيني وبين نفسي»؟

لطالما تردّدتُ في صياغة عنوان هذا الكتاب الذي جمعتُ فيه فصولاً كتبتُها على فترات متباعدة عن تجربتي في حركة الأنصار الشيوعية في عقد الثمانينيات من القرن الفائت، هذه الفصول كنت ألجأ لكتابتها على فترات متقطّعة كلّما تناوشت الذاكرة بعضاً من أحداثها شبه المنسية التي يكون حضورها مفاجئاً بمسبّب غير مُبرّر. وكنت كلّما نهضت واحدة من تلكم الذكريات من سباتها، سارعت لتدوينها منقاداً لانثيالاتها التي يصعب التوقّف عن تدوينها ما لم تمنح نفسها كليّاً. في هذه الأوراق هناك ما كُتب بدواعٍ من توثيق حقبة مهمّة من حقب تاريخ الحركة الأنصارية سبقني الكثيرون من رفاق المسيرة في تدوين أحداثها، كلّاً بما يخصّ تجربته ونظرته للأحداث. كما أنني وجدت أنه من الأمانة التاريخية أن أكمل سرد بعض التفاصيل التي لم يأتِ عليها أحد ممّن سبقني في الكتابة، لأنها تفاصيل تخصّني شخصيّاً وباتت جزءاً من كياني. وقد يرى من يقرأ هذه الأوراق أنها كُتِبت بمديات زمنيّة متشابكة، وهذا طبيعيٌّ في مثل تجربة يختلط فيها السرد الواعي بالتداعيات الذهنيّة المتسارعة، ذلك أن كلّ حدثٍ يتوقّف ليستدعي أحداثاً أخرى سبقت حدوثه، إضافة إلى تمهيده لحدث سيأتي بعده، وهكذا سيكون على القارئ أن يتحلّى ببعض الصبر والحلم حتّى يستكمل قراءة ما بين دفّتي هذا الكتاب. وإنّي لأعتذر كوني قد عمدت لهذا الأسلوب في الكتابة الذي قد يجدُ القارئ فيه بعض المناوبة في السرد، لأنني لم أكن أكتب إلّا بدافع أن أفي الأحداث حقّها، مُستلّاً إيّاها من أغوار سحيقة في الذاكرة، مضت عليها عقود عدّة.

والآن وقد انتهيت ممّا سمّيته «التقطير الإتلافي للذاكرة» في كتابتي لهذه الأوراق، فأنا أُعلن أنني مسؤول عن كلّ ما فيها مسؤولية تاريخية وأخلاقيّة يفرضها عليّ الضمير العقائدي. وإني وأن انتهيت من تدوين أحداث ما مرّ بي في هذه التجربة الفريدة التي لم أعمد في البداية إلى أن تظهر للعموم، فإن عليّ أن أعترف إن دافع كتابتها الأوّل لم يكن كذلك، بل كان أن أكتبها فقط، بيني وبين نفسي.

# الولادة والنشأة

الطفولة هي التي تحدد مصير الفرد، وفقاً إلى سيجموند فرويد، فقد وُلدت وعشت وترعرعت في عائلة فقيرة مكوّنة من أحد عشر فرداً، في بيت طينيّ سقفه لا يقي من الأمطار ولا الأنواء، بيت معلّق محاط بنهر دائري في قرية الهويدر، وربما كانت هذه هي حسنته في حمايتنا من تدفق مياه فيضانات نهر ديالى أثناء عنفوانه المجنون. كان أبي يملك دكاناً متواضعاً للخضروات والفاكهة، مصدر رزقه الوحيد، وكانت أمي سنداً له ومعيناً لا ينضب من العطاء والوفاء والحرص.

كنت الأكبر بين أخواني الذكور الأربعة، وقد سبقتني بنتان هما سوسن ونظيرة، كان الاهتمام بي مبالغاً به في أحيان كثيرة، بداعي الخوف من أي طارئ، والسبب هو أنه قد سبقني أخ اسمه منذر، مات بعمر الخمس سنوات، مما ترك غصّة ولوعة في قلب أمي وأبي، وبحكم طبيعة الروابط في القرية والتقاليد الاجتماعية، كان لا بد من وجود ولد يحمي إرثك ويحمل اسمك في القرية، هذا ما برّر اهتمام أهلي الزائد بي وحرصهم عليّ، ممّا ترك ظلاله على نمط شخصيتي في الحياة والمجتمع والعلاقات، لقد تلبّسني الخجل حدّ اللعنة في تعاملي مع الأشياء، حتى في المواقف البسيطة. ولكنه بقدر سلبيته إلّا أنه كانت له جوانبه الإيجابية من حيث الأدب والاحترام تجاه الآخرين.

مثال على ذلك؛ في العام 1980،عندما كنت طالباً في كلية الآداب ـ جامعة بغداد، لم أكن أجرؤ على دقّ الباب للسماح لي بالدخول في حال تأخرت قليلاً عن الحصص الدراسية الصباحية، في الوقت الذي كان الدخول إلى

القاعة دون طرق الباب للاستئذان، لا يسبب إحراجاً لأبناء بغداد. في قراءاتي اللاحقة، وجدت أن العديد من الفلاسفة والعلماء مصابون بلعنة الخجل، وأكثر من استوقفني هو الفيلسوف الوجودي الكبير جان بول سارتر، صاحب واحد من أصعب الكتب في الفلسفة (الوجود والعدم)، إذ كان في طفولته خجولاً جداً، فقد كانت والدته تُلبسه أجمل الملابس وتُظهره بأبهى حلّة أمام أصدقائه في محاولة منها للقضاء على خجله وتردّده أمامهم، كان قارئاً نهماً، وكانت معرفته تفوق تلك التي لدى أقرانه في السنّ نفسه، ورغم ذلك ظلّوا يسخرون منه ومن أحاديثه.

بعد سنوات طويلة، جمعته الحياة بصديقة العمر والفكر، الكاتبة والمفكّرة سيمون دي بوفوار، التي تركت بصمات كبيرة في مسيرة حياته. وقد أدّت تلك العلاقة إلى الزواج، لتأخذ على عاتقها الدور الكبير في تخطّيه للعقبات الحياتية، كان شديد الولع والاهتمام بماركس وفلسفته، وقد أشار إليها في مؤلفاته وطروحاته الفلسفية، لكن ما لبث أن واجه انتقادات لاذعة ممّن اعتنقوا الماركسية بعد أن حوّلوها إلى فلسفة جامدة غير متحركة في بناء الإنسان وتنميته.

قد أكون جازماً وغير منحاز، بقولي إن نسبة عالية من شيوعيي الشرق الأوسط والمغرب العربي، قد انتموا إلى الشيوعية دون أن يقرؤوا شيئاً عن الفكر الماركسي، وهم في حال أنهم كانوا قد قرأوا جزءاً منها، فإنهم لم يستوعبوها، ولكن هناك من تعمّق بها بعد الانتماء. فوجد انتماءه بعيداً عن دروسها وفحواها، فهجرها لأنها لم تكن تلبّي طموحاته أو تستوعب أفكاره، فالشيوعية باتت له حلماً ورقياً وبناء وثقافة وفلسفة، وليس حزباً سياسياً أو تنظيمياً.

في مقتبل العمر، وضمن لهفتي للقراءة وميلي للمعرفة، كانت أولى قراءاتي رواية (لمن تُقرع الأجراس) للكاتب إرنست هيمنغواي، التي تركت أثراً في نفسي وزرعت بي حبّاً لقراءات لاحقة، ربما هي التي حدّدت مسار طريقي،

ولم أفطن إلى الآن كيف وقعتُ على تلك الرواية التي كانت أحداثها تدور حول الحرب الأهلية في إسبانيا من 1936 لغاية 1939؟ عندما خاض الجنرال (فرانكو) حرباً ضد الجمهورية الفتية التي أقامها الشيوعيون والفلاحون والعمال ومؤازروهم، فقد انطلق الجنرال فرانكو من أرض المغرب بجيش جرار وبمعاونة النازية الألمانية (هتلر) والفاشية الإيطالية (موسوليني). وقد حاول (هيمنغواي)، الذي تطوّع كصحفي لتغطية مجريات الحرب من خلال رفاق له متطوعين للدفاع عن الجمهورية والنظام الجديد، أن يجسّد في روايته تلك المأساة وقساوتها، كما فعل الفنان الإسباني (بابلو بيكاسو) في لوحته الشهيرة (الجورنيكا)، التي صوّر فيها القصف النازي لمدينة (جورنيكا) في إقليم الباسك في إسبانيا. إنها تجارب حركات تحرّر وشعوب توّاقة إلى الحرية والنظام الاجتماعي العادل.

تأثرتُ بعدها بكتابات الرائد الاشتراكي سلامة موسى، ثم جان جاك روسو صاحب نظرية العقد الاجتماعي، ولكن كان أكثر من ترك أثراً في حياتي آنذاك، هو سلمان الفارسي أحد أصحاب النبي محمد الذي سُمّي لاحقاً سلمان المحمدي، وهو من مدينة أصفهان في إيران، كان أكثر أصحابه علماً وذكاءً ودراية. يُروى عن تاريخه، أنه ترك بلاد فارس بحثاً عن مكوّن يُلبّي طموحه بعد أن كان مجوسيّاً، فتحوّل إلى نصراني، حيث انتقل إلى الشام والتقى بالرهبان والقساوسة هناك، ليكتشف بعد تعامله معهم ومعرفة نهجهم، بأن هذا ليس ما كان يصبو إليه أو يبحث عنه، فوجّهه أحد القساوسة بعد أن تعرّف إليه بشكل جيّد وأطلع على كوامنه الداخلية، ناحية يثرب (المدينة المنوّرة) حيث كان هناك اسم لامع، شغل الدنيا في عطاءاته، إلّا وهو النبيّ محمد بن عبداللّٰه، فالتقاه وأعتنق الإسلام على يده وبات من أشد رجاله إخلاصاً وحرصاً وحُباً. وهو الذي أشار إلى النبي بحفر خندق حول المدينة لحمايتها من قبائل قريش، ليبقى هناك إلى قرب مماته، ويُعتقد أنه دفن في مدينة المدائن بالقرب من بغداد

(سلمان باك). وهنا شخصية أخرى تركت أثراً في نفسي وفي ذاكرة كل من تمعّن في خصالها، إنه أبو ذر الغفاري، لشجاعته وزهده ومواقفه وخصاله الحميدة التي بسببها نُفي إلى صحراء (الربذة)، للتخلص منه ومن مواقفه المعارضة في تأليب الناس على مستوى عيش الحكّام في الإسراف والبذخ من بيت مال المسلمين، وقد مات في الربذة ودُفن فيها وما زال التاريخ يذكر نزاهته ومآثره.

منذ بداية طريقي في الإيمان بالشيوعية، كنت أجهل أركانها الفلسفية والاقتصادية والفكرية، لكنني تأثرت بها عاطفياً، واعتقدت بمُثلها الاجتماعية من خلال مناقب الشيوعيين ومآثرهم في قرية الهويدر وما يحملون من مُثل وأخلاق وشجاعة وطيبة، ومن هنا بدأتُ الخطوة الأولى باتجاه الركب المثالي، فكلما مرّت الأيّام وتوسّعت مداركي في القراءة والبحث، زاد إيماني بها إلى حدّ العشق. فقد أثبتت الأيّام والسنون أثرها في خدمة الإنسانية وبناء الشعوب وتحقيق العدالة الاجتماعية للبشرية، لم أكن يوماً نادماً على اعتناقها بل فخوراً بها. لكن الغصّة تكمن في ضبابية الرؤية عند الذين تبنّوها وشوّهوها لدواعٍ أنانية وذاتية، وهي تبقى بالنسبة لي، الأرقى في بناء الإنسان والمجتمع والتطّور.

رغم كل ظروفي القاسية وقساوة ظروف عائلتي، لم أهادن البعثيين يوماً، ولم يتمكنوا من استمالة مواقفي، بل كنت دائماً في مواجهة مستمرة معهم في عقر دارهم وفي عزّ شموخهم وغطرستهم، كان قسم منها ذا دوافع اجتماعية من عناد وتحدٍّ ضمن تقاليد العشيرة والقبيلة والبيئة والقرابة والروابط والعلاقات، فقد حاولوا بشتى الطرق أن يثنوني عن موقفي أو على الأقل يحيدوني عنه. لكنهم عجزوا عن ذلك، مما جعلهم ينتقمون مني ومن عائلتي بشتى الأساليب الرخيصة.

وما زلت إلى الآن حاملاً بريقها الماركسي في الدفاع عن كل مقدساتها

بأمانة وأخلاق بعيداً عن التزلف والارتزاق، ما زلت مدافعاً وحاملاً هم فقراء العراق وحرمة الوطن التي هي من أساسيات انتمائي، وفاضحاً ما تعرّض له العراق من هجمة إمبريالية فتكت بالبشر والحجر، منطلقاً من مفاهيمها الوطنية والفكرية، فاضحاً بذلك كل من تعاون وسهّل المهمّة لاحتلال العراق وتدميره ومن شارك في عمليته السياسية الطائفية.

فنشأتي في قرية الهويدر زادتني تمسكاً بقضاياي الوطنية والتزامي الاجتماعي، هذا ليس بمعزل عن تركيبة القرية وبيئتها والصراع السياسي الطبقي، بالرغم من أن أهلها في الغالب ينتمون إلى طائفة واحدة، كان الشيوعيون محط احترام وتقدير لدى أهالي القرية وتأثيرٍ طيب عندهم، لتاريخهم الأخلاقي والوطني والاجتماعي.

# المحيط السياسي والبيئة العائلية

في نشأتي الأولى، بدأت أتحسّس طبيعة الأحداث وأتلمّس تفكير الناس الذين كانوا بالأغلبية متعاطفين مع قضايا الشيوعيين ونضالاتهم، كانت أعداد البعثيين الفاعلين في بداية تأسيس حزبهم لا تتخطى عندنا عدد أصابع اليد الواحدة، وقد بقيَت كذلك لعدة سنوات، لكن أغلب الرجعيين والملاكين والإقطاعيين بدأوا بالالتفاف حولهم، وهذا أمر طبيعي، لكي يحموا مصالحهم التي تتقاطع مع مصالح الشيوعيين وجماهيرهم الكادحة وأهدافهم العادلة.

بعد سنوات، وبسبب الميكيافيلية التي انتهجها البعثيون كممارسة وعمل لتحقيق مآربهم (الغاية تبرر الوسيلة) تمكّنوا من الوصول إلى السلطة بحمّامات من الدم والغدر مهّدت طريقهم إليها. ففي أول مسيرتهم وضعوا يدهم بيد الإسلاميين الذين تتقاطع أفكارهم نهجاً وعلماً مع الشيوعيين، ليظهروا بذلك أن هناك اصطفافاً جديداً ومعادياً وحاقداً على الشيوعيين بجملة من المواجهات التضليلية لنهجهم الاجتماعي والأخلاقي، لكن ذلك لم يدم طويلاً، فما لبث أن انفرط تحالفهم وأصبحوا جهتين متعاديتين، انتهيتا بصراع دموي، ولينعكس هذا الصراع في القرية ليصبح موزّعاً على ثلاثة أقطاب متناحرة عقائدياً وفلسفياً وفكرياً، ولينتهي بإحكام سيطرة البعثيين على مقدرات البلد والإجهاز على كل خصومهم السياسيين، بل أيضاً على معارضيهم داخل حزبهم المخالفين لهم في وجهة النظر، ليتحولوا بذلك إلى حزب فاشي دموي عشائري، إلى حين الإطاحة بهم من قبل الأمريكان عند احتلالهم للعراق، ممّا جعل الكثيرين من الناس يهلّلون لهذه الإطاحة، غافلين عن نتائجها الوخيمة

على حياة البلد ومستقبله السياسي. وبإعادة النظر بما حصل، فقد تبين أن ذلك لم يكن قُصراً في الفهم الفكري والفلسفي، إنما هي أجندات وارتباطات لإطفاء بريق الشيوعية في العراق، وقد سحقوا بذلك تاريخاً وطنياً كبيراً من النضال، واستهدفوا معاني الشهداء ونبشوا قبورهم وهم في سلام.

كان الهويدريون يجسّدون عاشوراء وواقعة الطفّ واقعاً وألماً وتشبيهاً وتقليداً وموقفاً ونضالاً وتحدياً، ففي كل عام يتعاقدون مع قُرّاء حسينيين جُدد ومهمّين، تُروى حولهم الشائعات من قصص وحكايات، أغلبها من نسج الخيال. كان هناك القارئ الحسينيّ وطن النجفي والقارئ حمزة الصغير وقصيدته التي طالما رُدّدت: «يا حسين انهضت من أجل العدالة» والتي يتبعها بمقطع «والقيادة حررت هذا الوطن»، وكان القصد من الكلام قيادة حزب البعث. التي كانت تمسك بخناق الكلّ حتّى قرّاء المنابر الحسينية، وأذكر مثالاً مما جاء في هذه القصيدة:

يا حسين نهضت من أجل العدالة
وكل مناضل منّك تعلّم نضاله
علمت شعب العروبة على النضال
ودرّبت جيش العراق على القتال
يا حسين (البكر) بيكم اتّصاله
مؤمن وملتزم بهداف الرسالة
واحنه ملتزمين خط الاتصال
بيك وبمنهج الثورة بكل مجال
والقيادة حررت هذا الوطن
ولوطنّه اليوم حررنه شماله

حكم ذاتي صار له والجو صفا له

بجهد (صدام) انطفت نار الشمال

يستحقّ أكبر تعظيم وجلال

والقيادة حررت هذا الوطن

كان غضب السلطات الحكومية على أهالي القرية واضحاً، لأن الشيوعيين كان لهم الدور الأكبر في تصدّر هذه الملحمة وتجسيدها على أرض الواقع، انطلاقاً من معاني ثورة الحسين ضدّ الاستبداد والظلم، وليس في تمجيد البعث. وما زال الهويدريون يتميزون بتجسيد واقعها رغم دسّ أنوف الطائفيين والمتخلفين في تجييرها لأغراض تهدف إلى شقّ وحدة الصفّ الاجتماعي، وقد غاب عن بالهم أن حفصة بنت عمر بن الخطّاب هي إحدى زوجات النبي محمد، وأن أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب هي زوجة لعمر بن الخطاب، وأن الخليفة عثمان أبن عفان متزوج باثنتين من بنات عليّ هما أم كلثوم ورُقيّة، ولهذا سمي بذي النورين، هذه هي لوحة الإسلام الحقيقية ورسالته في الألفة والمحبة والوحدة والروح التي سعوا إلى تشويهها والانحراف عنها بمشروعهم الطائفي المقيت.

# بداية الوعي والانتماء السياسي

كان عشقنا للفكر والمبادئ ووفاؤنا للشهداء وإخلاصنا للتجربة، قد دفعنا نحن الشيوعيين إلى المواجهة وتحدّي مقاصل الموت، والتضحية بأجمل سنوات العمر غير مبالين بالأهل والمستقبل، وقد سبقنا في النضال المئات بل الآلاف من المناضلين الذين سلكوا نفس الطريق مُضحّين بالغالي والنفيس، وكان الرفاق والأصدقاء المتعاطفون مع الحزب، وحتى تتمكن من استمالتهم إلى جانبك وكسبهم في صفّك، يطالبونك من خلال أحاديثهم بموقف تجاه ممارسات السلطة على مستوى الشارع وأحاسيسه، من منطلق أن الشيوعيين قوة فعلية وعملية قادرة أن تنهض مجدداً بقيادة الجماهير لترك إرث نضالي وإنساني.

وأتذكّر أنه في إحدى المرّات اقترح علي الضابط غسان وهو من أهالي الكاظمية، ومن شيوعيي حقبة الجبهة مع البعث، ومن خلال لقاءاتي المتكررة معه، أن تُطبع طريق الشعب، جريدة الحزب المركزية، بآلاف النسخ وبمانشيت أحمر عريض، تدعو فيه الحزب الشيوعي إلى إسقاط البعث، وتوزيعها عبر البريد المركزي الرسمي وإرسال النسخ إلى الدوائر الحساسة والصحف والإذاعة والوزارات والسفارات العربية والأجنبية، من شمال العراق حتى جنوبه، وفي يوم واحد، لنشاهد ردود فعل السلطة وتعاطف الشارع معنا، فنحن بحاجة إلى فعل ثوري لنحثّ به جماهيرنا، ونقول لهم أننا ما زلنا هنا، نناضل من أجلكم، ومستمرون في الدفاع عن حقوق شعبنا في التطلع إلى العيش الكريم والحرية والديمقراطية وضد أساليب الدكتاتورية، بصدق وأمانة. فوجدتها فكرة مقبولة

ومؤثرة وأيّدته فيها، لكن آلية تنفيذها وسبل تحقيقها كانت مستحيلة في أكثر من جانب موضوعي وذاتي، فنقلت إليه هواجسي ورأيي في الأمر، فبادرني بسؤال وجيه: إذن كيف ستتمكنون من زعزعة النظام الجاثم على صدورنا؟ وكان للأسف محقّاً في سؤاله.

كان العراق بعد قرار تأميم النفط، يخطو اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً خطوات سريعة باتجاه التنمية والبناء من فيض عائدات النفط السريعة والمتراكمة. وبدأ العراقيون يشعرون بتلك التحولات في الحياة (البحبوحة الاقتصادية)، رواتب وتعيينات وتسهيلات بناء وأمور أخرى. فتراهم خلايا فاعلة في دوائرهم والشوارع وفي المنتديات المختلفة والنشاطات والسرور والفرح بادٍ على محياهم، راضين فرحين بحياتهم الجديدة في البناء والتعمير والسلم الاجتماعي وفرص الاستثمار، وتهافت الشباب على التقدم إلى المؤسسات الأمنية والعسكرية لكسب امتياز وسمعة ونفوذ. وقد أُطلقت طرفة على فتيات تلكم السنوات في اختيارهن لأزواجهن قولهن: «لو مُلازم لو ما لازم... لو مُقدّم لو لا يتقدم».

وكان في الجانب الآخر من حياة الناس اليومية أن كثرت في بغداد الملاهي والمسارح والنوادي الليلية وصارت الأصوات تصدح في سمائها لتكسر سكون الليل بأطوار السويحلي والبستة والمقام. تلك المظاهر انعكست سلباً على عملنا السياسي فبدأ الناس بالجدل معنا في الشوارع بقولهم: ماذا تريدون أن تقدموا للناس أكثر من هذا الموجود؟ متناسين موضوع حرية الرأي والاستبداد والقمع ومآسي السجون والمعتقلات، بل أستطاع البعث أن يغلب أو يبرز هذا التحول الاقتصادي في حياة الناس على الجانب السياسي من القمع وانتهاك الحريات.

كل ذلك كان وسيلة من البعثيين لتحويل هذا التحوّل الاقتصادي إلى أسلوب جديد من القمع السياسي وانتهاك الحريات. أنا شخصياً شعرت بتلك

البحبوحة في السنة الأولى من دخولي كلية الآداب في جامعة بغداد، ففي القسم الداخلي كانت كل مستلزمات الجامعة مجانية من قرطاسية وكتب وكل ما يلزم لكامل سنوات التعليم، بالإضافة إلى مبلغ مالي 30 دينار شهرياً لتغطية كل متطلباتي المعيشية والدراسية دون أي مقابل ولا شرط بإعادة المبلغ، بل هو بمثابة مُنحة لدعم مجالات التعليم والتربية.

أما الشأن السياسي، فقد كانت له جوانب مهمة وخفيّة، فتجربتنا ومسيرتنا وسنوات عمرنا لم تُمكّنّا من فهم النواحي المهمة فيها، ولذلك بقينا لسنوات طويلة أسرى مفاهيم وأسس بعيدة عن صلب قضايانا وجوهرها، مقيّدين بمسلمات بعيدة عن نبض الواقع اليومي، تلك القشور في السياسة والمفاهيم والروابط هي التي تتحكم بمصيرنا وإدارة مشاكلنا في العمل الحزبي اليومي الذي كان لا يرتقي إلى مستوى المواجهة مع عدوّنا الطبقي ولا يلبّي طموحات جماهيرنا.

باتت كل تحركاتنا وخلايانا الحزبية تحت مرماهم ومكشوفة لهم مما سهّل عليهم حملتهم الفاشية ضد تنظيماتنا في عموم العراق عام 1978، كان شعار المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي العراقي عام 1976 (نحو تعزيز وتعميق المسيرة الثورية وتوجّه العراق صوب الاشتراكية)، وطرحت مفاهيم وسياسات لا صلة لها بالواقع العراقي كقرار تبنّينا لطريق التطور اللارأسمالي مثالاً. فاستندنا في تحركاتنا وعملنا الحزبي والسياسي إلى تلك الأجندة، بل ووقعنا في أسرها بالرغم من عدم واقعيتها.

كانت بعض كتابات القيادي الشيوعي باقر إبراهيم (أبو خولة) وافتتاحيات جريدة (طريق الشعب) حول الجبهة وتاريخ الجبهات الوطنية في العالم ودورها في بناء الشعوب هي مفصل ومادة لمحاضرنا الحزبية في الاجتماعات الدورية، إنها إنجاز وطني وقومي إذ لا بدّ من التضحية وتقديم التنازلات على حساب المواقف والمبادئ، هذا وكان البعثيون يصرخون بوجوهنا بكل مناسبة

على أنهم هم قادة الجبهة وواضعو شروطها وبأنهم متى شعروا بعبء ثقلها سوف يزيحوننا من طريقهم.

كان القادة الشيوعيون يعلمون تماماً بجرائم حزب البعث عام 1963 والإطاحة بحكومة قاسم الوطنية وبيان رقم 13 للحاكم العسكري رشيد مصلح في إبادة الشيوعيين حيث استشهد حينها خيرة قادة الحزب في أقبية التعذيب والاعتقال، ولكن ضغط السوفييت كان الأقوى باتجاه دفعهم قسراً إلى التحالف مع حزب البعث.

وعن ذلك، روى القائد الشيوعي إبراهيم علاوي (نجم محمود) في كتابه (المقايضة، برلين ـ بغداد) الصادر عام 1991، حجم الضغط على الشيوعيين من جانب المركز الأحمر «الاتحاد السوفييتي»، وللأسف لم يؤخذ رأي القاعدة الحزبية في المفاصل الأساسية مثل عقد الجبهة أو الدخول إلى مجلس الحكم الانتقالي بعد الاحتلال كما حصل عام 2003، ومن ثم قبول الدستور الطائفي والترويج له وتأييد المعاهدة الأمريكية ـ العراقية، والمشاركة في صبغة العملية السياسية القائمة على المحاصصة، فضلاً عن التماهي مع مواقف الحركة الكردية وإقليم كردستان.

# ثانوية الانتصار

عام 1975، تخرّجتُ من متوسطة تدمر الهويدراوية، وتأبطت أوراقي متوجهاً إلى إعدادية الصناعة في مدينة بعقوبة في شارع (العنافصة) ومن ثم إعدادية التجارة وسط المدينة، وقتها لم يكن في داخلي أي اندفاع إلى تلك الدراسات المهنية، ولكني ذهبت إليها بناء على رغبة بعض الأصدقاء والرفاق، وكتقليد روتيني فقد حددّوا لنا مواعيد المقابلة، وكان سؤالهم الأول لي: هل أنت بعثي؟ فأجبتهم: أنا شيوعي. فأجابوني: لا يوجد شيوعيون في العراق بعد اليوم. الأمر ذاته حصل مع رفاقي الذين قدموا معي أوراقهم إلى تلك المدارس وهم سعد عبد عيسى، جمال رزوقي، جعفر، جليل أبو نور، وبالطبع لم تُقبل طلباتنا لأن شرط القبول الأساسي هو أن نكون منتمين إلى حزب البعث، وهكذا حُرمنا حينذاك من أبسط حقوق المواطنة في اختيار حقّ التعليم.

حصل الأمر كذلك مع الطالبات الشابات نجلة ووفاء وكفاح اللواتي أتين من مدينة بهرز «موسكو الصغرى» سابقاً والتي حولها البعثيون في زمن سطوتهم وقبضتهم الحديدية على مقدرات الوطن وعقول الناس إلى قلعة للبعث مارسوا فيها أساليبهم القمعية غير المبررة والتي تتعارض مع أسس التحالف الوطني. فتقدمنا وإيّاهن بعريضة إلى المقر العام للحزب الشيوعي في بغداد، شكونا فيها رفضنا في المعهد والتجاوزات اليومية المتكررة تجاه رفاق وأصدقاء الحزب الشيوعي العراقي. وكنا نعلم أن جميعها كانت تُرمى في سلة المهملات في مقر الحزب الذي كان مشلولاً حينها ومشغولاً بقضايا

أكبر وأوسع وفي اجتماعات لجان الجبهة ومستقبل العلاقات مع البعثيين التي لم تهدأ طيلة الخمسة سنوات التقريبية من عمرها الميمون، وبعد أن يئسنا من حلول رفاقنا، وعلى ضوء تلك العقلية في التفكير والوعي آنذاك، ذهبنا إلى مكتب مجلة (ألف باء) الأسبوعية في بغداد وطلبنا نشر خبر أنّ الشيوعيين يُحرَمون من القبول في الإعداديات المهنية بسبب انتمائهم السياسي، ولكن الخبر لم يلقَ نتيجة كالمعتاد.

بدأ الجو العام في العلاقات الجبهوية يغلي وبخاره يتمدّد في أجواء العراق الساخن، فذهبتُ يومها إلى ثانوية الانتصار في مدينة بعقوبة مدشّناً سنتها الأولى، هناك كثرت علاقاتي في بعقوبة، وتعرفت بشكل وثيق على شيوعييها ومثقفيها وكوّنت لنفسي شبكة من العلاقات واسعة الأطياف. كان مقهى الشبيبة على نهر (خريسان) ملتقانا اليومي وكان يعجّ بالنشاطات واللقاءات اليومية، فازداد نشاطي وتوسّعَت مداركي من خلال التجربة والقراءة والمتابعة، وكل ذلك من خلال النشاطات الثقافية والأدبية في اتحاد الأدباء والمكتبة المركزية التي كانت تستضيف باستمرار رموز الثقافة في العراق. ولا تزال في ذاكرتي واحدة من تلك الاستضافات وقد كانت للفنانة للراحلة زينب وزوجها لطيف صالح في قاعة المكتبة المركزية في وسط مدينة بعقوبة.

في وقت مبكر، بدأت ملاحقة البعثيين لي شخصياً تأخذ أوسع مداها حتى من خلال التطفل على أموري وعلاقاتي الشخصية التي باتت مصيرية بالنسبة إلى منظمة حزب البعث في الهويدر. فبدأوا بدفع عناصرهم بأساليب رخيصة، ومن خلال تلك الأساليب حاولوا الحدّ من نشاطي بعدة أساليب متدنية، لكنني واجهتها بمواقف متشدّدة زادت من عزيمتي تجاه سياستهم القذرة.

سبّبت ردود أفعالي القوية ومواقفي المتشددة، المشاكل إلى أهلي وهم في غنى عنها، وذلك من خلال ابتزازهم والضغط عليهم ومحاصرتهم بعمل والدي مورد رزقه الوحيد الذي يُعيله مع عائلته المكوّنة من 11 شخصاً. وذهب

بهم الأمر إلى أكثر من ذلك، فقد حاربوني عشائرياً واجتماعياً من خلال علاقة عاطفية بحجة أنّني أتعدى على شرفهم[1].

أنا شخصياً انتُزعت مرّتين من على مقاعد الدراسة في الإعدادية المركزية في مدينة بعقوبة، في المرة الأولى، استدعاني الأستاذ محمد عصفور إلى الإدارة وسلّمني إلى مفرزة الأمن في مديرية ديالى لأكون وجهاً لوجه أمام ضابط الأمن عبد الصمد السامرائي المسؤول عن مكافحة الشيوعية في المحافظة، والذي هدّدني في المرة الثانية بترحيلي إلى مديرية الأمن العامة في بغداد، إذا لم أتعاون معهم أو لم أوقّع على قرار 200، فيكون ذلك دليلاً لهم وفي قواميسهم على أنني ما زلت مرتبطاً بالتنظيم.

ولكن وصول خبر اعتقالي إلى والدتي عن طريق صديقي عباس گطمه الطالب معي في الإعدادية المركزية ومن أهالي الهويدر، وإيصالها الخبر إلى زوج أختي المرحوم كامل الكرخي (أبو هيثم) الذي تدخّل حالاً مستعيناً برجل الأمن من قريتنا (منير عبود)، بحكم علاقة الجيرة الطيبة مع المرحوم والدي (حسن السعدي)، حال دون ترحيلي إلى مديرية الأمن العامة في بغداد، فكلّ التهم الموجهة إلي ظنون وأباطيل، لأني أرفض أن أنتمي إلى الخط الوطني المهلهل الذي استحدثه البعثيون بعد فرط العلاقة الجبهوية معهم.

تلك الأساليب لم تؤثّر على نسيجنا الاجتماعي ولم تفكّ روابطنا الرفاقية نحن الشيوعيين، أي لم تفكّ عرى لحمتنا بل ازدادت أواصر علاقاتنا وقرّبتنا إلى بعضنا البعض، هذا الذي كان يخيفهم منا ويقلقهم، والذي ترجموه برُدود أفعالهم المشينة والمستهجنة ورصد تحركاتنا والتدخل في كل صغيرة وكبيرة، فمنا من بقي رفيقاً متماسكاً وثابتاً، ومنا من جلس متفرجاً، وبعضنا هوى

---

(1) في بداياتي مع تنظيمات الحزب في الهويدر ربطتني علاقة عاطفية مع شابة تنحدر من عائلة بعثية، وهذا ما سبب المشاكل لكلينا، والضغط لفكّ العلاقة.

إلى شباكهم ضمن جماعة الخطّ الوطني العائدين إلى تنظيمات الحزب بعد احتلال العراق عام 2003، فقد كنا نحمل وإياهم هموماً وقواسم مشتركة عن عراقنا وحزبنا، نلتقي ونتحدث ونتبادل وجهات النظر في السياسة والتطورات الحاصلة في حركة المجتمع العراقي وويلات الحزب وأساليب البعث، فكل الرفاق كان يحدوهم الأمل بالخلاص من البعث عبر قوى شعبنا الوطنية في استنهاض الهمم بمشروع وطني يُفضي إلى الخلاص من الدكتاتورية.

# بداية هجمة 1978

في خضم العمل الجبهوي مع البعثيين وتموّجاته العجيبة ومشاكله الكثيرة التي تركت أثراً كبيراً على نسيج العلاقات بين أهالي قرية الهويدر، كنا شباباً مدفوعين بهمة ونشاط وتحدٍّ، فشكلنا تكتلاً بآراء مختلفة وتحليلات أكثر التماساً للواقع المعاش آنذاك وقريباً إلى الرفض السياسي العام ومسيرته المتعرجة، فأنشأنا أنا ومحمود شيبون وعبد الأمير الطائي غرفة عمليات لتحليل الوضع السياسي وتطوراته، ممّا أزعج رفاقنا في التنظيم ونظرتهم إلينا التي لم تخلُ من الريبة والزعل والعتب. وكانت أغلب تحليلاتنا مبنية على معطيات الواقع اليومي المعاش وسلوكيات البعثيين في استهدافهم لنا في أبسط تفاصيل حياتنا الطبيعية، حتى أنهم كانوا يتابعون سهراتنا الليلية في السكر والعربدة وجلسات الشواء في بساتين القرية تحت أشجار البرتقال وقمريات العنب، مع عازف الصحبة الرفاقية المرحوم عصام زهدي، ليفسدوا علينا جلساتنا ومزاجنا.

فبقدر ما تركت الجبهة الوطنية من ويلات ومآسٍ على تجربتنا ومشروعنا السياسي، إلّا أننا لا ننكر فسحة التحرّك المسموح بها في كسب وجذب مئات الآلاف من الشبيبة والعمال والفلاحين والمثقفين إلى صفوف تنظيمات الحزب الشيوعي العراقي مما أرعب تنظيمات حزب البعث وأجهزته القمعية.

وعن تجربتنا وبعد مضي سنوات طويلة، سألت الرفيق باقر إبراهيم الموسوي (أبو خولة) أطال اللّٰه في عمره ومتّعه بالصحة: هل أنت نادمٌ على مشروع الجبهة مع البعثيين؟ أجابني: لم أندم عليها قطّ، بل بقيَت عالقة

وراسخة في ذاكرتي. كما وقال: لو كانت الجبهة موجودة في عراق معافى سياسياً، لما تعرّض شعبنا إلى تلك الحروب والويلات والحصار والطائفية والاحتلال، فضلاً عن أنها عززت من قوتنا جماهيرياً ووسّعت رقعة تنظيماتنا. وليس الخلاف على مبدأ التحالفات في تاريخ الشيوعيين، بل إن الخلل كان في قادة تلك التحالفات وموضوع الاستراتيجية وجدلية التكتيك.

كانت مجمل قرارات قيادة الحزب الشيوعي العراقي تُتّخذ بعيداً عن آراء القاعدة الحزبية والجماهيرية، ولهذا تعرّضنا إلى انتكاسات متلاحقة. في منتصف العام 1978 اتضحت نوايا البعثيين تجاهنا ولم تعُد مخفيّة على أحد. وأكدت الوقائع استنفاد الجبهة أغراضها، وكان القرار المتّخذ بمحاربة الشيوعيين قد أصبح واقعاً، حتى أنه تم تحديد العام 1980 موعداً للقضاء على أكبر حزب تاريخي ووطني وتصعيد حملات ملاحقة الشيوعيين وأصدقائهم ومؤازريهم من المثقفين العراقيين والقوى اليسارية. كانت ردود الفعل الأولى باردة من قبل قيادتنا وليست على مستوى الحدث التاريخي ودورنا نحن الشيوعيين.

كان الحديث المتداول والمتناقل بين رفاقنا أن هذه المرحلة والحملة من الجناح المتشدد (الصقور)[1] علينا مؤقتة وسوف تنتهي، وللأسف لم يحصل ذلك ولم تنتهِ تلك الأمور. كانت خطابات التحذير تُلقى على آذاننا يومياً في أوج الأزمة وهي أنه ما علينا سوى استيعاب ظروف المرحلة وصعوبة النضال والمواجهة، وبأن طريقنا محفوف بالمخاطر (حزب الشهداء) في الوقت الذي كانت فيه لجان الجبهة في أعلى مستوياتها تبحث مع حليفنا البعثي عن حلّ لهذه الإشكالات. ومع ذلك، ازدادت الحملة ضراوة وشراسة في ملاحقتنا وأكّدت سوء النية في إنهائنا وإنهاء دورنا في المجتمع والقضاء على تنظيماتنا من أقصى الشمال إلى أدنى الجنوب دون توقف، بل ازدادت حملاتهم همجية

(1) المقصود جناح الصقور بحزب البعث كما وصفه رفاقنا إبان الحملة علينا في نهايات 1978، على أنها كانت بمثابة سياسة تحذير حملة مؤقتة يقوم بها جناح الصقور بحزب البعث، وتنتهي.

وانتهاكاً صارخاً يوماً بعد يوم ملوحين بالمادة (200)[1] التي تحمل الشيوعيين مرغمين على التوقيع على شروطها المذلّة بترك العمل السياسي وجعله حكراً على تنظيمات البعث.

كانت تلك التواقيع تحمل في طياتها ثقلاً من روح الشك والبلبلة والضعف بين صفوفنا وخلق أزمة ثقة بيننا، وكانت انعكاساً لأساليب البعث في السياسات الملتوية وسيناريوهات الأجهزة الأمنية. عدد ليس بقليل من رفاقنا من كان وضعه يسمح بذلك، اختفى عن عيونهم بالابتعاد والعمل في محافظات عراقية أخرى بتغيير أسمائهم وأشكالهم، إن تطلب الأمر ذلك، ومنها تابعوا الأخبار اليومية؛ رفيق سقط ورفيق تعهد وآخر تعاون معهم. ومن سنحت له الفرصة فلت بنفسه بالسفر خارج العراق أو التحق بجبال كردستان مع الفصائل المسلحة، الذي بدأ الحزب الشيوعي يشكل منها نواة (الأنصار الشيوعيين).

بالعودة إلى بدء المفاوضات لتشكيل الجبهة، حسب ما رُوي لاحقاً عن الوفد المفاوض من البعثيين بقيادة عبد الخالق السامرائي وعبدالله سلّوم السامرائي ـ اللذين لقيا مصيريهما لاحقاً بالموت على يد رفاقهما بسيناريوهات مختلفة ـ كان المناخ إيجابياً وودّياً وكانا إيجابيّين في طروحاتهما ورؤاهما السياسية بما يتماشى مع متطلبات المرحلة الحرجة التي يمرّ بها العراق ومن أجل شراكة سياسية تصبّ في صالح الوطن والمواطن.

شكّل ذلك بداية قناعة لقادة الحزب الشيوعي، للمضيّ قُدماً بتوقيع ميثاق

---

(1) في 7/ 6/ 1978 أضيفت فقرة جديدة إلى المادة (200) بموجب القرار (111)، الصادر عن مجلس قيادة الثورة، مؤكدة حكم الإعدام على كل من كسب إلى أية جهة سياسية أو حزبية شخص له علاقة بحزب البعث (خلال أو بعد انتهاء علاقاته بالحزب). ويُقدّر عدد الذين أُجبروا على التوقيع على «حكم انفسهم» بموجب المادة 200 من الذين تعرضوا للاعتقال والاستجواب نحو ربع مليون مواطن خلال عام 1978 ـ 1980 من خلال تعهدات مكتوبة مسبقاً. عبد الحسين شعبان/ نوافذ وألغام: الوجه الآخر للسياسة. ص 243.

العمل الوطني يوم 16 تموز 1973 بعد أن سبقته سلسلة من الحوارات بدعم واضح من السوفييت الذين كانوا طرفاً مهماً في المفاوضات، وكانت رغبتهم عارمة في توقيع هذا الميثاق والشراكة. فبالإضافة إلى مصالحهم السياسية، كانت لهم حسابات اقتصادية كبيرة في العراق.

بعقوبة، المدينة الهادئة والمناضلة، مدينة البرتقال والرمان، مدينة الأدب والشعر، معقل المناضلين ومهد التآخي والسلم الاجتماعي، يُعاقبها البعثيون بارتكاب جريمتهم الشنعاء بقتل عدنان الحداد تحت التعذيب بعد أيام معدودة من اختطافه من شوارع بعقوبة، وهو صديق للشيوعيين، كأنهم أرادوا من خلال هذه الجريمة الحدّ من صمود الشيوعيين وترويعهم في المحافظة، ولزرع الخوف في نفوسهم تحسباً وقمعاً لتمردهم وعصيانهم.

في ظلّ هذه الظروف، تحوّل الشيوعيون إلى خلايا نحل من البحث والحركة وسط أمواج عاتية وغيوم سود قادمة، لإيجاد منافذ خلاص من براثن البعثيين. في هذه الحقبة، تمّ اعتقالي مرتين وخلال فترة وجيزة، فكانوا ينتشلونني من على مقاعد الدراسة الإعدادية المركزية في مدينة بعقوبة إلى مديرية أمن ديالى لأمثل وجهاً لوجه أمام الضابطين المجرمين صمد السامرائي وأحمد خلف القادمين من مدينتي سامراء وتكريت على خلفية اختصاصهم بمكافحة المدّ الشيوعي ومحاربة الأفكار التقدمية.

في معمعة تلك الظروف الصعبة من حياة الشيوعيين، بدأت تتوارد إلينا عبر عدّة وسائل وأطراف أحاديث بأن الشيوعيين بدأوا يؤسسون قواعدَ للأنصار لهم في الجبال، وهناك مجال لالتحاقات مستمرة وكبيرة عبر منافذ دول الجوار وبقايا تنظيمات الداخل رغم الملاحقات والاعتقالات، ممّا منحنا حينها جرعة مورفين جيّدة، وبالرغم من أنها جرعة مخدر، إلّا أنها كانت تشعرنا بالحياة والأمل والمستقبل، وكانت بمثابة إعادة اعتبار لهيبتنا وموقعنا وتاريخنا الوطني في النضال والمواقف والمعتركات.

# غياب قيادة الحزب ومحاولات لمّ الشتات

بين ليلة وضحاها أصبحت القيادة الشيوعية خارج حدود الوطن، وفي أول اجتماع حزبي موسّع لها في الخارج، وقفَت حائرة أمام مفترق طرق في اتخاذ شعار جديد لسياستها «إسقاط الدكتاتورية أو إنهاؤها». في الوقت الذي كان اللغط والهمس في المدن العراقية وبين الرفاق بأن ما حصل كان ضمن خطة للبعثيين في استهداف القاعدة الحزبية عبر فسح المجال لها بالمغادرة عبر البر والبحر والجبل. وهذا ما تبيّن لاحقاً، وهو بهدف عزل القيادة عن القاعدة الحزبية وقطع الجسور بينها وخلق بلبلة بين الطرفين، الأمر الذي أكّده لي أحد القادة الشيوعيين باقر إبراهيم الموسوي وهو آخر قيادي شيوعي ترك العاصمة بغداد رغم شدّة الظروف والخطر على مصيره.

ومما رواه لي أنه ترك بغداد وقيادة التنظيم بقرار حزبي استلمه من قيادة الحزب بعد أن استقرّت خارج العراق. وقد استفاد الرفيق من معاونة كل من الشهيدين صفاء الحافظ وصباح الدرة اللذين اعتقلا وأطلق سراحهما، لكنهما اعتقلا مرّة أخرى وغُيّبا في العام 1980 إثر إلقاء القبض على المراسل الحزبي في طريبيل وكانت بعض الشكوك قد طالته حتى قبل توجهه إلى العراق من بيروت، وظلّ مصيرهما مجهولاً إلى الآن ولم يجلُ على الرغم من سقوط نظام البعث، ولم يتمّ التحقيق الحزبي بتلك الحادثة الأليمة والمريبة.

شكّلنا أنا وثامر إبراهيم البغدادي خليّة حزبيّة سرّية أسميناها (ديالى) بقيادة فاضل هاشم شيخ داود بعد الضربة الماحقة التي وجّهت إلى تنظيمات الحزب

وكيانه، بدأت تصلنا المطبوعات الحزبية مكتوبة على ورق أصفر خفيف ومخطوطة باليد بعناية، راهنّا على عملنا الجديد مستندين إلى تلك المعلومات والمعطيات التي كنا نمرّرها بطريقة وبأخرى إلى رفاقنا في القرية من خلال لقاءاتنا اليومية في مقاهي قرية الهويدر ونوصلها إليهم عبر الأحاديث لنرى ردّة فعلهم التي كانت تتراوح بين مندهش وفضولي لمعرفة المزيد والتأكد من مصداقية الخبر، وبين غير مبالٍ بتلك الأخبار.

كنا على استعداد للالتحاق برفاقنا في الجبل بناءً على توصية مسؤول خليتنا فاضل، ننتظر إشارته وسعيه لترتيب الأمر لنا أنا وثامر البغدادي الذي كانت علاقتي به لا تلفت نظر البعثيين الراصدة لنا بحكم لقاءاتنا اليومية.

بدأت نذُر الحرب تلوح في الأفق، وإيقاعات طبولها تعزف نشيد الموت والخراب، تلك الحرب التي لا ناقة لأحد فيها ولا جمل. استُدعي فاضل إلى جبهات القتال ليعود منها بعد أيام ملفوفاً بالعلم العراقي. بينما ثامر يكمل في سنتها إعدادية الزراعة في مدينة الخالص ويلتحق إلى جبهات القتال في صنف الدروع، ويبقى عسكرياً إلى أن يخوض الدكتاتور حربه الثانية بدخول الكويت فيستشهد في الانسحاب العراقي في منطقة المطلاع.

مات في هذه الواقعة ثامر البغدادي وكريم ندوة، والاثنان من العوائل المحسوبة على ملاكات الشيوعيين في قرية الهويدر، بهذه الكوميديا السوداء رُسمت حياتنا الجديدة المتبعثرة؛ فرّقتنا الحرب وأبعدتنا السياسة، أما الرفاق الباقون، فقسم منهم سيقَ إلى الحرب، وقسم آخر اختفى في أزقة وأحياء بعيدة. أما أنا فقد ذهبت إلى بغداد للالتحاق بكلية الآداب، حيث فتحت أمامي آفاقاً واسعة ساعدتني في تحديد خياراتي المستقبلية، بالرغم من الخوف الذي بقي يلازمني حول مصيرنا، وتساؤلي الدائم عن تمكّن البعثيين وفي فترة قياسية، في السياسة، من القضاء على أقدم تنظيمات حزب سياسي عرفه العراقيون تاريخياً ووطنياً وجعله مقتصراً على بعض التنظيمات هنا وهناك في كل العراق، ساعين

عبر الزمن من أجل لمّ شمل الرفاق وإحياء هذا التنظيم العظيم، منتشرين وتائهين على مساحات العراق الواسعة وبين أزقة بغداد وفنادقها الفقيرة، متغلغلين بين المصريين ليخفوا آثارهم، بحثاً على من يدلّهم إلى طريقهم المفقود (حضن الحزب). كانت مرحلة صعبة محفوفة بالمخاطر، ورغم مرور السنين على تلك الحقبة، غير أنه لم يتمّ تسليط الضوء عليها وإظهار حقيقتها بالكامل.

في السنة الأولى آداب جامعة بغداد عام 1980، تفتّحت مخيلتي وفُتحت أمامي آفاق جديدة ورحبة من خلال أجواء الحياة الجامعية ومعرفتي لأصدقاء وزملاء جدد صادفتهم من خلال النشاطات واللقاءات اليومية والتي لا تخلو من الحديث عن السياسة وتطورات الأحداث في البلد، مما سهّل عليّ التعرّف على أفكار وآراء الزملاء في الجامعة وميولهم وانتماءاتهم السياسية وتطلعاتهم. في الدرس الأول من مادة (الثقافة القومية) طلب الأستاذ من الطلبة غير البعثيين ترك الدرس والخروج من القاعة، فمن خمسين طالباً وطالبة تقريباً، تركنا القاعة أنا ومحمود صالح من أهالي الأعظمية وخدر هفن من مدينة (شيخان) حيث كنّا وحدنا غير بعثيين من بين جميع الطلبة، وقفنا في ممرات القسم في الطابق الثاني، يتوجس بعضنا بعضاً تخوّفاً وتجنباً من ألاعيب الأجهزة الأمنية، فقد يكون ما حصل فخّاً لنا، والذي حدث في الأيّام اللاحقة أكّد ذلك، فقد أصبحنا الثلاثة شيوعيين مغضوباً عليهم في مناطق سكنانا.

فقد تعرّض محمود صالح، بعد سنوات، إلى السجن لمدة عشرين عاماً في معتقلات البعث، وكنت أنا خلف هذه القضية التي بقيت لسنوات ترهقني وتشعرني بالذنب، مثلما حدث مع أستاذي الكبير جليل كمال الدين (أبو فرقد) أستاذ الأدب المقارن في جامعة بغداد، فالذي حدث، وإنصافاً للتاريخ، أنه بعد سنوات من التحاقي بمواقع الثوار الشيوعيين في الجبل ناجياً بأعجوبة من محاولتهم إلقاء القبض عليّ بقرار صادر عن الجهات العليا، وفي سهل شهرزور شتاء العام 1984 وضمن خطة عمل التنظيم في التوسّع داخل مدن العراق وبين

الناس ومن خلال إمداد شبكات التنظيم بالاعتماد على رفاقنا القدامى في الداخل؛ سلّمتُ رسالة إلى الشهيد وحيد الجليلي (أبو غسان) في بغداد عن طريق الشهيد محمد الخضري (أبو جلال) التابع لمناطق محافظة السليمانية، بعد لقاءات متواصلة ويومية بيننا لأننا كنا ضمن مفرزة واحدة تابعة للتنظيم المدني، فقد جلستُ لمرات عديدة مع الشهيد أبو جلال نصوغ ونكتب رسائل حزبية مقتضبة، مفهومة لمستلمها وصعبة في حل لغزها إذا ما وقعت بيد السلطات الحكومية.

كتبت ثلاث رسائل معنونة إلى التالية أسماؤهم، أدعو فيها إلى التعاون مع حاملها ومذيلة ببعض الشواهد للتأكيد بأنني ما زلتُ حيّاً ومرسلة منّي شخصياً.

الرسالة الأولى إلى الأستاذ الكبير جليل كمال الدين سُلّمت له في بيته في بغداد، شارع 14 رمضان منطقة المنصور، وحسب ما نُقل إليّ من التنظيم أنه تردّد في استلامها بادئ الأمر ولكنه ما لبث أن قبلها وتواصلت اللقاءات بينهما. والرسالة الثانية إلى محمود صالح الذي كان طالباً في الآداب ـ جامعة بغداد، وأبدى تعاونه مع التنظيم. أما الرسالة الثالثة فكانت إلى الدكتور عزيز إسماعيل طاهر، لكنها لم تصل إليه حيث كان قد التحق مع زميل له، هو الدكتور فلاح حافظ، مع الثوار في الجبل عبر قاطع بهدينان.

في يوم 1 كانون الثاني العام 1986 أُعلن في بغداد من قبل الأجهزة الأمنية عن ساعة الصفر في الهجوم على أوكار ومقرات رفاقنا في العراق وفي المناطق المحددة لهم على ضوء المعلومات والاعترافات التي لديهم، وما جرى في تلك الواقعة، كان ضحيته خيرة الشيوعيين العراقيين وما زالت تداعياتها المتضاربة والمخفيّ منها جانباً مهمّاً ملتبساً إلى يومنا هذا، وقد شملت هذه الاعترافات ضمن من وُجّهت إليهم الرسائل كلّاً من الأستاذ جليل كمال الدين ومحمود صالح اللذين تعرّضا إلى الاعتقال والتعذيب والحكم على كل منهما بالسجن عشرين عاماً بقرار من محكمة الثورة سيئة الصيت.

كنت وما زلت أشعر بالفخر والامتنان بأنني تتلمذت في الآداب بجامعة بغداد

على يد البروفيسور ضياء نافع، الراحل الدكتور جليل كمال الدين، الشهيدة الدكتورة حياة شرارة والأستاذ محمد يونس الساعدي. وبحكم علاقتنا في الحرم الجامعي، تطوّرت اهتماماتنا من البحث في هموم الدراسة إلى صلب العمل السياسي.

بدأتُ أستلم أدبيات الحزب وجريدته المركزية (طريق الشعب) ونشاطاته وأُوصلها إلى الأستاذ جليل كمال الدين (أبو فرقد)، والتي غالباً ما كنت أسلّمها له في أروقة الآداب وأحياناً في مكتبة الكلية. أما في العطل الصيفية، فقد كنت أذهب إلى منزله في شارع 14رمضان في المنصور مع صديقنا المشترك الزميل محمد عبد الكريم الزبيدي. لكن الذي حدث أنه، بعد تعرضي للاعتقال ووصولي إلى كردستان وتوجهات التنظيم في تعزيز تنظيمات الداخل، كنت مرشحاً للالتحاق بالتنظيم في بغداد، وبسبب المعارك مع الحليف الصديق والعدو الاتحاد الوطني الكردستاني (أوك)، تأخر نزولي إلى بغداد، وبتوجيه من التنظيم، كتبت عدة رسائل في سهل شهرزور بالتعاون مع الرفيق أبو جلال حيث جلسنا في الزوايا والتلال وبيوت الناس القرويين لصياغة تلك الرسائل التي استلمها الشهيد أبو جلال قبل نزوله بيومين إلى بغداد.

فاتني أن أذكر أن هنالك رسالة رابعة، كانت موجّهة إلى أستاذتي الراحلة حياة شرارة ولكن لم تصل إليها، كما بدا لي، نتيجة تطوّر الأحداث. كنت في اطلاع معها على أدبيات الحزب وأخباره رغم موقفها المعارض لسياستنا ومواقفنا، وهذا ليس بجديد، فمنذ مطلع الستينيات حدّدَت موقفها من عمل الحزب وطريقة التنظيم، وهذا ما جاء على لسان أختها بلقيس في سرد روايتها بعد مماتها (إذا الأيّام أغسقت) التي تقول فيها إنه في عام 1961عندما كانت طالبة في جامعة موسكو، ملّت من بيروقراطية أساليب التنظيم ولغة التنكيل والتهميش بحق الرفاق المعارضين، لهذا تركت رسالتها الأخيرة إلى الحزب الشيوعي وكانت بمثابة طلاق تام مع التنظيم وإلى الأبد.

حدث أنني غبت مرة عن الجامعة أيام الدراسة، وعندما صادفتني في ممّر

القسم سألتني: «أنت وينك؟»، فأجبتها: «كنت في الجبل واحتمال كبير أن ألتحق مع الثوار»، فقالت لي: «يعني راح تشرد مثل ربعك الذين سبقوك؟». في النهاية، فرضت ظروف البلد الصعبة عليها الانتحار مع إحدى بناتها عام 1997 لتسجل موقفاً رافضاً وشجاعاً عن تدهور حالة البلد على كافة الأصعدة.

كنت مرشحاً ضمن خطة التنظيم ومهيأ للالتحاق في تنظيمات الداخل بعدما استلمت رسالة شفهية من الدكتور عزيز الشيباني (جهاد) يؤكد لي فيها بأنه جرى تأمين سكن آمنٍ لي في بغداد، لكنني تأخرت بالالتحاق بتنظيمات بغداد بسبب مشاكلنا مع الاتحاد الوطني الكردستاني (أوك) وذهاب الأخير إلى حضن البعث بتدشين مفاوضات جديدة عربونها مجزرة (بشتاشان) 1 أيار 1983.

في الآداب ـ بغداد، نسجتُ لي شبكة علاقات أدّت إلى ارتباط حزبي جديد، كان فعالاً جداً في الحركة والتنظيم وهو منظمة الصدى. صداها سبق اسمها في أروقة الكليات في بغداد والمحافظات. لم أخفِ سرّاً، حينها شعرت بالقوة والرضا، ومن هنا بدأ المشوار للقضاء على البعث وإرهابه وحروبه، ففي فترة سريعة جداً، وفي ذلك الوضع السياسي الخطير، وسّعنا تنظيماتنا ونشاطنا وشبكة اتصالاتنا مع رفاق كانت قد تقطّعت بهم السبل.

وفي فترة قصيرة وتُعدّ قياسية من العمل التنظيمي السري، تمكّنتُ من أن أصبح عضو ارتباط بين محلية كركوك وبغداد، وكان حلقة الوصل بيننا آشتي شيخ عطا ابن مدير بلدية كفري وابن أخ مكرم الطالباني، الوزير الشيوعي في فترة الجبهة مع البعثيين ووسيط المفاوضات بين البعث وقوى المعارضة السياسية طيلة عمل المعارضة في المهجر والجبل، وعن ذلك يقول الوزير الشيوعي مكرم الطالباني إن جولته المكوكية الأخيرة إلى العاصمة التشيكية (براغ) عقب انتهاء الحرب العراقية ـ الإيرانية ومناقشة قيادة البعث موضوع البدء بمرحلة جديدة من التحولات في التعددية السياسية وحرية الصحافة وقانون الأحزاب، وكادت هذه الحوارات أن تؤدي إلى اتفاقٍ عن إعلان

مبادرة سياسية بين الحزب الشيوعي العراقي والاتحاد الوطني الكردستاني (أوك) والحزب الديمقراطي الكردستاني (حدك)، الأطراف الرئيسية آنذاك في المعارضة، من جهة، وبين حزب البعث من جهة أخرى، على الرغم من أن الأخير لم يُبدِ خطوة بهذا الاتجاه مقابل إبداء نية إيجابية لدى الأطراف الأخرى. وقد بادر الوزير السابق مكرم الطالباني في تحرّكه الأخير في بغداد وقبل أن يغادر إلى العاصمة براغ، بطلب لقاء الرئيس صدام حسين وذهب إلى القصر الجمهوري لهذه الغاية، كان في استقباله علي حسن المجيد فاعتذر عن الحديث معه طالباً اللقاء بصدام حسين بالذات. ويذكر أنه حين التقى الرئيس بادره الأخير بدعابة مردّها أنه يلتقي بجميع الأطراف إلّا مام جلال الطالباني، فضحك معلّقاً: على أقل تقدير أنه قريبي من عشيرة الطالبانيين.

ولم تُفضِ تلك الحوارات غير المباشرة إلى شيء إيجابي يذكر، خصوصاً وأن صراعات عديدة بين أطرافها بما فيها قيادة الحزب الشيوعي العراقي حول جوهر الحوار ونتائجه وتوقيته إضافة إلى تدخلات دول الجوار المعنية بنشاطنا. هُيئ لعقد الحوار مع مكرم الطالباني، الذي اجتمع مع عامر عبدالله ونوري عبد الرزاق نيابة عن المعارضة الحزبية وحركة المنبر الشيوعي، وكان الأخيران قد كتبا رسالة اجتماع إلى عزيز محمد بعد اللقاء به وطلبا تهيئة ظروف مناسبة للحوار وتصفية مظاهر التفكك التي يعيشها الحزب والتوجه لعقد كونفرس يضمّ جميع الأطراف لمناقشة الظروف الجديدة بعد انتهاء الحرب والتوجه على نحو موحّد لمواجهة الأزمة.

جرت المفاوضات في العاصمة براغ عام 1989 بجهود القائد الشيوعي آرا خاجادور وبتكليف رسمي من الحزب واتفاق مع أغلب قوى المعارضة، من ضمنهم الحزبان الكرديان الرئيسان، وقد أبدت الأطراف المجتمعة استعدادها «المشروط» للحوار وجهّزت نشرة شيوعية تضمّنت مواصفات الحوار ونتائجه، لكن بعض العناصر المهيمنة على الحزب في دمشق والمتحكمة

بأمور القيادة وفي مقدمتهم فخري كريم المدعوم من عزيز محمد رفضوا ذلك جملة وتفصيلاً، وحوّلوا الوجهة إلى الضدّ منها، كما أن حزب البعث هو الآخر لم يُبدِ استعداداً، والغريب في الأمر أن عزيز محمد وكريم أحمد كانا من أشدّ الداعين إلى الحوار، فكيف تغيّر موقفهما كلياً في سوريا من هذا الأمر، إضافة إلى عبد الرزاق الصافي الذي حمل المنشور لغرض طبعه وتوزيعه؟ وقد أطلق آرا خاجادور على هذا المنشور الذي لم ير النور «البيان المحبوس».

بدأ نشاطي الحزبي والسياسي في التوسع والانتشار في العاصمة بغداد بحكم وضعي الشخصي والأمني غير المكشوف، مما سهّل علي الحركة ووفّر لي متسعاً من الحرية والنشاط في جوّ جامعي جديد مع شبكة من العلاقات والمعارف.

أما في مدينة ديالى فقد واجهتُ صعوبات ومعوقات عرقلت اتصالاتي ونشاطاتي، فكل تحركاتي وعلاقاتي مرصودة، وكل خطواتي محسوبة، لذلك كان عملنا يلاقي صعوبات جديّة وخطيرة، حتى أنهم كانوا يتطفّلون على لقاءاتنا وأمسياتنا الاجتماعية بشتى الطرق والمبررات ويفسدونها.

في يوم 31 آذار عام 1981، وفي أمسية من إحدى الأمسيات التي كنا نلتقي بها في بساتين الهويدر كما هو المعتاد ليلياً كوننا أبناء قرية وجيرة ورفاق، اتفقنا أنا وذاري والراحل عصام والراحل فاضل عزيز والراحل ماجد صبري ومحمود جابر وحافظ إبراهيم وأخوه صبحي وآخرون، أن نلتقي، ولم يتبادر إلى ذهننا يومها بأننا محاصرون وحتى ملاحقون ومراقبون، فقد كان البعثيون يتعقبون خطواتنا من لحظة توافدنا إلى حيث سنلتقي ظناً منهم بأننا نحتفل بذكرى تأسيس الحزب الشيوعي العراقي وكانوا في حالة استنفار قصوى.

في منتصف الليل، وأثناء عودتنا إلى منازلنا وسط البساتين، استوقفتنا مجموعة من البعثيين شاهرين أسلحتهم في وجهنا وطالبونا برمي أسلحتنا على الأرض وإلا فسوف يطلقون علينا النار، فصاح بهم الراحل عصام، وهو إنسان ضرير قائلاً: نحن لا نحمل مخيطاً ـ والمخيط عبارة عن إبرة كبيرة تستخدم

في خياطة «الجلال» الذي يوضع على ظهر الحمار لتحمّل ثقل حمله وحماية ظهره ـ فكيف نحمل سلاحاً؟ وفي اليوم الثاني، كان ما حدث سيرة يتناولها الهويدراويون بسخرية وتهكم.

في الهويدر ـ ديالى، فاتحتُ بعملي الجديد من هم محطّ ثقة بالنسبة لي أولاً، وممّن كانوا بعيدين عن أعين الرقيب ومتابعة السلطات وليس لهم أي استدعاء أمني من قبل، كان رفيقي ذاري كاظم هو الأقرب إلى نفسي، نلتقي يومياً ونتحدث بشتى الأمور، ولكنه كان مراقباً من قبل السلطات ومعرّضاً للاعتقال في أية لحظة، وهذا ما جرى فعلاً عدة مرات، والحالة مشابهة مع صديقي الراحل فاضل عزيز، الذي اغتيل بعد شهور من الاحتلال أمام باب بيته جانب مستشفى الرحمة في منطقة الكاطون تاركاً خلفه زوجة وأربع بنات.

كنا أنا والصديق الودود دمث الأخلاق عدنان الأنصاري مدير مصرف الرافدين في مدينة بعقوبة والدكتور عزيز الشيباني الطالب في طبيّة الموصل، على تواصل مستمر، حيث نجتمع للتشاور في بعض الخطوات المهمة التي هي على جدول خطواتنا اللاحقة بنيّة تنفيذها والتحرك عليها. في السنة الثانية من الدراسة الجامعية، بينما كنت منغمساً في امتحانات نهاية السنة، جاءني ابن قريتي عبد الزهرة عباس تيتو إلى الجامعة في بغداد، وكان وضعه ميؤوساً منه، فهو هارب من الخدمة العسكرية، وقد قرر الالتحاق بالثوار في الجبل على خلفية أحاديث لنا سابقة على تخوت مقاهي قرية الهويدر وبساتينها تناولنا بها تجربتنا وانطلاقتها وآفاقها.

لم يكن أمامي متسع من الوقت للتحرّك السريع مما جعلني أتحدث مع الشهيد عمر أحمد إسماعيل (شيروان) وتكليفه بالأمر خصوصاً وأنه لم يبق من العام الدراسي سوى يومين نسدل فيهما الستارة على عام من الجدّ التعليمي، فما كان من الشهيد شيروان سوى اصطحابه في رحلة شاقة عبر مدن وجبال كردستان للوصول به بسلام إلى مواقع الثوار في الجبل.

# صدّام والحرب

أخذت التطورات السياسية في العراق منحىً آخر جهنمياً على كافة المستويات والأصعدة حين استلم صدام دفة الحكم، من قتل رفاقه في مسرحية فاشلة على قاعة الخلد الشهيرة، مروراً بانتصار الثورة الإيرانية وبوادر الحرب التي تلوح في الأفق القريب، إلى تصفية الأحزاب السياسية في الداخل، وصولاً إلى ترسبات القضية الكردية التي كانت لا تزال عالقة رغم صدور بيان 11 آذار عام 1970 التاريخي في حل المشكلة الكردية مع الحكومة المركزية.

كانت ولادة لدكتاتورية جديدة ووقحة في العراق لا تعير اهتماماً للإنسان ولا للمثل ولا التقاليد. دكتاتورية على الطريقة الميكافيلية، قسم منا تقاذفته رياح الأزمة عندما تدهورت الأوضاع وهوى بعيداً عنّا ولكن ما لبث أن عاد مرة أخرى بعد احتلال العراق ولكن بحلّة جديدة وتحت لواء العمامة السوداء والمحبس ينظّر لمفهوم الإسلام السياسي المتخلّف ولتجربته الأليمة في المشهد السياسي العراقي، كنا نجترع آلامنا بغصّةٍ بانتظار الفرصة للانقضاض على البعث وأزلامه مؤمنين بقدرات شعبنا وتجاربه التاريخية والثورية، لكن احتلال أرض العراق الوطنية، سرق كل تلك الأحلام والتضحيات ودماء الشهداء وتاريخ نضال طويل، وسوف يلعن التاريخ من سلب تلك الأحلام ومن تعاون مع المحتل بعملية سياسية فاشلة ومهزومة نصبّها حاكم العراق المدني المحتل بول بريمر.

ظلّت لقاءاتنا يومية مفعمة بالنقاشات والحلول والبدائل وتبادل الأخبار

والحديث عن انكساراتنا وسقوط هيبتنا في المجتمع وما يتمّ تناقله من أحاديث عن موقفنا المتخاذل في مواجهة البعثيين والحدّ من دمويتهم وردّ الاعتبار لفكرنا الخلاق.

كنت قد تقدّمت حينها بأوراقي للقبول الجامعي المركزي بانتظار النتائج، بلّغنا مسؤولنا الحزبي المناضل فاضل الشيخ داود، أنا والشهيد ثامر البغدادي، (قضى بالقصف الأمريكي الغادر أثناء الانسحاب العشوائي لقطعات الجيش العراقي من الكويت في منطقة (المطلاع)). أقول بلّغنا بأننا سنلتحق بفصائل الأنصار في الجبل لحاجة الحزب لنا بعد أول اجتماع للقيادة في سوريا بعد الهجرة وتبنّيها في سياستها الجديدة إنهاء الدكتاتورية بدلاً من إسقاطها.

كان التوتر والاتهامات المتبادلة وتصاعد الخلاف بين الجارتين قد سرّع بنشوب الحرب، وكانت الحياة المدنية قد تعسكرت بالكامل، فسيق مسؤولنا الحزبي فاضل عنوة إلى الحرب ومات هناك، وكان قد سبقه إلى الموت أخوه علي. في تلك الأثناء أُعلن القبول المركزي، وكانت حصتي القبول في كلية الآداب بجامعة بغداد، لكن تماشياً مع عسكرة الحياة ونشوب الحرب، أعلن في عموم العراق توقف الدراسة إلى إشعار آخر، لقد سخّر النظام كل شيء للحرب، وجّه إعلامه وخطاباته السياسية نحو التاريخ الموغل في القدم إلى العلاقة بين الفرس والعرب وعاد تاريخياً إلى نبش حلبة الصراع العربي ـ الفارسي ومعركة القادسية، وعمر بن الخطاب ومواجهته للزحف الفارسي في صحراء الرمادي وأطماع الفرس بأرض العراق، مصطلحات جديدة وأسماء تجتاح وسائل الإعلام وتسويقها من خلال الأغاني والأهازيج من القعقاع إلى نبوخذ نصر إلى سعد ابن أبي وقاص جدّنا التاريخي صاحب المآثر في الحروب والمعارك.

وبالعودة إلى عام 1979، بعدما انتصرت الثورة الإيرانية وأزيح نظام الشاه واعتلى روح اللّه الخميني دفة الحكم بطابع إسلامي، بعث له الرئيس

العراقي أحمد حسن البكر برقية تهنئة بانتصار الثورة واستلام الحكم، فردّ عليه الإمام الخميني برسالة يقول في ختامها «السلام على من اتّبع الهدى»، وهي العبارة التي فُسِّرت حينها على أنها تهديد مبطن إلى نظام الحكم في العراق، وقد أعقبها خطاب سياسي إيراني غير مطمئن أقلق دول الجوار لتلويحه بشعار (تصدير الثورة) الذي تبنّاه ساسة الحكم الإيراني الجديد بآلة الحرب العسكرية وثقافتها الهستيرية، حيث خرّبوا ذائقة المشاهد العراقي عبر شاشة التلفاز في أحيان كثيرة عبر بيانات الحرب، كما وبدأت المعارك والهجمات المباغتة وأعداد الموتى على مدار اليوم. خطابات وبيانات وقصص وأغاني تغنى بها الناس على مضض لتكرارها فأحبوها.

وكنا قد سمعنا هذا نحن أيضاً حين كنّا في الجبل، في تجربة الكفاح المسلح وفي المسيرات الطويلة في الجبال ووديانها، وعبر راديو صغير نحمله في رقابنا كان يثير ذائقتنا الفنية ببعض أغاني الحرب إلى جنب برنامج (حذارِ من اليأس) الذي كان يبث عبر أثير إذاعة صوت الجماهير والذي كان يعدّه د. قاسم حسين صالح رئيس الجمعية النفسية العراقية، بينما تهافت شعراء الأغنية في تسطير الكلمات لتمجيد الحرب والقادسية والقائد والوطن، وكتب الشاعر الشيوعي السابق كاظم الركابي، صاحب كلمات أغنية (يا نجمة) الشهيرة، قصيدة أخرى للحرب تغنى بها العراقيون رغم ويلاتها، وجاء في مطلعها (إحنه مشينه للحرب، عاشق يدافع من أجل محبوبته. وهذا العراقي من يحب يفنى ولا عايل يمس محبوبته). و«هوسة» المستشار الإعلامي للرئيس صدام حسين عبد الجبار محسن اللامي (يا حوم أتبع لو جرينه)، والحوم تعني الطيور الجارحة التي تتتبّع جيف القتلى في المعارك، وهي أهزوجة منقولة من التاريخ العراقي القديم على لسان رجالات ثورة العشرين الوطنية ضد الاستعمار البريطاني، أطلقها شيخ عشيرة العوابد مرزوك العواد الذي يُعتبر من قادتها في منطقة الفرات

الأوسط. وتزاحم الملحنون والمغنون والمنافقون، وأيضاً المحبون للوطن، في الدفاع عن أرضه لكسب ودّ القائد في العطايا والأوسمة والنياشين.

مع تصاعد طبول الحرب بطريقة مخيفة آنذاك، تسابق الملحنون لكتابة نصوص أغان (وطنية)، وكما يروي الملحن جعفر الخفاف بأنه لحّن أغنيته، في ذروة الهجوم الإيراني على أرض العراق الوطنية وهو في طريقه من منزله في منطقة السيدية إلى دار الإذاعة في الصالحية، التي جاء فيها (لا يهل العمارة، هاي أجمل بشارة.. اليوم كلنه جنود عن الحدود نذود.. وعالنصر عبّارة).

في يوميات الهجوم الإيراني على مدينة العمارة العراقية وتزامناً مع تلك الهواجس والمخاوف والموت، شنّ البعثيون حملة اعتقالات جديدة عشوائية وهستيرية بحقّ رفاق شيوعيين من مدينة بعقوبة، منهم الشاعر خليل المعاضيدي (الذي يُلقّبه البعض بلوركا العراق) ومصطفى الديو والحاج كامل وآخرون، من الذين غُيبوا في دهاليز البعث السرية وقضوا قتلاً خوفاً من أن يقوموا بتعبئة الموقف الشعبي ضدّ الحرب باعتبارها حرباً غير وطنية ومخالفة لإرادة الشعبين العراقي والإيراني. كانت دول الخليج العربي تدعم الحرب مادياً ولوجستياً خوفاً من خطر تصدير الثورة وولاية الفقيه من الجمهورية الإيرانية إليها، ولكن سنرى بعد مضي ثلاثة عقود ونيف أن إيران ما زالت لاعباً قوياً في ساحات دول الجوار، مما اضطرّ دولاً عربية إلى تسخير ماكنتها الإعلامية دفاعاً عن «القومية العربية» وإرسال مئات المتطوعين للدفاع عن تاريخ العرب ضد الفرس المجوس، في حين أن النظام كان يُعلّي صوته للدفاع عن «البوابة الشرقية»[1] وحرائر العراق وصولًا إلى تاريخ نبوخذ نصر والقعقاع ومعركة القادسية الأولى، وهنا بدأت قوافل

---

(1) (حرّاس البوابة الشرقية) هو عنوان كتاب للكاتب المصري (جمال الغيطاني) صدر إبّان الحرب العراقية الإيرانية في تمجيد الجيش العراقي. ويعني بالبوابة الشرقية حدود «الوطن العربي» من جهة الشرق، أي الحدود العراقية الإيرانية.

القتلى الملفوفين بالأعلام العراقية تتوافد بغزارة محمولة على الأكتاف باتجاه سكناهم ومدنهم وقراهم.

كان فاضل هاشم الشيخ داوود، أحد قادة خلية العمل الشيوعي السريّ والذي حاول إعادة هيكلة التنظيم المتهدمة جراء ماكنة الحملة المسعورة في العام 1978، من ضحايا المقتولين بتلك الحرب القذرة، وبعده كان من ضحاياها قافلة طيبة من شباب قرية الهويدر منهم علي هاشم الشيخ داود، حسين عباس ططو، رشيد زهدي، عادل صادق ططو، غانم دعدع، حسون ابن فاضل الخياط، حسون ابن جليلة، الضابط رياض ابن ككو، ياسين، محمد حسين الشوربة، فؤاد ابن نعناع، الشيوعي ثامر البغدادي، كريم ابن ندوة، وآخرون، استقبلت قرية الهويدر جثامين تلك الدرر الوطنية محمولة على الأكتاف إلى مثواها الأخير وسط ضجيج من الاستنكار والصراخ والرفض لاستمرار الحرب بتعابير واتجاهات مختلفة.

ولم تستطع كل جهود المجتمع الدولي، بشتى منظّماته الإنسانية والدبلوماسية والسياسية، على أقل تقدير أن تحقّق هدنة مؤقتة لإيقاف إطلاق النار بين الجارتين المسلمتين على الرغم من المناسبات والأحداث الدينية التاريخية المؤثرة والمقدسة المشتركة التي حدثت في التاريخ الإسلامي القديم، لكن النزاع بينهما كان تاريخيّاً، وما زال مستمراً على حساب إرادة الشعبين العراقي والإيراني.

انشغل عامة الناس والمثقفون والمتابعون لتطورات الحرب بتحليل مجرياتها وتداعياتها. في بداية الحرب استمعتُ مرة في مقهى أبي ستار إلى نقاش دار بين عبد الأمير تكّه الشيوعي السابق والبعثي يومها حول استقراء للوضع السياسي أمام جمهرة من أهالي القرية، مفاده أن الحرب سوف تطول لسنوات عدة، بعد أن كانت الآراء الأخرى ترى أنها قد تدوم لأسابيع قليلة أو لشهور، ولكنها في الواقع دامت ثمان سنوات على الرغم من كل التدخلات الدولية النافذة والجهود المستمرة لإيقافها.

إن العراق كان على جهوزية مسبقة إزاء الأحداث التي كانت تجري في إيران من بلبلة في أجهزة ومؤسسات الدولة جرّاء الثورة وتداعياتها التي أثرت على بناء الدولة، وخاصة المؤسسة العسكرية التي كانت تعاني من أزمات وانقسامات في المواقف بسبب التغييرات الحاصلة، فدفع ذلك القادة الإيرانيين إلى الاستعانة بالمتطوعين من الشباب عديمي الخبرة بشؤون الحرب وفن القتال. وقد دفع العراق الآلاف من قواته العسكرية لاحتلال أراض إيرانية شاسعة، من قصر شيرين ونفط خانة ومهران شرقاً، إلى مدينة المحمرة وأطراف مدينة عبادان جنوباً، لتكون ورقة ضغط في يده على الجانب الإيراني لفرض شروط إيقاف الحرب، لكنها لم تلوِ ذراع الإيرانيين في تقديم أية تنازلات باتجاه وقف الحرب واحترام حدود البلدين وعدم التدخل في الشؤون الداخلية، إذ ظلّت إيران تزجّ بملايين المقاتلين لاحتلال أراض عراقية عبر سلسلة هجمات على مدار السنة، ولم تتوقف إلّا بعد ثمان سنوات بخسائر فادحة في الأرواح والمعدّات والاقتصاد.

بعد حكم طويل في إيران شُيّد بالحديد والنار بدءاً من عائلة الشاهنشاه، ثار الشعب الإيراني وبكل طوائفه ومكوّناته على ذلك النظام، وساهم الشيوعيون الإيرانيون، تحت قيادة حزب (تودة) المناضل وبالتضافر مع القوى الديمقراطية واليسارية، بقسطهم مع القوى الأخرى في تعبئة الجماهير، وتحققت الثورة بتلاحم الشعب. وفي تطورات دراماتيكية مع سيناريوهات أُعِدّت في الدوائر الغربية لحجم الغضب الجماهيري والشعارات التي طُرِحت في الشارع من قبل الجماهير المنتفضة وقيادتها، وجدت تلك الدوائر «البديل الإسلامي» المتمثل بآية الله الخميني أكثر مناسباً في تسلمهم لمقاليد الحكم في بلد مثل إيران.

وبعد سنتين من تولي نظام الملالي في إيران السلطة، انقلب على الشيوعيين، في محاربة لأية قوى يسارية في المنطقة، ومنعها من الوصول إلى مقاليد السلطة

التي كانت إحدى سيناريوهات الحرب الباردة بين السوفييت والأمريكان، والتي انتهت بسقوط مدوٍّ للاتحاد السوفييتي ومنظومته الاشتراكية.

منذ تلك اللحظة التاريخية لم تعُد للشيوعيين قائمة تذكر في بُنية الإمبراطورية الإيرانية الجديدة تحت خيمة ولاية الفقيه. وبدهاء شديد، خطّت السياسة الإيرانية الجديدة، على يد معمّميها وآيات ثورتها، نهجاً سياسياً مرناً وواقعياً في بداية تلك الثورة، ينمّ عن دراية ودراسة ذكية لتجاوز تداعياتها في أيامها الأولى وما واجهها من تحدّيات داخلية وخارجية كادت أن تطيح بها.

إن الخطوات العملية والواقعية بلغة التسامح والسلم الاجتماعي والعفو عند المقدرة التي أفتى بها رجل الدين الإمام الخميني هي التي ساعدتهم على بناء إمبراطوريتهم، بحيث لم تتعرض السلطة الدينية الجديدة في إيران إلى الحرس القديم من سافاك ورجال دولة وقادة جيش بأي أذى، بل تركت تلك المؤسسات قائمة بقوامها وهياكلها، تعمل ضمن مواقعها وبأسلوبها، ممّا بعث الأمان في روحية الطرف الآخر، كل ذلك ساهم في هيكلة الدولة الجديدة، ومكّن ولاية الفقيه من استخدام هؤلاء الناس ضدّ الشيوعيين والقوى الوطنية وفي القضاء على تنظيماتهم ونقاباتهم وجمعياتهم وبتحريض الرأي العام ضدهم.

حافظت السلطة الدينية الجديدة على إرث وبناء ومعالم النظام الراحل من ممتلكات ومؤسسات وقصور، حيث بقي قصر الشاه قائماً وأصبح مزاراً عاماً يؤمّه عامة الناس ويتجولون به للاطلاع على بنائه وطريقة عيشه، حتى أنهم احتفظوا بآخر كأس ويسكي للشاه الذي تركه على طاولة المطبخ ولم ينهِه وفي ذات المكان، مغلّفين إياه بورق السلوفان. ويُذكر أن الشاه غادر قصره على عجل لسرعة وتواتر الأحداث والتصعيد والإطاحة بنظامه، كما أنهم أبقوا على الشخص الذي كان يدير أمور القصر ومتطلبات الشاه وحديقة المنزل. أما في العراق، فقد كان الأمر مختلفاً تماماً، حيث طغت سياسة الحقد والثأر التي تركت ظلالها السلبية لاحقاً على بناء الدولة والسلم الاجتماعي.

انتقلت أحاديث وتحليلات الحرب إلى كبار أهالي القرية وشيوخها في تجمعاتهم الصباحية على تخوت مقاهي القرية، واستبدلوا أحاديثهم في مقهى الحاج إبراهيم الجولاغ، من مواضيع الجنس وفعاليات تنشيطه، إلى أحاديث لا تخلو من الطرافة والمبالغة في التحليلات، واحدة من تلك التحليلات، كانت شعار إيران في تصدير الثورة في هذا السياق، قال القروي جيران العمر العم ميزر: «على العراق ان يحمي حدوده لأن إيران فشلت في عدة محاولات من تمرير حاوياتها المعلبة بمواد تصدير الثورة إلى العراق».

اجتاح العراق مساحات واسعة من الأراضي الإيرانية، معلناً ضمّها إلى الأراضي العراقية، حيث عمد إلى بثّ الأمر عبر وسائل إعلامه اليومية والمنوعة، إيران الإسلامية لم تكن مستعدّة لهذا التوغل العراقي المستمدّ عبر شريط حدودي طويل، فهي ما زالت ترتب جدول حساباتها بعد الثورة الفتيّة وتقيس الأمور من جميع جوانبها. وها هي المعارك على طول حدود البلدين تزداد شراسةً وعنفاً يوماً بعد يوم. وكانت قد سبقتها تصعيدات ملحوظة ومناوشات وتهديدات واتهامات متبادلة بين الطرفين مما أدى في النهاية إلى حرب طاحنة نجمت عنها خسائر بشرية واقتصادية وإنسانية كبيرة وأججت الصراع التاريخي بين العرب والفرس الموغل منذ القدم وقامت بإذكائه من جديد.

لاحت في الأفق مؤشرات الحرب بعد تفجيرات الجامعة المستنصرية في 1 نيسان 1980، وسيناريو مهر (فريال) الغالي الذي هو الدماء التي سالت على أرض المستنصرية لتكون شرارة للحرب القادمة، ناهيك عن الحملة الظالمة بتهجير الناس الآمنين بجريرة «التبعية الإيرانية» التي تُعدّ أغبى خطوة سياسية قام بها النظام في مواجهة الأزمات غير محسوبة النتائج على المستوى السياسي والعسكري والأخلاقي والاجتماعي والإنساني. ترجمها صدام حسين في موقف تصعيدي حين أطلّ من إحدى ردهات مستشفيات بغداد أثناء زيارة

جرحى انفجار الجامعة المستنصرية ومعلناً أن ما حصل هو مهر فريال الغالي التي انتهى بها المطاف لاجئة في الدانمارك هرباً من سياسة النظام.

كما وأعلن، بعد ثماني سنوات من التدمير واستشهاد خيرة شباب العراق وخراب الوطن، أن هذه الحرب هي فتنة تجرّع سمّها الإمام الخميني الذي أعلن عن وقفها تحت قوة وتأثير طائرات (سوبر إيتندار) الحربية فرنسية الصنع والمتطورة جداً، التي أُعطيت خصيصاً للعراق لحسم تداعيات الحرب وويلاتها من حكومة فرنسا (جاك شيراك)، الطائرات التي كانت تدكّ يومياً منصات تصدير النفط في الموانئ الإيرانية وتدمّرها.

لم تنجُ المدن الإيرانية الآمنة والمكتظة بالتجمعات البشرية هي الأخرى من حرائق الصواريخ العراقية التي كانت دقيقة وموجهة بعناية. لقد عايشتُ المرحلة وشاهدتُ بأمّ عيني ما كان يحصل للآمنين في إيران. فقد كنت مقيماً عام 1988 في طهران في منطقة (كوجه مروي) وسط العاصمة حيث تُغير الطائرات العراقية، ولمست تأثيراتها النفسية على حياة الإيرانيين الذين كانوا يغادرون المدينة بسياراتهم المحمّلة بأمتعتهم إلى المدن المحيطة بالعاصمة، مثل مدينة كرج، ومدينة قم، هرباً من غارات صواريخ طائرات العراق، فضلاً عن توقف الحياة الطبيعية وشلّ حركة الناس في التنقل والعمل. وقد أثّرت قوة تلك الطائرات على نتائج مجريات الحرب عسكرياً لصالح العراق ليتم الإعلان عن وقفها إضافة إلى عوامل أخرى إقليمية ودولية مؤثرة في القرارات.

# التسفير وما بعده

في الهويدر، كانت خشبة العرض المسرحي تقدّم عرضاً من نوع آخر، أكثر تراجيدية ومأساويةً، مسرحية مشاهدُ فصولها وجعٌ وفراق ودم وبكاء لعدة ليالٍ متتالية، فقد قام النظام وأجهزته القمعية باقتحام بيوت الناس الآمنين واعتقالهم ومن ثم تهجيرهم بحجة التبعية الإيرانية. وكانت هذه السيناريوهات استعداداً للحرب وتصعيداً للنزعة الفاشية الجديدة في عقلية النظام. فبعد أن حُسمت الأمور لصالح هذا الاتجاه على مسرح قاعة الخلد عام 1979، وفي ليلة حالكة من إحدى الليالي العامرة بالخوف والوحشة في صيف عام 1980 اقتحم مسلّحو النظام أسوار تلك القرية الغافية على ضفاف نهر ديالى، مدجّجين بالسلاح، وأقدموا على اقتحام بيوت الناس وحشرهم في عربات مكشوفة وإرسالهم إلى مصيرهم المجهول، فقد انتزعوهم عنوة من منازلهم بقوة التهديد والسلاح بعد أن سلخوهم من واحتهم الآمنة وحرموهم من حاجاتهم العزيزة وأشيائهم الغالية معتقلين معهم أحلامهم السعيدة.

وكُنا نحن جزءاً من هذا العرض والمشهد اليومي، ولم نكن نستطيع أن نحبس دموعنا ونحن نرى أبناء قريتنا وجيراننا محشورين في سيارات مكشوفة وهم ذاهبون إلى مصيرهم المجهول، ملوّحين لنا بأيديهم مع تمتمات مخنوقة بالدمع والعبرات. هذه المشاهد المؤثرة والأليمة كنا نرصدها صامتين بين تخوت وعواميد وزوايا مقاهي ودكاكين قرية الهويدر.

لم أفطن حينها بماذا علّق صديقنا محمود سرق على طبيعة المشهد المأساوي مما دعا الصديق الشهيد ماجد صبري (ضحية الحرب الطائفية

القذرة عام 2006)، أن يردّ عليه بسخريته اللاذعة وجعلنا نفكّ حزننا للحظات بقهقهة مكبوتة، إلى الآن لم أنسَ مشهد العم فيصل أبي رفيقنا سعد الذي غُيّب في غياهب السجون العراقية بعد أن هُجّر أهله وعمه الوحيد فليح، الأستاذ زهير خزعل البعثي الذي كان يراهم مشروعاً قومياً وحدوياً محرراً لفلسطين، حين نزل من السيارة وسط منطقة الحمّام وأهلها وبالرغم من الأسلحة الموجهة إليه صارخاً:

بـلادي وإن جـارت عـلـيّ عزيزة وأهـلـي وإن ضـنّـوا عـلـيّ كـرام

وقد أخبرني بعد سنوات من الغربة وفي لقاءات مطولة في طهران ودمشق عن تعرضه بعد صرخته هذه إلى حجم كبير من الإهانات والاعتداءات التي تلقاها قبل تركه على الحدود الإيرانية دون السماح له بإلقاء النظرة الأخيرة على حدود أرضه ووطنه واستحالة عودته بسبب أسلحتهم الموجهة إليه، وهو يجرّ أقدامه باتجاه الأراضي الإيرانية.

عام 1975، كنت ناشطاً في اتحاد الطلبة العام في متوسطة تدمر الهويدراوية. وذات ظهيرة دُعيت إلى مرسم المتوسطة بين لوحات وأدوات ورسومات الطلبة لأكون وجهاً لوجه أمام المدير البعثي موفق العاني ومعلم الرياضة البعثي أبو شيرين الذي أصبح في ما بعد سفيراً للعراق في دولة الكويت، وأستاذ زهير خزعل (المُسفّر في ما بعد). حيث تعرضت يومها إلى تحقيق أمني على خلفية اتهامي بالوقوف ضد مسيرة البعث والتخريب ومعاداة العراق، مع قسوة شديدة في الإهانة والاعتداء، اتهامات أكبر من حجم وعيي وإدراكي للأحداث. وقد أعدناها إلى الذاكرة في لقاءاتنا في المهاجر التي جمعتنا في الفكر والتوجه، ومررنا عليها أنا والأستاذ زهير مرور الكرام، باعتبارها من تجارب الماضي التعيس وأخطائه، هذا ما جعلنا نركب نفس القارب نجوب به بحاراً هائجة متلاطمة الأمواج متشبثين للوصول نحو مرسى آمن نحطّ به لتكملة مشوار العمر المتبقي.

لم ألمس موقفاً شجاعاً أو حتى إنسانياً من بعثيي القرية في التضامن مع أبناء جلدتهم، ناهيك عن أن ما كان يحصل يُعتبر جريمة بكل مستوياتها، إنها الفاشية الجديدة في العراق، الفاشية الصاعدة التي بلغت بالإجرام حدّ حجزهم لأبناء جلدتهم، وكل من بلغ سن الرشد ليرموا بهم بعيداً حيث يواجهون الموت في الحدود أو السجون أو منافي الصحراء، إنها جريمة إنسانية لا تغتفر في ناموس البشرية. وقد قال عنها الدكتاتور صدام، بعد سنوات من حدوثها، بأنها نوبة «فوران دم» ذهب ضحيتها مئات الآلاف من الضحايا والخسائر المادية والسياسية والبشرية.

فقد تم التهجير عنوة لكل ذكر دون الـ 18 سنة مع أهله، وهم الناجون لحسن الحظ، وذلك في حملة هستيرية بلا أي رادع إنساني ولا شرف وطني، حيث رموهم مع أهاليهم على الحدود الإيرانية رمية دنيئة دون ضمير، ليتجرّعوا لوعة الفراق، متحملين أعباء ثقيلة منها فقدان الأصدقاء والذاكرة إلى ضياع مدرسة وحياة عائلة ووطن واستقرار وحرمان من العائلة والدفء في ربوع وطنهم، ليجدوا أنفسهم في ليلة كئيبة حالكة الظلام والخوف بين أناس ملامحهم ليست بطيبة ملامح أهلهم وأبناء قريتهم، وبيئة غريبة هواؤها ليس كالنسيم العليل في قريتهم، قرية الهويدر.

فقد وجدوا أنفسهم بين ليلة وضحاها أمام مسؤولية كبيرة في البحث عن سبل العيش ومعاناة جديدة ومسؤوليات تفوق أعمارهم وقدراتهم على التكيّف مع حياة جديدة بعيدة عن نشأتهم وحياتهم للتخفيف من هول الصدمة في العيش السيّئ وغير المستقر في معسكرات ومخيمات أُنشئت لهم من قبل الإيرانيين، منهم من تكيف مع تلك الحياة، ومنهم من توفرت لهم فرص العيش داخل المدن الإيرانية، دولت آباد وقم وأصفهان، بمداخيل مادية شحيحة مع إصرار وعناد تامين.

طيلة هذه الفترة، كانت أمي تستيقظ مع أذان الفجر الذي تسمعه من مئذنة

مسجد الهويدر، بموعد مع برنامج يُبثّ عبر أثير الراديو من إيران الإسلامية لتنصت بهدوء وخوف وهلع خلف باب مغلق خوفاً من أن يتسلل الصوت عبر شقوق الباب الخشبي إلى شارع بيتنا، كانت تستمع إلى أصوات مرتجفة تعلن عن وصولها بسلام إلى أراضي الجمهورية الإسلامية وتوصل سلامها إلى أهالي القرية.

كانت أمي تهمس لي، وبدموع صامتة سخية، عن حزن زوجة السيد صادق نفس شقيق السيد دردي الذي هو أيضاً انتُزع من بيته مع عائلته، فقد كان الأخوان (نفس ودردي) يمتلكان مقهى في منطقة الحمّام معروفاً بمقهى دردي، الذي ما زال يحمل الاسم نفسه رغم مرور ما يقارب النصف قرن، وكان يشغل إحدى زواياه برج لبيع طيور الحمام المنزلي يديره المطيرچي الهويدراوي السيد بلال وصحبه دعجول، وطالب أبو شنب ومحمد أبو العدل. وكانت زوجة السيد صادق نفس تبكي عبر أثير الراديو على بيتها المهجور في إحدى زوايا القرية وعلى فقدان ابنها كريم المحجوز في غياهب سجون العراق وحنينها إلى أهالي قريتها.

بقي حنين المسفّرين من أهل القرية إلى مسقط رأسهم وجذورهم سنوات طوال، وهذا ما لمسته حين التقيت بعضهم، بعد سنوات طويلة في منافيهم في المدن الإيرانية مقيمين فيها، حيث وجدت في روحهم ذلك الشوق والحنين العراقي إلى بلدهم وجيرانهم وقريتهم، وكانوا يستعرضون أدق التفاصيل في العلاقات والذكريات والأسماء والأماكن بدموع ممزوجة بالثأر والحقد على البعث ونظام صدام وانعكاس ذلك على ما تعرضوا له في منفاهم من ضنك العيش والمعاناة.

نتيجة لهذه الظروف، انتمى قسم منهم إلى التنظيمات الإسلامية العاملة على الأراضي الإيرانية، ليكوّنوا في ما بعد القوة الضاربة للمجلس الأعلى وقوّات بدر وحزب الدعوة الإسلاميّة، في قتال الجيش العراقي على طول

سنوات الحرب، والعمل السياسي المعارض لحكومة بغداد. واليوم، يتباهى ساسة العراق الجدد بأنهم قاتلوا ضد وطنهم وجيشهم العراقي بفخر واعتزاز، فقد كانوا ينفّذون أوامر الإمام، والمقصود الخميني، وبذلك استطاع الإيرانيون استغلال مأساتهم وعوزهم والظلم الذي ألحق بهم وأن يحولوهم إلى وقود ضدّ أهل بلدهم بتأثير ديني كان واضحاً في سلوكهم وتوجهاتهم الجديدة.

بعد احتلال العراق من قبل الأمريكان وحلفائهم الإقليميين والدوليين وموجة العمالة الواسعة من قوى الداخل، شكّل أبناء العوائل المسفّرة إلى إيران والأسرى الهاربين من الحرب وجحيم النظام، القوة الأساسية السياسية والميدانية التي تتحكم بإدارة البلد عبر تنظيمات بغطاء الإسلام السياسي وتحت عباءة ولاية الفقيه برعاية إيرانية واضحة ومكشوفة.

فمنذ اليوم الأول للاحتلال وما سبقه من توافق في الرؤى والأهداف بين إيران الإسلامية وقوة الاستكبار العالمي (الشيطان الأكبر أمريكا) التقت مصالحهما حول تدمير العراق وتفتيت نسيجه الاجتماعي والأخلاقي، والتاريخ يتحدث بأمانة عن ذلك، فيما لو عدنا إلى متابعة تلك الأيّام من يوم 25 آذار إلى 9 نيسان 2003 تاريخ سقوط النظام وسقوط بغداد والذي لا يعتبر سقوطاً لها لأنها بقيت عصية على أعدائها وتنبض بالحياة رغم جور الزمن عليها لتنهض من تحت أكوام الرماد بهمّة وسواعد شباب العراق (الجيل الجديد)، فقد سيطر المحتلون على مقدّرات البلد بالكامل ليذهبوا به إلى الخراب بسبب حقدهم ومن هول ما عانوا من ظلم وتعدٍّ وانتقاص في الفهم الوطني، ليصبح الوطن والشعب ضحاياهم وهدفهم، والذين لم يبقوا بعيدين عن الضغائن والثأر.

تشكّل الساسة الجُدد في العراق، الذين تربعوا على مقدرات البلد، من أشخاص أغلبهم ممن تم تهجيرهم طيلة فترات الحكومات المتعاقبة على العراق، والتي كان أبشعها ما بين عامي 1970 و1980، ومن عدد من الأسرى

الذين خرجوا من معسكرات الأسر تحت مسمى (التوّابين). والمقصود بالتوابين هم أتباع الصحابي سليمان بن صرد الخزاعي (أمير التوابين) وهو أحد قادة معركة صفين مع جيش أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في مواجهة جيش معاوية، والذي قتل في مبارزة مع أحد قادة معاوية وهو حوشب ذو ظليم الألهاني. أسلم الخزاعي على يد الرسول (محمد) وكان اسمه يسار فبدل الرسول اسمه إلى سُليمان، وهو الذي قاد جيش التوابين بعد مقتل الحسين في واقعة (الطفّ) الشهيرة ضد جيوش بني أمية. فالتقى جيش عبدالله بن زياد في معركة (عين الوردة) حيث قتل يومها. وظهرت حركة التوابين في مدينة الكوفة العراقية وسمّيت كذلك ندماً وشعوراً بالذنب لعدم مساندة الحسين في ثورته، بل اكتفوا بالتفرّج على قتله مع أهله وصحبه.

وقد تعاملت جمهورية إيران الإسلامية مع تلك الوقائع التاريخية الإسلامية وفق رؤيتها الخاصة واستغلتها لتعبئة أكبر عدد من المناصرين لمشاريعها القادمة، ومنهم من سُمّي بالتوابين. وقد مات قسم منهم في جبهات الحرب ضد عراقهم ودُفنوا في المدن الإيرانية، وقسم آخر عادوا بعد احتلال العراق وتبوأوا مناصب مهمة في إدارة البلد ومقدراته. وبينما تزوّج آخرون في إيران وانسلخوا عن أهلهم تماماً، مثل أصدقائنا ماجد ابن طيرة وفاضل ابن عبد الأمير تكّة. وللأسف صار العراقيون الذين هُجّروا وسُلبت ممتلكاتهم وغُيّب أولادهم لا ينظرون إلى العراق سوى بمنظار الطائفية والثأر والحقد على تاريخ لم تُكتب فصوله بروح الأمانة والمراجعة الموضوعية، بل بقيت خاضعة لاجتهادات وتبريرات فقهية.

كنت دائماً ما أطرح سؤالاً محيّراً وعجيباً، في استهدافهم لأهالي القرية والذي كان قسم ليس بقليل منها محسوباً بالكامل على تنظيمات حزب البعث ومن ناشطيه والمدافعين بشراسة عنه، وقد بدأت مؤشرات الحرب تلوح في الأفق. إذن لماذا يُهجّرونهم من ديارهم ووطنهم؟ لم أستوعب حينها ما حصل

ضمن وعيي وتجربتي المحدودة آنذاك، ولكني حين استعدتُ المشهد بعد سنوات، فطنت إلى أن السبب يعود إلى دموية النظام بسبب تركيبته القبلية التي أفرزت أسلوبه القمعي والهمجي في إدارة مقدرات البلد (حكم بدوي عشائري قبلي).

وقفنا نحن الشيوعيين مع محنة أهلنا في قريتنا ودافعنا عنهم بكل بسالة وحافظنا على ممتلكاتهم وبيوتهم وبساتينهم ومنعنا أي شخص من الاقتراب منها، إنها المناقبية الأخلاقية والضمير الإنساني، فقد كانت أموالاً مسلوبة تحرق كل من يقترب منها. بقيَت لسنواتُ علائمِ الحزن على جباه أهل القرية، الذين انتُزعوا بالقوة من بيوتهم والذين عشنا معهم سنوات العمر، وبقينا نتابع أخبارهم عن بعد وبصمت مكبوت بالإدانة والرفض، نتلقف أخبارهم يومياً عبر المارة ومن خلال أطراف أحاديث الناس المتناقلة عبر النوافذ المغلقة، لأنهم أهلنا وأبناء قريتنا: حمدان النداف مات في الطريق، ودردي القهوجي مات بسكته قلبية من القهر، سعد ابن فيصل لم يهجّروه مع أهله وغُيّب في دهاليز البعث، كريم ابن نفس معتقل في نقرة السلمان، قاسم ابن محمد الفيصل محجور في الشماعية، محمد ابن ملّه شاكر الشيوعي متخفٍّ في بغداد ويزور القرية خفيةً.

ولكن الأمر الذي خفّف من وطأة الآلام وتداعياتها ودفع الناس إلى تناسي مصائبها، والالتفات إلى مصائب الآخرين، هو بتسارع الأحداث في العراق، قتلى الحرب، الإعدامات التي طالت مئات الشيوعيين والإسلاميين، والنفق المظلم الذي يخطو إليه العراق والذي يسدّ أمام أهله كل منافذ الضوء، ولكن الأمل ظلّ يداعب مشاعر أولئك الناس بأنهم سيعودون يوماً إلى وطنهم.

كانت قبضة النظام البعثي وأجهزته القمعية على مقدرات البلد مخيفة ومفروضة بقوّة الحديد والنار، وطاغية على تصرفات الناس، فهاجس الخوف هو الغالب في منظومة العلاقات الاجتماعية وتداعياتها على خوض العمل

السياسي المعارض، فالنظام وأدواته الإعلامية وبريق امتيازاته هي السائدة، وشعاراته الطنّانة في خطاباته حول الوطن والحرب والحقوق المسلوبة وتاريخ «الفرس» وغدرهم في قضايا العرب هي الغالبة. وكان يتردّد أيّامها، والحرب قد استعرت للتوّ، الشعار عن إتمام صدام حسين لمهمّة أجّلها نبوخذ نصّر، في أغنية حرب تعبوية يقول مطلعها:

مــا نـتــنــازل عــن اثـنــيـن عـــراق وصـــــدام حـسـيـن
نـبــوخــذ نــصّــر شــيّــد بيت وعـــلّاه كـف صــــدّام حسين

كانت لغة الشارع في التهكم على مثل هذه الشعارات تنتشر بشكل خفيّ، ولكن قدر الناس كان أن يقبلوها على مضض.

بعد ثمانية أعوام من حرب طاحنة بين شعبين لا ناقة لهم بها ولا جمل، وإلى الآن، لا أحد يعرف لماذا قامت تلكم الحرب وما هي دواعيها وسيناريو انتهائها. فقد كنت يومياً أقرأ وأسمع وأشاهد عبر وسائل الإعلام والتلفزة جوقات المدّاحين والطبالين والانتهازيين من شعراء وإعلاميين ومغنين وصحفيين مرتزقة يطبّلون للحرب وللنظام في إدارتها، إنها حرب القادسية الثانية، قادسيّة صدام.

عندما تتجول في شوارع بغداد آنذاك، ستلمس جهود النظام الواضحة في القضاء على ثغرات الحرب التي تبرز هنا وهناك، فعلى المستوى المعيشي، كانت الأسواق مكتظة بالمواد الغذائية اليومية لسدّ حاجات الناس وإبعادهم عن أي تساؤل أو تململ من مجريات الحرب وتأثيرها السياسي السلبي على معنوياتهم في دعم مشروع الحرب، فإنك تلمس كمعارض ومطارد، وأنت تتجول في بغداد، الجهود الكبيرة والواضحة للدعم الخليجي والعالمي لإطالة أمد الحرب، التي كان شعبنا وقودها اليومي في «الدفاع عن السيادة»، بتسمية النظام، وهي التي حطمها صدام نفسه صبيحة يوم الثاني من آب عام 1990 أثناء عبوره إلى حدود الجارة دولة الكويت، بحيث داس بالبساطيل العسكرية

على تلك السيادة، وهي الخطوة الحمقاء التي راح ضحيتها الآلاف من القتلى والمعاقين والأسرى والمشرّدين في دول الشتات.

ولم تمنع فداحة الحرب وويلاتها ومآسيها طوابير الشباب العراقي في التهافت على الانخراط في السلك العسكري والاستخباراتي والمخابراتي، فالامتيازات كبيرة ومغرية، إنها عسكرة كاملة للحياة والمجتمع والدولة والثقافة. إذن، فالعمل السياسي المعارض وسط هذا الضجيج الصاخب المدفون بالموت، بحاجة إلى حنكة ودراية وصبر وتخطيط وأرضية تقف عليها، وتنطلق منها بالاتجاه الصحيح بين أوساط الناس وعامة الشعب.

كنتُ في مرات عديدة، وأثناء جلوسي في مقاهي بغداد في شارع الرشيد أو المتنبي أو المربعة، أتصفح الجرائد العراقية المتنوّعة والمكرّسة للحرب وأخبارها على الجبهات ومواقف العالم حولها، كنت أنصت باهتمام إلى أحاديث الناس وتحليلاتهم حول الحرب والسياسة، فألمس من خلالها استقراءً عاماً لخفايا الوضع السياسي وتداعياته اليومية، أوجاع وويلات الحرب المكبوتة في نفوس الناس، ناهيك عن طوابير الجثامين الملفوفة بالعلم العراقي ذي الثلاث نجمات التي تتدفق يومياً على المدن والقرى العراقية وسط استهجان عام من الناس، بالإضافة إلى أعداد كبيرة من المفقودين والأسرى.

لم تعُد الناس تعوّل على المشروع الإيراني، بل تشعر بتمسّكهم بمشروع الوطن والدفاع عنه بعدما تغيرت مجريات الحرب والتلويح الإيراني باحتلال أرض العراق، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فقد صرحوا بالأمر وقاموا بمحاولات متكررة لاحتلال أرض العراق الوطنية، وهذا ما حدث بعد هزيمة العراق وخسارة المعركة في مدينة المحمرة عام 1982، ومما زادهم شعوراً وتمسكاً بالأرض، موقف إيران المتعنّت في الجلوس إلى طاولة الحوار لإيقاف ماكينة الحرب مع وفد مكوّن من ممثّلي البلدين، بل أصبح لكل فصل من فصول السنة تحشيدٌ إيراني وهجومٌ جديد على المدن العراقية بموجات بشرية هائلة،

بمحاولة منهم لاحتلال جزء من الأراضي العراقية. لذلك فالتعويل على مشروع الحرب في إسقاط النظام السياسي كان بعيداً عن الوعي الجماهيري للعراقيين، بيد أن الأمل والتعويل كانا منصبّين على ضابط شريف يذيع البيان رقم واحد، أو على حدوث حركة احتجاج داخلية تهدد عرش النظام وتعمل لتغييره.

بل وحتّى الرفاق في كردستان وجبالها أيّام النضال ضدّ الدكتاتوريّة، كانوا ينتظرون الهجوم الإيراني ويتابعون تفاصيله لحظة بلحظة عبر مذياع صغير، آملين بإسقاط النظام والتخلص من حياة الجبل ومعاناتها، بمعنى أصحّ، كان التعويل على البديل الخارجي الإيراني بالتحديد، لكن هذا لم يكن الموقف الرسمي للحزب الشيوعي، بالرغم ممّا حدث في الختام وكان بمثابة إنهاء للمشهد، فقد جاؤوا لنا ببديلين: أمريكي وإيراني، مدمرين لقدرات البلد وطاقاته، مُفتّتين كيانه بالكامل. فأثناء رحلة التخفي في بغداد، عندما كانت تجمعني الأماسي والزيارات بالأصدقاء والأقارب، لم يكن هناك موضوع يعلو في الجلسات على موضوع الحرب وويلاتها، فهي شاغلة وعي الناس وهمهم ليلاً ونهاراً، كانوا دائماً ما يردّدون: لقد تعوّدنا عليها، فهي قدرنا ولا بديل لنا عنها، حتى أنها باتت جزءاً من تفاصيل حياتنا اليومية، وبتنا نشعر بالفراغ إذا ما مرّ يوم دون سماع بيان عسكري مهمّ بصوت رشدي عبد الصاحب الجهوري وصحبه.

لكن البعثيين رغم أوجاعهم وخوفهم من تداعيات تطورات الحرب على جبهات القتال، وتوجسهم الدائم من انفجار الوضع في الداخل، كانوا يشدّدون قبضتهم على الشارع، وكانت تلك السياسة واضحة خصوصاً للمراقب السياسي، لأنه ينظر إلى الأحداث من زاوية مختلفة. لقد كانوا يسعون إلى نقل صورة أن الأمور تحت سيطرتهم وأنهم سيخرجون من الحرب منتصرين وأنهم سوف يهزمون المشروع الفارسي (الصفوي)، محاولين بذلك التلويح وإيصال رسالة إنذار إلى المراهنين على أن نهاية الحرب مقرونة بسقوط نظام البعث وإفهامهم أن ذلك بعيد عن الواقع والتحديات.

لذلك لم يكن العمل السياسي السريّ سهلاً في خضم هذه الأوضاع وأمام تساؤلات الناس الملحّة والمحرجة حول أوضاعنا ومواقفنا وخططنا المستقبلية، وقد يحتدم الموقف أثناء مفاتحتهم والحديث معهم حول العمل السياسي المعارض والمعروفة نتائجه الوخيمة بالنسبة لهم، التي هي الموت المحتّم إن حصل شيء سيّئ خارج الحسابات. كنا نعمل، على أقل تقدير، من أجل كسب تعاطفهم في تقديم معلومة قد تفيد وتوسع من شبكة علاقاتنا. وكانوا يلحّون علينا بشتى أنواع الأسئلة، رغم خطابنا السياسي الواضح في إدانة أساليب البعث الدكتاتورية تجاه قوى شعبنا، نحن الشيوعيين تحديداً، والموقف من الحرب بإدانتها والدعوة إلى وقفها واحترام حدود البلدين. كان سؤالهم الملحّ المتكرر دائماً: هل لكم القدرة والإمكانية على إسقاط البعث؟ وهو سؤال كنت أُواجه به يومياً وأحاول تبسيط المعادلة من منطلقات ماركسية حول دور الشعوب وإرادتها في التغيير، وتجارب شعوب العالم في الثورات وعواملها الذاتية والموضوعية، الخارجية والداخلية، وتأثير الحرب في الوعي الوطني لقيادة الجماهير نحو التغير والسلام.

لم يلقَ هذا التبسيط رضى وقناعة عند رفاقنا القدامى الذين يطمحون إلى تغييرات ثورية سريعة للإطاحة بحكومة البعث والثأر منهم وإعادة العراق إلى وضعه الطبيعي، بعد شهور من عام 1986، عدتُ إلى الجبل وجعبتي مليئة باستقراءات للوضع السياسي ولأمزجة الناس وتقلّباتهم وخوفهم. أصبحتُ أكثر إيماناً بقدرة شعبي على التغيير، لكن فراغ الشارع من قوة سياسية فعلية قادرة على استيعاب تطلعات الناس بخطاب وطني يدغدغ مشاعرهم كان يحول دون ذلك. فالشارع يبحث عن نموذج قيادي يُحتذى به في التغيير، وكل ما يأتي خارج هذا السياق هو هراء وأمنيات طوباوية لا تُشبع طموحاته. لذلك فوجودك في الشارع بشكل يومي وفعلي ونموذجي وميداني كان ضرورياً لإعادة ثقة الناس وكسر حاجز الخوف الطاغي على تفاصيل حياتهم اليومية.

# الانتقال إلى بغداد

في 15 تشرين الثاني من عام 1980، وبعد أسابيع قليلة من بدء الحرب، أُعلن عبر المذياع العراقي عن بدء العام الدراسي التعليمي والجامعي في العراق كافة، كنت أثناء إعلان البيان برفقة صديقي الدكتور عزيز الشيباني في مدينة الثورة لتقديم واجب العزاء لأحد أصدقائه الأطباء بوالده الذي وافته المنية، كانت الطائرات الإيرانية لا تزال تتساقط بسهولة وهي تهاجم بغداد الموجوعة مع سماع صفارات الإنذار التي تدوّي بين ساعة وأخرى، مُعلنة بدء غارة جديدة تستهدف الأماكن العامة والأحياء الشعبية والمناطق المأهولة بالسكان كما لو أن مهمتها الأساسية هي تفريغ قنابلها ورميها على رؤوس الأبرياء والعودة سريعاً باختراق الصوت إلى حدود الأراضي الإيرانية.

كان سقوط الطائرات الإيرانية المغيرة على مدينة بغداد أشبه بمطاردات أفلام الكرتون (توم وجيري) مما جعلها متعة لعامة الناس الذين يشاهدونها من على سطوح البيوت. وكانت تذكرني بطائراتنا الورقية حين كنا نرميها من على سطوح منازلنا أيام طفولتنا وتشابكها مع تلك التي بحوزة أولاد جيراننا وتساقطها في بستان (أم البير). (أقدمت القوات الأميركية بدليل قروي على اغتيال القائد في التيار الصدري علي كاظم في ذلك البستان والذي نسمّيه (البقجة) أم البير)، في اليوم الأول لذهابي من قرية الهويدر إلى العاصمة بغداد، أجمل مدن اللّه، حيث سأكون في قلب الحدث في معترك حياتي وثقافي وأدبي وسياسي ساخن بمنتدياته ومسارحه، إنه نبض الشارع العراقي اليومي.

أوقفت سيطرة الانضباط العسكري الحافلة المكتظة بركابها لساعات في مدخل مدينة بغداد (سيطرة مدينة الشعب)، وبعد ساعات من الانتظار والملل ومتعة مشاهدة النار المشتعلة في واحدة من الطائرات الإيرانية في سماء بغداد الصافية الزرقاء بنيران مضادات الطيران العراقية من على سطوح وبنايات بغداد، لتكرار الهجمات الإيرانية على مدينة بغداد؛ أوعزوا إلى سائق الحافلة وركابها العودة إلى مكان انطلاق الحافلة إلى مدينة (بعقوبة) بسبب صفارات الإنذار التي لم تتوقف طيلة ذلك اليوم المشمس في سماء بغداد حيث كانت وزارة التعليم العالي والبحث العلمي قد أعلنت بدء الدوام الرسمي في مدارس وجامعات العراق، وكانت بالنسبة لي نقلة نوعية في حياتي للابتعاد عن أجواء القرية المشحونة ومعتركاتها السياسية وحزازياتها وحساسياتها.

كان للإسلاميين دور واضح في مواجهة علنية مع البعثيين وحملة اعتقالات واسعة ضدهم ربما تحسباً لما حدث في قرية (الجيزاني) إحدى قرى محافظة ديالى وجرف بيوتها وبساتينها بمستوى الأرض بعد أن خرج شبابها في مواجهة مسلحة مع رجال البعث وهتافات تدعو إلى نصرة الإسلام تناغماً مع تطورات الأحداث في إيران الإسلامية. ونحن أولاد قرية واحدة وجيرة وألفة ولا يمكن ان نكون في منأى عن تطورات الأحداث والتأثر بها، اعتقالات بالجملة بين صفوفهم وراح العشرات من الشهداء، صاحب ابن كاظم الرملة، ستار ابن بيخي، ضياء ابن محمد فيزه، لؤي ابن مبارك وآخرون، ولم تخلُ من اعتقالات كيدية راحت ضحيتها مجموعة من الشبيبة الهويدراوية. أما قرية خرنابات المجاورة لقريتنا فهي أيضاً نالتها الهجمة باعتقالات وإعدامات واسعة، كان النقيب الطيار غالب من أول ضحاياها.

في تلك المرحلة الحرجة، كان اتصالي الحزبي الخيطي شبه مقطوع، حيث سيق فاضل هاشم الشيخ داود إلى جبهات الحرب (بتُّ كالذي أسقي نوى التمر على أمل أن أراه نخيلاً)، لم يبق لنا أي تنظيم شيوعي داخل قرية الهويدر،

فالعديد من رفاقنا اعتكف وعزل نفسه خوفاً وتوجساً من تسارع الأحداث وتداعياتها بتبوّء صدام مقاليد الحكم والسيطرة المطلقة على منافذه، وبات القائد الأوحد وأرغم قسماً كبيراً من رفاقنا وتحت التهديد على الانتماء إلى «الخط الوطني»، حيث لا خيارات أخرى أمام بطش ودموية أساليب السلطة.

وعلى الرغم من أن هذا الخط الوطني هو حركة التفاف ابتكرها البعثيون للحدّ من النشاط الشيوعي، وهم يعلمون مسبقاً بنتائجه غير الفعالة والبعيدة عن الواقع، وخوفاً من إعادة إحياء تنظيماتهم مستندين إلى تواريخ وتجارب سابقة مرّ بها الشيوعيون العراقيون، فقد تمكّنوا بالرغم من كل ما حدث لهم من إعادة تنظيماتهم بوقت قياسي أرعب الأعداء.

بعد نهج البعثيين وأساليبهم القمعية التي مارسوها على جميع القوى الوطنية، بمن فيهم الشيوعيين، وفتحهم أكثر من جبهة حرب ومعارك داخلية وخارجية، فاقدين كل آهلية بأن يكون نظاماً يمثل جميع العراقيين، انتقلتُ في ذلك الحين إلى بغداد لألتحق بسنتي الأولى في كلية الآداب.

لم أكن حاملاً إلّا قلماً ودفتراً صغيراً وأحلاماً طبيعية في العيش والدراسة، لأكتب أول انطباعاتي كطالب شيوعي يعتزّ بانتمائه عن حفلة التعارف في قاعدة الإدريسي بمبنى الكلية والهاجس والخوف. ومن طالب على مقاعد الدراسة الثانوية، إلى الجامعة وما يحيط بها من علاقات واسعة، ومن ثم إلى العمل السياسي المعارض لأعتى نظام، طالب وجد نفسه في بغداد وسحرها ولياليها ومثقفيها ومنتدياتها ونسائها الجميلات في قسم اللغة الروسية في جامعة بغداد كلية الآداب. كانت أغلبية الأساتذة هنا تميل إلى اليسار أو تنحدر من جذور شيوعية، ربما ليس عفوياً تجمعهم كأساتذة في هذا الصرح المهم في تاريخ الثقافة الإنسانية (العالمية). القسم الكبير منهم مرّ ودرس وتخرّج على مقاعد جامعات الاتحاد السوفييتي الشيوعي واطلع على فلاسفته ومفكريه وأدبائه وشعرائه، أساتذة أمثال: حياة شرارة، جليل كمال الدين، ضياء نافع، محمد يونس، ناشئة بهجت، وغيرهم.

إنها أسماء تشعرك في البدء بالاطمئنان ولكن بحذر، لقد تتلمذتُ على فضاءات نتاجهم وما زلت أشعر بفخر ذلك الزمن وانتمائي إليه، هكذا تدرّجت أيامي الأولى في أروقة الكلية من طالب جامعي جاء من بعيد من جوّ قروي مكبل بتقاليد وعادات، إلى طالب للعلم والمعرفة في جوّ سياسي ملوّث ومشوب بالحذر ليصبح مناضلاً سياسياً يسبر غور العمل السياسي (السري) في ظروف بلد ليست طبيعية وفي ظلّ بداية صعود الفاشية العراقية وسيطرتها على مقدرات بلد وإرادة شعب بالكامل بقوة الحديد والنار.

الحرب يشتد أوارها على حدود البلدين، فتنعكس على مرافق الحياة من كل زواياها، فكل النشاطات مكرّسة للحرب في الكلية. وعلى مرّ الأيّام التي أصبحت خطيرة وقياسية. تكوّنت لي شبكة من العلاقات ساعدتني، ومن خلال حوارات في أروقة الكلية وقاعات المحاضرات ونادي الطلبة، في التعرف على ميول الطلبة وتوجهاتهم السياسية والفكرية، لقد قرّبتني تلك العلاقات وبشكل سريع إلى عالم آخر كنت فعلاً بحاجة إليه، وأنا المتردّد من اقتحامه لجذوري القروية، حتى أنه كان هناك بعثيون لكنهم متابعون ومدركون ظروف المرحلة، وكانوا من جذور عائلية مثقفة من النوع الذي تستطيع أن تبني معهم علاقات وحوارات.

كانوا محسوبين على يسار البعث (إن صحّت هذه التسمية) وكانوا يرددون: عقَدنا الجبهة مع الشيوعيين ليس لعيون السوفييت وصداقتهم ولا للمعاهدة التي أُبرمت بهذا الصدد ولا لدور التشيكوسلوفاكيين في استخراج النفط، إنما كانت مصيدة لكشف تنظيماتهم والقضاء عليهم، وهذا ما تمّ فعلاً من خلال تطور الأحداث، لكن دون الإساءة لتاريخهم ونضالهم الوطني. ولتفتيت تنظيمات الحزب الشيوعي العراقي، وأنا مصغٍ لتلك الأحاديث والتحليلات بألم لعدم قدرتي على الردّ أولاً، لربما كان طعماً للإيقاع بي كما كان يحصل زمن المؤامرة الكبيرة حين كان الهدف إلهاءنا والقضاء علينا بشكل نهائي.

# بين بعقوبة وبغداد

كانت بعقوبة حاضنة البرتقال، ملكة جمال الحمضيات، مدينة نهر خريسان والتآخي والإبداع، لا تبعد كثيراً عن قريتنا (الهويدر). وكان طريقنا الوحيد إليها يمرّ عبر شارع مبلّط محاط من الجهتين بأشجار البساتين المثمرة، حيث لا يستغرق وصولنا إليها عبره إلا دقائق معدودة بواسطة عربات النقل.

لكن هذا الطريق لم يعُد سالكاً حين حاصرها الإرهابيون في زمن الاحتلال القذر والطائفية، وغير آمن لأهلها الذين اضطرّهم الأمر إلى استبدال هذا السبيل بالعبور إلى المركز لمقتضيات الحياة اليومية الضرورية ومتطلباتها عبر نهرها الهادئ (نهر ديالى) مستخدمين وسائل نقل مبتكرة بسيطة وبدائية.

في مطلع الثمانينيات كان شارع خريسان في بعقوبة ملتقاي اليومي بصحبة رفاق مميزين تربطني بهم صلة قربى وصداقة، كانت لقاءاتنا يومية تقريباً نختمها مشياً على الأقدام بمحاذاة نهر خريسان متجهين نحو مرتعنا اليومي نادي المعلمين حيث نحتسي كؤوساً من البيرة العراقية (فريدة) طيبة المذاق مع صديقنا ورفيقنا المشترك لطيف صالح (أبو ربيع) ونختمها بصحن تشريب أحمر خالٍ من اللحم نشعر بمذاقه الطيب رغم ذلك. كانت تلك الأيّام وفي ظلّ الظروف التي كانت تمرّ بها البلاد، واحدة من حُرّياتنا اليومية لرفض الحرب واستبداد النظام والثرثرة حول مصيرنا وتأثيرات الحرب ويومياتها المملّة.

في إحدى الأيّام همس لي صديقي سعد عبد عيسى عن أمر خطير، وهو أن هناك استعداداً لالتحاق جماعي من بعض شيوعيي ديالى إلى موقع الثوار

(الأنصار الشيوعيين) في الجبل بعد أن ذاع صيت التجربة وعملياتها العسكرية واخترقت جدار التعتيم وشاعت بين أوساط الشيوعيين مقطوعي الصلة بحزبهم على أثر الهجمة الدموية التي استهدفتهم. ذلك أنه في أوائل الثمانينيات بدأت تنتشر الأخبار وبكثافة عن حجم وقوة ثوار الحزب الشيوعي العراقي في ذُرى الجبال عبر جنود الجيش العراقي في القاطع الشمالي ونشاطات رفاق الداخل وشبكات عملهم الحزبي.

لم تكن تلك التطورات بعيدة عني بحكم عملي الحزبي واتصالاتي المباشرة مع التنظيم والتحاقي في الجبل لأكثر من مرة أثناء دراستي الجامعية، وتحديداً، فترة العطلات الدراسية، ممّا أدى إلى تشخيصي وتحديد هويتي.

كان سعد يحدثني عن نشاطاتهم الحزبية على طاولة السُكر في نقابة المعلمين، فطلبت منه أن يكونوا حذرين ويقظين من كثرة المندسين ومن ألاعيب السلطة وأساليبها الملتوية. لم يذكر لي حينها أسماءهم وأنا لم أطلب ذلك للضرورة الأمنية وتحسباً لأسوأ الاحتمالات متمنياً عليّ أن أكون معهم في المرّات القادمة فوعدته خيراً وأكّدت له أن ذلك غير مستبعدٍ بعد أن أُشيع خبر اعتقالهم وساد الهمس في شوارع بعقوبة بين الناس وفي أزقتها وكثرت الروايات حول اعتقالهم. تفاجأت حينها أنهم من أصدقائي وأناس مقرّبون مني كنت التقيهم مراراً في المدينة.

ذات يوم عند المغيب، مررتُ من أمام حانوت الحاج الراحل صادق الكرّادي والد عبد العظيم الكرّادي فلمحته جالساً على كرسيّ عند مدخل محلّه يتأمل وجوه المارّة وسط ضجيج ذلك الحيّ المزدحم بالناس.

وما أن رآني حتى أومأ لي بإشارة من يده، فهمتُ حينها أن ابنه كان ضمن مجموعة الشبيبة الشيوعية المعتقلين، تجمّد الدم في عروقي لتداعيات وامتدادات الأزمة ونتائجها على أمزجة الناس وعلاقتهم بالحزب، مما جعل إعادة ثقة الناس بهذا الحزب من صلب عمل منظّمتنا.

اتصلت بالرفيق آشتي على هاتف بيتهم في مدينة (كفري)، وطلبت منه لقاء عاجلاً فالتقينا في العاصمة بغداد في المعهد البريطاني في الوزيرية حيث وضعت أمامه صورة السيناريو كاملة، فأكّد لي بأن الطرق مفتوحة وعمل التنظيمات على قدم وساق، ولكن مع وجوب الحذر والانتباه لوجود عملاء ووكلاء وأناس مندسّين. ولم تسنح لي ظروفي أن أكون واضحاً في كلامي مع سعد، ولكن كنت أناقش معه الهدف والأدلة وكيفية الوصول الآمن إلى الجبل، كما تطرّقنا إلى موضوع الحذر والمخاطر المحتملة وأساليب وخبايا ألاعيب السلطة.

بعد عدّة أيام شاعت الأخبار على كل الألسن في شوارع ومنتديات مدينة بعقوبة، بأن الدفعة الأولى من الشيوعيين تحرّكت والتحقت بها دفعة ثانية على نفس الطريق والدليل وبذات آلية الوصول، وبأنهم وصلوا سالمين سالكين طريق جبل (أزمر) في قاطع السليمانية وهم: علي كرادي، عبد العظيم كرادي، أحمد صفر، إبراهيم الخياط، ضامر خليل، عبدالله عبد الرضا وآخرون، ولكن ما الذي حصل حينها؟ عند انطلاق سيارة النقل العمومية التي حملت الدفعة الأولى من قضاء الخالص في ديالى باتجاه مدينة كركوك، تبعتهم سيارات أمن خاصة وأوقفتهم بعد عدّة كيلومترات حيث صعد رجال الأمن إلى داخل السيارة ونادوهم بالأسماء وجرى إنزالهم على مرأى من أعين الركاب وتمّ اعتقالهم، وهذا ما لم يكن في الحسبان.

ولكن ما لم تتوقعه الجهات الأمنية وما غفل عنها، هو وجود شخص من ضمن تلك الدفعة وهو شقيق المغنية العراقية (أديبة) يُدعى أثير كان قد قرر الالتحاق بالمجموعة في اللحظات الأخيرة لذلك لم يكن اسمه مدرجاً على قائمة شرطة الأمن، والذي تأكد لاحقاً أن الأخير كان على علم مسبق بتفاصيل الالتحاق. مما أدى إلى نجاة هذا الشخص من الاعتقال وإفلاته من هذا الكمين، فما كان منه إلّا أن عاد إلى بعقوبة وروى ما تعرّضوا له بالتفصيل.

وبالرغم من ذلك، تحرّكت المجموعة الثانية ووصلت إلى مدينة السليمانية حيث حصلت مواجهات مسلحة بين جهتين من أجهزة الدولة المخابراتية على خلفية اعتقال الشباب كلّ على حِدة لتحقيق مكاسب من هذا الأمر وهذه من إحدى تعقيدات الأجهزة الأمنية العراقية والخلل الموجود داخلها. ومما يؤكد ذلك أنه في صيف 1987 حين نُقلتُ من زنزانة بناية الشعبة الخامسة إلى زنزانة في الأمن العام، تمّ التحقيق معي بأمور لا تمتّ بصلة ولا معرفة بما انتزع مني في زنزانة الشعبة الخامسة رقم 3.

وبالعودة إلى لقائي مع آشتي، فقد كنت قد طلبت منه أن يتحرى عن وصول هؤلاء الملتحقين إلى المناطق المحررة في كردستان العراق وقبل أن أتلقى خبراً مؤكداً عن الموضوع، ذهبت إلى منزل صديقي سعد عبد عيسى في دربونة أم الدجاج فاستقبلتني والدته والدموع تملأ عينيها والخوف بادٍ على محياها، وقالت لي: أخذوا ابني إلى الأمن.

استوعبت الموقف، ولكن الصورة لم تتّضح لي، وفور سماعي هذا الخبر، توجّهت حالاً إلى منزل صديقنا المشترك لطيف صالح (أبو ربيع) في الجهة الثانية من نهر خريسان خلف العيادة الشعبية بمحاذاة كراج سيارات الهويدر، وكان هذا الأخير قد سمع منذ يومين بخبر الاعتقال.

مارسنا طقوسنا الاعتيادية أنا ولطيف بشكل طبيعي، وقفنا على ضفاف نهر خريسان الجميل نتأمل وجوه أهالي بعقوبة العامرة بالطيبة والجمال وهم يجوبون الشوارع كخلية من النحل، وقد ازدانت تلك الشوارع بالفتيات الجميلات من أهلها والقرى المجاورة. وكنا نسمع الإشاعات التي انتشرت عن هؤلاء الشبيبة الشيوعيين وما حلّ بهم، وقد عرفت لاحقاً من الرفيق آشتي بأن المجموعة لم تصل إلى الجبل وجميعهم صاروا في قبضة الأمن.

بعد أيام، علمت بإطلاق سراح سعد، فذهبت إليه على الفور فوجدته

مكسوراً وممتعضاً مما حصل له من تنكيل وإهانات وكان ذلك واضحاً على محيّاه. في خطوة غير محسوبة ومحفوفة بالمخاطر، طلب مني سعد الذهاب معه إلى ناحية (أبي صيدا) لزيارة السيد سلمان أبي داود، وهو شيوعي قديم، وكان متعهداً للسفرات والمناسبات الحزبية الوطنية للشيوعيين، حيث كان يملك باصاً كبيراً وضعه في خدمة الحزب، التقينا به في منزله في صالونه الشرقي جلوساً على الأرض، ودار بيننا حديث مطوّل حول تطوّر الأحداث، وقد عرفت لاحقاً من سعد جدوى هذه الزيارة إلّا وهي تقصّي الحقائق عمّا جرى، لعلّه كان على علم ببعض التفاصيل.

بعد أشهر عديدة من الاعتقال في مبنى مديرية أمن بعقوبة، وفي أحد الأيّام، بلّغ رجال الأمن أولياء المعتقلين بأمر الحضور إلى قاعة كبيرة حيث تمّ جمعهم مع معتقلين آخرين وأوليائهم بحضور مدير الأمن العام فاضل البرّاك الذي أعدمه نظام صدام في ما بعد لإطلاق سراحهم بمكرمة رئاسية هي في حقيقتها تعزيز الجيش العراقي الذي كانت أعداده تتناقص بعد أن مُني بخسائر جمّة.

كان ذلك في العام 1983 وبعد اشتداد الحرب إذ صدرت قرارات مجلس قيادة الثورة بالعفو عمّن بقي حيّاً من المعتقلين في إطار مكرّمات الرئيس صدام حسين، وما أن خرج المعتقلون الشيوعيون من معتقل الأمن، حتى اجتاحت مدينة بعقوبة جملة من الإشاعات والاتهامات وحيكت قصص حول ما حصل لهم داخل مربع السجن الأمني. بقيت وما زالت هذه القضية ولسنوات قريبة محطّ جدل واتهامات وألغاز بين تلك المجموعة عمّن كان وكيلاً للأمن، ومن كان متعاوناً معه، ومن الذي تجرأ على تسليمهم؟ وظلّت هذه القضية موضع جدلٍ يُثار بين حين وآخر مع سيل من الاتهامات لكن دون أدلة ومستندات، وبقيت تلقي بظلالها السلبية على منظومة تلك العلاقات بين الرفاق والأصدقاء أبناء المدينة الواحدة.

من خلال عملي في منظمة الصدى، بدأتُ التحرك على الرفاق الذين كانوا

وما زالوا يبحثون عن الحزب ويتقصّون أخباره ممّن تقطّعت بهم السبل إلى طرق الوصول للاتصال بالحزب الأمر الذي لم يكن سهلاً آنذاك في ظل تلك الظروف العصيبة، في زمن قاحل وسط غابة من الذئاب تفتك بك عند أول فرصة وتجعلك في عداد الضائعين والمفقودين، فالعمل السياسي في ظلّ هذه الظروف يعد ضرباً من التحدي والعناد ومحفوفاً بالمخاطر حدّ مواجهة الموت، أي بمثابة انتحار جماعي (عائلي).

الاختيار الأول وقع على من بات وضعه خطيراً وحياته مهدّدة في جبهات الحرب المشتعلة بين الدولتين الجارتين الذي كان محفوفاً بالمخاطر والخوف وخطر الموت إذا انكشف أمره للسلطات ووكلائها الذين كانوا بأعداد كبيرة من الشيوعيين وممن وقّعوا على المادة 200 من قانون العقوبات سيئة الصيت، وممّن أصبحوا ملاحَقين من قبل زمر البعث الذين أرهقوهم في عملهم وحياتهم، فيبلّغون عنك سرّاً لأجهزة الأمن محاولة منهم في التخلّص من عقد الاتهام والشبهة والملاحقة المرهقة، وقد وقعت بالفعل حالات كثيرة مماثلة، قسم منها ليس بقليل أدّى إلى استشهاد نخبة من الرفاق الشيوعيين مما جعل الأمر خطيراً وشاقاً.

أعود قليلاً إلى عام 1972 الذي بدأتُ فيه حياتي السياسية من خلال المنظمات المهنية واتحاد الطلبة والشبيبة في قرية الهويدر، وبحكم طبيعة القرية وتركيبتها السكانية وعلاقاتها الاجتماعية، كنت أنا شخصياً إنساناً مندفعاً وبقوة غير هيّاب لسطوة وخطورة البعثيين، بل خضت معهم من البدء معارك وصدامات بطريقة عشائرية واجتماعية بعيداً عن أي موضوع له علاقة بالوعي والإدراك، بهذا الاندفاع بدأت حياتي السياسية المبكرة، ومن بقي حياً ممّن واكب هذه الفترة قد يذكر تلك الأيّام، وبعضهم اختبأ تحت عباءة الإسلام السياسي ممارساً دوره السابق ولكن تحت شعار جديد وفقاً لمتطلبات الوضع السياسي المستجد الذي أوجده المحتل وأعوانه.

انتسبت إلى عالم الشيوعية في ريعان شبابي ولم أكن أفقه منها شيئاً سوى شعار زوجة أبي الأولى الراحلة زهرة (بيه): «وصانا فهد دولة اشتراكية ننزل للقبر.. واحنه شيوعية».

في بداية تلك المرحلة السياسية المعقّدة والمخيفة، كانت النقاشات في قرية الهويدر بين الرفاق القدامى والجدد وبين المنتمين وتاركي التنظيم، تحصل على تخوت مقاهي القرية وبين أزقتها الضيقة متصاعدة ومحتدمة وحذرة، بين متّفق ومختلف، ورافض وغاضب، على خلفية نيّة قادمة تلوح في الأفق حول اتفاق (شيوعي بعثي) تحت شعار الجبهة الوطنية والقومية التقدمية.

على ضوء ذلك، ارتفعت أصوات معارضة شديدة واستنكار واستهجان من المحسوبين على جناح القيادة المركزية التي تمخّضت عن الصراع الفكري (الحزبي) الداخلي في 17 أيلول عام 1967 مع تعاطف رعيل من المناضلين الشيوعيين القدامى والطرف الآخر المحسوب على اللجنة المركزية ممثلاً بقيادة الحزب الرسمية وأعضائها يبررون ويحللون سياسياً مستشهدين بتجارب وتحالفات وأقوال حول الانعطافات، والعقلية البرجوازية الصغيرة وكوامن ضعفها في الأمور الثورية والتحالفات السياسية وصلح (برست ليتوفسك) وضرورته وأفكار (ديمتروف) حول الجبهات الوطنية في بناء المجتمعات.

ذلك الصراع الفكري والسياسي لم يكن بمعزل عن خبايا ونوايا البعثيين في تأجيجه لاستثمار نتائجه في تشتيت وحدة الشيوعيين الفكرية والسياسية الوطنية وذلك برصّ صفوفهم وتقوية نفوذهم الداخلي ومدّ جسور من العلاقات والصداقات مع العالم الخارجي عبر بوابة الشيوعيين والعلاقات الأممية. وقد لمع نجم الشيوعي عامر عبدالله في تلك الحقبة الذي عُيّن وزيراً والذي التقيت به بعد سنوات طويلة من النضال، وسوف آتي على ذكره ومعرفتي الوثيقة به لاحقاً.

في مطلع السبعينيات، وعلى التخوت العتيقة لمقاهي قرية الهويدر في محافظة ديالى، كثر الهمس والحديث بين الروّاد عن أمور البلاد، مقرونة بالتحاليل والتنبؤات عن شراكة سياسية قادمة بين البعثيين والشيوعيين، وطي صفحة الماضي القريب المخضّب بالدم والعداء. وكان اسم الراحل عامر عبدالله الأكثر تردداً على مسمعي، وأنا الصغير طري العود في الفهم والاستيعاب، تلك الشخصية التي تركت علامة فارقة في مسيرتي السياسية، شأني شأن المئات من شيوعيي فترة الجبهة الوطنية مع البعثيين، والذي أصبح اسماً لامعاً في صدارة تلك الأحداث ومعطياتها.

# منظمة (الصدى) 1982

في اتّصال معه مؤخراً بصدد تدوين ما أمكن ممّا يذكره عن منظمة الصدى، ذكر النصير الشيوعيّ آشتي الشيخ عطا الطالباني قائلاً:

«أنا كنت المسؤول الأول والمؤسِّس لمنظمة الصدى، وكان معي بقيادة الصدى محمد دانا جلال المغنّي والشهيد صارم حسن الزهاوي الذي اعتقل وأعدم عام 1981، نحن الثلاثة أسّسنا منظمة الصدى. توفي الرفيق محمد دانا جلال عام 2018.

تأسست منظمة الصدى عام 1978 ـ 1979 في بغداد، ولا أتذكر العدد الحقيقي إنما كانت ركائزنا في بغداد في الأوساط الطلابية (جامعات المستنصرية وبغداد والتكنولوجية)، وكذلك في كركوك وكفري والسليمانية وأربيل والبصرة وبعض المناطق الأخرى. وبعد تشكيل منظمة الصدى بادرنا بالاتصال بالحزب عن طريق مام صالح عام 1980.

كان الشهيد صارم من طلاب جامعة البصرة، وقد هرب واختفى في بغداد، وبعد سنة من تأسيس الصدى، انتقل إلى الجنوب والفرات الأوسط بهدف توسيع الركائز والقاعدة الحزبية، إلا أنه اعتقل في عام 1981، ولم يعترف بأيّ سر من أسرار الحزب ومنظمتنا الفتيّة. وبعد سنوات عرفنا بأنه قد تمّ اعتقاله بموقف بطولي نادر، ورغم أشد أنواع التعذيب فقد قاوم وأُعدم بعد ذلك. كان قائداً ميدانياً صارماً ومبدئياً وشجاعاً بمعنى الكلمة.

وكان في معظم لقاءاتنا يقول: إذا تم اعتقالي فلا تخافوا فسوف لن أنهار

تحت تعذيب هؤلاء السفلة. ولكن أمنيتي أن تستمروا بعدي وبدوني. وفعلاً فقد ألهمتني هذه المقولة حينها وكانت لي وللرفيق الراحل محمد دانا قوة كامنة محفزة دوماً.

في شباط 1979 كتبنا واستنسخنا أوّل بيان باسم الحزب الشيوعي العراقي دون علم قيادة الحزب لعدم وجود أي اتصال، إذ استنسخنا بخطّ اليد 500 نسخة في بغداد وتمّ توزيعها داخل معظم كليات جامعة بغداد والمستنصرية والتكنولوجية وعدد من إعداديات الثورة وشارع فلسطين وأكثر من 12 باصاً من باصات المصلحة وعدد من المحلات. وكنتً قبل استنساخها قد عرضتُها شخصيّاً على عميّ (د. مكرّم الطالباني) فاستحسن مضمونها. وبعد بغداد تم استنساخ نفس النصّ وتوزيع 60 نسخة في كركوك و250 نسخة في البصرة و50 نسخة في الحلة. وهذا أول نشاط لنا تقريباً شارك معظم التنظيم به.

في جلسة لقاء ثلاثي ضمّنا؛ محمد دانا، صارم وأنا ـ والحديث ما زال للرفيق آشتي ـ في الحديقة المحاذية لشارع القناة. وبعد استعراض الوضع الأمني والسياسي، تم الحديث دون ذكر الأسماء عن الركائز وتوسيعها واتخذنا قراراً حول هيكلية التنظيم وكتابة شعارات أينما أمكن تندّد بجرائم البعث وقمنا بحملة لجمع تبرعات.

أولاً ـ حول الهيكلية: تم تقسيم التنظيم إلى ما يلي؛ يكون تنظيم الجنوب والفرات الأوسط تحت إشراف صارم. وتنظيم بغداد والوسطى تحت إشرافي. وبشكل مشترك مع محمد دانا كنّا نشرف على تنظيم الشمال. وخلال ثلاثة أشهر توسّع التنظيم والركائز. حيث أفرزنا التنظيم على أساس (أ): وهم العناصر المعتمدة جداً وكان العدد يتراوح ما بين 25 ـ 30، و(ب): وهم العناصر غير الفعالة إن صحّ التعبير، يعني أن يكونوا محطات عند الحاجة. وكان كل واحد منّا لديه علاقات واسعة مع الكثير من الناس الطيبين والجيدين.

ثانيا ـ حول كتابة الشعارات: خوّلنا كل ركيزة للمبادرة وكتابة الشعارات

باستعمال الأصباغ على الجدران والواجهات حيثما أمكن، أو استعمال قصاصات ورقية أو كارتونيّة واستعمال أقلام (الماجك) أينما أمكن.

ثالثا ـ بخصوص حملة التبرع: خلال ثلاثة أشهر تمكّنا من جمع مبلغ قدره 775 ديناراً، أما صارم فقد وفّق في إيجاد عمل مع أحد المقاولين، وتمكّن لوحده من جمع مبلغ 1200 ديناراً.

بعد انتهاء الثلاثة أشهر تمّ اللقاء والاجتماع الآخر لتقييم الموقف والجدول الإنجازي المكان بالوزيرية قريباً من جمعية الثقافة الكوردية ولم نجلس هذه المرة، بل كنا نتمشى بشوارع الوزيرية ونناقش ونتابع أمورنا... وكنا فرحين جداً بالجدول الإنجازي».

انتهى حديث الرفيق آشتي. أما عن علاقتي مع (الصدى) فبحكم الحياة الجامعية الجديدة، وفي كلية مثل الآداب في جامعة بغداد، والعلاقات مفتوحة على مصراعيها بين الطلبة والأساتذة، كان العراق حينها يشهد نهضة كبيرة على كافة المستويات، تنمية، تقدم اجتماعي، تطور علمي ونهضة إعمار نتيجة تدفق عائدات النفط الكبيرة عليه، فرغم الحذر والخوف الشديدين اللذين كانا يعتريانني من كل التفاصيل داخل الحرم الجامعي، بيد أنه تكوّنت لي شبكة من العلاقات المتنوّعة والواسعة. القسم الأول من العلاقات أبعد عني كل الشبهات من حيث مراقبتي سياسياً باعتباري مستقلاً وغير بعثي، فقد انتميت إلى منظمة (الصدى) الشيوعية وكنت على اتصال مباشر مع مسؤولها الحزبي آشتي الشيخ عطا، الطالب في قسم الاقتصاد في الجامعة المستنصرية، بدأت معرفتنا بشكل عاديّ، ومن ثم تكرّرت لقاءاتنا عبر عدة مناسبات ومن خلال أصدقاء مشتركين حاملين نفس المصير والهموم، وأيضاً من خلال جلسات مشتركة جمعتني به أكثر من مناسبة وأخذت منحىً آخر وتطورت في لقاءات المعهد البريطاني في الوزيرية من خلال أماسيه ومحاضراته في شتاء العراق القارص، وكنا هناك ننسّق ونرتّب تحركاتنا السياسية بعيداً عن مراقبة السلطات.

أما الصف الأول من العلاقات، فقد كان في وضح النهار وأمام مرأى مسؤولي البعث في الكلية: حسون علوان السامرائي، عبد القادر، محمد عبد الكريم الزبيدي، نضال نوري، انتصار محسن السعدي، نضال شاكر، أنعام هنيدي أنكاته، محمود صالح، عروبة رائد، حسن الناصري وسعد الناصري. تلك اللقاءات اليومية مع زملائي منحتني الوقت الكافي في ضبط أموري وترتيب أوراقي بأقل تقدير على المدى القريب، أنا القادم من القرية إلى رحاب واسع الاحتمالات، المهووس بطموح سياسي في عراق تعتصره مخاضات سياسية متعدّدة وباتجاهات مفتوحة وخطيرة.

في البدء، كانت منظمة الصدى تضمّ عدداً محدوداً جداً من الرفاق موزَّعين على بقاع العراق، كان مركزها الرئيسي مدينة كركوك، داخل الوسط الطلابي الجامعي، وفي بغداد يمثلها ويقودها وينسّق بين أطرافها بشكل فعلي الطالب آشتي الشيخ عطا، وكانت علاقتي به مباشرة وفي فترة قياسية من العمل السياسي السريّ.

امتد التنظيم وتوسّع وشمل قطاعات واسعة من الشعب العراقي نتيجة فراغ سياسي شهده الشارع العراقي في هذه الفترة بعد حملات القمع والإرهاب التي شنّها البعثيون ضدّ كل قوى الشعب المعارض لنهج الفاشية الجديد في الاستحواذ على مقدرات البلد ووقف عجلة التطور والتلويح بالحرب. تمكنا من أن نمدّ أواصر الصلة بين تنظيمات كانت تفتقر إلى التواصل بينها عبر خيوط حزبية وبلقاءات فردية. تلك العلاقات التي انقطعت من هول وقساوة الحملة الشرسة ضدنا وتهميشنا، ومحاولة القضاء على تاريخنا المخضب بدماء شهدائنا عبر مسيرة طويلة من النضال والتضحيات ترجمت بحملة البعثيين التي انطلقت ولم تتوقف منذ مجيئهم في تموز 1968 إلى السلطة عبر «الانقلاب الأبيض» كما يسمونه في أدبياتهم.

كان دور منظمة الصدى مؤثراً وفعّالاً في مدّ صلات وعلاقات واسعة،

وتحديداً بين الأوساط الطلابية، وقد بدأ صداها يمتد إلى أبعد بقعة في مدن العراق، فقد كان هناك عزم ومعنويات لا تكلّ لمواجهة البعثيين رغم شراستهم في متابعتنا وتغيبنا إذا اقتضى الأمر. بدأنا نوزع الجريدة وأدبيات الحزب ونشاطات الثوار الأنصار في الجبل وتقارير اللجنة المركزية بيننا، وفي داخل أروقة الكليات. كانت أكثر لقاءاتي تتم مع آشتي في المعهد البريطاني في الوزيرية، وأحياناً داخل نادي الجامعة المستنصرية وسط ضجيج الطلبة وهمساتهم، هناك كنا نرسم خططنا بالعمل من أجل خلاص الوطن.

أنا شخصياً، كنت أشعر أن هناك عيوناً تطاردني وتتابعني أحياناً وفي أوقات مختلفة، وهذا ما ولّد عندي، لا إرادياً، حسّاً أمنيّاً عفويّاً. كنت حذراً بمستوى المهام الملقاة على عاتقي، لم تكن تلك المراقبة تتعدى أسوار كلية الآداب، ولهذا كنت أحصر نشاطي بعد انتهاء الحصص الجامعية لأكون بعيداً عن عيونهم. لم يكن سهلاً عليّ مفاتحة الناس ورفاقنا القدامى بالعودة إلى التنظيم وتحديداً في محافظة ديالى (قرية الهويدر) وأنا ابن تلك القرية. فقد كنت أحسّ بضجرهم وقوة تمردهم على سياسة النظام ورفض الحرب والحنين إلى الماضي في النشاط الشيوعي، فكانوا يبادرون بسرد الذكريات عن تلك الأيّام الماضية في الألفة والثقافة.

ورغم ذلك، كنت حذراً ويقظاً في التعامل معهم، إلّا أنني كنت أتمنى وجود بعض الرفاق ممن كانت علاقتي بهم وطيدة كعدنان صافي الأنصاري، عزيز إسماعيل الشيباني والشهيد طالب عبود جميل (علي عرب)، فقد كنت أمدّهم بأخبار الحزب وأسلّمهم بعض الأدبيات وأستشيرهم ببعض الخطوات والتحركات على أقل تقدير في المدى القريب.

# أنور المزوري والمصادفات الثلاث

كان يوم السبت، الثالث عشر من آب 1983، هو آخر يوم في حياتي المدنية بعد الاعترافات التي أدلى بها للاستخبارات العسكرية الكادر المدني للاتحاد الوطني الكردستاني (أنور المزوري) المعتقل عندهم بسبب وشاية مندسّ في التنظيم، وعلى أثرها اقتحموا بيتنا في القرية فلم يُتح لهم القبض عليّ، وعلى إثر ذلك اضطررت لترك قريتي وحياتي المدنية ودراستي الجامعية، وكنت في المرحلة الثالثة منها. وكان السائد أن الإنسان يفضل الموت على الوقوع بين أيادي أجهزة المخابرات العراقية، فالعمل السري المعارض في تلك المرحلة (الحرب العراقية ـ الإيرانية) من عمر حزب البعث كان أقرب إلى الانتحار أو الموت بعينه، لأنهم سوف لا يتركون وسيلة إلّا ويستخدمونها مع خصومهم السياسيين بما فيها القتل بلا تردّد أو رادع قانوني أو إنساني يعترض سبيلهم.

تعرفت على أنور صدفة في قرى (شهرزور) في قاطع السليمانية عام 1982 عندما كنت طالباً في كلية الآداب جامعة بغداد وأتردد في نفس الوقت على تنظيم الأنصار في الجبل، قبل شهرين من محاولة اعتقالي في سهل شهرزور في مهمة وصول الشهيد طالب عبود جميل (علي عرب) ملتحقاً بالأراضي التي يسيطر عليها أنصار حزب الشيوعيين العراقيين مع القوى المعارضة الأخرى وكان هو من مدينة (كفري). وقد ذهبت ذات مرّة إلى الجبل لمهام مستعجلة، كنت حينها أتجول في القرى مع المفارز وكان معي النصيران عبد الزهرة عباس (أكرم) وخضر عبد الرزاق (سليم) حيث كانا ملتحقين قبل شهور قليلة، وكنت أنا الذي رتّب طريقة التحاقهم إلى كردستان. وفي أحد

الأيام توزعت مفرزتنا في بيوت إحدى القرى الكردية لتناول طعام الغداء، فصادفت في هذا البيت أنور الذي بادرني بمعرفته باللغة العربية وصار يتكلم معي بالعربي. وبحكم تجربتي البسيطة في العمل السياسي واندفاعي فقد قمتُ بدعوته إلى بيتنا في الهويدر، وبالفعل فقد لبّى دعوتي وقام بالزيارة وقد قضى ليلتين معي. في العام 1983 اعتُقل أنور من قبل الاستخبارات العسكرية في منطقة (كلار) وأدلى باعترافات كاملة عن التنظيم والعلاقات، وعن معرفته لي كشيوعي له اتصال بالأنصار وكيف أنه زارني في بيتنا في الهويدر.

وقد سبق للصديق محمد صادق شيبه (أبي مروان) مع الراحل عصام، ونحن نتسامر على تخوت مقهى الراحل أبي ستار، أن مازحني بقوله «أيامك قرّبت»، والهدف من ذلك تنبيهي، وحصل الأمر في الليلة التي سبقت المداهمة، حيث اعتدنا السهر ليلياً في مقاهي الهويدر الجميلة، وكانت المعلومة مستقاة من الاعترافات التي أدلى بها أنور المزوري في مديرية استخبارات قضاء كلار في محافظة ديالى، والتي كان أبو مروان أحد منتسبيها. ومن باب العلاقة القروية، بكوني قد أكون مستهدفاً، وهكذا فأن الصدفة لعبت دورها أيضاً إذ كنت يومها قد جئت للبيت خفيةً وخرجت قبل عشر دقائق من المداهمة، وكنت حينها أتخفّي في البساتين القريبة من بيتنا المطوّق بعناصر الأمن، ومن هنا قرّرت أن أتسلّل خفية للالتحاق بالأنصار في الجبل.

وبعد أن تردّد كثيرون في مساعدتي، تمكّنت من الإفلات من أجهزة السلطة بأعجوبة خارقة، بواسطة ابن العم الراحل مهدي حميد الشوربة (أبو زينة) الذي قام بتهريبي في سيارة حمل على أنها تنقل حمولة يومية من الفاكهة من بساتين الهويدر إلى أسواق السعدية مخبّأً تحت أقفاص الرمان، لأصل بعدها إلى مبتغاي. كان ذلك آخر عهدي برائحة الرمّان الهويدراوي.

تمكنت في نفس اليوم من الوصول إلى أقرب قاعدة حزبية مدنية. وصلت سالماً إلى كفري ثم إلى كركوك ومن كركوك إلى السليمانية فدربندخان حيث

القاعدة، وتفصيل ذلك سيأتي بعد أن أذكر الصدفة العجيبة التي جعلتني ألتقي بالمزوري ثانية.

ففي صيف عام 1987، أي بعد أربع سنوات على تلك الحادثة، وحين كنت مختفياً في بيت الشيخ عطا الطالباني أيضاً بعد أن أُطلق سراحي من التوقيف في استخبارات الشعبة الخامسة، التقيت في بيت الشيخ بضيفي السابق أنور المزوري، فعرفته على الفور قبل أن يتعرّف عليّ، وعرّفته بنفسي بحضور (كريم كومنست)، فدهش لذلك وحدّثني كيف أنه كُلّف من قبل النصيرين سليم وأكرم لغرض الاتصال بي والحصول على مبلغ من المال، فوقع في كمين للاستخبارات وجد عنده رسالة موجهة لي شخصيّاً. وبعد ضغط شديد حسب ما روى لي قاد مفرزة من الاستخبارات إلى بيتنا في قرية الهويدر بعد أن انهار تحت التعذيب الذي تلقاه على أيدي مجرمي الاستخبارات العسكرية واعترف عندهم بمعرفته بي كشيوعي وكيف أنه زار بيتنا في الهويدر وقضى فيه ليلتين، ثم أبدى اعتذراً شديداً مني لأنه قام بذلك الاعتراف الذي أدى للمحاولة الأولى في القبض عليّ، وقادني من التنظيم المدني إلى القتال.

أعود لتفاصيل هروبي فأقول إني وصلت إلى قرية أحمد برناوا منتعلاً صندلاً جلدياً قديماً صيفياً ودشداشة بيضاء مقلمة، وهو الزي التقليدي للأهالي في قرية الهويدر، بحيث تمكنت به من الخروج متخفياً من القرية إلى حيث حشرني ابن عمي أبو زينة بين أقفاص الرمّان وترجّلت في مكان فارغ من الشارع العام الرابط بين ناحية السعدية ومدينة جلولاء، ومن ذلك الشارع، ركبت التاكسي إلى مدينة كفري. وهنا سألني السائق عن وجهتي فأجبته بأنني أنوي الذهاب إلى كفري فقال: «وين رايح إلى كفري؟ فيها عصاة ومخربون وفي الليل تكون خارج سيطرة الدولة». فأجبته إن أختي متزوجة في المدينة، وجئت لإخبارها بأنه جاؤوا بأخي شهيداً من جبهات الحرب، فتعاطف معي وعرض علي أن ينتظرني ويرجعني إلى دياري، فأخبرته أن زوج أختي لديه

سيارة وسوف يتكفّل بالأمر، فأبدى مزيداً من التعاطف معي ورفض أن يأخذ أجرة السيارة.

نزلت وسط المدينة ومشيت قليلاً عكس اتجاه البيت المقصود تحسباً للطوارئ، وبعدها توجهت إلى منزل الشيخ عطا الطالباني، الذي كان جالساً تحت قمرية عنب في مدخل داره الواسعة، ولدى مشاهدته لي على عتبة الباب، بادرني بالقول مبتسماً: هو أنت العربي الي معترفين عليك ويبحثون عنك؟ فقد كان يتابع خطوط الاعترافات بحكم علاقاته الواسعة في مبنى منظومة الشمال للاستخبارات العسكرية.

في قرار جريء، وبعد نقاش قصير مع رفيقة حياته أم گوران، قرّرنا التوجّه حالاً إلى مدينة كركوك في سيارته الخاصّة خوفاً من أن أكون متابعاً ويقتحموا المنزل. انطلقنا في طريقنا وكانت أم گوران تجلس إلى جانبه، وأنا أجلس في المقعد الخلفي مع ابنتهما شيلان التي كانت حينها من ضمن الطلبة الأوائل في العراق لمرحلة السادس الإعدادي، وصلنا بعد ساعات إلى تكية الطالبانيين في مدينة كركوك حيث التقيت هناك برفيقي آشتي وقضينا الليل مع نسائمه المنعشة على سطح المجمع السكني لعدة بيوت متداخلة على سفح في مدينة كركوك، قضيناها في الحديث عمّا جرى، وعن خطط للمستقبل وأحلام وأمنيات بسقوط الدكتاتورية.

في الصباح، توجّهت إلى مدينة السليمانية مع الشيوعي المخضرم كريم كومنست، وقد اتفقت يومها مع الراحل والمناضل الشيوعي شيخ عطا الطالباني مدير بلدية قضاء كفري، أن يوصل ملابسي القروية إلى ابنة عمي المهندسة ساهرة مجيد في مديرية الزراعة والإصلاح الزراعي في مدينة بعقوبة لتكون دليلاً على سلامة وصولي بأمان.

وقد روى لي الشيخ عطا عن صعوبة الموقف حين ذهب في سياق زيارته

الرسمية للمنطقة، وعن تردّد وخوف ساهرة من حصول هذا الأمر في دائرة رسمية مع شخص مهم تلتقيه لأول مرة، فتبادر إلى ذهنها سؤال عن علاقة هذا الشخص بالشيوعية وهو مدير بلدية لموقع مهمّ في مدينة كفري؟ لقد استطاعت بدورها وبطريقتها أن توصل الخبر إلى الراحلة والدتي وطمأنتها عن مصيري، في حين أن أصدقائي عدنان صافي وذاري كاظم الذي كان في نشوة شهر العسل، وعصام زهدي وأخي أحمد، ما زالوا قيد الاحتجاز في دوائر الاستخبارات.

لقد أُجبرت على ترك حياتي الطبيعية والقرية وناسها ومقاعد الدراسة الجامعية والذكريات والرفاق والأصدقاء، لأبدأ مرحلة نضال مرّة ومؤلمة، لكنها حقيقية ومهمة ومفيدة، دعتني إلى إعادة النظر، من خلال قراءاتي وتجربتي البسيطة المتواضعة بمواقفي السياسية والوطنية انطلاقاً من الأدبيات الماركسية مثل قانون الديالكتيك وتذبذبات البرجوازية الصغيرة وعلاقتها بالإنتاج والاقتصاد السياسي ومبدأ التحالفات السياسية كاستراتيجية وتكتيك.

# بـداية العمل في الجبل

كان يوم 13 آب 1983 كما قلتُ هو اليوم الأخير في حياتي المدنية، فقد أصبحت من يومها مطلوباً للسلطات، وصار البحث عني جارياً على قدم وساق. في هذا اليوم بالتحديد حيث وصلت إلى قرية أحمد برناوا في سهل شهرزور الممتد طويلاً على تخوم أكثر من قصبة ومدينة، قادماً بسيارة تاكسي من قضاء دربندخان التابعة إلى التنظيم المدني مع اثنين من الرفاق الكرد بعد أن تنقلت متنكراً عبر خطوط التنظيم من قضاء كفري إلى مدينة كركوك ومنها إلى مدينة السليمانية بحثاً عن منفذ آمن يوصلني إلى مفرزة شيوعية في ذرى كردستان أو موقع للحزب.

في يوم قائظ من شهر آب اللهاب، وبعد أن تجاوزتُ عدّة مفارز وأماكن خاضعة لسيطرة النظام، في تجربة تضاف إلى رصيدي الشخصي في تجاوز الصعاب أثناء العمل السري، اتخذت زاوية في مسجد قرية أحمد برناوا، بين الرفاق سلام العگيلي والشهداء محمد وردة (أبو جيفارا) ومحمد الخضري (أبو جلال)، الوجوه المشرقة وممثلي قيادة التنظيم في المنطقة الوسطى. وبجانب محرابه، رحت في جولة سريعة حول وضعي وما حدث لي شخصياً، والوضع السياسي عامة في العراق وتداعياته الخطيرة على كافة المستويات. يومها أطلق علي الشهيد محمد الخضري (أبو جلال) الاسم الحركي لطيف (كاكا لتيف) وقد رافقني هذا الشرف من رفيق أعتز به وبمواقفه وأخلاقه الرفيعة من يوم 16 آب 1983 إلى 28 آذار 1988 وهي مدة بقائي في الجبل مع الثوار الذين أصبحتُ ضمن مفرزتهم، أتجول معهم في القرى والجبال

والوديان وأرافقهم في الحصول على وجبات الأكل الشحيحة، من بيوت قرى كردستان ثلاث مرات يومياً، والتي غالباً ما تكون من حصصهم وحصص أطفالهم، لكنهم كانوا يقدمونه لنا بكل ممنونية، وهذه من مآثر شعبنا الكردي في مؤازرته لنضال أشقائه من الشيوعيين العراقيين.

كانت حدود التنظيم المدني للمنطقة الوسطى من خارطة العراق ممتدة من ديالى وتكريت والرمادي والكوت إلى العاصمة بغداد، والتي كانت مفتوحة لنشاط وعمل جميع التنظيمات المدنية الشيوعية الموزعة بين الجنوب والفرات الأوسط والمنطقة الوسطى.

بعد أحاديث سريعة ومختصرة مع الرفاق، وارتداء ملابس وعدّة النضال، وهي عبارة عن شروال وبشتين وجمداني ورشاشة مع عدة شواجير مليئة بالرصاص ورمانة يدوية ـ فقد كانت هنالك أخبار ومعلومات تفيد بنيّة النظام في مهاجمتنا ـ وبدأ التحاق رفاق بنا وزجّ رفاق آخرين إلى تنظيمات الداخل؛ صار غذاؤنا اليومي هو سرّ تحركاتنا، وكانت منظمة الفرات الأوسط أيضاً تتجوّل معنا وتعمل في سهل شهرزور، وقد تعرّفت على بعض الرفاق عن قرب فكانوا مناضلين رائعين منهم الشهيد أبو جهاد وأبو داود السماوة وأبو فرات الديوانية والشهيد أبو بشرى والشهيد أبو سالار والشهيدة أم ذكرى وزوجها الراحل أبو ذكرى وعدنان الطالقاني أبو هيمن، والأخير هو سكرتير محلية السماوة أيام الجبهة مع البعثيين، حين سألت عنه يوم جاء من بغداد بسيارة خصوصي خافياً رقمها في لوحة، إلى المناطق المحررة، وعاد بها محمّلاً في صندوقها سلاحاً ورصاصاً ومصطحباً رفاقاً بجانبه وخلفه، سألت يومها الشهيد أبا جلال عنه، وقلت له: «واحدة من اثنتين، لو بطل جيفاري لو عميل مخابراتي؟» فرمقني بنظرة تعبيرية مصحوبة بابتسامته الهادئة المعهودة، ففهمت حالاً فحوى إجابته.

في الوقت الذي كنا نمرّر أدبيات تنظيماتنا الحزبية إلى جماهير الحزب عبر خرم الإبرة، نجوت بأعجوبة من مفارز الاستخبارات العسكرية التي طوقت

بيتنا والقرية بموجب وثيقة اعتقال بحقي، بصفتي (شيوعي ناشط)، وهي الكنية التي نعتوني بها في الوثيقة التي وصلتني عبر أقربائي بعد احتلال العراق 9 نيسان 2003، والتي اطّلعت عليها موقّعة من قبل (علي حسن المجيد) في البحث عني.

# بداية العمل مع الأنصار

عندما قررنا كتنظيم منظمة الصدى، التحرّك باتجاه الشيوعيين مقطوعي الصلة، بعد أن سيقوا إلى جبهات الحرب عنوة وزجّ بهم في الخطوط الأمامية في حرب طاحنة، معرّضين للموت في كل هجوم محتمل للقوات الإيرانية؛ كنت أعمد إلى الحديث معهم لإنقاذ حياتهم ولمدّ حركة الأنصار الشيوعية بدماء جديدة، فمن الأسماء الهويدراوية التي عرضتُها أمام عدنان صافي (أبو حنان) والدكتور عزيز الشيباني كلّ من عبد الزهرة، عباس التيتو، خضر جعفر عبد الرزاق والشهيد طالب عبود جميل. فتحرّكتُ شخصياً إليهم وتمّت مفاتحتهم كل واحد على حِدة. تجاوب الجميع معي ولكن بتردّد خوفاً من الفكرة في الأصل، مع تساؤلات عديدة استمرت لأيام وحتى شهور قبل الموافقة والرفض، مقرونة بهاجس الخوف وتداعيات ردود الأفعال من رجالات السلطة ومصير أهلهم لو اكتُشف أمرهم.

تبنّيت أنا شخصياً الأمر وقمت بدور مباشر على طول خط إيصالهم بأمان إلى المناطق المحررة بين الأنصار الشيوعيين ومقاتلي الأحزاب ليخوضوا التجربة عن قرب. وكان أحدهم الصديق طالب عبود جميل (علي عرب) الذي استشهد في معركة بطولية، حسب ما روى لي الآخرون. فقد كان مستميتاً ومستبسلاً إلى أن سقط بشجاعة منقطعة النظير في مناطق (كرميان) في آخر «أنفال» حكومي عام 1988عقب نهاية الحرب العراقية ـ الإيرانية.

أما عبد الزهرة عباس فقد عاد من الجبل إلى قرية الهويدر متخفّياً بعد

أن أمضى في الجبال بين الأنصار الشيوعيين ما يقارب عاماً كاملاً، وبحكم خوضه التجربة عن قرب ميداني وما أعطته من حماسة ومعنويات عالية، فقد عاد محمّلاً بمشاريع وخطط أقرب إلى الخيال، وكان عازم النيّة على تشكيل فصائل مسلحة تنطلق من بساتين الهويدر في زمن كان النظام فيه في عزّ جبروته وقوته والجميع خائف ومتردّد من خوض العمل السياسي. فلم يكن سهلاً حينذاك أن تحيّد موقفهم لصالحك وأن تجد آذاناً صاغية لسماعك ليُعدّ بمثابة انتصار لك، فكيف بالأحرى سيكون موقفهم لو عرضت عليهم خططاً بهذه المسؤولية الكبيرة والخطيرة؟

اختار عبد الزهرة عباس، الآتي متنكراً إلى القرية، بيتنا، فأوى إليه ليكون مكان انطلاق لعمله الجديد رغم خطورة الموقف ومسؤوليته ونتائجه الوخيمة في ما لو انكشف أمره. قامت الراحلة والدتي باستقباله وإخفائه عن أفراد العائلة، وكنت حينها ضيفاً مع الراحل عصام زهدي عند صديقنا الدكتور عزيز الشيباني في مدينة الموصل حيث يدرس هناك.

ذهبت الوالدة إلى أهله في خطوة خطيرة آنذاك، فرفضوا أن يلتقوا به ورجوها بأن تطلب منه الرجوع من حيث أتى وإلا سيبلّغون عنه البعثيين في القرية. بعد أيام، عدتُ من مدينة الموصل وتفاجأت بوجوده في بيتنا وتناقشنا طويلاً بحضور أصدقاء آخرين حول أفكاره وصعوبة حتى التفكير بها وكيف السبيل إلى تحقيقها في جوّ سياسي خطير، فأخبرني بعد أن يئِس من موقفي باستحالة تحقيق حلمه على أرض الواقع، بأن الأمر بمثابة انتحار جماعي.

أراد أن يلتقي بمجموعة من رفاقنا القدامى حيث ما زال مصرّاً على آرائه وأحلامه الطوباوية ومن دون أساسات واقعية، فتأكد لي بأن فضاء التجربة في الجبل لها وقعها القوي على اندفاعه وحماسه. وحسب رغبته، تحرّكتُ على الأسماء التي حدّدها لي، فكان الصديق الوحيد الذي اقتنع بلقائه الراحل ماجد صبري، وكان موقفه متشدّداً تجاهه وطالبه بالعودة سريعاً إلى الجبل

أو ترك البيت والانتقال إلى منزل ذويه، قبل أن تحلّ بنا كارثة، وخاصة ببيت أم محمد، بيتنا.

زرت أنا شخصياً الراحل محمد الدفاعي (أبو قاسم) وكان موقفه لا يقلّ شدّةً عن مواقفنا بسرعة تدبير أمره، وإلّا كعائلة، سوف نعرّض أنفسنا إلى إبادة جماعيّة في ما لو كُشف أمره إلى السلطات، وتهديد عائلته لنا بأنهم سيبلغون البعثيين عنّا إذا لم يتم إخراجه من المنزل. وبعد أن سُدّتْ كلّ المنافذ أمامه وتبدّدت أحلامه الطوباوية، قرّر الرحيل وترك المنزل والعودة إلى الجبل على أن نتدبر نحن أمر خروجه بأمان. وجازفنا بتوصيله إلى الجبل في رحله شاقة مع الشهيد عمر أحمد إسماعيل أحد ناشطي منظمة الصدى والطالب في معهد الآداب في جامعة بغداد ووصوله آمناً إلى مناطق بشتاشان عبر منافذ مدينة (راوندوز). تمّ ترتيب خروجه من البيت بالتنسيق مع أخي باسم الذي رافقه في منتصف ليل ذلك اليوم وقام بإيصاله إلى مدينة الخالص، ومن هناك شقّ طريقه ووصل بسلام إلى مناطق (كرميان) المحرّرة بيد الثوار.

بعد تلك الخضّة التي هزّت الجميع، آثرت إعادة ترتيب القضايا بطرق أخرى تجنباً لمكائد النظام، فعدتُ إلى نشاطي من جديد واضعاً ضمن حساباتي أسماء أخرى سأتحرك عليها لاحقاً للالتحاق بالثوار ممن تعذّر عليه العمل الحزبي في الداخل لأسباب شتى وظروف صعبة، مثال عبد الكريم جعفر الكفشي، الشهيد ثامر البغدادي، أحمد حسن السعدي وذاري كاظم، ولكن الوقت لم يسعفني، فقد تعرّضت لمحاولة الاعتقال التي دفعتني لأن أذهب أنا أيضاً إلى أراضي الأنصار الشيوعيين وأصل إلى مواقع الثوار في الجبل في آب 1983.

عرفتُ حينها أن عبد الزهرة عباس (أكرم) وخضر عبد الرزاق (سليم) قد تركا مواقع الأنصار وسلّما نفسيهما إلى حرس الحدود الإيرانية باعتبارهما جنديين هاربين من جبهات الحرب. وفي حينها لم تمضِ شهور على خطط عبد الزهرة الطوباوية في إحياء تجربة الأنصار الشيوعيين في بساتين قرية

الهويدر، وقد عاشا في طهران، وظلّ التواصل بيننا قائماً عبر الرفاق الذين يذهبون للعلاج في مستشفيات طهران بأوراق الأحزاب الكردية.

في صيف عام 1985 كنت في موقع (هزارستون) في جبل سورين، تلقيت أخباراً تفيد أن النصيرين السابقين عبد الزهرة عباس وخضر عبد الرزاق قد عادا من إيران من نفس النقطة التي خرجا منها موقع (كرجال) في منطقة مصيف (أحمد آوه) باتجاه مدينة مريوان الإيرانية. في جبال (كرجال)، مقر قيادة قاطع السليمانية وكركوك للحزب الشيوعي، بقيادة أحمد باني خيلاني ومساعديه إبراهيم الصوفي (أبو تارا) ومحمد النهر (أبو لينا) وطه صفوگ (أبو ناصر)، عاد النصيران بعد أن ضجرا من الحياة في طهران وحصار الغربة وشظف العيش، وهما يعرفان بمكان وجودي، ولكني كنت قد ابتعدت عن هذا الموقع لموقف شيوعي قبل ثلاثة أشهر سأتوقف عنده طويلاً بيني وبين نفسي.

ويُقال أنهما حين وطئت أقدامهما أرض المقرّ، سألا عنّي وقالا إنهما جاءا ليلتقيا بي لمعرفة أخبار أهليهما. في تلك اللحظة الحرجة، رفضَت قيادة القاطع بالإجماع استضافتهما حتى لليلة واحدة لحين ترتيب وضعهما والعودة بهما إلى إيران مجدداً، كان الشهيد طالب عبود جميل (علي عرب) موجوداً في المقرّ يومها ولم يتّخذ موقفاً من منطلقات استحقاقية واعتبارية ومناطقية، كونهما من أبناء منطقته وأنّهما رفاق سابقون وأبناء قرية واحدة، بل تماشى موقفه مع الجو العام برفضهما. وعندما عاتبتُه بعدها، برّر لي بأنه قرار حزبي ولا بدّ من العمل به، ولم يبق أمامهما سبيل للمعروف إلّا الاتصال بي. ورغم المسافة الطويلة بيننا ومخاطر الطريق كونهما غير مسلحين، في وقت كان السلاح والبارود و(الجمداني والبشتين) يعبّر عن ثقافة القوة والاستحواذ في جبال كردستان.

وعندما عرفت قيادة القاطع بالأمر أرسلت لي خصيصاً برقية لإبلاغي رسمياً وحزبياً بعدم استقبالهما والمنع الباتّ في السماح لهما بالبقاء في

المقرّ ولو للحظات. كان موقفاً غريباً لا يمتّ بصلة لروح الرفقة ومجرّداً من أي موقف إنساني وأخلاقي، لكنني تعاملت معه بأصلي ولاعتبارات إنسانية ونضالية وحتى مناطقية، وبلا تردّد، قمتُ بما يمليه عليه ضميري الشيوعي، ولم أستجب لأوامر القيادة، بل استقبلتهما بكل اهتمام، حيث قضيا ليلة كاملة معنا وودّعناهما في الصباح منطلقين باتجاه الأراضي الإيرانية طالبين اللجوء مرة أخرى وبأسماء مغايرة وسيناريو جديد.

لوّحت لي قيادة القاطع بالعقوبات باعتبار أن ما فعلته يُعدّ خرقاً حزبياً وتنظيمياً، لكن صدى صوت الخيرين والشجعان منع ذلك الإجراء غير المبدئي والذي لا يخلو من ضيق أفق وجهل سياسي دافعه أولاً وآخراً الحقد والضغينة.

كانت رحلة قاسية في الجبال، كما رويا لي عنها لاحقاً، أدّت بهما للوصول إلى مناطق بشتاشان المواقع القيادية لأنصار الحزب الشيوعي العراقي التي تعرّضت فيما بعد إلى إبادة من قبل مقاتلي حزب الاتحاد الوطني (أوك) في يوم 1 أيار 1983.

# صراعات داخلية

أصبح عمل الصديق عدنان الأنصاري (أبو حنان) في بنك الرافدين في خريسان، محطة مرور حزبية للرفاق، فكانوا يتسللون من الجبل لإيصال منشور أو خبر سياسي أو توجيه حزبي، كما كانوا يندسون بين جموع الناس الذين كانوا يراجعون معاملاتهم اليومية في البنك. وفي مساءات الهويدر، غدت شواطئ نهر ديالى المطلّة على بستان (مال كاووري) قبالة حي بعقوبة الجديدة، خان (اللوالوة) سابقاً، ملتقانا اليومي في الحديث عن السياسة والأدب والنساء، بحيث كان عدنان يتحفنا يومياً بنصوص أدبية وشعرية تلامس شغاف الروح عن الحب والعلاقات، فيتلو علينا قراءات شعرية وخواطر وتأملات عن الحب أثناء غروب شمس الأصيل وانبلاج ضوء القمر بلوحة سريالية على سطح ماء نهر ديالى الزلال الصافي.

في أسلوب تصاعدي للحملة على الشيوعيين نهاية عام 1977، تفنّن البعثيون في طرق اعتقالنا وتفتيت تنظيماتنا التي لم تهدأ يوماً. والملفت في الأمر، أن الرفيق المعتقل لا يمكث في دوائرهم سوى ساعات، سواء وقّع على المادة 200 أم لم يوقّع، منعونا من ممارسة أي نشاط سياسي إلّا في داخل صفوف حزب البعث، فقد فرضوا حظراً سياسياً وشعبياً كاملاً ومرعباً على رقاب الناس في الحديث بالسياسة وفي التجمعات، وقد نجحوا إلى حدّ ما بهذا الأمر، ولكن بمرور الأيّام، تجلّت الحقائق بأبهى صورها، بحيث دخل النظام وسياسته في نفق مظلم جرّاء معاداته للحريات والمعتقدات وبالتلويح الدائم بالحروب التي أطاحت به لاحقاً إثر الغزو الأمريكي (الإمبريالي) لأرض العراق عام 2003.

بعد عام من تلك الحملة المسعورة ضدّنا ونتائجها السلبية في حساباتهم الأمنية في حقل البيدر، غيّر البعثيون سياستهم تجاهنا واعتمدوا أسلوباً جديداً للحدّ من صمودنا وعزيمتنا، فالمُعتقل منّا يُغيّب تماماً في سجونهم ومعتقلاتهم «أي يصبح في خبر كان»، ولكن ذلك لم يكن بمعزل عن صمود الشيوعيين وبطولاتهم في تحدي أساليبهم القمعية. بحكم عملي الجديد في منظمة الصدى، وكعضو حزبي أيضاً، كنت أنسّق مع قيادات تنظيمات المنطقة الوسطى ما بين عامي 1980 و1983، فعندما التحقت بالثوار في الجبل إثر واقعة الهويدر المشهودة صيف 1983، انفصلت تنظيمياً من منظمة الصدى وأصبحت ضمن تنظيمات المنطقة الوسطى في التنظيم المدني (العمل الداخلي)، فنشاطنا وقوة تحركاتنا وشبكة علاقتنا الواسعة في منظمة الصدى كانت ملحوظة ومؤثرة في أوساط الشيوعيين في عموم العراق.

بدأتُ العمل في بغداد والمركز كركوك، وامتد إلى ديالى ومحافظات أخرى عبر عدة قنوات اتصال، كان نشاطاً مركّزاً ومدروساً وموجهاً وفق أسس وقواعد معلوماتية دقيقة، على من سنتحرك وما هي المهام الملقاة على عاتقنا في عملنا اللاحق، وهو العمل على من كانوا محسوبين على ملاك الشيوعيين ومن قُطعت صلاتهم بالحزب بسبب ظروفهم الخاصة والصعبة في الداخل، فقد كان لهيب الحرب وحريقها يقتربان منهم، ففتحنا لهم سبلاً للالتحاق بفصائل الأنصار في جبال كردستان، وانتشلنا البعض من الرفاق ممّن كانت حياتهم في خطر وباتوا في أمان مثال: خضر جعفر، عبد الزهرة عباس، الشهيد طالب عبود، وحيد دبش، الشهيد فهد عبد الجبار عبود (محمد عرب) الذي مات عام 1984 في غرفة مقرّ الفوج التاسع في منطقة (باني شهر)، حين انفجرت عليه قنبلة من باب الخطأ، كان يحملها في حزامه فوق «البشتين».

الشيوعي الشاب فهد من أهالي مدينة الكاظمية من عائلة كادحة ومناضلة وقد ودّعني ربيع عام 1982 في منطقة النهضة ببغداد ملوّحاً لي عبر نافذة السيارة المتوجهة إلى مدينة كركوك على أمل أن نلتقي في عراق خالٍ من الدكتاتورية والحروب، وقد التقيته مرة أخرى بعد سنوات، فوجدته ما زال ذاك المناضل العنيد في مواجهة الصعوبات. بقي جسده المدفون بين صخور ذلك الوادي الرهيب شاهداً على بسالة الشيوعيين وتضحياتهم الجسام.

يوماً بعد يوم كان تذمر الناس من الحرب وويلاتها وآثارها على البيئة والمجتمع يزداد، وقد كثر عدد الرافضين لها والهاربين من الخدمة العسكرية لشراسة المعارك على طول جبهات الحرب وطول مدتها الزمنية بعيداً عن أي أفق قريب يلوح بنهايتها المأساوية، فقد تشكلت في بعض المدن والقرى، ونتيجة طبيعتها الديموغرافية التي ساعدت كثيراً، تجمعات مناهضة للحرب وداعية إلى المواجهة المسلحة مع قوى النظام.

ففي صباح يوم من عام 1982 شُنّ هجوم عسكري بقيادة ضابط أمن بعقوبة حسن العنبكي مع بعثيي الهويدر على أعداد كبيرة من الرافضين للحرب باقتحام بيوتهم وأوكارهم في بساتين الهويدر، يومها ألقوا القبض على الشهيد أخي فليح، ومات يومها العسكري مهدي رضا الليلو الذي قضى أثناء هروبه بقارب في مياه ديالى متوجهاً إلى قرية السبتية المحاذية لقرية الهويدر، حيث أمطروه بوابل من الرصاص أدى إلى مصرعه داخل قاربه.

بدأت تلك التحديات والمواجهات تشكّل بطريقة أو بأخرى، قلقاً دائماً لرأس النظام وحاشيته مخافة من تطوّرها وتنظيمها لتتحوّل إلى حركة منظّمة معادية لهم ومشكّلة خطراً على بنية نظامهم ومهدّدة بإزالته، هذا الأمر جعلهم يُصعّدون حملاتهم لقمع الناس، وتجلّى ذلك في قراراتهم الدموية الإجرامية بإعدام رافضي الحرب وسط المدن والقرى وأمام مرأى من الناس وإجبار أهاليهم على دفع ثمن الرصاصات التي يطلقونها على الجندي الرافض

للحرب والهارب منها. كل ذلك كان يُعدّ انتهاكاً صارخاً للإنسانية وحقوق البشر وقوانين الأرض والسماء.

كان موقفنا كشيوعيين واضحاً في إدانة الحرب وتداعياتها على مصير الشعبين، ورافضاً احتلال أرض الغير بالقوة، لما في ذلك من ترسبات سلبية على حياة الناس وأثرها الكبير على بنية المجتمع. أما النظام، فقد سخّر كل جهوده للحرب، فقد عسكر البلد بالكامل باعتبار أن هذه الحرب هي وطنية والواجب يقضي بالدفاع عن «البوابة الشرقية للوطن العربي». ومن هذه المنطلقات، كان النظام ومؤسساته القمعية يفتك بحياة الناس والمعارضين بذريعة الحرب والدفاع عن الوطن، مما جعل الأمر كابوساً بالنسبة للجميع، فقد أمعن تمزيقاً في بُنية العائلة العراقية الواحدة وبنسيجها الاجتماعي، فأصبح الأب يقتل ابنه الرافض للحرب والالتحاق بوحدته العسكرية، والأم تبلّغ عن ولدها الذي يمتنع عن الالتحاق بجبهات القتال. فتكرر المشهد الدرامي بتدفق شهداء الحرب العائدين إلى الهويدر من الجبهات ملفوفين بالأعلام العراقية وسط استنكار ورفض من أهالي القرية تكاد تتحوّل إلى مظاهرات ضد النظام وسياسته كما حدث مع الشهيدين حسين عباس الططو ورشيد زهدي.

رافقَت سنوات الحرب جوقات من الطبّالين والمدّاحين والمنافقين، أكثرهم من المثقفين والأدباء والشعراء والمغنّين، يتسابقون بتهافتٍ ونفاق وكذب إلى مواكبة التطور في البلد، وكانوا ممن بدّلوا جلودهم بتبدّل الأحوال في العراق. فقد أفسدوا ذائقة العراقيين في السمع والذوق والمستوى. فعندما تعرّض العراق للاحتلال تصدروا مشاريعه وعمليته الطائفية التي فتّتت نسيج المجتمع العراقي برمته وحولته إلى كانتونات ومليشيات وطوائف متناحرة، وقد انضووا تحت عنوان عريض: اتحاد الأدباء في العراق.

قلة منهم حافظت على مواقفها وانتمائها على أقل تقدير، وتنحّت جانباً

ملتزمة الصمت. ولكن من أصبح طبالاً مع سياسة النظام وحروبه خرج وقال معترفاً: أنا شاعر سلطوي. ولكنّ من كان أخطر منهم، هو من غيّر ثوبه الزيتوني إلى العمامة، والذي لم يكلّ عن مهاجمة الآخرين الذين عارضوا النظام وسياسته الهوجاء ممّن ضحوا بالغالي والنفيس. فقد تحوّل هؤلاء بين ليلة وضحاها من مدح صدام وحروبه إلى الحسين ومظلومية أهل البيت.

وفي معرض ما كان يحصل، أستحضرُ في ذاكرتي ما قاله شارل ديغول القائد الوطني الفرنسي الذي أنقذ بلاده من الاحتلال النازي، معلقاً على دفن المارشال الفرنسي بيتان الذي تعاون مع هتلر على احتلال فرنسا، في مقبرة العظماء: «لا مكان للخونة بين عظماء فرنسا من أمثال فكتور هيجو وفولتير»، وبالفعل فقد منع دفنه في تلك المقبرة.

وكما أستحضر أيضاً التجارب العالمية في زمن الحروب والاحتلالات وكيف كان من الطبيعي أن يتصدّر مثقفوها في التصدّي للدفاع عن أرضهم وبلدهم وثقافتهم وتاريخهم، ومثلما أخذنا فرنسا في زمن ديغول مثالاً على ذلك، صار لا بدّ لي أن أتكلم عن الكاتبة والفيلسوفة سيمون دي بوفوار رفيقة جان بول سارتر الذي رفض جائزة نوبل للآداب، حين دعمت المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازي وكانت تنزل إلى الشارع وتوزع بيانات تحثّ بها الناس على مقاومة الاحتلال، هي نفسها وقفت ضد سياسة بلدها في احتلاله للجزائر وطالبته بالانسحاب الفوري من أراضيه. كما دعمت مقاومة الشعب الفيتنامي ضد الغول الأمريكي، فكانت بذلك نموذجاً يُقتدى به من مفكّر ومثقف.

لقد استشهدتُ بشارل ديغول الذي قاد فرنسا إلى برّ الأمان بعد تحررها من الاحتلال النازي والذي تنحّى بعد اندلاع ثورة الطلاب عام 1968 معلناً استقالته من رئاسة الوزراء ونأى بنفسه بعيداً عن لعبة السياسة حيث قضى ما تبقى من عمره في مقاطعة بأطراف باريس متمنياً للشعب الفرنسي

السلام والهدوء والبناء، وأن يرى فرنسا في مصاف العالم المتطور. وعندما جرت الانتخابات، منحه الشعب الفرنسي الثقة مرة أخرى. فرشّح حينها الكاتب الفرنسي أندريه مالرو وزيراً للثقافة في حكومته، وارتباطاً بهذا الموقف، أقدم الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات بعد محادثات أوسلو، على الاقتراح على الشاعر الفلسطيني محمود درويش بأن يكون وزيراً للثقافة في السلطة الفلسطينية الجديدة فردّ عليه محمود درويش بهذه العبارات: «لا أنت شارل ديغول ولا أنا أندريه مالرو، ولا باريس هي القدس ولا القدس هي باريس».

دامت الحرب الإيرانية ـ العراقية ثماني سنوات، كانت هناك دول داعمة ومستفيدة ساهمت بالمال والإعلام والدعاية لدعم استمرار هذه الحرب وسدّ الطريق أمام المشروع الإيراني المعلن عنه في تصدير الثورة إلى بلد مثل العراق وتأثيره على جيرانه، فكانت نسبة لا يستهان بها من سكان العراق تتناغم مع شعار المشروع الإيراني من منطلقات تاريخية وطائفية، حيث بنوا قناعاتهم على وقائع مختلقة يرفضها المنطق ولكنها تتماشى مع السياسة الإيرانية الجديدة في توسيع رقعتها السياسية على أسس مذهبية طائفية. في الوقت الذي كان المرجع الديني أبو قاسم الخوئي في حوزة النجف رافضاً هذا المنطق وغير مؤمن بولاية الفقيه، داعياً إلى دولة مدنية بعيداً عن توجهات إيران الإسلامية.

في عملي الحزبي اللاحق، كنتُ أواكب التطورات ضمن آلية التنظيم ووضع خطط لتطويره، فأخذَت المهام والمسؤوليات تتّسع وتكبر من خلال تعاطف واضح من قبل الشارع مع تحركاتنا في بناء تنظيمات جديدة، مما عزّز من تواجدنا بين الجماهير على مختلف المستويات الشعبية والعلمية والاجتماعية والثقافية، فاتصالي المباشر من خلال صعودي ونزولي إلى الأراضي المحررة في جبال كردستان، وأنا طالب جامعي، زاد من خبراتي التنظيمية واللوجستية

والتكيّف مع التطورات بمجال عملي بحيث توسّعت قنوات الاتصال على أكثر من مجال وقناة ومسار.

في ذرى كردستان وجبالها، نلتقي يومياً ونتعرّف على أنصار ورفاق شيوعيين من كافة الأراضي العراقية، يتوزعون على القرى والجبال حاملين هموم شعبهم وتطلعات وطنهم وحبهم لمبادئهم ويحلمون بوطن غده أفضل. يرتدون زيّهم الكردي التقليدي (شروال، جمداني، بشتين) ويحملون سلاحهم العقائدي التقليدي. فكنت كلما تجولت في قرى وسهول شهرزور مع الشهداء أبي جلال وأبي جيفارا والطيب سلام العگيلي من مدينة الخالص، أتعرّف على رفاق جدد وأسماء سرايا وأفواج جديدة، وأسمع قصصاً عن النضال وقيم المناضلين وتجارب الشعوب فيها. فكان كل نصير منّا حاملاً حزمة من الأمنيات والأحلام الطوباوية أحياناً.

كانوا يسألونني مراراً: لماذا أتيت إلى هنا والنظام على حافة الهاوية يحتاج فقط إلى من يوجه له ضربة صغيرة على أركانه ليتهدّم؟ وكنت أستغرب من هذه القراءات السياسية غير المبنية على أسس صحيحة، فأصمت بادئ الأمر، ولكن كان لا بدّ لي من قول الحقيقة ونقل الصورة الحية عن الواقع المؤلم في الشارع العراقي، فالبعث الصدامي يحتاج مرحلة نضال طويلة لنتمكن من خدشه ولو قليلاً، وهذا ما حاولتُ إيصاله إليهم ذات مرة، حينها كان الشهيد محمد وردة (أبو جيفارا) موجوداً ومصغياً لما أقول، فأشاد بموقفي قائلاً: هذه هي صورة الواقع الحقيقية للنظام أيها الرفاق، كاكا لطيف هو ابن الواقع المرّ، ومحقٌّ في كل ما قال، فعلاً، يحتاج البعث دهراً من النضال حتى ننال منه. فسادَ الهمس بين الأنصار ممن كانت تراودهم أحلام اليقظة بأنه في يوم من الأيّام سيسمعون بيان رقم واحد من أحد الضباط البعثيين يتلوه عبر المذياع يعلن فيه عن سقوط النظام.

وقد حدّثني أحد الرفاق المسؤولين بأن حديثي قد يهبّط معنويات الرفاق

مشيراً علي في أن أتركهم لأحلامهم، سيّما وأني قد نلت بعض الانتقادات والاستغراب لقراءتي الصريحة للواقع العراقي سرّاً وفي الخفاء.

والمؤسف أن الكثيرين منا انتموا إلى الشيوعية دون أن يقرؤوا حرفاً واحداً عن الماركسية ولا عن الشيوعية، وعندما قرؤوا عنها باتوا أمام تساؤلات عقلانية وميل إلى النقد في منهج ماركس، لذلك اختلفت عندهم التصورات وتقاطعت الرؤى.

في صيف عام 1984، قصد كاظم حبيب للإشراف على قاطع السليمانية وكركوك، وكان مندوباً من قيادة الحزب للنظر في التصدعات الداخلية التي أصابت هيكلية عمل القاطع، عسكرياً وسياسياً وتنظيمياً وجماهيرياً، على ضوء تداعيات أحداث بشتاشان وما نتج عنها من تكتلات واستياء وتذمر وعصيان في بعض السرايا والأفواج، واتفاقية قرية ديوانة بين المسؤول الأول في القاطع بهاء الدين نوري ومسؤول تنظيمات الاتحاد الوطني الكردستاني ملّا بختيار التي كانت تنصّ على عدم الاقتتال بين الاخوة ووجوب اللجوء إلى المفاوضات والسلم والهدنة. وقد لاقت تلك الاتفاقية الرفض والاستهجان من القاعدة الحزبية في قاطع السليمانية وكركوك، وأدت إلى انسحابات من مواقع الثوار باتجاه إيران، لا سيّما بعدما حصل في بشتاشان، وصدور بيان تساوميّ رُفض حزبياً هو الآخر بعد أسرِ كريم أحمد وأحمد باني خيلاني. وقد أذيع البيان من إذاعة الاتحاد الوطني الكردستاني وكان وقعه مدويّاً بين الرفاق، خصوصاً بعد قتل الأسرى إضافة إلى الشهداء الذين اغتيلوا غدراً، وقد شنّ كاظم حبيب في أحاديثه وندواته هجوماً شديداً ضد بهاء الدين نوري، وتناول أيضاً تطورات الوضع السياسي والحرب العراقية ـ الإيرانية، محاولاً مغازلة قاعدة الحزب الرافضة والمعترضة والمحتجة بسبب هزيمة بشتاشان وعدم مُساءلة القيادة.

كنت حاضراً في إحدى الندوات كوني ضمن مفرزة حمايته في مقر قيادة

القاطع في منطقة كرجال إلى مناطق باني شهر، وكان قد أجرى عدة لقاءات قبلها في مقر القاطع، وما بقي عالقاً في ذاكرتي من تلك الأمسية حين سأله الرفيق سالار، دكتور في الاقتصاد من جامعة بلغارية، حول تعريف الاقتصاد المشوّه، حيث بدأت سلسلة تعليقات وتندّرات من الرفاق وكان أجملها من النصير جليل الطفل ابن الحزب المدلّل والملتحق من مدينة السليمانية والمنحدر من عائلة فقيرة، والذي تربى ونشأ بين أحضان الشيوعيين وبات مقاتلاً شرساً؛ فكان جواب كاظم حبيب أيضاً: نحتاج سنوات طويلة من النضال حتى «نخدش» ظهر النظام فحسب، لا إسقاطه، فنظرت إلى الذين كانوا مستغربين ومتعجبين من آرائي قبل عام مضى ولسان حالي يقول: هو ذا الواقع الذي لم تنقلوه، وهو عكس ما صوّره كاظم حبيب قبل ذلك، والقيادات الحزبية تلك التي تقول إن النظام آيل إلى السقوط، خصوصاً بعد أن التقط النظام أنفاسه وحشد طاقات حزبية وعربية ودولية لصالحه ضدّ إيران.

كانت حملة العسكرة أو التجييش قائمة على قدم وساق لدفع كادر الحزب المعترض إلى كردستان وإبقائه هناك أقرب إلى رهينة، في حين أن العمل الأنصاري هو عمل تطوعي. وقد تعرض الكثير من الرفاق إلى عقوبات قاسية بل إلى العزل والتهميش بسبب اعتراضهم على قرار عسكرة الحزب وإرسال الرفاق والرفيقات إلى كردستان، من رفيقة تحمل في أحشائها طفلاً، إلى رفيق مريض، موهمين إياهم بأنهم سوف يطلقون آخر رصاصة على نعش النظام الآيل إلى السقوط، ليصطدموا عند وصولهم إلى الجبل بالواقع المرير فتهتز قناعتهم ويصبح الأمر عبئاً عليهم، وتتحمل القيادة غير المدركة أو المدركة مسؤولية ما تعرض له المئات من الرفاق، سواء الذين سقطوا شهداء أو الذين تعرّضوا إلى أمراض مزمنة أو الذين اضطروا إلى ترك الحزب أو فصلوا منه أو حتى بعضهم ممّن عاد إلى الداخل ولاقى ما

لاقى بينما بقية القيادة في مكانها تتمتع بالامتيازات وتتصارع في ما بينها على المواقع كما حصل في المؤتمر الرابع.

لذلك أخلص إلى القول: حين تواجه عدوك، لا بد لك من إعطائه حجمه الحقيقي واتخاذ وسائل نضال صحيحة في مواجهته، وأن يكون خطابك واقعياً ومتزناً لمرحلة نضال حقيقية تتناسب مع تطلعات الجميع التوّاقة إلى الحرية والعيش الآمن، وفي بناء دولة ترضي طموحهم وآمالهم.

في تلك السنوات، كان الاقتتال شديداً مع الاتحاد الوطني الكردستاني (أوك)، ضمن مواجهات وتصاعد يومي على الصعيد العسكري والميداني والإعلامي، بسبب جريمة بشتاشان وما خلفته من انتكاسات وتراجعات في مستقبل مشروع المعارضة في كردستان العراق، وكان ذلك بسبب تحالف الاتحاد الكردستاني مع البعث في استهدافنا، فغدا من الصعوبة التوغل إلى القصبات والمدن والاتصال بالجماهير، فقد انحسرت مهامنا إدارياً في بناء المقرّات والخفارات والمحاضرات.

في تلك الأيّام، وعلى ضوء أحاديث سابقة، طالبت قيادة التنظيم بعودتي إلى بغداد بعد أن سبقني إليها الشهداء أبو جلال، أبو جيفارا، أبو غسان، نجم عرب، محمد عرب، الذين هم أعضاء في نفس التنظيم، منظمة المنطقة الوسطى. وتسلمت حينها جملة من التوصيات والخطط وخطوط اتصال بهدف استعدادي في أية لحظة أن أكون مهيأ للنزول، ولكن إحكام قبضة مقاتلي الاتحاد الوطني الكردستاني على مخارج ومداخل تحركاتنا بعد إعادة مفاوضتهم مع السلطة، أخّرت من توجهي إلى بغداد.

# عزل بهاء الدين نوري

بعد كارثة أحداث بشتاشان وتداعياتها على مستقبل التجربة وما تركتها من خروج رفاقي جماعي من الجبل وترك مواقع النضال باتجاه دول الجوار وأوروبا، تصاعدت وتيرة الصراع بين قيادة الحزب، وكان أول الغيث عزل بهاء الدين نوري عن مسؤولياته العسكرية والحزبية وهو في خضم تعزيز خطوات الحياة الحزبية من خلال إجراء انتخابات (ديمقراطية) على مستويات الهيئات الحزبية والخلايا، لكنه وبعد عزله وتعيين الراحل أحمد باني خيلاني مسؤولاً للقاطع، وكردّ فعل سريع منه، بدأ يلوح بالإعلان عن نشر وثيقة التقييم حول سياسة الحزب الشيوعي العراقي وتحديداً عن فترة الجبهة الوطنية مع حزب البعث واختلاف المواقف من العام 1968 إلى العام 1979، لا سيّما وأن قيادة الحزب الشيوعي تحذّر من مغبة ذلك وتأثيراتها السلبية وتداعياتها على سير التجربة ومعنويات الرفاق وكشف المخفي، وكان القرار الحزبي (القيادي) يطلب منه تأجيلها لحين عقد المؤتمر الرابع وطرحها للنقاش والتصويت.

تطورت الأحداث بوتائر سريعة وظهرت للعلن طبيعة العلاقات الرفاقية بين قادة الحزب الشيوعي العراقي، فأعلن بهاء الدين نوري عن تشكيل تكتل جديد تحت اسم (القاعدة) وذلك امتداداً لاسم جريدة الحزب المركزية، لا سيّما في فترة تولّيه سكرتارية الحزب من العام 1949 لغاية 1953، حين كان شاباً يافعاً قادماً من قرية كردية نائية معلقة على سفح جبل في ناحية قرداغ بعيداً عن المدينة والمدنية (قرية التكية).

وفي محاولاته المستمرة، قام بهاء الدين نوري بإصدار نشرات داخلية

هدفها فضح السياسة الداخلية السابقة للحزب، وتحديداً مع حزب البعث طيلة مدة العمل الجبهوي وعشية التوقيع على ميثاقها الوطني والقومي، ثم وزعها على القوى السياسية (الكردية) في قاطع السليمانية وأربيل حيث وصل بعضها إلى النظام عبر عملائه في المنطقة، وفي تطور خطير انضم إليه ملّا علي مسؤول التنظيم العسكري وسرية حلبچة بقيادة توفيق الحاج وإخوانه وأبناء عشيرته وشخصيات أخرى، وبدأ الصراع يأخذ مديات خطيرة في التشهير والتلويح بالتصادم العسكري واستقدام قوة عسكرية إلى مناطق شهرزور بالتعاون مع قوات الاتحاد الوطني الكردستاني المتحالفة مع قوات البعث من خلال مفاوضاتها الجارية منذ عام وقبل جريمة بشتاشان فكانت نتيجتها تلك الجريمة.

شكلنا مفرزة بقيادة محمد النهر (أبو لينا)، المستشار السياسي لقاطع السليمانية وكركوك، ورافقناه أنا والشهيد أبو عناد بالتنسيق مع قواتنا الموجودة في شهرزور، لإنهاء هذا الصراع، لكن المحاولة باءت بالفشل، بل كادت أن تؤدي بنا إلى كارثة. ومن خلال اللقاءات التي لم تثمر نفعاً ولم تُجدِ حلاً حتى من باب الهدنة المؤقتة، في خضم تلك التطورات الخطيرة، تمردت علينا أيضاً سريته العشائرية (الرفيق فتاح كلالي).

كان الطرفان مستبدّين بمواقفهما ومتخندقين استعداداً للانتقام والقتل بين رفاق الأمس وأعداء اليوم، حيث بدأت عمليات مطاردة على أطراف القرى في سهل (شهرزور) كادت أن تؤدي إلى إبادة جماعية للطرفين، مما دعا الطرف الآخر لأن يستعين بقوات الاتحاد الوطني وقوات البعث لشن هجوم علينا ومحاصرتنا من خلال أخبار أهالي القرى والمتعاطفين معنا، وفي ليلة قمرية، وفي لحظة عصيبة وسريعة وغير مدروسة، انسحبنا بشكل جماعي ومرتبك إلى جبل سورين عبر طريق عربد ـ حلبچة، بعد أن التحق إبراهيم صوفي (أبو تارا) المسؤول العسكري الأول في القاطع، بقواتنا في سهل شهرزور،

فتوسمنا به خيراً لإنهاء هذا الملف الساخن وذلك بحكم موقعه، لكن الأمور خرجت من يد الجميع، وبعد شهور من الوعيد والتهديد ومن التشهير وبثّ سموم الانتقام، فُضّت من خلال تدخلات ووساطات عشائرية عبر شخصيات سياسية وعلاقات خاصة، على حساب المواقف والمبادئ، طالما بدأت تلوح في الأفق القريب صفحة جديدة من المشاورات والرسائل المتبادلة عبر وسطاء لم يكونوا أمناء في نياتهم، وأزيد على ذلك امتدادات علاقاتهم مع أجهزة النظام، في معمعة تلك التطورات الخطيرة والمتسارعة والمحتدمة بين الفصائل المسلحة في الجبال ووديانها.

إن البيان المشترك المدوّي، الذي جرى بين الاتحاد الوطني الكردستاني وقادة حزبنا الأسرى في معتقلات بيشمرگة الاتحاد الوطني (أوك) كريم أحمد وأحمد باني خيلاني وقادر رشيد، كان ولا يزال موضع تساؤل واستغراب واستهجان وغضب من أعضاء الحزب وجماهيره، ففي الوقت الذي أُريقت فيه دماء رفاقنا ولم تجفّ على صخور بشتاشان وسفوح جبل قنديل ودشت أربيل وقرى السليمانية، إضافة إلى المعلومات المؤلمة التي تردُنا يومياً عن إعدام كوكبة من رفاقنا العرب تحديداً وذلك بدوافع قومية شوفينية حاقدة ومتخلفة في سجون الاتحاد الوطني الكردستاني، وبعد أن فُكّ أسرهم إثر مواقف مخزية ومعيبة؛ يأتي أحمد باني خيلاني كمسؤول أوّل لقاطع السليمانية وكركوك خلفاً لبهاء الدين نوري الذي تمّ عزله بقرار حزبي فوقي بعيداً عن التقاليد الحزبية (الديمقراطية)، فزاد الاستياء حول وجوده في فوهة التمرد والعصيان والانتقام، وانتهى عبر وسطاء مهمين ومؤثرين على مجرى القرار وتغيره.

التحق بهاء الدين نوري ورفاقه بمقراتنا وخيموا في مصيف أحمد آوه قاطع حلبچة، وكنت زائراً دائماً لهم رغم التحذيرات من التقرب منهم وحملة التشويهات التي طالتهم، حيث وصلت بنا الصفاقة إلى منحى خطير وذلك باتهامهم بالتعاون مع أجهزة سلطة البعث. حتى أن تأريخهم الحزبي الطويل

ومسيرتهم النضالية لم يشفعا لهم، فقد استؤنفت مرحلة جديدة من المعارك عبر التشهير والتسقيط السياسي باعتبار بهاء الدين عميلاً للبعث وهو صاحب أشهر كتاب في أيام العمل الجبهوي مع البعثيين (أيام صعبة: ذكريات شيوعي من العراق) عن حياة الشيوعيين ومواجهتهم لأساليب القمع والإرهاب.

في سلسة جبال لولان، المثلث الحدودي بين تركيا، إيران، العراق، انعقد اجتماع للّجنة المركزية، وعلى ضوئه استُدعي بهاء الدين نوري ومُلّا علي حيث جرى استدراجهما بحجة انطلت عليهما هي طيّ صفحة قديمة وفتح أخرى جديدة للملمة الصفوف وإعادة الاعتبار لهما، وبوتائر سريعة وعبر بيان وزّعه بهاء الدين نوري فاجأ به الجميع بسرعة وقوعه يروي به قصة اعتقاله وهربه مع ابن أخيه آسو إلى مسقط رأسه قرية التكية من مناطق لولان موقع الاجتماع المفترض في قرداغ، القرية التي كتب عنها قصته «قرية على سفح جبل» في منتصف السبعينيات.

في عام 1987 زرت تلك القرية وتأملتها في مسيرتي النضالية حين حللت ضيفاً عند الرفيق بهاء، وعندها قرأت تلك القصة ومعانيها النضالية في زمان ومكان مختلفين، فبهاء الدين نوري ابن عائلة فقيرة لكنها ذات نفوذ ديني، وهو زوج الشهيدة عايدة ياسين (أم علي) التي اعتُقلت في مطلع الثمانينيات في العاصمة بغداد بعد أن تولّت قيادة التنظيم المركزي في غياب كامل لقادة الحزب إثر الضربة الماحقة التي لحقت بتنظيماته، وغُيّبت من يومها في سجون البعث، ويعتبر بهاء الدين نوري من أصغر الذين قادوا الحزب الشيوعي العراقي في مطلع الخمسينيات.

كنت أتساءل كثيراً وإلى حدّ الفضول: كيف أن زوجات وبنات وأبناء رفاقنا الأكراد المسؤولين يبقون في العطل الصيفية لعدة شهور في داخل المقرّات أو حولها، وبعدما تنتهي الإجازة يعودون إلى المدينة وإلى وظائفهم ومدارسهم، وهذا كان يتمّ في ظل حكومة البعث الدكتاتورية؟

طيلة عام 1984 في منطقة كرجال، كانت حركتنا محدودة ضمن الشريط الحدودي على سلسلة جبال سورين بين الأفواج والسرايا والمواقع، ولا تتعداها كثيراً إلّا لضرورات قصوى كنا مضطرّين لتنفيذها، وكانت نقطة تموييننا الرئيسية من رزّ وحبوب ومعجون طماطم من قرية أحمد آوه عبر شلالات مصيفها الخلابة والساحرة، في الكثير من الأحيان كانوا يقومون بغلق الطريق أي الممشى بين أشجار المصيف المؤدي إلى القرية ذات الشارع المبلط والمؤدي إلى مدينة حلبچة.

قرية أحمد آوه هي عبارة عن عدد من البيوت المتناثرة على السفوح والتلال والمطاعم والدكاكين المحاطة بالربايا الحكومية من الجيش و(الجاش). يُنقل لنا أن عدداً كبيراً من أهالي القرية متعاونون مع أجهزة السلطة ورؤساء الجحوش في المنطقة وبالتنسيق مع القوى المعارضة المسلحة، وفي مرات عديدة تقوم تلك الربايا بسدّ منافذ القرية علينا من خلال الكمائن والقصف المدفعي، وينقل لنا الأهالي أن هناك إشراف استخباراتي على المنطقة وسرعان ما تعود الأمور كالسابق عندما ينسحبون.

ذات مرة، جرّبنا نصب مدفع 82 ملم على سفح مقرّنا في كرجال، وتم توجيهه نحو تلك الربايا فسقطت القذائف على أهالي القرى في بيارا وطويلة، وفي الليل سمعنا عبر مذياع الراديو عن قصف إيراني على تلك القرى مما سبب خسائر مادية وبشرية. كان تعاملنا وعلاقتنا في القرية مع شخص يسكن في مدينة حلبچة يدعى ملّا دانا، صاحب محل صغير في زاوية من القرية، يوفّر لنا كل ما نحتاجه من تموين من مدينة حلبچة ونحن ننقلها إلى مقرّاتنا في وديان الجبال على ظهور البغال.

في يوم من الأيّام وصلتنا بعض الأخبار مفادها أن ملّا دانا وكيل أمن رسمي ومرتبط برفاق داخل تنظيماتنا وعلى مستوى من التنسيق العالي. وبدأت حملة مراقبة وتدقيق وحذر واكتُشف في وقت متأخر أن عدداً من الرفاق على اتصال

بأجهزة البعث عبر ملّا دانا، لكنه بعد أن شعر بالخطر تمكن من الإفلات من قبضتنا والهروب إلى مدينة حلبچة والاحتماء بأجهزة السلطة، وهناك من رجّح في حينها أن يكون بعض رفاقنا مسؤولين عن هروبه، وإثر هروبه، تم اعتقال مجموعة من الرفاق من قبل رفاقنا داخل التنظيم وتمكّن البعض الآخر من الهروب باتجاه المدن التي هي تحت سيطرة الدولة، وبذلك تحولت غرفنا ومقرنا إلى معتقل لهم، ولا سيّما غرفة النصير أحمد لاله التي بناها بنفسه، بل كل غرف القاطع هو من شيّدها باعتباره كان بنّاءً محترفاً في مدينة حلبچة قبل أن يلتحق مقاتلاً بالأنصار.

بعد التحقيقات معهم كانت الاعترافات واضحة باتصالاتهم المشبوهة منذ زمن، وبعد أسابيع معدودة بدأت تتوافد إلى مقرّنا وفود من داخل المدن من أهالي وأقرباء المعتقلين للّقاء بقيادة قاطع السليمانية وكركوك وسط صمت مطبق حول ما جرى وحصل ويحصل، كان أغلب المتهمين هم من رفاقنا الأكراد، وفي محاولة يائسة زُج بالنصير أبو أنور (العربي)، لكن سرعان ما كُشف عن دوافعها الشوفينية.

وبعد شهور لم يفارقني ذلك المشهد من الكوميديا السوداء، كنت مستلقياً تحت شجرة رمان مثمرة ولذيذة بالقرب من ممشى طريق فرعي في مصيف أحمد آوه دائماً ما كنت أجلس تحتها، ربما محاولة يائسة لتعيدني إلى دفء الهويدر وبساتينها وتمنحني حباً للحياة، رأيت بأم عيني دكتور سالار خريج الاقتصاد من أكاديمية بلغاريا ومن مدارسها الحزبية وصاحب السؤال الشهير في أمسية كاظم حبيب في منطقة كرجال، «ما معنى الاقتصاد المشوّه؟» يقود بعض السجناء باتجاه القرية، ولَم ينتبهوا لوجودي تحت شجرة الرمان، في لحظتها صُدمت بوجع، وعندما وصلت المقر كان الهمس بين الرفاق قد علا صوته بهروب السجناء، سُرِّب الخبر في حينها على أنهم هربوا من المعتقل بدون تفاصيل، علماً أن غرفة سجنهم تقع وسط المقر وبجانب المطبخ، فإذا أهمل الحارس فعيون الرفاق مفتوحة.

ظللت «ألوب» بحسرة وألم، لكن بصمت، أحاول في بعض الجلسات أن أستدرج الرفاق القريبين مني جداً، لكن للأمانة كانوا يجهلون ما حصل، وفي أول فرصة سنحت لي أثناء عقد اجتماع عام الأفواج والكادر الحزبي التقيت بالدكتور محمد هادي (أبو عادل)، وأمَّنته على الخبر المؤلم عمّا يتعرض له رفاقنا في سجون البعث من تصفيات جسدية، ونحن نهرّب عملاءهم الذين ساهموا في تسليم رفاقنا إلى أجهزته.

وعندما تحدّث في الاجتماع أحمد باني خيلاني، المسؤول الأول، عن خطورة هروب السجناء انبرى الدكتور أبو عادل للحديث عن معطياته بتهريب السجناء، فتوقف المجتمعون وضغطوا على أبي عادل للاستفسار عن مصادر تلك المعلومات، ولَم يبخل عليهم فأشار إلى أن الرفيق «لطيف»، وهو اسمي الحركي، أساس هذه المعلومات، فغضبوا مني وتعرضتُ مباشرة إلى عقوبات ومقاطعة وتمّ نقلي من مقرّ قيادة القاطع إلى منطقة هزارستون، المقر العام للتنظيم المدني، والذي أصلاً كنت ضمن ملاكاته. وكان فيه ثمة رفاق مغضوب عليهم لمواقفهم المبدئية تجاه ما يجري من خروقات، منهم الشهداء أبو سالار من السماوة وأبو أحمد وأبو سرمد من الديوانية (ناحية الدغارة) والشهيد بختيار عرب من بغداد (مدينة الشعب) والشهيد يوسف من الكوت ورفاق آخرون ما زالوا على قيد الحياة.

# أبـو جيفارا والخط المائل

كان الكادر الحزبي محمد وردة (أبو جيفارا) من المدعوّين لحضور المؤتمر الرابع للحزب الشيوعي العراقي في نهاية عام 1985، الذي شبّهه الراحل عامر عبدالله بمجزرة قاعة الخلد ومسرحية صدام حسين للغدر برفاقه كما ورد في كتاب د. عبد الحسين شعبان «عامر عبدالله ـ النار ومرارة الأمل»، أما في المؤتمر الرابع، فقد أزاح عزيز محمد ورهطه 26 قيادياً من اللجنة المركزية وأبعدوا عشرات من الكوادر الحزبية المتقدمة، وأعطى لنفسه صلاحية اختيار عشرة رفاق للجنة المركزية سرّاً والذين عُرفوا لاحقاً بـ «العشرة المبشرة بالجنة».

خلال انعقاد المؤتمر في خيمة نُصبت في منطقة أرموش السفلى في منطقة لولان، أصدر الحزب بياناً تمويهياً بُثّ من إذاعة الشعب في الجبل يعلن فيه عن تأجيل عقد المؤتمر وذلك خوفاً من مداهمات السلطة أو استهداف مكان المؤتمر ومندوبيه، لكن بعض القذائف أطلقت من الربايا الحكومية فسقطت حول مرتفعات قريبة من خيمة المؤتمر، لا سيّما بعد انتهاء أعماله والضجة التي أثيرت حول نتائجه بين مؤيد ورافض ومتحفظ وساكت.

بدأت عودة المندوبين إلى أماكن سكناهم ومواقع عملهم والكل حامل في جعبته صندوقاً أسود من الأسئلة والاستفسارات غير الواضحة، وتهيأ الشيوعي المقدام أبو جيفارا للعودة إلى رفاقه في الداخل، «قرية جديدة الشط في محافظة ديالى» من منطقة زيوه على نهر الزاب، حيث كان رفاقه متلهفين للقائه والاطلاع على أعمال المؤتمر ونتائجه، فتولى الرفاق العاملون في محلية دهوك، الشهيد

مجيد السهلاني (أبو رؤوف) ورفاقه، تأمين طريقه إلى مدينة الموصل لخبرتهم في هذا المجال وقربهم من القرى والمدن، فسُلّم بعهدة عضو الارتباط الحزبي في الداخل، العميل الذي انكشف أمره لاحقاً (شهاب)، وبدلاً من أن يمضي به إلى كراج الموصل سالماً، دخل به إلى مديرية أمن دهوك، وسلّمه إليها، وبعدها اتصل العميل برفاق اللجنة المحلّية لطمأنتهم عن وصول أبو جيفارا بأمان، إلّا أن الأخبار حول مصيره التي ضاعت، لم تدُم طويلاً وانكشفت تفاصيلها بحكم ظروف العمل والمنطقة.

حين كان أبو جيفارا في قبضة الأجهزة كان الاعتقاد من قبل التنظيم في الجبل بأنه وصل وفي أيد أمينة، أما الرفاق في الداخل فكانوا يترقبون قدومه بلهفة ويعتقدون أنه ما زال في الجبل في منطقة (زيوه). كان لتنظيم محلية دهوك للحزب الشيوعي العراقي ونواحيها رفاق في التنظيم المدني، ويبدو لي أو كما تأكد لاحقاً من خلال عدة منعطفات ووقائع وأحداث، أن بعضهم كان مندساً ويعمل خطاً مائلاً لصالح السلطة بين صفوفنا (في الليل معنا وفي النهار مع أجهزة البعث). هذه الرواية واقعية وليست من نسج الخيال، وذلك لمواكبة تطورات أعمال المؤتمر الرابع للحزب الشيوعي العراقي ونتائجه، ولعلّ ما ذكرته ليست الحالة الوحيدة التي مررنا بها، فقد وقعت حالات عدة مشابهة لهذه الحالة كلفتنا خسائر بشرية وسياسية كبيرة.

إن المتابعة الميدانية للرفاق الذين كانوا يُرسلون إلى الداخل (المدن العراقية) كانت شبه مفقودة، فقد صمد أبو جيفارا في الزنزانة لأكثر من شهر كامل، وذلك حسب المعطيات التي عُرفت فيما بعد، ربما ظنّاً منه بأن التنظيم اتخذ الإجراءات الاحترازية اللازمة والمتفق عليها بعد معرفته باعتقاله من تغيير أوكاره الحزبية إلى الإجراءات التي يجب أن تتخذ في أساليب العمل التنظيمي (السريّ) المفاجئة والطارئة.

يبدو لي وللآخرين كما تأكد، أن أسلوب التعذيب الذي تعرّض له أبو جيفارا

كان فوق المألوف وخارج عن قدراته، فأدلى في الختام باعترافاته، باعتباره من قادة التنظيم، وهنا وقعت الكارثة حيث تمكنت أجهزة البعث من توجيه ضربة مميتة وموجعة ومباغتة إلى كيان التنظيم، سرعان ما انعكست آثارها المخيفة على «الشارع العراقي» وعلى مزاج الناس وتطلعاتهم نحو التنظيم وعلاقتهم القلقة بالعمل السياسي في العراق ومخاطره، على الرغم من محدودية تأثيرنا.

# أبـو بـهـاء والاخـتراق الأخـطـر

وصلتُ من قاطع السليمانية عبر الأراضي الإيرانية بهوية أحد أفراد الأحزاب الكردستانية المناضلة والعاملة في الجبل، إلى منطقة لولان نهاية 1985، وكانت أعمال المؤتمر الرابع للحزب الشيوعي العراقي منتهية تماماً والنقاش محتدماً بحذر حوله، وحول آلية عقده وإشكالات نتائجه والتكتلات محتدمة بين مؤيِّد ومندفع وبين معارض ومتحفظ.

بعد أيام، وبجوٍّ ممطر لكنه كان دافئاً، تحرّكتُ مع مفرزة إلى مناطق بهدينان، وكان من ضمن أفرادها عدنان الطالقاني (أبو هيمن)، أحد الكوادر الحزبية البارزة في محلية مدينة السماوة أيام العمل الجبهوي مع البعثيين، وفالح حسن (أبو بهاء)، وكانت هذه المرّة الأولى التي ألتقي بهما وأتعرف عليهما. وأثناء عقد المؤتمر، ورغم الدعوة الرسمية لهما كمندوبين عن بغداد، فقد حُجزا بعيداً عن خيمة المؤتمر الرابع، في منطقة (أرموش السفلى) في (لولان)، ولم يحضرا وقائعه. وكان اللغط حولهما قوياً حول ارتباطهما بأجهزة المخابرات العراقية. كانا طيلة أيام المفرزة السبعة، لطيفين ويتحدثان بثقة ويدافعان عن الحزب وينتقدان القيادة اليمينية وما ارتكبت من أخطاء أدّت بنا إلى المهجر والعزلة الجماهيرية وحول المؤتمر ونتائجه وعن «ماذا سيتمخض عن الجبل إلّا ولادة فأر». كانت أمامهما فرص سهلة للهروب باتجاه مواقع السلطة، لكنهما لم يفعلا، وكانت أقرب نقطة لهما قرية (جمجو) عندما مررنا بها في طريقنا إلى بهدينان وسط ربايا السلطة والطرق كلها سالكة باتجاه المدينة عبر شارع مبلط.

وبعد وصولنا إلى الفصيل المستقل في منطقة (زيوه) عقد قادة الحزب عمر

الشيخ، آرا خاجادور، حميد مجيد موسى، سلسلة اجتماعات حول المؤتمر ونتائجه، وكانوا يناقشون ويحاججون وينتقدون من يعترض على نتائج المؤتمر وآلية عقده وقراراته. بعد أيام احتُجز أبو بهاء في حين سُمح لأبي هيمن بالذهاب إلى بغداد، مما أثار تساؤلاتٍ واعتراضات بين رفاق الفصيل المستقل. ورغم الشكوك القوية حوله كونه المسؤول عن تسليم وإعدام عدد من رفاق الفرات الأوسط، لكن الصراع بين بعض قادة الحزب والتنظيمات الإقليمية كان السبب وراء تسريب أبو هيمن إلى الداخل، علماً أنه وبعد افتضاح أمره ترك الحزب والأنصار، وبواسطة الحكومة العراقية ذهب إلى السويد للحصول على اللجوء السياسي ولا يزال يقيم في مملكة السويد، وقد نشط منذ سنوات للتعاون مع البعثيين وحضر مؤتمراً لهم في إسبانيا، وقبل ذهاب أبي هيمن إلى بغداد لآخر مرّة، أخذني جانباً وحدثني في الفصيل المستقل ودعاني إلى الاتصال به عندما أصل إلى بغداد، لكن حذري الشديد وعدم رغبتي في التواصل معه، منعاه من مواصلة الحديث معي.

نعود إلى قصة أبي بهاء الذي تعرّض إلى تحقيق شديد وجُوبه بأدلة دامغة عن ارتباطاته المشبوهة مع أجهزة السلطة العراقية، وأدلى باعترافات كاملة عن ارتباطاته والمهام الملقاة على عاتقه، وهو من كوادر محلية البصرة، لكنه لم يتمكن من إخفاء ارتباطه بالأجهزة الأمنية رغم محاولاته العديدة، وظل يهتف بحياة الحزب وروح فهد، فتمّت مواجهته أخيراً مع العميل المزدوج شهاب، الذي كان وراء تشخيصه وتأكيد كشفه للحزب في أطراف مدينة العمادية التي تقع في شمال محافظة دهوك، لكن هذا لم يغِب عن عيون أجهزة مخابرات البعث، فبعد ساعات اعتقل شهاب وتمت مساومته على فعلته هذه بحياته وحياة عائلته مقابل اغتيال كوادر محلية دهوك الذين كانوا وراء تلك الصفقة، فحدّد موعداً معهم واغتال ثلاثة رفاق منهم ومن ضمنهم مجيد السهلاني (أبو رؤوف) وسلّم نفسه بعدها إلى السلطات مع الجثامين الثلاثة.

كان العميل المزدوج شهاب وراء كشف عمالة أبي بهاء للحزب، ففي أحد الأيّام، وعبر محلية نينوى تهيّأ أبو بهاء للنزول إلى بغداد وطلب منه رفاق المحلية أن يتريث قليلاً بسبب الاستنفار الأمني والعسكري والدوريات الكبيرة في المنطقة، حسب ما روى لي أحد الرفاق المسؤولين عن مهمة تأمين إيصاله بأمان، لكنه أصرّ وركب سيارة عمومية من إحدى القرى، وبعد مسافة قليلة، قامت مفرزة بإيقاف السيارة والتدقيق بالركاب، فطلبَت من أبي بهاء النزول منها، لكنه طلب الحديث مع شخصية مخابراتية مهمة فأطلقوا سراحه فوراً، وكان ضمن المفرزة شهاب العميل المزدوج، فأبرق بتفاصيل الواقعة إلى الحزب، وبَقي الحزب متكتماً على الخبر حتّى عُقد المؤتمر الرابع، فكان أبو بهاء ضمن المدعوين (مندوبي المؤتمر) وهكذا تمّ احتجازه والتحقيق معه ومن تمّ الاقتصاص منه بإعدامه في الفصيل المستقل، بتأييد خطيّ من قياديي الحزب في موقع الفصيل.

إن التمرّس في العمل الحزبي السريّ ومواكبة حياة الناس والعيش معهم والنظر إلى تطلعاتهم ومشاكلهم الحياتية هو أمرٌ هام في العمل التنظيمي (السري)، فتكون جزءاً منهم ومن حركة مجتمع تعيش بوسطه وتتكيف مع طرق حياته، فتبتعد عن التفكير في أن تضع نفسك سياسياً مطلوباً لأجهزة أمن الدولة، كما كان يوصي الرفيق فهد رفاقه أيام العمل السري في زمن النظام الملكي «إلى رفاقنا المناضلين الملاحقين من أجهزة شرطة الأمن السرية تصرف كما أنت، كن كما أنت بين جماهيرك وناسك».

كانت فكرة الكفاح المسلح التي انطلقت وتبنّاها الحزب الشيوعي العراقي في نهاية السبعينيات، قد قامت بعد انفراط عقد الجبهة والتحالف مع البعثيين، ومن ثمّ تشتت تنظيمات الحزب في العراق وضياع الرفاق وفقدان الأمل بأي إجراء أو موقف يعيد لهم اعتبارهم الاجتماعي والنضالي. وهذا ما أجبرهم على اختيار الالتحاق بجبال شمال العراق التي كانت المنفذ الوحيد للخلاص،

فإذا أردت ان تبقى شيوعياً بعيداً عن ممارسات البعث الدموية وأساليب التشويه التي اعتمدها، فعليك بترك العراق وأهلك وموقعك الاجتماعي والعائلي، فإن ذلك يُبقيك بعيداً عنهم وعن أساليبهم. فخطة الكفاح المسلح في خطواتها الأولى هي خطّ تماس وتواصل وإحياء تنظيمات الحزب في المدن العراقية بعد أن دمرتها أجهزة البعث القمعية وشلّت حركتها بالكامل.

كان من الصعوبة التعويل على أسلوب الكفاح المسلح لإسقاط نظام البعث، وذلك لعدة عوامل ومتغيرات وظروف وتوازنات وإمكانيات إقليمية ودولية، وبالمقابل فإننا لم نقم بدورنا المنشود في التواصل مع ناسنا ورفاقنا في الداخل وتهيئة مستلزمات عمل تنظيمي وسياسي تضطلع به الجماهير في تهديم أعمدة حزب البعث الأساسية.

ذات مرّة، وبعد سنوات من الكفاح المسلح، حضرتُ أمسية لكاظم حبيب تحدّث فيها بوضوح وقال: «نحن إلى الآن لم نتمكّن من خرمشة ظهر العدو (حزب البعث)، إذ بقي صوتنا ضعيفاً، رغم صداه القوي عبر سنين طويلة من النضال الوطني وقوافل من الشهداء والتضحيات».

إن الحزب الشيوعي العراقي من أعرق الأحزاب وأقدمها في العراق، فجذوره عميقة في تربة العراق بمواقفه المبدئية ونضالاته الوطنية ورجاله الشجعان. وفي العقود الأخيرة من مسيرة عمره تعثّر في بعض مواقفه وتآكل داخلياً، ومن الأسباب الجوهرية التي عرّضته إلى حملة قاسية من أعدائه الطبقيين وأثرت كثيراً على مسيرته، ما تعرّضت له الحركة الشيوعية واليسار العالمي من التراجع، ولا يُنكر تأثير جملة أخطاء ارتُكبت في إدارة الصراع الداخلي والاجتهادات الفكرية من مواقف فكرية وتنظيمية ووطنية عجز عن الوقوف أمامها برؤية نقدية موضوعية بعيداً عن المصالح الأنانية ومرض اليسارية (الطفولي).

في اليوبيل الذهبي عام 1984 أقمنا مهرجاناً فنياً كبيراً في وادي (كرجال)

خلف قصبتي (بيارا وطويلة) في محافظة السليمانية، شاركت فيه قوى سياسية معارضة للنظام صديقة لنا، ومِمّا زاد من بهجة احتفالنا بتلك الذكرى الأثيرة هو تقرير بُث من إذاعة موسكو بالقسم العربي عن تاريخ الحزب الشيوعي العراقي، ورغم قصر مدته، لكنه أعطانا دفعاً قوياً باتجاه التضامن الأممي، لكنّه كان موضع تساؤل لنا، بسبب العلاقة مع نظام البعث ومدّه بالسلاح الذي يُستخدم ضدنا. ولعلّ قيمة ماركس كانت تكمن آنذاك في قراءته للتاريخ ومراحله، في أن الصراع الطبقي هو الذي يحكمها.

# أعضاء اللجنة المركزية تحت المراقبة

ما دمت قد أتيت بالحديث عن الاختراقات التي تعرضت لها مسيرة الأنصار، لذا ارتأيتُ أن أضع أمامكم حدثاً يتعلّق بالموضوع ذاته لكن بزمن مختلف.

بحكم تجارب الماضي لتاريخ البعث في العمل المخابراتي، الذي هو أساس ديمومة تربعهم على دفّة الحكم لسنوات طويلة، أظهرت أنهم كانوا يتعاملون بواقعية مع الأحداث، بمعنى أنهم عندما يضعون أيديهم على أي تحرك سياسي تنظيمي معارض أو خطّ حزبي يعمل ضدهم، وتحديداً نحن الشيوعيين، فإنهم كانوا يتحلّون بنفس طويل في متابعة تلك النشاطات وامتداداتها البشرية والسياسية والتنظيمية، حتى لو فقدوا بوصلته أو ضيّعوها، والأمثلة عن ذلك كثيرة في الواقع العراقي، مثل ما حدث في 1991، والهزيمة العسكرية التي مُني بها الجيش العراقي عقب الانسحاب العسكري من الكويت بعد معركة مع ثلاثين دولة، وما أعقبها من انتفاضة شعبية عفوية أربكت النظام ومؤسساته وتركت فراغاً أمنياً، ما سمح لقوى المعارضة بالتحرك وإعادة ترتيب أوراقها.

في تلك الفترة من عمر العراق، تزعزع وضع النظام الأمني وبات في مواجهة تحدّيات كبيرة كادت أن تعصف به وبالنظام كافة، مما أحدث إرباكاً في منظومته المخابراتية أدت إلى تسهيل عملية تسلّل بعض قادة الحزب من كردستان (مصيف شقلاوة) إلى بغداد، بحيث استدرجهم ومهّد لهم الطريق وأمن لهم المأوى العميل مرشح اللجنة المركزية نجم الجبوري (أبو طالب)،

عضو منطقة بغداد أيام التحالف مع البعثيين ونائب ضابط سابق في الجيش العراقي، وكانت الصفقة بالتنسيق مع المخابرات العامة عبر رفيقنا المدسوس.

هيّأت المخابرات العراقية متطلبات العمل بنصب كاميرات مخفيّة داخل الشقق التي أجرها الرفيق المندس ليسكنها رفاقنا وبعض قادة الحزب، وسكن ضبّاطهم أيضاً في شقة مقابلة يرصدون كل شاردة وواردة ويراقبون الداخل والخارج، في خضم تلك الأوضاع وتداعياتها الخطيرة، وصل رجل مخابراتي[1] كبير إلى قاطع بهدينان والتقى برفاق محلية نينوى وطلب اللقاء بقادة الحزب لأمر هام، وبالفعل، فقد رُتّب اللقاء مع الرفيق الراحل توما توماس (أبو جوزيف) وحميد مجيد البياتي (أبو داود) سكرتير اللجنة المركزية، اللذين صدما من هول المعلومات التي سمعاها، فأبو داود كاد أن يغمى عليه وهو يقصّ لهم التفاصيل المرعبة بكلّ تفصيل، حينها اتخذت قيادة الحزب على عجل وبهدوء تام قرار سحب كل الرفاق الذين يسكنون في ذلك

---

(1) والواقعة كما رواها لي الرفيق صباح كنجي: أن هذا المخابراتي هو ضابط كردي يحتلّ موقعاً متقدماً في مديرية الأمن العامة ويقوم أيضاً بترجمة الوثائق الكردية المهمة للمديرية. تلقى رفاق محلية الموصل خبراً من الحلقة السرية لمسعود البرزاني تفيد أن هناك ضابطاً كبيراً في طريقه للقاء مسعود. اعترض رفاق محلية الموصل وفي مقدمتهم صباح كنجي طريقه وكان الاعتراض يبدو عفوياً، وبدء التحقيق معه، فقال لهم: إن كل رفاقكم الموجودين في بغداد مخترقون وإن تحركاتهم تتمّ بإشراف أمني كبير. كان يوجد ثمانية من أعضاء اللجنة المركزية بضمنهم عضو المكتب السياسي عمر الشيخ علي الذي كان يسكن مقابل شقته رجل أمني كبير وكانت داخل الشقة لاقطات صوت وكاميرات تصوير، وأن منفّذ هذا الخرق والكمين هو رفيقكم أبو طالب (نجم الجبوري) ورفيق آخر لا يعرف اسمه. وفي الحال أبرقت محلية الموصل إلى قيادة الحزب لعمل لقاء عاجل معه، فالتقى به الرفيقان حميد مجيد موسى وتوما توماس وخرجا مذهولين من كنز وخطورة المعلومات، فعمدوا إلى حيلة استدرجوا فيها الرفاق واستدعوهم بحجة اجتماع طارئ ـ وبضمنهم رفيقنا العميل المندس ـ إلى شقلاوة. وقد انطلت هذه اللعبة على قيادة الأمن فقد كانت لها حساباتها في تركهم للالتحاق بالقيادة في الجبل، كما ذكرت بعض المصادر أنهم نُقلوا بسيارات الأمن إلى مناطق كردستان. وقد تمّ التحقيق مع أبي طالب ونُفذّ به حكم الإعدام في شقلاوة وتُرك الضابط للّقاء بمسعود.

السكن الأمني في بغداد بحجة التحضيرات لمؤتمر حزبي في مصيف شقلاوة، ويبدو أن البعثيين كانوا يأملون في أن يصطادوا جميع أعضاء قيادة الحزب التي أوهمها أبو طالب بإمكانية عقد اجتماع مؤمّن لهم في بغداد. وهكذا سُمح للذين استُدرجوا إلى بغداد في العودة آمنين إلى الجبل مع دليلهم المخابراتي أبي طالب الذي تمّ اعتقاله فوراً ومواجهته بالأدلة الدامغة بحيث لم يبقَ أمامه مفرٌّ من الإدلاء باعترافات كاملة عن حجم الخدمات التي قدمها للبعثيين حين كان جاسوساً مندساً بين صفوفنا، رغم الحظوة التي كان يتمتع بها عند قادة الحزب. وقد واجه مصيره في الموت المحتم. كان من ضمن تلك الامتيازات أنه كان يرفض أن يلبي واجب الخدمة الرفاقية لاعتبارات كنا نجهلها حين كان في الفصيل المستقل، مما أشعر بعض الرفاق بالضيم والغبن، فطالبوا قيادة الحزب بأن يطلبوا منه أسوة بالبقية أن يتحمل المسؤولية ويقوم بالواجب، وعن ذلك، سادت بيننا أحاديث دعابة مما استدعى الرفيق توما توماس زيارة مقرنا شخصياً ليرى بأم عينه الرفيق أبا طالب خفراً في مطبخ الفصيل وهو يحضّر وجبة الغداء.

كان أبو طالب شخصاً هادئاً، قليل الكلام، ولكنه كان فضولياً، وقد كان للحظّ دور في كشفه وللصدفة فعلها في القضاء على حياته، فلولا تسرّب تلك المعلومات الثمينة حول شخصه وارتباطاته المشبوهة، لكان قد قضى على أعداد كبيرة ومهمّة من أعضاء التنظيم.

# تجربة الكفاح المسلّح

لم تأخذ تجربة الكفاح المسلّح والثوّار في الجبل وعلاقتها بإسقاط النظام في بغداد، مجالها الطبيعي الموكل إليها والمعلن عن أهدافها وخططها المستقبلية، لأننا لم نستثمر التصدعات والأزمات التي كان يعاني منها النظام كنموذج أزمة أو هزيمة، مثال معركة المحمرة (خرم شهر) عام 1982 وما أعقبها من تذمّر واستياء شعبي في الشارع العراقي، فقد كنا نعاني من ضعف في الارتباط سياسياً وفكرياً وإعلامياً ونفسياً، كما أننا لم نستطع التمدّد داخل المدن لتعبئة الجماهير للقيام بانتفاضة شعبية أو عصيان مدني أو انقلاب عسكري يقوده ضابط شريف كما كانت تراودنا الأمنيات دائماً.

لكن وجودنا في الجبال كان مهماً جداً من الناحية التنظيمية، فقد غدونا محطة حزبية و«خط رجعة» للرفاق الذين ضاعوا في أزقة وفنادق بغداد وليس لهم من معين سوى إيمانهم الشيوعي بعدالة قضيتهم، فأصبح الجبل محطة أمان لهم في الخلاص من شبح الدكتاتورية، إذ أن تجربة الجبل فتحت باباً للملتحقين من داخل المدن وممّن لا يسمح ظرفه في التواجد فيها. فكان الإعلان عن حركة الأنصار امتداداً لهبّة الشيوعيين وتاريخهم النضالي، ورغم كل الظروف الصعبة وقساوة النظام وسياسته الاستبدادية، بقينا ندفع بخيرة رفاقنا إلى المدن.

ولولا تواجدنا في كردستان، لاستحال علينا هذا العمل الجبار، رغم الانتكاسات التي تعرضنا لها هناك من سياسة البعث، من اندساسات وإشاعات

مغرضة وقتل بالسلاح الكيميائي، زد على ذلك الوضع الداخلي للتنظيم ضمن دائرة الصراع الفكري، والاختلاف في وجهات النظر، والتقاعس في مواجهتها من تنكيل وتهميش واتهامات وضيعة، وصلت ذروتها في الاعتقالات والقتل ومنها استشهاد الشيوعي مشتاق عبد الجبار (منتصر) تحت التعذيب، وإخفاء جثته رغم مطالبة عائلته بالكشف عن مصيره والإعلان عن مسؤولية قتله ومحاسبة مرتكبي جريمة قتل رفيق شيوعي. وبقيت هذه جريمةً مهما كانت الأسباب والدوافع والذرائع.

كانت هذه الأفعال مخالفة لأخلاقنا ومشروعنا السياسي في بناء مجتمع متعدد الآراء والاجتهادات، فما حدث في (برزان) 1984 بقي مثيراً للجدل، ولم يجرؤ أحد على كشف ملابسات الاعتقال بحقّ الشيوعيين ستار غانم (سامي حركات) وأحمد الناصري (أمين) ورفاقهم الذين سيأتي الحديث عنهم، ومقتل مشتاق طالب (منتصر) بحيث تركت عدة تساؤلات مبهمة حول تلك الأعمال المستنكرة، والتي ما يزال العديد من القياديين السابقين المسؤولين عنها يغضّون النظر عنها أو يكذّبونها أو يهملون الإجابة على أسئلة الرفاق عنها، فالجريمة هي الجريمة مهما كان المرتكب شيوعياً أو غير شيوعي. لماذا لم يجرِ التوقف عندها إلى الآن؟ من يتحمل مسؤولية تلك الأحداث؟ أسئلة ما زالت معلّقة ويسودها الالتباس إلى الآن، والكثير لا يملك الجرأة لكي يسمّي الأشياء بمسمياتها، ولا أستثني نفسي من هذا التقصير الذي سآتي على ذكره.

# قضية سامي حركات وجماعته

بعد هزيمة بشتاشان 1983، وتحديداً في قاطع أربيل الذي كان مسؤوله الأول يوسف حنّا (أبو حكمت) باعتباره عضو لجنة مركزية، على ضوء تلك الأحداث استجدت مواقف وآراء غاضبة تجاه قادة الحزب بسبب من إدارتها غير المتمكنة، من بينهم (جماعة سامي حركات) وتطوّرت الأحداث إلى درجة أدت إلى أن ينزل السكرتير عزيز محمد للإشراف ويعطي الضوء الأخضر بالتحرك ضد هؤلاء وهم؛ ستار غانم (سامي حركات)، أحمد الناصري (أمين)، منتصر (مشتاق)، ومهند باعتبارهم انقلابيين وخونة ومخططين لاغتيال أعضاء قياديين... إلخ. وهكذا تمّ اعتقالهم من قبل رفاقهم في منطقة برزان بزنزانات فردية كانت عبارة عن مرافق صحية قديمة. وشُكّلت لجنة تحقيقية برئاسة مهند البراك الذي كان طبيب الشهيد مشتاق ويعرف أمراضه. ويقال إنهم ضربوه على كليتيه اللتين كان يعاني من مشاكل فيهما مما أدى إلى استشهاده. وقد دُفن في حفرة بقيت سرية إلى يومنا هذا. والذين كانوا يساعدون مهند البراك في التعذيب هما أزهر المظفر من مدينة النجف المعروف بالاسم الحركي (حميد صريم) يعيش في السويد حالياً، ومام كاويس الذي تبين فيما بعد أنه عميل للمخابرات، وأيضاً مسؤول القاطع أبو حكمت، الذي كشفت الوثائق بعد السقوط أنه كان أيضاً عميلاً للسلطة.

وبعد شهور من الاعتقال بتهمة التخاطب مع النظام ومحاولات تصفية القيادة، تمكن أحد الكوادر الحزبية يدعى قاسم سلمان داود والمعروف باسم أبو الجاسم ـ وهو من الرمادي كان يسكن الحلة يعيش حالياً في مدينة مالمو

بالسويد ـ أن يحصل على قميص الشهيد مشتاق (منتصر) مضرجاً بالدماء مع أدوات التعذيب. وفي اجتماع حزبي في ما بعد رماها أمام عزيز محمد قائلاً له: «هذا هو حزبنا الثوري»، مما دعا عزيز محمد إلى إطلاق سراحهم وإبعادهم على الحدود الإيرانية في جزيران 1984، وتمكنوا من الوصول إلى مقرات الأحزاب الكردية والاحتماء بهم والحظي برعاية خاصة من مام جلال.

كنت أيّامها نصيراً شيوعياً في جبال السليمانية، وكان الاحتراب مع حلفاء الأمس، مقاتلي الاتحاد الوطني الكردستاني (أوك)، في قمته بعد المذبحة التي راحت ضحيتها باقة متميزة من رعيل الشيوعيين الأول؛ حين مرّ اسم سامي حركات حينها في مسمعي بأطراف أحاديث عنه غير وديّة من النعوت والسيناريوهات في مختبرات أصحاب التكالبات الحزبية الضيقة، الذين قالوا عنه وعن مجموعته إنهم مخرّبون ويحملون نوايا شريرة في تصفية قادة الحزب، لأنهم كانوا قد تبنّوا وجهة نظر مغايرة لسياسة الحزب الحالية آنذاك.

وحدث أن التقيت بالشهيد سامي حركات في المرة الأولى في ربيع عام 1987 حين عبرت مع الرفيقين طه صفوگ (أبو ناصر) والفقيد علي الجبوري (أبو أثير) من جبال وقرى لولان إلى الأراضي الإيرانية في منطقة زيوه الإيرانية عندما كان عندنا مقر بقيادة الرفيق أبي هيوا مع مواقع الحزب الديمقراطي الكردستاني وكان معنا في المقر المناضل والكادر الحزبي علي الجبوري (أبو أحمد). في صباح أحد الأيام قال لي: «هل ترافقني إلى موعد مهم مع شخصية ستعجبك؟ لكن ضع في بالك أنه لو كشف أمرنا سنتعرض إلى مساءلة حزبية وربما عقوبة أو على أقل تقدير سيُشهَّر بنا».

في الوهلة الأولى لم أفهم قصده، ونحن مفروض علينا عدم الخروج من المقرّ خوفاً من اعتقالنا من قبل أفراد اطلاعات الإيرانية، موهمين ومصدقين أنفسنا أن لنا مقرّاً شيوعياً على الأراضي الإيرانية. في غفلة عنهم وبعد تناول فطورنا، لبنة مخثرة مع خبز إيراني حار، مشينا أنا وعلي الجبوري في حارات المدينة العتيقة

لا يلفت انتباهنا إلّا المظاهر المسلحة بيشمركة الحزب الديمقراطي الكردستاني (حدك)، والبازدار الإيراني، أرشدنا إلى زقاق ضيق أدى بنا إلى چايخانة قديمة، وهناك رأيت سامي حركات بسحنته السمراء جالساً على طرف تخت مصنوع من سعف النخيل ويقلّب كتاباً حول جيفارا مغلّفاً بجريدة إيرانية، قدمني له الفقيد علي الجبوري: إنه رفيقنا لطيف بدون أن يعرفني من هو. بادرته بالسؤال عن هذه الشخصية، قال لي إنه سامي حركات، حقّاً تفاجأت، وعلى ضوء تلك المفاجأة راجعت كل معلوماتي التي تلقيتها من رفاقي. رحبنا ببعضنا وسررنا بتعارفنا ولم أخفِ عنه ضمن حديثنا الودي ما تلقيته من تشويشات عن مواقفه ووجع الاتهامات التي لحقت به زوراً، بادرني بسؤال: أكيد كنت معتقداً بتلك الاتهامات. ردّ عليه علي الجبوري حول مواقفي ورفضي للاتهامات لمناضلي الحزب: ولو كان لطيف مثل الآخرين لما اصطحبته معي للقائك.

في اللحظات الأولى تأكد لي ظني السابق أن ما تعرض له ورفاقه من حملة تشهير هي باطلة وضمن إلحاق الحيف بالرفاق الشجعان وذوي المواقف المتميزة في الثورية والوطنية والتجارب الطويلة والمريرة، ومن تلك اللحظات وُلد ذلك التقارب بيننا فكرياً وسياسياً، من جملة القضايا التي كنا مبتلين بها، وجدته مناضلاً يحمل مشروعاً سياسياً متقدماً عنا لخمسين عاماً قادمة. بعد حوار لم يخلُ من الأوجاع ودّعنا بعضنا، وفي طريق العودة إلى المقرّ، سألت الرفيق علي الجبوري: من أين لنا تلك القساوة في قتل رفيق وهو حيّ بشتى التهم والأقاويل ونحن حزب معارض ومناضل؟

فقال لي: سامي ورفاقه وما تعرضوا له لا يذكر قياساً بما تعرض له رفاق آخرون من التشهير والتهميش والطعن والغبن في تاريخنا الطويل. بعد أيام توجهنا مع مفرزة إلى قاطع السليمانية ووجهتنا أنا وأبو أحمد بغداد، فالتقينا في محل صغير في قرية ورتة وسلمنا على سامي بشكل عابر لأنه كانت معنا مفرزة كبيرة.

في نهاية عام 1987 انسحبنا من مواقع الأنصار أنا وعلي كرادي ـ موجود

حالياً في الدانمارك ـ ووصلنا إلى مواقع القيادة للاتحاد الوطني في مناطق سرگلو وبرگلو واستقبلنا مام جلال ونوشيروان مصطفى ودعمونا مادياً ولوجستياً، ثم دلنا مام جلال على مجموعة سامي حركات الذين كان لهم مقر في نفس المنطقة. ذهبنا لهم وكان موجوداً كل من سامي وأبي عليوي من أهالي كربلاء ونبيل ولطيف وجابر، وقضينا معهم عدة شهور إلى حين عمليات (الأنفال) عام 1988 حين انسحبنا مع قواتهم إلى مدينة سردشت الإيرانية.

وتفصيل ذلك أنه في الطريق من قاطع السليمانية مع مفرزة أنصارية تحركت من مناطق قرداغ بعد مسيرة محفوفة بالمخاطر ونذالة مشهودة إلى مناطق سرگلو وبرگلو مقرّات قيادة الاتحاد الوطني الكردستاني (أوك)، حللنا ضيوفاً مدللين عند كاكا شورش ومام بكر ذوي الاتجاهات اليسارية في تجمع نوشيروان (هالاي شورش)، وكانا مُبعدين عن التنظيم لمواقفهما الراديكالية. بعد أيام أُخبِرنا هناك في سفح الجبل وعلى تخوم قرية مهجورة أن رفاقاً شيوعيين على خلاف مع قيادة الحزب وهم من الشيوعيين النادرين في الثقافة والموقف، إذا سنحت الفرصة سوف نزورهم ونلتقي بهم، لكن عيوننا كانت تشخص إلى قمم السلسلة الجبلية المكسوة بالثلوج للعبور إلى الأراضي الإيرانية منفذنا الوحيد.

في ليلة حالكة وممطرة، فتحنا ممراً وسط أكوام الثلوج في سفح الجبل، حيث ينامون ويحلمون ويتأملون ويتألمون في غرف رطبة يكسو سطوحها بياض الثلوج الكثيفة لا حراسة ولا كلمة سر، يتدثرون تحت البطانيات وحول موقد النار الساحر وعليه خميرة الثوار (الشاي). دخلنا عليهم أنا وعلي كرادي والرفيقان من (ئالاي شورش)، لم تصدق عيناي المشهد في اللحظات الأولى، إنه سامي حركات ورفاقه أبو عليوي، لطيف، جابر، نبيل. تعانقت معهم بألم وشوق وحسرة على تلك السنين وعذابات النضال المريرة. وماذا فعلت بنا تلك السياسات. تحدثنا بمرارة عن تجربتنا المرّة وآفاق النضال. في فترة إقامتي بمقرات سرگلو وبرگلو، قال لي مام جلال رئيس جمهورية العراق

لاحقاً تحت ظل حكومة احتلال بأداة إسلاموية: كيف يجرؤ الحزب على أن يُضحي بهذه الكوكبة من الشيوعيين؟

من تلك الساعة في ذلك الليل الدامس قررنا أن نتقاسم مع رفاقنا حياتهم المرّة في النضال والبرد والخوف والخبز اليابس المنقوع بالماء حفاظاً على مبادئنا. كانت جذورنا ممتدة في أرضنا العراقية، ولم يقتلعنا منها إلّا مخاطر (الأنفال) ورائحة الكيمياوي وقصف الطيران واجتياح القرى والجبال بقوات الحرس الجمهوري. فتسلقنا الجبال مع المئات من مقاتلي الاتحاد الوطني الكردستاني وأهالي القرى المذعورة باتجاه الأراضي الإيرانية.

حطّ بنا الرحال بعد رحلة خطيرة كادت لمرات أن تودي بحياتنا، في مدينة سرادشت الإيرانية، وحللنا في أحد فنادقها المحترمة مع وجبات الجلو كباب. وصلنا طهران بأوراق مقاتلي أوك في بيت رفيقنا في منطقة (كوجه مروي) أبو محمد الصيدلاني، وبعد أيام عاد سامي حركات إلى الجبل، وبقيت مراسلاتنا مستمرة وقائمة حول وجعنا العراقي حتى وأنا في الشام ومدينة مالمو السويدية، نتبادل بها تطلّعات الناس وهموم شعبنا في المحن، وكان ينقل لي من خلال زياراته السرّية إلى العاصمة بغداد توجّس الناس وتوجّعاتهم والتقلبات التي عصفت ببُنية المجتمع العراقي.

وبعد أن عاد سامي إلى كردستان بقينا نتواصل بالرسائل عندما كنت في إيران وسوريا والسويد. وبعد أحداث الكويت وما تبعها ذهب إلى الداخل هكذا بلغني بآخر رسالة استلمتها منه في مدينة مالمو. وآخر ما وصلنا من أخبار عنه أنه عمل في بغداد في إعادة التنظيم باسم (شيوعيين عراقيين) وألقي القبض عليه عام 1994 إثر وشاية، بعد أن كان قد فتح له «بسطة» في سوق مدينة الثورة ببغداد للتمويه، في حين كان يقود تنظيماً سرّياً. ولم أستغرب تفانيه في العمل على لمّ شتات الشيوعيين واستشهاده في ما بعد لصلابة موقفه. أما علي الجبوري فقد وصل إلى ستوكهولم ومات بعد فترة ودفن بها.

# جبهات وطنية

أقدمت قيادة البعث، في حملتها ضدّ الشيوعيين عام 1978، على توجيه ضربة إلى القاعدة الحزبية، ليست كسابقاتها في استهداف القيادة والقاعدة في آن واحد، فقد فُتحت للقيادة المطارات والحدود للرحيل إلى المنفى مع غضّ النظر عنهم، فيما بقيت القاعدة الحزبية تقاوم وتناور من أجل البحث عن منفذ للخلاص والالتحاق بقواعد الأنصار في الجبال، وإلى تأمين عودة أعداد أخرى من خارج الحدود ممّن سمحت لهم ظروفهم بالسفر خارج العراق عشية الحملة على الشيوعيين ليصبح تواجدنا متلاحماً ومتناغماً مع محبينا وجماهيرنا في العمل والتحرّك. ولن ننسى ذلك الموقف الاسطوري لأهالي القرى الكردية الفقراء، فهو موقف يستحق الثناء والكتابة عنه، فقد تحمّلوا بسببنا التهجير والضرب بالسلاح الكيميائي وقتل مواشيهم وتخريب مزارعهم وحرمانهم من النزول إلى المدن والالتقاء بأهاليهم أو ممارسة تجارتهم في البيع والشراء التي هي رزقهم الوحيد، بالإضافة إلى تعرّضهم اليومي للاعتقال والموت ومسح بعض قراهم بالكامل.

رغم كل تلك الظروف من الحصار والصعوبات والتهديد بالموت، إلّا أن بيوتهم بقيت مفتوحة لنا ليلاً ونهاراً، يقاسموننا رغيف خبزهم الشحيح وأفرشتهم المهترئة والرطبة. كان نضالنا فعّالاً وواقعياً وله صداه في المدن العراقية بين جماهيرنا والمتعاطفين معنا، فتناقلوا أخبارنا اليومية ونشاطاتنا السياسية ومعاركنا العسكرية، بيد أنها كانت لا تخلو من المبالغة في بعض الأحيان، الأمر الذي لا يمكننا عزله عن تكوين الشخصية العراقية في بنائها

النفسي والبيئي في التملّق والمواربة والمبالغة والنفاق، وهذا ما تطرّق إليه عالم الاجتماع العراقي علي الوردي في بحوثه ودراساته حول (شخصية الفرد العراقي) في صراعها بين البداوة والتحضّر، وقد ذهبت بهم المبالغة إلى نشر خبر في مطلع الثمانينيات مفاده أن ألف شيوعي قد تسللوا إلى بغداد مدجّجين بالسلاح والعتاد بنيّة إحداث انقلاب عسكري على حكومة بغداد، وهي معادلة صعبة في عالم التأويل العراقي.

في عام 1982وُزّعت أعداد من جريدة الحزب المركزية (طريق الشعب) خلسة إلى بعض الرفاق مقطوعي الصلة عن التنظيم وإلى أصحاب لي بدون أن يفطنوا إلى مصدرها وطريقة وصولها إليهم ومن يقف خلف توزيعها، تحوي في طياتها خبر إعدام قريبي ماجد هاشم ياسين بعد أن وقع في أيدي الجندرمة الأتراك في قضاء (نصيبين) التركي أثناء محاولة عبوره من دمشق للالتحاق برفاقه في الجبال عبر أراضي تركيا مع رفيقين له، وسُلِّموا إلى السلطات العراقية التي اعتقلتهم، وقد ماتوا بعد شهور من التعذيب وسُلّموا جثثاً مشوهة إلى ذويهم.

وقد تبين لي لاحقاً أن هنالك جريدة (طريق الشعب) موازية ومصدرها ومضمون موادها استخباراتي، فقد كان حزب البعث هو الذي يصدرها وهو من يقوم بنشرها بين الناس ليرى ردود فعلهم ومدى تقبلهم وتعاطفهم مع تلك الإشاعات التي كانوا يبثّونها من أخبار المعارضة لسياستهم، وأحياناً كان يفعل ذلك بنية تصفيات جديدة للمعتقلين السياسيين، وإعدامات بذريعة تبييض السجون.

تلك الإشاعات، الواقعية منها والفعلية، انعكست على ردود أفعال البعث ومواقفه الهستيرية تجاهنا من تصاعد العداء لنا وقسوة أساليبهم ضدّنا من اعتقالات وإعدامات بين فترة وأخرى، كانت أغلبها عشوائية ومبنية على شكوك وظنون وتوجّس.

وقد ظلّ البعث يحاول، من خلال عدة فروع له استُحدثت لهذا الغرض، استغلال أية فرصة لدسّ أنفه في كل أمر، وإطلاق يده في الخلافات بين الأحزاب والتجمعات على الساحة الكردستانية، وزد على ذلك زرع الفتنة بينهم من خلال تأليب أحدهم على الآخر وإطلاق الاشاعات والأكاذيب واستمالة طرف على حساب الآخر بإغراءات تكتيكية سياسية (ميكافيلية). وما حصل في جريمة بشتاشان عام 1983 دليل آخر على تدخل البعثيين في مشاكل المعارضة وتوسيع فجوة الخلاف بينها بهدف إضعافها وإنهاكها، كل ذلك لا يلغي حماقتنا في آلية إدارة الأزمات، وتخلّفنا سياسياً وتكتيكياً في جبهتين فاشلتين في العمل السياسي المعارض (جوقد) و(جود)[1]، الأولى قومية والثانية وطنية، والاثنتان جلبتا لنا الكوارث، وقد سبقتها تجربة جبهة وطنية وقومية وتقدمية فاشلة بامتياز، فقد وقّعت جبهة جوقد الوطنية والقومية الديمقراطية في دمشق، وضمّت إضافة إلى الشيوعيين، حزب البعث قيادة قطر العراق والاتحاد الوطني الكردستاني (أوك) والحزب الاشتراكي الكردستاني (حسك) وكانت بقيادة رسول مامند والحركة الاشتراكية العربية.

وبعد عدة أشهر دخل الشيوعيون في جبهة جديدة في كردستان العراق سميت (جود) الجبهة الوطنية الديمقراطية، ضمت الحزب الديمقراطي الكردستاني (حدك) مما وسع الفجوة بين الحليفين الكرديين وكنا الضحية في جريمة بشتاشان في استمالتنا إلى طرف على حساب الآخر.

---

(1) عُقد في دمشق في عام 1980 اجتماع معارض للنظام البعثي العراقي تأسست بموجبه الجبهة الوطنية والقومية التقدمية (جوقد)، التي ضمّت الحزب الشيوعي العراقي، الاتحاد الوطني الكردستاني، حزب البعث الجناح الموالي لسوريا، الحزب الاشتراكي في العراق، الحزب الاشتراكي الكردستاني والتجمع الديمقراطي العراقي. ولّما كان هناك خلاف دائم بينهما، فقد رفض الاتحاد الوطني الكردستاني (اوك) ضمّ الحزب الديمقراطي الكردستاني (حدك) إلى الجبهة، مما دفع الحزب الشيوعي والحزب الاشتراكي الكردستاني إلى تشكيل الجبهة الوطنية الديمقراطية (جود) مع الحزب الديمقراطي الكردستاني.

تعرقل توجهي إلى الداخل (بغداد) ومدن العراق عام 1984 وتأخر بسبب من الخلافات والتصادمات بين أحزاب المعارضة على أرض كردستان، بحيث لم يعد لنا من منفذ سهل للتسلّل من الجبال إلى قرى وقصبات قاطعي السليمانية وكركوك المحاذية للمدن، فأغلب المخارج كانت تحت سيطرة مقاتلي الاتحاد الوطني الكردستاني (أوك) بالتنسيق مع قوات النظام إثر تحالفهم عشية أحداث (بشتاشان). لهذا اضطر التنظيم إلى أن يتخذ من قاطع (بهدينان) منفذاً له لعملنا الجديد، وعلى ضوء تلك التطورات والمستجدات، انتقلتُ إلى هذا القاطع في نهاية عام 1985 حيث يوجد الفصيل المستقل في وادي (زيوه) بين الجبل ونهر الزاب، خلف مدينة العمادية على سلسلة جبال (متين) في محافظة دهوك، وادي (زيوه) الذي تعرض إلى القصف الكيميائي صيف العام 1987من قبل الطيران العراقي على المقر العام لقاطع بهدينان والفصيل المستقل للتنظيمات المدنية، وأدى إلى استشهاد رفيقين وإصابة العشرات من رفاقنا بحروق وسموم، في جريمة ضدّ الإنسانية هي وصمة عار في جبين الدكتاتورية البعثية، لن تسقط بالتقادم ولم يطوِها النسيان.

# فندق المعارضة

في خريف عام 1985 أبرقت قيادة الحزب إلى مقرّ قيادة قاطع السليمانية بتبليغي حزبياً إلى أن أتهيّأ للانتقال إلى قاطع (بهدينان)، وتحديداً إلى الفصيل المستقل، وهو فصيل التنظيم المدني المعني بالعمل في الداخل، وطبعا لم يكن هنالك من منفذ سهل للاتصال بالداخل من هذا القاطع بسبب عمليات السلطة العسكرية الرامية إلى إعادة قبضتها على أكثر الرواقم والمناطق الحيوية، وبسبب الاحتراب الداخلي أيضاً بين قوى المعارضة نفسها؛ الاتحاد الوطني الكردستاني من جهة، والحزب الديمقراطي الكردستاني والحزب الشيوعي والحزب الاشتراكي الكردستاني وحزب الباسوك من جهة أخرى. تحرّكتُ بأوراق رسمية زُوّدتُ بها على أساس أني واحد من مقاتلي الحزب الديمقراطي الكردستاني، وكانت حركتي عبر مناطق (شرباجير) في السليمانية عبوراً إلى الأراضي الإيرانية. وبعد رحلة ليس بالسهلة وصلت إلى هوتيل المعارضة العراقيّة (هوتيل حافظ) في قلب مدينة (رضائيه) الإيرانية، وكنت عبر القنوات أنتظر نقلي إلى مناطق (لولان) الذي لم يكن سهلاً مما اضطرني للبقاء بحدود عشرة أيام داخل المدينة وبنفس الهوتيل. وفي النهاية وصلت إلى (لولان) وكان المؤتمر الرابع للحزب قد انتهى للتوّ واللغط حوله طاغياً؛ المؤتمر الرابع الذي أطاح بأكثر أعضاء قيادة الحزب. فبعد أن كان عددهم في المؤتمر الثالث في بغداد 1976 قد وصل إلى 44 عضواً أصبحوا في المؤتمر الرابع 15 عضواً بالإضافة إلى «العشرة المبشرة بالجنة» بعد أن قام عزيز محمد شخصياً باختيارهم، وهو الأمر المنافي للنظام الداخلي للحزب والتقاليد النضالية. وظل هذا الأمر محيّراً.

بعد أسبوع في ضيافة أحد الفصائل تحرّكتُ مع مفرزة تضمّ بحدود 15 رفيقاً إلى مناطق (بهدينان) وكان معي في المفرزة فالح حسن (أبو بهاء) وعدنان الطالقاني (أبو هيمن)، وكنت أتعرف عليهما لأول مرة، وكانت النقاشات والتعليقات حامية بصددهما، وعرفت خلال الرحلة أنهما حُجرا ولم يحضرا المؤتمر رغم أنهما كانا ضمن المندوبين من الداخل، وذلك بسبب شكوك أمنيّة حولهما. وبعد أسبوع وصلنا إلى قاطع (بهدينان) وكانوا بنفس الفصيل معي، الفصيل المستقل الذي يجمع بحدود 60 رفيقاً بقيادة عمر الشيخ علي وآرا خاجادور وحميد مجيد موسى أعضاء المكتب السياسي. وكانت مهمة الفصيل هي الزجّ بالأعضاء للعمل في الداخل، ولم يُلبّ المهمة إلّا عدد محدود من الرفاق. من هذا الفصيل في شهر شباط 1986 ذهبت إلى بغداد.

# في جبال سورين

في ربيع عام 1985، لا شيء يعكّر هدوء وصفو سلسلة جبال سورين إلّا بعض الأخبار المتفرقة والمتناقلة عبر المارة وأهالي القرى المحيطة بمقرنا في وادي (هزارستون)، وبما أننا وسط جبهة حرب مشتعلة فقد اعتدنا في عملنا الأنصاري على الحشود العسكرية والأمنية في قصبة (سيد صادق)، وكان بين الحين والآخر تمطر القذائف المدفعية باتجاه أعلى راقمين عسكريين إيرانيين وغالباً، ما تخطئ الهدف وتسقط قريبة من مقرّنا قرب عين الماء الوحيدة التي أمددناها عبر أنبوب مطاطي من الجبال باتجاه الكهف الذي كنا نسكنه.

في صباح يوم ربيعي مشمس، ومع تقدم القوات العراقية الخاصة بقيادة القائد العسكري علي عربيد والذي زادت حوله التكهنات وقُتِل بعد سنوات في ظروف غامضة في مدينة كركوك، المعززة بأرتال من جحوش أدلاء (كوري منطقة)؛ ازداد القصف بغرض تمشيط المنطقة، وقد وصلت الأراضي الإيرانية حيث التفت حول الراقمين بعد أن تجاوزت مقرّنا من الخلف وتسلّقت التلال الوعرة خلفنا، ورأينا بأم العين، نحن العشرة رفاق التابعين إلى التنظيم المدني، طريقة رميهم للجنود الإيرانيين من أعلى الرواقم إلى جوف الوادي مع أصوات صراخ واستغاثة وتوسل.

تمكّنا من الانسحاب إلى مناطق باني شهر حيث لنا موقع ورفاق وفوج عسكري كامل (الفوج التاسع)، رغم الحرب وصعوبة الأجواء، مع بيشمركة

مقاتلي الحزب الاشتراكي (حسك)، وفي الليل داهمت القوات العراقية مقرّنا ووقع عددٌ من القتلى من الفريقين.

استلمنا برقية مستعجلة ومستنفرة من قيادة القاطع، ساعة وصولنا إلى مقرّ رفاقنا، مفادها أن الانسحاب يُعدّ هزيمة عسكرية وسياسية وأخلاقية وعشائرية أمام أهالي القرى ويصخم (يسوّد) وجه الحزب، ولإعادة الاعتبار إليه فلا بدّ من سحب معداته التي هي عبارة عن تسعة صواريخ (بازوكا) فاسدة ومتروكة منذ فترة طويلة في زاوية رطبة داخل الكهف.

وفي صباح اليوم الثاني، اجتمعنا رفاق موقع هزارستون وقررنا العودة في الليل وسحب ممتلكات الحزب، وعلى الرغم من خطورة الموقف والتعب والجوع الذي وصل حد الإعياء، قررنا نحن أربعة رفاق من أصل عشرة، أنا لطيف (اسمي الحركي) ومناف الأعسم (أبو حاتم) وإبراهيم البصراوي الذي يلقب بالدكتور والشهيد آشتي ابن مدينة السليمانية المثقف والدمث وصاحب الخلق الرفيع، أن نضحّي بأنفسنا تلبية لتوجيهات قيادة القاطع، وتحركنا وسط جبهة حرب مشتعلة والليل نهارٌ بفعل القنابل المضيئة المشتعلة على طول الليل، وبعد عملية شاقة وصعبة وخطرة وصلنا إلى المقر برفقة الحمارين (صبحة وفيطو) ووجدنا القتلى ملفوفين ببطانيات نومنا (إيرانية الصنع)، وتمكّنا من سحب الصواريخ الفاسدة، وبهذه العملية والتي كادت أن تودي بحياتنا أعدنا «وجه الحزب أبيض ناصعاً» حسبما ذُيلت برقية قيادة رفاق القاطع.

بعد الاجتياح الكامل لمنطقة (هزارستون) في جبل (سورين)، واصل النظام خطته المبيّتة للسيطرة على كل المرتفعات والوديان تحسباً لتطورات الحرب والاستعدادات الإيرانية والتلويح باجتياح العراق واحتلال حقول نفط كركوك الغنية، كما كان يشاع حينها، ومن خلال تحركات واسعة من قبل قوات الحرس الثوري الإيراني وبالتنسيق العلني مع قوات الاتحاد الوطني (أوك) والحزب الديمقراطي الكردستاني (حدك)، كنت هذه المرّة ضمن قوات

الفوج الخامس عشر في وادٍ معقّد بتضاريسه ووديانه وكنت هدفاً صعباً للعدو (خورنوزان)، وبالتعاون مع قوات الحزب الديمقراطي الكردستاني فرع خانقين (نوجة خانقين).

بناء على الأخبار التي كانت تردنا من المارة والمهرّبين وأهالي القرى فقد كنّا نقيم الكمائن المشتركة تجاه تقدم العدو على مقرّاتنا ومقاتلي (بيشمرگة) الديمقراطي في موقع عسكري قديم تركه الجيش العراقي بسبب احتدام المعارك في جنوب العراق وهو الأقرب لتقدم الجيش العراقي باتجاهنا ومطلة على سفح الجبل، وعلى أهم منافذ الخطر والتحرك نحونا.

في ليلة هادئة ومقمرة، وبينما كنا في كمين متقدم أنا وأبو زاهر والشهيد عمار والشهيد قاسم، تخلّى مقاتلو بيشمرگة الحزب الديمقراطي الكردستاني عن راقمهم، مما أثار بيننا التساؤل والحيرة في ذلك الوضع العصيب وبدون التنسيق مع مسؤولي مقرّ فوجنا وإخبارهم بالتخلي عن الالتزامات المتفق عليها بين الطرفين، لنتمكن من أخذ الحيطة والحذر، ولتعويض الفراغ بمفرزة إضافية.

كان كمين موقعنا وحراستنا في المرتفع الجبلي المُطلّ على الطريق العام بين مدينة حلبچة والسليمانية، مجرّداً من أية تحصينات عسكرية، ضمن أرض جرداء ومكشوفة إلّا من بعض الصخور الصغيرة التي لا تشكّل أي ساتر حماية لخوض القتال وحتى للدفاع عن النفس، بعكس ربيّة البيشمرگة للحزب الديمقراطي الكردستاني الذي هو موقع عسكري محصّن بالسواتر الترابية والصخور والحواجز، ورغم مرور كل هذه السنوات لم تُكشف الأسباب الحقيقية التي كانت وراء الدافع للتخلّي عن واجبهم في تلك الليلة التي حدث بها التقدم، فلغاية تاريخه لم يصدر أي بيان ولا حتى أقصوصة من ورق في اجتماع دوري بهذا الشأن.

لا زلت أتذكر تفاصيل تلك الليلة المقمرة بنجومها المتلألئة، كنا ولوقت

متأخر نسمع صوت فيروز «يا جبل البعيد خلفك حبايبنا» عبر راديو صغير من إذاعة الكويت، الصوت الذي كان يزيد بنا الوجع والحنين إلى الأحبة والأهل والمكان. إذ أن لصوتها ذلك الوقع في نفوسنا التي تحجرت. في الساعة الواحدة من تلك الليلة، بدأنا بالتناوب على الحراسة مع أبو زاهر، واستلمت الحراسة بعده، وبعد عناء ساعة من النوم المتقطع والحذر اخترقت طبلة أذني أصوات تقدّم وهمس حديث مهرّب مع نسمات الهوى العليلة، فتقدمت قليلاً لأكتشف بأن قوات الجيش العراقي قد طوّقتنا من عدة محاور وبأن ربية مقاتلي الديمقراطي كانت بالكامل تحت سيطرة الجيش العراقي، وتبين في ما بعد أن التقدم باتجاهنا كان قد بدأ في الساعة السابعة مساءً من قرية (شيلمر) قاطع مدينة (حلبچة)، وعندما بلّغت مسؤول المفرزة أبو زاهر، قرر الانسحاب حالاً باتجاه رفاقنا بالوادي أمام مرأى عيونهم وتحت فوهات بنادقهم، لكنهم تركوا لنا طريقاً للانسحاب، لماذا؟ لا أحد يعرف إلى الآن. لماذا تركونا وأفسحوا لنا المجال للانسحاب وكنا في مرمى نيرانهم ويمكنهم قتلنا بسهولة؟

هذا السيناريو، وخلال ساعات قبل بزوغ الفجر، أعقبه انسحاب عسكري كامل من مناطق باني شهر وخورنوزان باتجاه الأراضي الإيرانية. بعد متاعب وتهديدات وخطورة، وصلنا إلى مناطق كرجال مقرّ قيادة القاطع، حيث قطعنا أراضي ومدن إيرانية عرضاً وطولاً بسيارات مرخصة وتابعة إلى الحزب الديمقراطي الكردستاني (حدك)، وحين وصلنا إلى مقرّ القاطع العام، في قاطع السليمانية وكركوك، ونحن نجرجر أذيال التعب والخيبة، عُقِد اجتماع موسع وسريع لتقييم الوضع وبالتحديد ظروف الانسحاب بعيداً عن توجهات السلطات الجديدة ونيّتها على المدى القريب، حسب الأخبار والتحركات المتواردة سريعاً من محيط المنطقة، في الاجتياح الكامل للأراضي الحدودية مع إيران والتي يسيطر عليها مقاتلو الأحزاب المعارضة التي من خلالها تتحرك قوات إيرانية في استهداف مدن العراق.

عُقد الاجتماع بقيادة الراحل أحمد باني خيلاني، وكان مفروضاً عليه الحديث فقط في استعراض «روزخوني» (مصطلح يستخدم بشأن قرّاء المنبر الحسيني) لخوض المعارك، بعيداً عن الوقائع والإمكانيات وبوادر الاحتمالات القادمة، وبدلاً من التقييم الميداني في مواجهة التطورات السريعة، تمّت معاقبتنا نحن جماعة الكمين المتقدم، لكن لم يُعمل بها لأن الوقت لم يسعفنا، فاجتيحت المنطقة بالكامل، وانتقلنا كقاطع وأفواج وسرايا وفصائل وتنظيم إلى مناطق (شرباجير) والتي هي أيضاً امتداد لسلسلة قرى وقصبات مدينة السليمانية.

وبمسؤولية أعترف بأن قرار أبي زاهر بالانسحاب كان صائباً جداً، على الرغم من محاولته التنصل منه وتحميلي أنا شخصياً المسؤولية التي تحملتها دون أي تردّد، لأننا أنقذنا أكثر من سبعين رفيقاً كانوا يغطون بنوم عميق في وادٍ محصور بين جبلين وذلك بعدم إطلاقنا الرصاص باتجاه العدو، وبعدها حاول البعض الادعاء وركوب الموجة، ولكنه غيّر موقفه إنصافاً للواقع.

# حديث مشتّت مع النفس

في جبال سورين كم فكّرت أني كنت أسعى لتطوير قراءاتي وتعزيزها بالجديد، مثلما كنت آمل أن تتاح الفرصة لي لتحقيق مواقع أكاديمية (أدبية) في مسيرة حياتي التي بدأت حديثاً تشق طريقها عبر مراحل دراستي الجامعية، فدرست الأدب الروسي ولغته في جامعة بغداد وتتلمذت على يد أساتذة ومفكرين وأدباء، ضياء نافع، جليل كمال الدين، حياة شرارة، محمد يونس الساعدي، ناشئة بهجت وآخرين، وقررت أن يكون تخصصي في المستقبل حول الشاعر والأديب والرسام الروسي بوريس باسترناك، لكنني حُرمت من إكمال الدراسة وتحقيق طموحاتي بسبب الأوضاع السياسية وملاحقتي من جانب نظام البعث واضطراري للهروب.

عرف بوريس باسترناك عالمياً من خلال روايته الموسومة «الدكتور (زيفاكو)»، والتي يروي فيها حياة السوفييت والنظام الشيوعي وعلاقته بالأدباء ووجهات نظرهم المختلفة ومن عدة زوايا قد لا يراها الآخرون، وقد مُنع من نشرها، بل إنه حورب بسببها وفُرض عليه حصار أدبي وإبداعي لاعتبارات سياسية ضيقة كانت سائدة في الاتحاد السوفييتي والأنظمة الاشتراكية، فقام بتهريب مسودتها عبر الحدود إلى إيطاليا، وثم طبعت هناك، فتعرّض على أثرها للاعتقال، وبدأت حملة كبيرة ضده دعت بعض زملائه ورفاقه للمطالبة بطرده من الاتحاد السوفييتي وبسحب الجنسية منه عام 1958.

مات باسترناك في العام 1960 ولم يحضر جنازته سوى بعض المعجبين

المخلصين، وكان قد منح جائزة نوبل للآداب عام 1958 لكنه رفضها، أما روايته «دكتور زيفاكو» فلم تنشر في الاتحاد السوفييتي إلّا في العام 1987وذلك مع بداية البيرسترويكا والغلاسنوست، وكانت قد أخرجت كفيلم سينمائي ملحمي حصد خمسة جوائز أوسكار.

كلّما تحرّك موقد الفتنة والكراهية والحقد، اشتعل فتيل الحرب على الجبهات مع إيران بين فرّ وكرّ حيث تصدح البيانات الرسمية عن احتلال أرض الغير. وكنت حينها مع الثوار الشيوعيين في قرى وجبال كردستان أشهد على ازدياد أعداد الملتحقين بنا هرباً من ويلات الحرب وكانت وجهتهم جمهورية إيران الإسلامية التي كانت تدعو الجنود العراقيين في بياناتها العسكرية إلى الالتحاق بها تحت عنوان «إيران ترحّب بكم وبحضرتها تجدون الأمان والإسلام والعبادة».

كان المشهد مؤلماً ومأساوياً بالنسبة لنا نحن الذين نناضل من أجل وحدة بلادنا وإسقاط الدكتاتورية وتحقيق الأمن والأمان لشعبنا، كنا نرى بأم أعيننا شبابنا الهارب إلى إيران عبر مفارزنا ومقراتنا، وكنّا مضطرين أن نكون نقطة مرور مؤلمة بتفريغ العراق من أبنائه الذين نراهن عليهم في دعمنا للنهوض بالنضال والإطاحة بالنظام، لقد حاولت كثيراً مع بعض رفاق الدرب والأصدقاء ممن شُرّدوا من الحرب بحثاً عن مأوى لإقناعهم وثنيهم عن الذهاب إلى إيران والبقاء في العراق أو ضمن صفوف المعارضة لأن الوطن بحاجة لنا جميعاً، لكنهم كانوا يسخرون مني ومن قضيتنا ونضالنا وصبرنا على تحمل الصعاب.

التقيت مرة بعبد العظيم صادق الكرادي، وهو صديق ورفيق من أيام بعقوبة وصخبها ونواديها وحاناتها، وليس بعيداً عن أجوائنا وتطلعاتنا، فهو ينتمي إلى عائلة معارضة تاريخياً لسياسة نظام البعث، قدّمت العديد من الشهداء للحركة الوطنية، كما تعرّض هو أيضاً للملاحقة والاعتقال، واستطعت أن أقنعه بالبقاء والتواصل مع مشروعنا السياسي، وبعد عدة أشهر تلقيت خبراً عن إصابته إثر القصف على مقرّ القاطع في منطقة كرجال، وبعد البحث عنه وجدته مصاباً

بشظية في رأسه متروكاً مهملاً من الرفاق المحيطين به المتواجدين في الموقع، وفي منتصف الليلة الأولى التي قضيتها معه بدأت تظهر عليه علامات خطيرة وقلقة منها السعال والإغماء.

في صباح اليوم التالي، تحدّثت مع المسؤولين بشأنه، ولكنني لم ألق أي اهتمام أو اكتراث لوضعه، وكانت التبريرات عديدة وجاهزة منها أنه ملتحق جديد وبدون تزكية بأكثر من رفيق، فاضطررت لنقله على ظهر بغل إلى مدينة دزلي الإيرانية وتسليمه إلى سلطات الحدود الإيرانية وذلك على مسؤوليتي الشخصية وعلى نفقتي الخاصة مع تزويده بما كان لدي من مال بوضعه في جيبه، وتذكّر ذلك حين عودته وبعد شفائه في مستشفى مدينة مريوان الإيرانية.

في العام 1987، وبعد مطالباتي المُلحّة من قيادة تنظيم المنطقة الوسطى، التحق بنا في التنظيم المدني محاولاً إثبات جدارته للعودة إلى بغداد وديالى وتشكيل خطوط حزبية، لكنه سرعان ما عاد إلى الجبل، وذلك لصعوبة التحديات التي واجهته من إيجاد مأوى وخطوط تحرّك، مع قريبه علي كرادي كملتحق جديد مع الثوار، جرّاء موقفي هذا، كُتبت له حياة جديدة يعيشها الآن مع عائلته في الدانمارك الذي كنت أنا من ساهم في وصوله إليها ولولا هذا الموقف لكان الآن في عداد الموتى ورميت جثته تحت إحدى الصخور مجهول التاريخ والهويّة، ولعلّ ذلك جزء من الوفاء، على الرغم من أنه ساد في أوساطنا حالة من عدم الوفاء والتنكّر للمعروف والإساءة إلى صاحبه أحياناً.

في 1 أيار 1983 عيد العمال العالمي، حدثت جريمة بشتاشان التي لا زالت ترخي بظلالها على مسيرة حياتنا في المواقف والخلافات، لا سيّما بتداعياتها السياسية والعسكرية والتنظيمية والمعنوية والأخلاقية والإنسانية، حيث برزت إلى العلن صفحات من الصراع السياسي (الحزبي) التي كانت مطوية ومخفية لسنوات طويلة تعدت حدّ التشهير والنيل من الآخرين وإلحاق الحيف بهم ووصل بعضها إلى كسر العظم.

في قاطع السليمانية، وقّع المسؤول العسكري بهاء الدين نوري، الذي انطلق من رؤيته وتجربته الخاصة، اتفاقية (ديوانه)، نسبة إلى قرية ديوانه في ناحية قرداغ، والتي تحرّم القتال بين الطرفين، مع ملّا بختيار أحد قادة الاتحاد الوطني الكردستاني، والذي كان محسوباً على اليسار الكردي الجديد، وحسب تبريرات بعض الرفاق، فإن توقيع الاتفاقية جاء حقناً للدماء ولملمة الأطراف، ولكن الطرف الآخر من معادلة الصراع لم يلتزم بتلك الاتفاقية على الرغم من الإعلان عن طيّ صفحات الماضي وفتح صفحات جديدة من العلاقات والتعاون مع القوى الكردية، لكنه عاد بعد سنين إلى الغدر ونصب الأفخاخ والمكائد للنيل من مقاتلي الأنصار الشيوعيين بالتعاون مع كل الأطراف المعادية، وما حدث في مفرزة الشهيد ملازم سعد (أبو يسار) ورفاقه في مناطق (كرميان) خير دليل على الغدر وسوء النية وعقدة الشوفينية.

فقد تمّ الغدر بكوكبة من الأنصار الشيوعيين (العرب) في إحدى المفارز المشتركة والحراسات الليلية التي كانت قائمة في ظلّ وضع ملتبس، وكان الشهيد أبو يسار مع مفرزة صغيرة مشتركة من مقاتلي الاتحاد الوطني (أوك) في مناطق كرميان عام 1988، وقد تم تسليمهم إلى أجهزة السلطة في المنطقة مع تسليمهم لأنفسهم، حيث اتضح لاحقاً بأنه كان هناك تنسيق بين أجهزة السلطة ومفرزة الاتحاد الوطني الكردستاني (أوك)، إن المسؤول عن تنفيذ تلك الجريمة لا يزال حرّاً طليقاً في هولندا ويتقاضى راتباً تقاعدياً من وزارة البيشمركة في مدينة أربيل العراقية.

لاقت خطوة بهاء الدين نوري رفضاً واستهجاناً عارماً من القاعدة الحزبية التي طالبت بدماء الرفاق التي لم تجفّ في تلال ووديان بشتاشان وبليسان ومواقع أخرى، وطالبت بالثأر لهم وفضح آثار الجريمة ومحاكمة المجرمين ونيلهم القصاص العادل وإعادة الاعتبار للضحايا والشهداء، وحتى الآن هناك قلّة من الشيوعيين ما زالت تطالب عبر عدّة منابر بالاقتصاص من المجرمين.

# خورنوزان: حدث وهزيمة

في ربيع عام 1985، وفي قاطع السليمانية وكركوك هنالك تحركات واسعة وحشود عسكرية واستخباراتية في المنطقة، هكذا ينقل لك رعاة الأغنام ومهرّبو المواد الغذائية من إيران (الكرونچية). بدأ أصدقاؤنا وبعض رفاق التنظيم، لكن دون تحديد الهدف والغاية، أولى جولاتهم وعملياتهم بعد استهداف مقرّنا في هزارستون من قبل الجيش والجاش، كنا أضعف حلقة في جبل سورين، لا يتعدى عددنا تسعة رفاق، كنت ربما الأكثر نشاطاً بينهم والأصغر عمراً، كنا محسوبين على التنظيم المدني لإعادة تنظيمات الداخل ولملمة رفاقنا في المدن، والذين تقطعت بهم السبل إثر حملة البعثيين الدموية ضدنا في العام 1978.

كان موقعنا محصوراً بين الربايا العراقية والإيرانية وسط جبهة حرب طاحنة، يومياً تعبر الصواريخ العراقية وتجتاز سماء موقعنا لتدك رواقم الجيش الإيراني من قصبة (سيد صادق)، وفي ذلك اليوم الربيعي، عندما تلألأ ألق الفجر استيقظنا على صوت دويّ الانفجارات والقصف المدفعي الكثيف والمتواصل، مع تقدّم وحدات من الجيش بقيادة عميد القوات الخاصة (علي عربيد)، الذي كان لاسمه صدى وباع مشهود في خوض المعارك الحاسمة والخاطفة باتجاه الرواقم الإيرانية التي كانت خلف مواقعنا، وبعد ساعات تُعدّ قياسية في العمل العسكري، كانت المنطقة برمّتها بقبضة القوات العراقية بعد قصف مدفعي كثيف لعدة ساعات متواصلة وعملية التفاف مفاجئة وخاطفة ولا تخلو من شجاعة الجندية العراقية.

فرضت القوات العراقية سيطرتها بالكامل، وعملياً وميدانياً، سقط مقرّنا (كهفنا) عسكرياً، وأصبح تحت قيادة الجيش، وانسحبنا بصعوبة بالغة للغاية إلى سلسلة جبال (باني شهر)، حيث مقرّ رفاقنا الفوج التاسع بقيادة عمر حامد ومامستا سردار وأحمد رجب، حملنا في انسحابنا كل ما خفّ وزنه وغلا ثمنه، وفي الصباح الباكر كنا في موقع رفاقنا في الفوج التاسع في سلسلة مناطق باني شهر التي تمتدّ إلى الأراضي الإيرانية عبر وادٍ عصي على القصف والاستهداف.

وبعد فترة قصيرة لم تمهل قيادة الأحزاب تقييم ودراسة التطورات واستخلاص الدروس الممكنة لمواجهة أحداث لاحقة تلوح في الأفق القريب، هناك قرار قيادي من النظام يقضي باكتساح المنطقة برمتها مهما كانت النتائج والخسائر، وهذا ما تمّ فعلاً وبسرعة.

خورنوزان هو وادٍ عميق كونته تغيرات الطبيعة على مدى ما لا يُحصى من سنين، بشقّه داخل جبل سورين، وكان عصياً على الاقتحام ومن الصعوبة استهدافه بالقصف المدفعي لأنه محصور بين جبلين حادّين وضيّقين، اتخذه الفوج الخامس عشر مقرّاً له بعد أن انسحبوا من مناطق (قرداغ وكرميان) على أثر الحرب مع قوات الاتحاد الوطني الكردستاني تمهيداً للمفاوضات مع السلطة المركزية التي لم تكلّ في جهودها الساعية إلى شقّ وحدة قوى المعارضة. ونظراً لموقع المكان الطوبوغرافي، فمن الصعب جداً أن تنال المدفعية العراقية هدفها بدقة في ما لو تقصّدته. ووفقا لتلك الميزات طوبوغرافياً وعسكرياً تم اختياره كمقر عام وثابت في وسط الوادي، وبعد أحداث هزارستون وما نتج عنها من إرباكات عسكرية لم تكن في الحسبان القريب تم توزيعنا على الأفواج نحن رفاق موقع هزارستون.

كان نصيبي هو الفوج الخامس عشر مع الرفاق الشهيد عمر أبو علي السماك وصارم كاظم الجاسم (ملكو). وكان هناك تنسيق بيننا وبين الحزب الديمقراطي الكردستاني (نوجة خانقين) في حماية المنطقة من خلال مفارز

متقدّمة وكمائن ليلية، المنطقة كانت تغلي بتحركات واسعة من قبل الجيش والاستخبارات والنيّة في اجتياح المنطقة كانت مُبيّتة تحسباً لهجمات إيرانية محتملة باتجاه منابع النفط بمدينة كركوك بالتعاون والتنسيق مع قوى المعارضة الكردية.

موقعنا في خورنوزان يحيط به وبأعلى قمة الجبل راقمان أحدهما مهمّ جداً استراتيجياً وعسكرياً، كان قبل يوم موقعاً عراقياً متقدماً ومحصناً ومشرفاً على طريقنا الوحيد للاتصال بقيادة القاطع في منطقة كرجال، وفي بعض الأوقات وتحديداً نهاراً، كان الجيش يعسكر فيه لساعات لرصد التحركات، وكنّا نتجنبهم أي نبتعد عن الاصطدام معهم، لأنهم بكل الأحوال سينسحبون بأول عتمة قادمة، كما أن وجودهم لم يؤثر علينا عسكرياً، فقد كانوا يغضّون النظر عن مرورنا على سفح الجبل.

أما في الليل فكنا نخرج في كمائن على أهمّ مداخل ومنافذ العدو التي كان من الممكن من خلالها أن يتسلقوا باتجاهنا ويشنّوا هجوماً علينا، فكانت مهمّة حزب البارتي (نوجة خانقين) ذلك الراقم المهمّ والمشرف على تحركات المنطقة والمحصن عسكرياً، وهو الأقرب لتقدمه من منطقة خورمال أو قرية شيلمر وطريق مدينة حلبچة العام. وكنا نحن مقاتلي الحزب الشيوعي في موقع متأخر عنهم لكنه مكشوف للعدو، وهذا ضمن عمليات التنسيق والعمل المشترك بين قوى المعارضة في ساحات كردستان.

في تلك الليلة المقمرة لم نسمع إطلاقة واحدة كالمعتاد ولا صوتاً صاروخياً يخترق أجواءنا باتجاه الأراضي الإيرانية ولا معلومة واردة لنا بتجمّع القوات العراقية وتحركاتها، رغم قرب المسافات والاحتكاك بأهالي القرى، كل شيء كان هادئاً في تلك الليلة، لكنهم كانوا يتسلّقون الجبل باتجاهنا، وكنت مع ثلاثة رفاق مرابطين على ذلك الراقم المكشوف، وعلى يسارنا، حسب الاتفاق، مقاتلو الحزب الديمقراطي الكردستاني وكان على ذلك الراقم العسكري

والمهم تحت مسؤوليتهم، لكنهم في تلك الليلة تخلّفوا عن الالتحاق به وبدون إشعارنا حتى أننا لم نتمكن من إبلاغ رفاقنا بتطورات الأحداث لعدم الالتحاق بالراقم المتفق عليه معهم كي يكون تحت مسؤوليتهم لتدارك الموقف خوفاً من عواقبه الوخيمة، بقينا في ساعة متأخرة من الليل في حيرة ما بين تكهنات وتوقعات، ولم يبقَ أمامنا وقت إلّا بتوزيع المهام والحراسات.

في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل استلمتُ حراستي من النصير أبي زاهر، وفي اللحظات الأولى تقدّمت قليلاً نحو منحدر الجبل الطويل، فلاحت أمام عيني أرتال من جنود مدججين بالأسلحة ومشكلين طوقاً حول وجودنا، بعد أن تخلى الشركاء عنه في تلك الليلة الغريبة، مباشرة أبلغت قائد المفرزة بما يحدث حولنا، نهضنا جميعاً ورأينا بعيوننا أننا محاطون بجنود مدججين بالسلاح، فأمر قائد المفرزة بالانسحاب السريع، كنا مطوّقين ومحاصرين من أكثر المنافذ للانسحاب، لم يتركوا أمامنا إلّا الانسحاب باتجاه رفاقنا داخل الوادي الغاطين في نوم عميق، ولقد تبين فيما بعد وحسب الروايات والمعلومات التي وصلتنا أن قوات الجيش العراقي بدأت تقدمها باتجاهنا من الساعة السابعة مساءً، ونحن نائمون كقادة قاطع عسكري في إدارة المعلومات واستباق الأحداث ومباغتة العدو وما يحاك بالقرب من مواقعنا.

تركت قيادة القاطع وتائر ديناميكية لسرعة الأحداث ومواجهتها باتجاه سيطرة القوات العسكرية على المنطقة، وانشغلت بتوجيه عقوبات لنا في اجتماع موسع في منطقة كرجال بقيادة الراحل أحمد باني خيلاني، لكن لا الوقت ولا النظام أمهلنا في اتخاذ تلك الاجراءات بخططه العسكرية في اجتياح السلسلة الجبلية التي نتمركز فيها، والتلويح بتلك الإجراءات العقابية السريعة والتي لا تنم إلّا عن اعتبارات عشائرية وشوفينية متخلفة بعيدة عن المنطق وتطورات الأحداث ومواكبتها، ليس أمامنا من خيارات إلّا أن نحمل عدّتنا وجراباتنا وأوراق مرورنا، مع مقاتلي البيشمرگة الحزب الديمقراطي

الكردستاني (البارتي) باتجاه الأراضي الإيرانية عبوراً إلى الطرف الثاني في مناطق شرباجير، وبنينا مقرّات جديدة لا تبعد إلّا قليلاً عن مواقع وربايا الجيش الإيراني وعلى تلك الأرض العراقية التي احتلوها، يعني كنا تحت رحمتهم، يدوسون أرض مقرّاتنا متى شاؤوا، كنا تحت رحمة جبهة الحرب الطاحنة.

لم أمكث طويلاً بها، وصلَت برقية عاجلة من المكتب السياسي تدعوني إلى التوجه إلى مناطق بهدينان، إلى الفصيل المستقل (التنظيم المدني)، في منطقة زيوه على نهر الزاب خلف قصبة العمادية، بناءً على طلب من قيادة التنظيم المدني لتنظيمات الداخل، ومن هناك لأحمل روحي إلى بغداد الحبيبة.

# النزول إلى بغداد

في مساء يوم دافئ مصحوب بمزنة من زخات مطر من شهر شباط، توجّهت مع مفرزة من قاطع بهدينان منطقة زيوه باتجاه وادي مراني، وكان ضمن المفرزة الذاهبة بمهمة طبية عاجلة إلى المنطقة الدكتور عزيز إسماعيل طاهر الشيباني (جهاد)[1]، صديق الطفولة والصبا وزميل الفكر وساحات النضال. كنّا مصحوبين بآمال كبيرة وأحلام ثورية كنا نتحدث بها طيلة الطريق. سرنا في الظلام ونزلنا عبر تضاريس وانحناءات جبل متين إلى الطريق العام ما بين مصيف سولاف وناحية العمادية، وفي طريق عبورنا بمحاذاة مدينة العمادية، المنفذ الوحيد أمامنا، وهو طريق خطير في جانب (ربيّة) عسكرية عراقية قديمة بقيت رغم حمى وطيس المعارك على حدود العراق الجنوبية، ربما لأهمية موقعها العسكري أبقوا عليها معزّزة بالجنود والأسلحة، فخلال مرورنا الهادئ والحذر بدا لنا أن الجنود رصدونا، فأثناء اقترابنا من هذا الطريق، أسمعونا أغنية سعدون جابر (يا طيور الطايرة) ربما كانت إشارة منهم لبعث الطمأنينة في نفوسنا وضمان العبور الآمن[2].

في اليوم الثاني، وصلنا إلى منطقة (مراني) في جبل (گارة) حيث مقرّ

(1) وهو اليوم رئيس قسم الأعصاب والفسلجة العصبية في جامعة (Baylor college of medicine) في ولاية تكساس ـ هيوستن الأمريكية.

(2) عند هذا المعبر بالذات، وبعد شهور من مرورنا، وقعت مفرزة لنا في كمين نُصب لهم من قبل جنود الربية نفسها، راح ضحيته الرفيق أوميد، ويُروى يومها أنهم أطلقوا النار على رفاقنا بسبب وجود مسؤول كبير كان قادماً من بغداد بمهمة إشراف على عمل المعسكرات والربايا والرواقم.

الفوج الأول لقاطع بهدينان ومقر الإقليم، وكان يقيم فيه كل من سليم إسماعيل (أبو عواطف) عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي ولبيد عبّاوي، بالإضافة إلى أبي جنان وسبهان ملّا چياد (أبو مناف) وزوجته نغم. وبحكم علاقتي السابقة مع سبهان التي تمتد إلى أيام قاطع السليمانية وكركوك، فقد مكثت عدة أيام في مقر الإقليم، التقيت خلالها، وللمرة الأولى، رفاق محلية نينوى صباح كنجي وخديدا حسين (أبو داود) والشهيد أونير بطرس (عامل). وقد وضّح لي الرفيق أبو يوسف مسيرة طريقي إلى جبل القوش وشيخان إذ سيسهل من هناك عليّ الطريق للنزول إلى الداخل، وأخبرني أن الرفاق صباح كنجي وأبي داود سيرافقانني.

في عصر اليوم نفسه، تحرّكت والرفيقين صباح وأبي داود إلى الهدف المرسوم لنا، من منطقة (مراني) إلى قرى ومرتفعات وسهول محافظة نينوى، وبعد يومين من السير المستمر على الأقدام، وصلنا إلى السلسلة الجبلية الواقعة بين شيخان والقوش، في الطريق، حدث تقارب كبير بيني وبين صباح كنجي، وامتدت جسور ألفة ومحبة وتقارب بالمواقف والأفكار، فالتقينا في العديد من وجهات النظر حول آلية العمل وتطويرها في الداخل، كما وحدثني عن تجربته ومواقفه مع رفاق زُجّ بهم إلى الداخل، فكانت المصادفات خلال سنوات النضال التي عاشها ومرّ بها كثيرة ومؤلمة، فأخبرني عن رؤيته في آلية وطرق عمل تنظيم الداخل وعن إمكانية تطويرها حيال أساليب البعث الدموية. ولدى وصولنا إلى مشارف الطريق العام الذي يربط مدينة الموصل بأقضيتها وقراها، تواردت الأخبار بأن هناك استنفاراً حكومياً أمنياً وتحرّكاً عسكرياً كبيراً في المنطقة، مع حملة مداهمات ونصب مفارز على جميع طرق ومخارج المنطقة، مما اضطرنا إلى التخفي لأيام في «شكوفت» صغير بسفح جبل (متين) بين قضائي القوش والشيخان يقع وسط تضاريس شائكة ومعقدة عصيّ على أي هجوم أو تقدّم نحونا سواء كان من قوات الجيش أو الجحوش.

اختفينا في كهف يسمى (هرفطة)، وهو واحد من الكهوف التي تكوّنت بفعل انهيار جبلي على إثر هزّة أرضية، وبقينا أربع ليال في هذا الكهف أنا والرفيق صباح كنجي، وكان غذاؤنا اليومي لمدة أربعة أيام زيتوناً أخضر لم يكن ناضجاً قطّ، كان معداً لتلك الأيّام الطارئة كما أكّد لي في حديثه ومتروكاً في المكان ليساهم في إنقاذ كل من يلوذ بالكهف، ولولاه لهلكنا من الجوع.

خلال تلك الأيّام العصيبة، والتي لم نستطع فيها الخروج حتى إلى باب الكهف إلّا لقضاء الحاجة وتحت عتمة الظلام، توثقت علاقتي بالرفيق صباح وبدأتُ أسأله عن الطريق ومسالكه وأمنه وطبيعة الصعوبات والإشكالات والخطورة المحتملة. وقد أخبرني عن الرفاق الذين سبقونا إلى الداخل من فصيلنا المستقل منهم الراحل علي الجبوري (أبو أحمد) ورفاق تنظيمات الفرات الأوسط أبو بشرى، أبو سالار، أبو سرمد، أبو أحمد، الذين استشهدوا في ما بعد.

بعد أربع ليالٍ هدأت المنطقة عسكرياً وأمنيّاً، ثم تواردت الأخبار من المصادر المقربة منا فبدأنا مع اقتراب الغروب نتهيّأ للتحرك أنا والرفيق صباح باتجاه عمق القرى المحيطة بالمدن والقصبات باتجاه مدينة الموصل، وكان هدفنا قرية (دوغات)، حيث أن لنا رفاق وعوائل يعيشون هناك، وحيث المحطة الحزبية التي ستؤمن لي الطريق الآمن إلى مدينة الموصل كما علمت عند الوصول إليها. في أول سدول للّيل وتحت عتمته عبرنا الشارع العام الذي يربط بين قضائي شيخان والقوش. كانت الأراضي حديثة الحرث ومهيأة لزراعة الحبوب ومحاصيل أخرى تتميز بها خصوبة هذه المناطق، ولكثرة سقوط الأمطار فقد تحولت إلى أكوام من الوحول. وفي بداية عبورنا الشارع العام، طمس حذائي في الوحل وضاع وبقيت طيلة الليل أمشي حافياً ولم أبلّغ رفيقي صباح بذلك خوفاً من تأثير ذلك على مسيرتنا رغم الألم الذي شعرت به، وقد تفاجأ واستغرب عدم شكواي من ذلك وتحملي تلك

الأوجاع طيلة مسيرة الليل تحسباً مني لأي طارئ لا يُحمد عقباه يؤدي بنا في النهاية إلى الضلال.

لكن بالفعل مع وصولنا وبزوغ الفجر كنا قد أضعنا الطريق إلى قرية دوغات وبقينا في حيرة، وأدركنا أننا أصبحنا في خطر وشيك الوقوع إذا لم نأخذ احتياطاتنا، فقد أخطأنا الهدف وأنهكنا التعب والجوع والعطش، وبدأت تباشير الصباح تلوح في السماء على المدن والقرى والشوارع وعودة الحياة إلى المدن فكان أزيز محركات السيارات يخترق الهدوء الصباحي كما أن أصوات الرعاة كانت تصدح مع أقدام مواشيهم. ولم يبق من خيار أمام الرفيق صباح كنجي إلّا التوجّه للاختباء في كهف يعرف مكانه مسبقاً حيث بقينا مختفين في مربع خشبي داخل حفرة دائرية بمستوى الأرض ضيقة جداً، بلا صوت ولا حركة ولا حتى نفس طبيعي من الصباح حتى سدول عتمة الليل، لنعاود الانطلاق من هذا الجحر الذي حمانا من الموت المحقق. وما زلت إلى الآن مندهشاً من حنكة الرفيق صباح وكيفية إيجاده هذا المخرج في الاختفاء في ملجأ كان مُعدّاً بشكل جيد ومغلّف من داخله بألواح من الخشب وكانت فتحته تقع بمستوى سطح الأرض، ومموّهة بشكل جيد، في منطقة تسمى (كند دوغات) التي تعني الهضبة[1].

في الليل، عادت لنا الحياة الطبيعية، من شمّ الهواء إلى التنفس النقي، وتحركنا باتجاه قرية (دوغات)، على الرغم من الشعور بتكسّر أجسامنا من شدّة تكورها على نفسها طيلة الليل، وتسلّلنا إليها عبر أزقتها الضيقة تحت جنح الظلام فلا يعكرّ خطواتنا إلّا نباح الكلاب المتعالي، التي تُنبّه غالباً بحدوث أمرٍ

(1) كان هذا المخبأ مُعدّاً ومجهزّاً للاختباء منذ طلائع الأنصار الأولى عام 1978، وكان يتّسع لحوالي المئتين من الرفاق، وقد كتب الرفيق صباح كنجي (وهو مولود في الموصل) بعض ذكرياته عنه في سلسلة مقالاته، وعن تردّده إلى (كند دوغات) منذ العام المذكور، وهناك من الرفاق من يسمّيه «كهف صباح كنجي».

ما في القرية وضواحيها. فكانت المرة الأولى التي أتعرف فيها على هذه القرية وكنت ما زلت أمشي بدون حذاء على أرض مليئة بنتوءات الصخور المدببة والحادة والأشواك المؤذية.

وفجأة وبسرعة مقاتل وحش ومتمرس دفع الرفيق صباح كنجي أحد أبواب بيوت القرية بقوة، فوجدنا أنفسنا داخل ساحة بيت، لقد وصلنا إذن إلى أحد البيوت الحزبية الذي استقبلنا مضيّفنا وزوجته بكرم وضيافة واهتمام خفّف عنا الإرهاق والتعب. فسألت الرفيق صباح عن إمكانية تأمين طريق وصولي إلى مدينة الموصل في الصباح الباكر، فلا بدّ من أن أتهيأ لإزالة الغبار والطين عن جسمي وشعري الذي بات منفوشاً كأنني خارج توّاً من الشماعية. وهي مستشفى المجانين المتخصصة بذوي العاهات العقلية والمرضى النفسيين، لكن نظام البعث استغلها لمعاقبة معارضيه وأبناء الذين هُجّروا إلى إيران بتهمة التبعية الإيرانية بحجزهم فيها.

وعلى ذكر الشماعية، والشيء بالشيء يُذكر، فقد كان الراحل قاسم ابن محمد الحاج فيصل، من أهالي الهويدر ممّن هجّر أهلهم، محجوزاً فيها، كما كانت تردنا الأخبار تباعاً من هناك، وفي ما بعد لقي حتفه بدون ذنب ولا قانون.

التقطت رفيقتنا، ربة البيت، أطراف الحديث ووضعت حالاً قدر ماء تحت شعلة (البريمز) اللاهبة، وفي زاوية من البيت الهادئ قطعة قماش تحجب عنك رؤية الآخرين، نفضتُ عني تلك الأتربة، وفي جلسة مسائية داخل صالون البيت حول المدفأة وفوقها إبريق الشاي برائحة الهيل وعلى ضوء الشموع والفوانيس الخافتة وعبر الأخبار المتناقلة؛ كنا نستقرئ تطورات الوضع العسكري في المنطقة.

في صباح اليوم الثاني تم نقلي إلى داخل مدينة الموصل عبر دليل حزبي في سيارة تاكسي عراقية لوحتها مسجلة في محافظة نينوى. كان سائقها مناضلاً

شيوعياً في مقتبل الأربعين، وكانت تبدو على محياه آثار الزمن القاسية. لم نتحدث بشيء خارج المألوف طيلة الطريق من دوغات إلى الموصل، كانت أحاديثنا عامة وبمنتهى الأدب والاحترام، فقط اكتفى بسؤالي إن كنت أشعر بضيق أو توجس وإذا كان من الممكن أن يقضي معي وقتاً في المدينة، فشكرته على موقفه معتذراً بضيق الوقت وبأني سأسافر حالاً إلى بغداد، وكان الاتفاق بين الطرفين هو أن يتركني الدليل الحزبي في وسط المدينة بين حشود الناس وضجيج المركبات المختلفة، وأن يتابع خطواتي بادئ الأمر خوفاً من متابعة عيون الرقيب لي. وطلبت من الرفيق الدليل أن يركن السيارة جانباً في أحد فروع المدينة ويمشي خلفي لمدة نصف ساعة خوفاً من أكون مراقباً، وإن وقع لي مكروه يبلّغ الحزب والرفاق. وبعد أن تأكدت من سلامة وضعي الأمني، أشرت له بالانصراف. ثم ذهبت حالاً إلى أحد الفنادق ـ وكانت التوصيات الحزبية تؤكد على أن الدليل يجب أن لا يعرف أي فندق لكي لا يلقى القبض عليّ فيما لو قُبض عليه فاعترف ـ وحجزت غرفة بهوية طلّابية مزوّرة بإتقان، ثمّ غطت في نوم عميق.

صحوت عصراً وكان عندي فائض من الوقت توجّب عليّ أن أقضيه في المدينة بين مقاهيها وحاناتها، مرتدياً ملابسي المدنية الجديدة وهي عبارة عن بنطلون من القماش البُنّي وقميص بيجي اللون كانا موجودين في حقيبتي «عليجتي» الصغيرة المهترئة التي كنت عادة ما أحملها على ظهري، والتي اشتريتها من مدينة (رضائيه) الإيرانية عندما كنت أسكن في فندق المعارضة العراقية، وقد تركتُ الحقيبة في البيت الحزبي في قرية دوغات مع ملابس (البيشمرگه) المكوّنة من شروال وجمداني وبشتين، الزيّ الكردي التقليدي، مع كتاب وحيد هو طبعة دار التقدّم الموسكوفية من رواية (كيف سقينا الفولاذ) للكاتب السوفييتي (نيقولاي أوستروفسكي)، التي ترجمها الأديب الراحل غائب طعمة فرمان، والتي كنت معجباً بشخصيّة بطلها (بافل كورتشاغين).

في الموصل، شعرت للوهلة الأولى بلسعة برد اقشعر لها جسدي، فاشتريت جاكيتاً وذلك كان أيضاً من باب الاحتياط من عيون الرقيب كون الجو بارداً وأنا بملابس صيفية. في العاشرة ليلاً، ذهبت إلى المرآب (الكراج الموحد) وحشرت نفسي مع أربعة ركاب في سيارة عمومية صغيرة متوجهة إلى بغداد. وفي اليوم التالي، مع بزوغ ساعات الفجر الأولى، وصلتُ إلى محطة (علاوي الحلة)، فلفت انتباهي دبيب حركة الناس جيئة وذهاباً داخل مرآب السيارات، عسكر ومدنيون، يتزاحمون على مواقف السيارات ويهرولون خلفها بتشبث للحصول على مقعد لتنقلهم إلى وحداتهم العسكرية ومراكز عملهم.

أخذت ركناً في زاوية مطعم شعبي حيث رائحة الشواء يسيل لها اللعاب. «التكة والمعلاگ» تجبرك على أن تطلب «نفر تكّة ونفر كباب» من صاحب المنقلة المركونة على أوتاد حديدية عند عتبة باب المطعم الشعبي وهو يلوّح في «مهفّة» من الخوص، ومن حدقات عينيه تسيل الدموع بتأثير الدخان المنبعث من كومة الفحم المشتعل. أعادني هذا المشهد الصباحي إلى أيام دراستي في كلية الآداب بجامعة بغداد حيث كنت أمرّ أحياناً إلى مطعم صغير مشابه مركون في إحدى زوايا منطقة باب المعظم، قبل توجهي إلى مقاعد الدراسة. فقد كان يعجّ برواده بين طلاب جامعيين وجنود ملتحقين بوحداتهم العسكرية، وقد دلّني عليه جارنا سلمان الشيخ رشيد الطالب آنذاك في كلية التربية بمجمع باب المعظم.

أتخمت معدتي الفارغة بوجبة دسمة من أثر الجوع ليومين متتالين، ثم توجّهت إلى واحدة من مقاهي (علاوي الحلة) وأخذت ركناً فيه متكئاً على مسند أريكة مصنوعة من سعف النخيل وتناولت استكان شاي عراقي ثقيل بين حشد من الجنود والعمّال البسطاء الذين كانت أحاديثهم تدور حول العمل والحرب، حيث الشاي العراقي ذو الرائحة الزكية، وقد راح صاحب المقهى يتفنّن في إعداده وتوزيعه على رواده قبل توجههم إلى أرزاقهم وأماكن عملهم

أو وحداتهم العسكرية. وشدّتني الرغبة بدون شعور إلى أن أراقب بفضول حركة الناس في الشارع. الكلّ مسرع وباتجاهات معاكسة إلى سبيل غايته وكل من في المقهى يستقرئ الوضع السياسي ومجريات الحرب الخطيرة، واستعدادات الهجوم الإيراني المرتقب على الأراضي العراقية. الحرب بين الجارتين الإسلاميتين العدّوتين، العراق وإيران، وعلى وقع صوت المذياع الصباحي الذي تنبعث منه آيات من القرآن الكريم، كنت الجالس الجديد بينهم، هكذا أشعرتني نظراتهم من حولي.

كانت أحاديث الناس اليومية وقصصهم وهمومهم هي عن الحرب القائمة وتداعياتها المخيفة، حيث أنها بدأت تأخذ منحى آخر، فقد قام العراق بجحافله العسكرية في اجتياح مدن إيرانية كاملة تمتد من قصر شيرين ونفط خانة إلى المحمرة (خرم شهر)، مروراً بديزفول ومهران ونهر جاسم. وقد روى لي زوج شقيقتي الراحل كامل منصور الكرخي أنه عندما دخلت القطعات العسكرية إلى مدينة (قصر شيرين) لاحتلالها، وجدوا الأهالي نياماً في بيوتهم بملابسهم الداخلية فأخذوهم أسرى حرب، فقد كان هؤلاء الأبرياء لا علم لهم بأن يد الحرب سوف تطالهم.

كان الطقس في بغداد دافئاً والشمس عمودية، وبالرغم من ويلات الحرب التي مضت عليها ستة أعوام، فقد كانت حركة الناس طبيعية، وكان وجه بغداد لا يزال جميلاً ومبتسماً يبعث في روحك الدفء والأمان. كان شوقي إليها يجرّني إلى أماكن ومعالم افتقدتها لسنوات. كان دبيب البشر وتحرّكاتهم بين منتظر لحافلات النقل أو صاعد إليها أم مترجل منها، فيما أناس يسيرون جيئة وذهاباً في الشوارع من وإلى أعمالهم؛ يدعوك إلى الاطمئنان. لقد كنت طبيعياً في حركتي بين جموع الناس، أتعامل مع الواقع بأمره المعاش والمفروض.

على غرار وصايا الشهيد فهد (يوسف سلمان يوسف)، مؤسس الحزب الشيوعي العراقي الذي كان حريصاً على رفاقه أيام العمل السري في عقدي

الثلاثينيات والأربعينيات أيام النظام الملكي، والذي علمهم أن ينسوا تماماً أنهم سياسيون ومطلوبون من أجهزة السلطة حتى لا يثيروا انتباه رجال الأمن لهم في خطواتهم العملية. من هذا المبدأ المتوارث كنت أتحرّك بين الناس باطمئنان تامّ للوصول إلى هدفي. فهذا الرجل العائد من مدرسة (كادحي الشرق) في الاتحاد السوفييتي، امتهن أسلوباً ذكياً في استطلاع رأي الجماهير في تقبلهم للحزب، ففي بداية التأسيس، كان يرسل شخصين إلى المقاهي الشعبية وسط تجمع الناس وكانت الخطة أن يطلق أحدهم إشاعة عن أخبار بتأسيس حزب شيوعي ليلقى ردّة فعل الناس سلباً أو إيجاباً. وهكذا يرى فهد مدى تقبل واستيعاب الناس لفكرة الشيوعية في مجتمع قبلي ريفي مثل العراق، وعلى أساس ذلك سيبني واقعية سياسته المستقبلية وإمكانية طرح شعاراته الموضوعية.

بعد أسابيع من وصولي إلى العاصمة بغداد، واجهتني صعوبات في إيجاد مأوى وسكن، لتأمين سبيل آمن للاتصال وخلق شبكة علاقات كأرضية أنطلق منها بالرغم من أنها خطيرة، لكني وبمرور أيام قليلة، تمكّنت من تأمينه ليساعدني على الاتصال بالناس. غير أن الأغلبية من الناس، وتحديداً رفاقنا الشيوعيون القدامى والمتابعون لأخبار حزبنا، كانوا سلبيين في آرائهم بالإجمال، وكانت ردود أفعالهم متشنّجة إلى حدّ الاتهامات، فقد كان ما ينكأ جراحاتهم هو موضوع الجبهة الوطنية مع البعثيين عام 1973 وكارثة الهجرة من الوطن عام 1978وترك الناس في نفق مظلم، معلقة المصير والخطوات. لقد كانت ترسبات قديمة من مواقف الحزب السابقة التي تركت ظلالها التراجيدية على مشهد حياة الناس الطبيعية التي نالها الكثير من الحيف والغبن.

لم أعثر على أثر يدلّني إلى من كنت متوجهاً إليهم بآمال كبيرة وتطلّعات رومانسية ثورية، فقد كان غالبيتهم إمّا في زنازين البعث أو في جبهات الحرب، وقد تلقيت أطراف حديث عن بعضهم وكيف غُيّبوا بسلسلة فواجع، على أنهم

شيوعيون عملاء. وما أقبح الاتهامات بدساتير البعث، فقد اعتبروهم خونة وطن ومجرمين. ويصدمك من تلتقي بهم فتجدهم معبّئين بمعلومات خاطئة لا تمتّ بصلة إلى أخلاق ومواقف الشيوعيين التاريخية، إنها سياسة البعث في تحطيم صور معارضيه، إن هول الحملة علينا كشيوعيين وقوة الإعلام المعادي لنا وفجوة غيابنا الطويلة عن الشارع، قد ساعدت البعثيين على الاستئثار بمقدّرات البلد وتشويه الحقائق حول تاريخنا الوطني والأخلاقي، ناهيك عن العامل ذي الوزن الأكبر، وهو دموية البعثيين في التعامل مع معارضيهم وخصومهم السياسيين.

في العاصمة بغداد، بعد أن يئست من اللقاء بالرفاق إثر الضربة المميتة للتنظيم صبيحة اليوم الأول شهر كانون الثاني عام 1986 في قرية جديدة الشط وهو المركز الرئيسي للّقاء والتجمع والمبيت في محافظة ديالى والخيوط الممتدة لهم قد دمرت بالكامل؛ صمّمت أن أشكل خيوطاً وخلايا خاصة بي من خلال علاقاتي السابقة ومعارفي.

بعد معاناة وصعوبة، ذهبتُ إلى بيت هدى بنت خالي التي تسكن في شارع 52 مقابل حاكمية المخابرات وتسللتُ من باب الحديقة وعندما رأتني واقفاً بجانب ابنها (زيد) الذي كان يلهو بألعابه في الحديقة تسمّرت في مكانها مصدومة لأن الأخبار التي كانت تصلها حول مصيري طيلة سنوات الاختفاء مغلوطة ومخيفة، حاولَت مساعدتي، لكن وضعها لا يسمح لاعتبارات أمنية وعائلية، بعدها انتقلتُ إلى منطقة الدورة في بيت الصديقين الحميمين ابن خالي وبنت خالتي (علي وعالية) اللذين تصرفا بطريقة غير مريحة لم أكن أتوقعها وواجهت وضعاً نفسياً صعباً بسبب تحركاتهما التي لم تُرِحني، فاضطررت مجبراً على أن أترك البيت رغم وضعي الأمني الصعب متخذاً من الطرقات والمحطات والمرائب مآويَ لي.

أخيراً، وبعد أن سُدّت بوجهي كلّ الطرقات، ونظراً لخطورة وضعي الأمني

والشخصي، قرّرت اللجوء إلى بيت أختي أم نغم في منطقة النهروان في بغداد، وقضيت ليلتين زادتا من قلقي وارتباكي وحزني وألمي من حجم الدمار والرعب النفسي الذي تركه البعث وأجهزته في نفوس ومشاعر الناس لثنيهم عن العمل السياسي المعارض، إذ أن زوج أختي بات ليلته في الحديقة مرعوباً يدور حول البيت محدثاً نفسه، حينها تركتُ البيت باحثاً عن مأوى جديد ولو لليلة واحدة بعيداً عن المراقبة والمتابعة.

طرقتُ باب كل من كانت لي علاقة بهم ومن كنت أعتقد أنهم سيشرعون لي أبوابهم، خصوصاً من كانت قرابتي بهم وثيقة وارتباطاتي معهم ممتدّة لسنين طويلة، فقد كنت آمل أن أحداً منهم سيساعدني في الاختفاء، مررتُ عليهم الواحد تلو الآخر ولكن أبوابهم سُدّت في وجهي، فضاقت بي الظروف والمنافذ ولم يعُد لي من بصيص أمل، ولم يكن لي من سبيل للنجاة إلّا اللجوء إليهم وإلّا الموت. كانت بيوتهم عامرة وحياتهم زاخرة، فقد كان سكن علي وعالية (بيت أبي تمارا) في بغداد منطقة الدورة، قصي وفاطمة (بيت أبي نغم) في مشروع (7 نيسان) في بغداد. ومنذ تلك الحادثة، أصبحت علاقتي معهم وتواصلي الاجتماعي متقطعاً وجافاً، لكني زرتهم مرة أخرى بعد رحيل البعثيين على يد الأمريكان، زيارتي اليتيمة والوحيدة لهم، وكان استقبالهم لي باذخ الاهتمام والحفاوة، غير أني كنتُ أرى في داخلي أن هذا الاستقبال يفتقد إلى بريقه الإنساني والاجتماعي.

رغم قساوة النظام التي تركت ظلالها التراجيدية على أمزجة الناس في المواقف الإنسانية، تبقى لصلة القربى والصداقة قيمتها، وكانت حينها، أي عندما كنت بحاجة إليهم، لديهم حلول وعدة مخارج لتأمين حياتي، خصوصاً أنني كنت في خطر دائم وموت قريب كما رويت لهم، لكن عقدة الخوف من سطوة النظام الجائر والقاسي هي التي كانت معششة في عقول الناس، إلّا أنه خوف غير مبرر في التعامل مع تفاصيل الحياة في فترة نظام البعث.

بعد ما حصل لي، عدتُ أبحث عن بدائل جديدة وجدية، ولمعت في ذهني

حلول كثيرة بعد أن يئست ممن كانوا في بالي ظانّاً أنهم سيكونون عوناً لي في خطواتي الأولى متحمّلين معي أسوأ الاحتمالات. عدتُ بعد غياب لسنوات طويلة من حياة المدينة والناس وانفجار التغييرات والتحوّلات، في مجتمع تعرّض إلى هزّات عنيفة في البُنية والتكوين والعلاقات وانعكاسات الحرب وسياسة الاستبداد، فاتخذتُ من محطات القطار بين بغداد والموصل جيئة وذهاباً، نائماً وصاحياً في كابينات القطار ولعدة أيام، وكان ملاذاً مؤقتاً ومنفذاً لي لكسب الوقت والاختباء لترتيب تحركاتي بعد أن شاعت الأخبار في بغداد وديالى عن «كبسة» شيوعية كبيرة حدثت في ساعة صفر واحدة في منطقة جديدة الشطّ في محافظة ديالى مدينة الراحل علي الجبوري (أبو أحمد) زوج الشهيدة أم أولاده أثير وسمير، ومدينة الرفيق طه صفوگ (أبو ناصر)، الذي تحمّل الوزر الأكبر من الحصاد السيّئ للكبسة الشيوعية، حيث جُرفت بساتينهم واقتُلعت أشجارها واعتقلوا أخاه الشهيد (أبو ستار) «الداينمو» المحرّك في التوديع والاستقبال وفي الترتيب والتنسيق في التنظيم الحزبي والذي أُعدم لاحقاً وحُكم على زوجته أم ستار وأختها سفانه، وأعدموا أبا جيفارا وحكموا على والدته البالغة ثمانين عاماً بالسجن عشرين عاماً وهي التي كانت تنقل السلاح بين كردستان والداخل، امرأة مناضلة وشيوعية عصامية بالفطرة، هذا وقد رافقتها هجمة اعتقالات واسعة شملت كل مدن العراق طالت الرفاق والأصدقاء الذين تعاونوا مع التنظيم، فاستشهد محمد الخضري (أبو جلال) أثناء مقاومته لهم عندما حاولوا اعتقاله، كما وصدرت أحكام مختلفة ومتنوعة بحقهم. ومن الكبسة الشيوعية في قرية جديدة الشط المناضلين الذين اعتقلوا واستشهدوا: وحيد الجليلي (أبو غسان) ونجم عرب، وأبو ازدهار. أما خالد جاسم، فقد قاومهم من على سطح منزله وسط مدينة بعقوبة وأصاب بعضهم وتمكن بذلك من الخلاص من قبضتهم، لكن ما لبث أن وقع في أيديهم عندما حاول الصعود إلى الجبل عبر قرى وجبال مدينة الموصل وتمّ تغييبه.

# «كبسة» جديدة الشطّ

كنتُ قد توجّهتُ إلى بغداد حاملاً معي حزمة من المشاريع والأماني والأحلام وخطط عمل تعيد إحياء تنظيماتنا وتلمّ شمل رفاقنا المقطوعين عن التنظيم والذين ما زالوا يئنّون تحت رحمة البعث وسطوته. كان تحركي مع مفرزة صغيرة من الفصيل المستقل في منطقة زيوه كما ذكرتُ سابقاً، وكان معي في المفرزة سلام العگيلي (محمد عرب)، وقد اتفقنا على أن يسلك هو طريقاً مغايراً بعدي بحيث يُحدَّد موعدٌ للقائنا وذلك في أول جمعة بعد وصولنا بسلام، وكان المكان المتّفق عليه هو الأعظمية موقف الباص عند دار السينما القديم الذي تحوّل في ما بعد إلى مسرح السلام، عند الساعة الواحدة ظهراً على أن لا ننتظر سوى خمس دقائق يُلغى بعدها اللقاء الأول على أمل لقاء آخر وفي نفس المكان والزمان. تكرّر الموعد ولكننا لم نلتقِ، إنه الحذر والتحسّب لكل التوقعات والاحتمالات في زمن مرعب ومخيف.

بعد شهور من التخفّي والمخاوف والصعوبات ومواجهة الموت ـ كما سيأتي تفصيلها ـ وصلتني أخبار كان من ضمنها أن الرفيق سلام العگيلي تأخر في نزوله إلى بغداد بعد نزولي إليها لدواعٍ أمنية، بسبب مأساة «كبسة جديدة الشط» التي كان أحد أهدافنا هو الاتصال برفاقنا فيها، فتنفست الصعداء وأيقنت أن رفيقي غير معتقل في سجون البعث مما منحني فسحة أمل في التحرك وإعادة جدولة تحركاتي واتصالاتي بعيداً عن هواجس الشك، فعلى أقل تقدير، أني غير مراقب ولا متابع.

تمتد خيوط تلك المأساة إلى نهاية عام 1985، وحكايتها تقول أنه عندما تسلل الرفيق محمد وردة (أبو جيفارا) من الفصيل المستقل في منطقة زيوه باتجاه مدن الداخل في ديالى، كانت لم تمضِ فترة طويلة على عودته من داخل المدن إلى الجبل كمندوب حزبي إلى المؤتمر الرابع للحزب الشيوعي العراقي. وقد انعقد هذا المؤتمر في الفترة من 11 لغاية 15 تشرين الثاني عام 1985، في خيمة نُصبت لهذا الغرض في منطقة (أرموش) السفلى في شريط (لولان) الحدودي الممتدّ عبر سلسلة جبال وعرة بين العراق وإيران وتركيا، يومها وقف في منتصف الخيمة عزيز محمد سكرتير الحزب لثلاثين عاماً من النكبات والويلات ليصرّح قائلاً: «جئنا إلى هنا ليلغي نصفنا النصف الآخر» أي بإقصاء 26عضواً من اللجنة المركزية.

وقد شبّه الرفيق عبد الحسين شعبان هذه الواقعة بمجزرة (قاعة الخلد) في 22 تموز عام 1979 التي قام فيها صدام حسين وجلاوزته وفي يوم واحد، بقتل 22 كادراً حزبياً متقدماً، ورمى ضعف العدد في المعتقلات والأقبية السرية ليبلغ العدد 55 حزبياً لاقوا شتى أنواع الإهانة والتعذيب في مسرحية معدّة مسبقاً لفتح الطريق أمام «السيّد النائب» الذي أصبح رئيساً للبلد دون اعتراض ولا منازع.

فخطوة عزيز محمد كانت شبيهة بما وقع في مسرح قاعة الخلد في تصفية صدام لرفاقه بحجج شتى، وبعد ترتيب مسبق لسنوات في المهجر حول تحديد هوية الحزب الوطنية ورسم سياسته المستقبلية تجاه قضاياه الوطنية والتنظيمية. يومها وقف القائد الشيوعي باقر إبراهيم (أبو خولة) في خيمة المؤتمر يعرب عن اعتذاره من الترشّح إلى اللجنة المركزية بسبب وضعه الصحي أولاً، وليأسه من إصلاح الوضع الداخلي للحزب، والموقف من خطورة احتلال الوطن والدفاع عنه من الجارة إيران ثانياً، مما سبب بلبلة بين الجموع. وقد نزل الأمر بمثابة صاعقة على رؤوس الذين كانوا يراهنون على وطنية واندفاع الرفيق باقر

إبراهيم في قيادة الحزب ومضيّه في تحمل مسؤولياته النضالية، وأخذ المبادرة في إنقاذ وضع الحزب والحفاظ على تاريخ مجده النضالي والوطني.

وفي حوارات ولقاءات وجلسات ومطالعات متنوعة أجريتُها مع قادة الحزب، باقر إبراهيم، آرا خاجادور، عدنان عباس، حسين سلطان، عامر عبدالله، عبد الوهاب طاهر، كنت أسألهم بإلحاح وفضول: لماذا تخلّيتم عن إعانة جسم الحزب وهو هزيل ضعيف؟ فكانوا يجيبون: لم نعُد نملك مالاً ولا نفوذاً ولا قوّة قرار في إيقاف موته، لقد باتت مالية الحزب وإعلامه المختلف وقوة قراراته وشبكة علاقاته بعيدة عن متناول أيدينا، فعزيز محمد سلّمها بمحض إرادته إلى فخري كريم ورهطه ليصبح جثة هامدة كما وصفه أحد قياديّي الحزب الراحل رحيم عجينة في مذكراته (الاختيار المتجدد).

تلك الادعاءات والهروب من المسؤولية والتنصّل من المهام، لم تقنع بتاتاً من كان يبحث عن دراسة ومعرفة سلسلة التطورات في هيكلية ونمط الحياة الحزبية طيلة سنوات مضت من المهجر والنضال.

بعد المؤتمر الرابع عام 1985، جرت حملة تصفيات نال قسطها الأكبر أعضاء وكوادر وقادة الفرات الأوسط ممن كانوا قريبين للتطلعات الفكرية والسياسية، كما وشملت العلاقات الشخصية والروابط الاجتماعية لباقر إبراهيم الذين أطلقوا عليهم (جماعة السيد باقر الموسوي)، والمتابع لتلك التطورات، يجد أنها ترافقت مع أزمة تنظيمية وأفق سياسي وطني متدهور وانحدار عام على جميع مستويات الحياة الحزبية والرفاقية والمواقف السياسية الوطنية.

وهذه النتيجة حتّمت علينا القبول «بكرسي هزاز» في عملية احتلال طائفية قذرة دمّرت البلد والعباد، وقد بقي صوتنا مخنوقاً وبقينا عاجزين عن إيجاد رؤى وتطلعات وسبل لإنقاذ الوطن من همومه ومعاناته، فقد كان يفترض بنا، بحكم تاريخنا النضالي الوطني المتجذّر منذ القدم في تربة العراق الصالحة، أن

نتصدّر الطليعة في قيادة جماهيرنا المكتوية بنار الدكتاتورية والحصار وجريمة الاحتلال، من خلال طرح مشروع وطني بعيداً عن أيادي الاحتلال وأجندته وأدوات تسويقه من طائفية وميليشيات. فقد كانت الجماهير العراقية تعلّق علينا الآمال وتتأمل عودتنا على نفس الأسس التي تربّينا عليها في الموقف من وقاحة الإمبريالية في احتلالها للبلدان وتدمير الشعوب.

وفي عودتنا والمشاركة في العملية السياسية بقيادة الحاكم الأمريكي المدني بول بريمر، اختلفت رؤى وقراءات جماهيرنا اليسارية حول مفاهيم ماركس ولينين وفهد، فأغلب الذين التفّوا حول سياستنا الجديدة بعد البيان الشيوعي الأول، كانوا ممن تعاونوا مع البعث في الخطّ الوطني، زد على ذلك من بات منهم وكيلاً رسمياً للأمن. هنا، تكبّل الحزب بمعوقات جدية في التطور والتنمية والبناء ورسم سياسة واضحة وخط وطني يعيد به هيبة الوطن ومدّ جسور جديدة مع جماهيره المتعطشة إلى مواقف جذرية، وبإعادة النظر بموقفه من العملية السياسية وتحمل مسؤولية هذا الموقف وإدانته والإعلان عن موقف جديد يتناسب مع تاريخه النضالي والوطني ووفاء لقوافل شهدائه التي ترجمت معنى اسمه الشيوعي.

لقد أكدت الأحداث طيلة الفترة النضالية الماضية الممتدة من جريمة شباط عام 1963 وما تعرّض له الحزب ورفاقه وكوادره من إبادة على يد المغول الجدد من بعثيين وقوميين، أنها أفقدتنا الزعامة الشيوعية وزعامة الحزب والناس، وإلى الآن، لم يعد لنا مفكّر شيوعي بالمعنى الحقيقي للمفكر والقائد، ربما كان الرفيق الراحل عامر عبدالله رمزاً في هذه الزعامة، لكن الصراعات والخلافات الفكرية الداخلية المتخلفة أطاحت به.

بالعودة إلى أصل الحكاية أي «الكبسة»، فقد راحت ضحيتها كوكبة من مناضلي الحزب الشيوعي العراقي، في عملهم السري ضد نظام البعث الذي لم يكن لعباً أو ترفاً، إنه الموت بعينه دون محاكم ولا مرافعات ولا

إصدار حكم، فقط الموت دون قبر ولا سرادق تعزية ولا حتى سؤال عن مصيرك، فقط، صمت مطبق على تحمّل الفواجع ومضغها، وتغييب للنفس البشرية بانتهاك صارخ للإنسانية، فمنذ فتحت عيني وأنا أسمع عن مئات الألوف ممن غابوا وماتوا في أقبية البعث، تحركت بهم توابيت الموتى ولم تتحرّك ضمائر الناس في الرفض العلني لسياسة البعث، ولا حتى مظاهرة احتجاج ولا اعتصام مدني أو نية لانقلاب عسكري، مما جعل البعثيين يتمادون في القتل والاعدامات وتدمير النفس البشرية دون رادع أخلاقي أو إنساني.

كانت ساعة صفر واحدة من ذلك الليل الشتوي القارص في الدقائق الأخيرة من العام 1985، وفي تلك الليلة تم القضاء تقريباً على الجميع حتى من كان يختفي في العاصمة بغداد ومحافظات أخرى، ففي بغداد حاول الشهيد البطل محمد الخضري (أبو جلال)، ابن ريف مدينة الكوت، مقاومتهم ولم يسلّم نفسه فأردوه صريعاً بوابل من رصاصهم الغادر، كما أن البطل خالد جاسم معاوية (أبو قيس) واجه رصاصهم من على سطح بيتهم في بعقوبة واستطاع أن ينفذ منهم، لكنه وقع بأيديهم حين حاول الالتحاق بالجبل عبر قاطع نينوى وتمت تصفيته جسدياً في أقبيتهم الأمنية.

وقصة الرفيق محمد وردة شاهدة على ذلك، فحين وصل إلى الجبل كمندوب للمؤتمر الرابع، وصل الخبر إلى رفاقه بأنه بسلام، ليأخذ العمل التنظيمي مجراه الطبيعي بعيداً عن التوجس والخوف، لكن المصيبة وقعت عندما عاد إلى الداخل بعد انتهاء أعمال المؤتمر الرابع عبر رفاق محلية التنظيم الداخلي في مناطق دهوك، فقاده الدليل بسيارته إلى داخل مبنى مديرية أمن دهوك عوضاً عن تأمين طريق سالم له إلى بغداد، وقد أبلغوا الحزب بخبر سلامة وصوله الكاذب، وبعد فترة تجاوزت الشهر الكامل عُلم أنه معتقل تحت التعذيب الشديد، وقيادة الحزب في الجبل لا علم لها باعتقاله، بل كانت

تحذر خطوط الاتصال به وتدعو إلى اتخاذ إجراءات جديدة تغييرية في العمل والمكان والاتصال تحسباً للطوارئ وتفادياً للخسائر.

كان رفاق التنظيم في الداخل لا يعلمون بتلك الحكاية ويمارسون حياتهم الطبيعية، لكنهم بينما كانوا يحتفلون برأس السنة الميلادية الجديدة، تعرضوا إلى هجمة مباغتة في منتصف الليل حصلت على كل أوكار التنظيم والبيوت الحزبية، وكانت صيداً ثميناً ودسماً قام به البعثيون وقد كان حلماً يراودهم في القضاء على أهم تنظيم في الداخل، بُني بالدم، وراح ضحية الهجمة كوكبة لامعة من الشيوعيين العراقيين مع أسلحتهم وأدوات الطباعة وأجهزة التصوير. إنها واحدة من حكايات طويلة مررنا وما نزال نمرّ بها، فقد دفعنا ثمنها قوافل من الشهداء نتيجة فقدان خطوط المتابعة والتواصل والدقّة في التنظيم والمسؤولية الوطنية في العمل الحزبي.

# عودة للحديث عن نشاط بغداد

أعود بتفصيل أكبر إلى حديثي عن نشاطي في بغداد الذي قطعته بواقعة الكبسة وتفاصيل أخرى تشعبّت عنها فأقول، في بغداد ومن خلال علاقاتي وتحركاتي، كنت أسمع أطراف أحاديث مسؤولة عمّا حدث، وبحكم وضعي الأمني القلق، حيث لا سكن آمن لي، والخطوط كلها مقطوعة في الداخل وفي الجبل، بات همّي الوحيد تأمين وضعي، على أقل تقدير، بعيداً عن رصد الأجهزة الأمنية، لذلك كنت غالباً ما أقضي ليلي التعيس في المحطات والقطارات. وفي يوم من آذار من العام 1986 في بغداد، اتصلتُ من هاتف عمومي بالدكتور كريم عبد الرحمن، وهو طبيب في مستشفيات بغداد حالياً، وطلبت منه لقاءً ضرورياً ومهماً على أن يكون سرّياً بيننا ورجوته عدم إبلاغ أي شخص آخر عن اللقاء، وبين مفاجأته الكبيرة بأنني ما زلت حيّاً، وبين مصدّق ومتوّهم، وافق على لقائي، وحدّدنا الموعد في ظهيرة بغدادية لاهبة في منطقة الكاظمية بباب الدروازة.

ذهبت مبكراً إلى الموعد وجلست بين حشود الناس في المقهى أتطلع من خلف زجاج النافذة منتظراً الزائر القادم الذي وصل على الموعد المحدّد تماماً، حاملاً معه كتاباً وجريدة وواضعاً على عينيه نظارة شمسية عريضة، بعد أن شعرت بملله من الانتظار، نهضت من مكاني ودفعت فلوس «استكان» الشاي إلى مالك المقهى المتربع بدشداشته على كرسي بباب المقهى وأمامه صحن فخاري لرمي الفلوس المعدنية.

توجهت إليه مباشرة وصافحنا بعضنا بحرارة رغم مرور السنين، ورحّب

بي قائلاً: أهلاً بعلي الجبليّ وهو الاسم الذي كنت أُكنّى به في عملي الحزبي والسياسي في بغداد مطلع الثمانينيات، ومن اللحظة الأولى هدأتُ قليلاً للقائي به، وأخذتنا الاحاديث والذكريات والمواقف لأن نقطع مسافة طويلة من السير إلى حيث جسر الأئمة على كورنيش الأعظمية الذي أثار عندي شجوناً من الذكريات تعود إلى أيام كلية الآداب حيث كنا نرتاد هذه الأمكنة مع أصحابي بعد مطالعات في مكتبة الأعظمية الأثيرة.

في لقائي مع الدكتور، حدّثته بوضوح عن وضعي الشخصي والأمني والمخاطر التي تحيط بي والخدمات التي يمكن أن يقدّمها لي اليوم ودون أجر، فقدّم لي جملة من المقترحات والحلول لتأمين وضعي، ولو مؤقتاً، قبل الوقوع في أيديهم الممدودة في كل زاوية وركن. احترمت خصوصيته ولم أضغط عليه بأية اتجاهات ربما تكون مصيرية لي، فقد كان يعيش نشوة الخطوبة والحبّ وتحضيرات الزواج، ودّعته على أمل أن ألتقيه ثانية.

في ليل اليوم ذاته، انطلقت إلى المحطة العالمية لأخذِ مقعد في القطار المنطلق إلى مدينة الموصل بناءً على اقتراحه، وهو أن ألتقي بشخص هناك هو أيضاً طبيب اسمه محمد نعمة من أهالي مدينة الشعلة في بغداد، وكان ما زال في عامه الدراسي الأخير في جامعة الموصل. في تلك الليلة، وفي «الفارگون المقرقع»، نمتُ بعمق، ولم أستفق سوى على صوت المنادي يعلن عن وصول القطار إلى محطة الموصل، المحطة الأخيرة، ولم أعرف هل صعد المفتش العام أثناء نومي لمراقبة الوضع القانوني للركاب، فقد كانت في بعض الأحيان هناك مفارز أمنية متخصّصة بمراقبة المسافرين تتجوّل داخل عربات القطارات.

يومها، توجسّت خيفَةً من أن أكون مراقباً، لذلك ما كان عليّ سوى التريّث والحذر داخل المدينة قبل الذهاب إلى عنوان الطبيب محمد نعمة، وأنا من الأساس، لم أحمل عنواناً في جيبي، لقد كنت أحفظه وأرميه في أقرب مكان للقمامة بعد تمزيقه تحسباً للطوارئ. في المساء، ذهبت إلى مبنى الأقسام

الداخلية التابعة لكلية الطبّ في الموصل، وقد كانت لي زيارات سابقة له مع صديقنا المشترك عصام زهدي إلى الدكتور عزيز الشيباني عندما كان طالباً في نفس الجامعة ونفس القسم الداخلي في مطلع الثمانينيات، وفور وصولي إلى القسم، صادفني الطالب محمد شويخر، كما تعرّفت إليه لاحقاً وعلمت أنه طالب طبّية من أهالي العمارة وأفكاره يسارية، سألته عن طالب اسمه محمد نعمة، ولحسن المصادفة، كانا صديقين ويسكنان في غرفة واحدة. ومن دون تردّد، قدمت له نفسي، باسم علي من أهالي مدينة بابل وطالب في جامعة بغداد.

وعلى ضوء تلك المعلومات الشحيحة التي حصلت عليها من الدكتور كريم في بغداد حول الدكتور محمد نعمة، قدمت نفسي على أني صديق أخيه الضابط منصور، كما كان الاتفاق في هذا السيناريو، وصلتُ إلى غرفة محمد نعمة برفقة محمد شويخر، وعرّفته بنفسي بصفتي صديق أخيه منصور، فوصلت الرسالة فوراً إلى محمد نعمة وتعامل مع المشهد بذكاء ومعرفة ودراية وحذر.

هنا تنفسّتُ الصعداء ولو قليلاً، فقد كان في الأمر إنقاذ لحياتي المهدّدة بالخطر الماثل في كل لحظة. في اليوم نفسه، خرجنا إلى المدينة وجلسنا في إحدى مقاهيها الشعبية. وضعت أمام محمد نعمة، الذي أصبح اليوم واحداً من الأطباء المعروفين في العراق، إشكالات وضعي والمخاطر المحدقة بي إن لم أجد لنفسي حلولاً سريعة وحازمة، وكان موقفه رائعاً وشجاعاً، فقد احتضنني لمدة أسبوعين من أصعب أيام حياتي، وما زالت تلك المواقف عالقة في مسيرة حياتي بل هي التي جعلتني أبني رؤى وأفكاراً وآراء من روح النظرية على أرض الواقع، كنا نخرج يومياً إلى المدينة بالزيّ الجامعي ونلتقي بطلبة وأصدقاء، عبر محمد نعمة، وتُثار سلسلة من الاحاديث حول الدراسة والثقافة وتجرّنا أحياناً إلى مشارب السياسة واضطراباتها، ولكني كنت حذراً جداً من الغوص في قضايا السياسة رغم فضول البعض بمعرفة آرائي باعتباري طالباً في جامعة بغداد ومن أهالي الحلة وقد كنت قد عرفت عن نفسي بهذه الصفة وقدمتها

للآخرين. بعد أيام طرح علي الدكتور محمد نعمة فكرة السفر إلى بغداد، إلى بيتهم في مدينة الشعلة، بعدما وردته أخبار بأن هناك همساً بين الطلبة البعثيين حول وجودي في الأقسام الداخلية، وذلك تجنباً للاحتمالات.

في صباح اليوم التالي، تحرّكنا من مدينة الموصل إلى بغداد، ووصلناها في ظهيرة اليوم ذاته، قامت السيدة والدة الدكتور محمد بإعداد مائدة الغداء المكوّنة من «البامية» العراقية التي طهتها ببراعة. لقد قدمني الدكتور محمد إلى عائلته بأني طالب معه في الجامعة وأن اسمي علي، وكانت أسرته مكوّنة، بالإضافة إلى الوالد والوالدة، من أخ أصغر منه وأختين تدرسان في جامعة بغداد وأخ أكبر منه وهو الضابط منصور الذي كان يعيش في بيت مستقل مع عائلته، وقد تعرّفت عليه ولمست منه شيمة عراقية تدعو إلى الاعتزاز. انتهزتُ فرصة وجودي في ذلك المنزل، وتحركت لإيجاد مخرج لوضعي المُحرج رغم أني بقيت في بيتهم أربع ليال تعرفت في أثنائها على مجموعة أصدقاء هم الضابط غسان، الطالب الجامعي رضا والمسرحي عدنان وأسماء أخرى لم تعُد ذاكرتي تختزنها.

في إحدى الأمسيات، وكنا سوية في مدينة الكاظمية، وقع بصري على يافطة مكتوب عليها (ستوديو الخلود) لصاحبه (فلان الفلاني)، فتذكرت فوراً أن ابن خالتي (وفيّة) متزوج من امرأة من تلك العائلة. في صباح اليوم التالي بعد الفطور، أخبرت الدكتور محمد بأني سأخرج وحدي لارتباطي بموعد مسبق، وإذا لم أعُد، فلا يقلق وليدع الأمور كما هي، وأني سأتصل به على هاتف المنزل في المساء في جميع الأحوال. ذهبت إلى مدينة الكاظمية في سيارة نقل عمومية وترجلت منها في الشارع الذي يؤدي إلى ستوديو الخلود مباشرة.

كان الحاج محمد شقيق أم فلاح زوجة ابن خالتي غازي السعدي، واقفاً عند باب الأستوديو، قدمت له نفسي منتحلاً اسم أخي أحمد وبأني جئت من

الهويدر لزيارة ابن خالتي، فقال لي الحاج محمد، وهو إنسان طيب وبسيط وله أخوة ذوو نفوذ في الدولة العراقية، بأن غازي (أبو فلاح) حالياً في الدوام الرسمي في منطقة النهروان الصناعية، ونادى ولده باسم، وهو حالياً خطيب حسيني في العاصمة الدانماركية (كوبنهاغن)، وطلب منه أن يرافقني إلى بيت غازي في محلة الشيوخ.

استقبلتني أم فلاح بترحاب عراقي دافئ ومطمئن وكانت المرة الأولى التي ألتقيها وقدّمت نفسي على أنني أحمد، فلا فرق عندها بين محمد وأحمد، فالاثنان أولاد خيرية. بدأت تسألني قائلة: ما أخبار محمد، الربّ يعين والدته فهو شاب مثل الورد وقد خسرته، في المساء مع صوت آذان المؤذن عبر مكبرات صوت مرقد الإمام موسى الكاظم، وصل الحاج غازي (أبو فلاح) إلى البيت، وصُعق للوهلة الأولى حين رآني جالساً على أريكة الصالون ولكني نهضتُ حالاً من مكاني باتجاهه لتدارك الموقف أمام زوجته وأطفاله وحضنته هامساً في أذنه: أنا أحمد وليس محمد، رحب بي سائلاً عن أهلي وأحوالهم ودارت أحاديث طويلة ومنوعة عن العشيرة والأقرباء من باب التمويه حيث كنا جالسين مع الأهل وهم ينصتون إلى الأحاديث.

بعد العشاء، خرجنا إلى المدينة ودخلنا إلى صحن مرقد الإمام موسى الكاظم بين جموع الناس، فتحدثتُ معه عن وضعي والمخاطر الجدّية التي تُحيط بي ومواقف الآخرين من الذين كنت أكنّ لهم كل الاعتزاز وكيف أنهم قد خذلوني بمواقفهم، ولكنهم معذورون على أية حال بسبب من حالات الذعر والرعب التي كانت تسيطر عليهم، وهذا ليس شعوراً اعتباطياً أمام سياسة البعث وقسوته.

كان موقفه منذ البدء إيجابياً ومتعاطفاً معي وقد مدّ لي يد العون قدر المستطاع، عندها اتصلت من هاتف عمومي بالطبيب محمد نعمة وشكرته على موقفه وطمأنته على وضعي الأمني، وعلى أمل أن نلتقي في ظروف أفضل

وأردّ له هذا الكرم الطائي. في تلك الليلة، شعرت بالأمان لأول مرة مقارنة بسابقاتها التي أمضيتها بخوف قاتل، وفي الصباح، ذهبتُ مع أبي فلاح إلى ورشة عمله في منطقة النهروان ببغداد، أمضيت النهار مع العمال المصريين في جملونات نُصبت لهم في داخل المجمع للسكن والعمل والراحة، وبعد انتهاء الدوام الرسمي، انتقلت مع أبي فلاح إلى ورشته الخاصة (معمل حدادة) في قرية الصمود التابعة لناحية الراشدية في الشارع العام الذي يربط العاصمة بغداد بمركز محافظة ديالى (بعقوبة).

بقيتُ لأيام، وبطلب شخصي منّي، نائماً في محل الحدادة على خردة الحديد وبين ركام شظاياه، وكنت بين فترة وأخرى، أذهب مع الحاج إلى منزله لتبديل ملابسي والقيام بحمام خفيف وسريع، في ذلك المجمع الصناعي الكائن على أطراف قرية الصمود، وبين مطعم ومقهى، ومحل صغير وورشة غسيل سيارات، كنت أمضي نهاري حتى وصول أبي فلاح إلى ورشته بعد الساعة الرابعة عصراً، لنبدأ بتجهيز طلبات الناس من شبابيك وأبواب، خصوصاً وأنه في تلك الفترة كانت حركة العمران ناشطة وواسعة في المنطقة، على الطريق الممتد بين بغداد وديالى، كان عملي محصوراً بقليل من التلحيم ومتابعة الطلبات، وكان الأكثر سهولة واهتماماً عندي، القيام بصبغ الأبواب والشبابيك وأخذ الطلبات من الناس وتحديد المواعيد.

من المواقف الصعبة والمحرجة التي تعرضت لها يومها، أني كنت جالساً في أحد الأيّام في المقهى فدخل شاب من الهويدر وهو عامر ابن سعدي من بيت أبي انفسة، وتوجه فوراً نحوي وسلم علي بتردّد وهو بين متأكد مني أو مشتبه بي. من ناحيتي، تصرّفت بهدوء بعد أن تأكّدتُ من هويته وبأنه عامر نفسه. فقمت بتجاهله عمداً، فبادرني بالسؤال، أنت محمد ابن حسن المرشيد؟ فأجبته: أيّ محمد؟ أنا أسمي علي من بغداد، فأجابني: والله أنت تشبه واحداً من قريتنا وهو شيوعي هارب وشرطة الأمن تبحث عنه، فضحكت وقلت له:

أنت واهم لربما كان يشبهني، عندها بدأ القلق ينتابني وبقيت لأيام حذراً جداً، لا أخرج من الورشة إطلاقاً رغم جحيم المكان المغلق الخالي من الشبابيك والمراوح وحتّى من منفذ لمرور نسمة هواء.

بعد كل تلك المعاناة، بدأ الحاج غازي يتعاطف معي أكثر، ويشعر بالمخاطر التي تحيط بي، وأنا من جانبي وبدافع من هذا التعاطف والشعور الأبوي من قبله، أخذتُ أحدّثه عن مواقفي وأمنياتي ووصيتي في حال وقعتُ في أيديهم، وهو يصغي إلي بألم واهتمام، وفي موقف شجاع منه، أجبرني على مرافقته يومياً إلى بيته بعد انتهاء العمل من قرية الصمود إلى منطقة الشيوخ في مدينة الكاظمية، حيث أصبح مألوفاً لدى ذهابه في الصباح إلى وظيفته الرسمية، خروجي الطبيعي من البيت لإجراء بعض الاتصالات والارتباطات الحزبية، لأعود إلى الورشة والعمل معه. وكنت أحياناً أصطحب معي أولاده فلاح ومصطفى في أيام العطل. أصبحت واحداً من العائلة، لي غرفة خاصة في الطابق الثاني، بيت من الطراز القديم، على شكل «شناشيل» بيوت أهلنا. في زقاق ضيّق من محلة الشيوخ في مدينة الكاظمية، بدأتُ بتحرّكي الجديد، مسلّماً بإيمان لا يتزعزع بتحقيق حلمنا وحلم جماهيرنا المتعطشة إلى غدٍ أفضل. كان الموت يعني لي أنه آخر مشواري النضالي في تجاوز وتحدي الصعاب.

# بـداية العمل السرّي في بـغداد

بعد أن شعرتُ بنوع من الهدوء والقليل من حرية الحركة، بدأتُ بالتحرّك، وكان وحيد عبد الرحمن دبش أول شخص تحرّكت تجاهه، وهو من أهالي مدينة الحرية ببغداد، كان يومها مصاباً بجروح مختلفة أصيب بها في معارك «قادسية صدام»، وكان في صدد مراجعات يومية إلى المستشفى العسكري. حدّدتُ موعداً معه ومكاناً للّقاء، فصعدنا في سيارة أجرة إلى متنزّه حدائق الزوراء حيث جلسنا في مطعم مطلّ على بحيرة جميلة مزينة بأضواء ملوّنة على شكل نافورات ماء، وطلبنا عشاء مع بيرة (فريدة) العراقية. وكان صوت الفنان ياس خضر يصدح بأغنية (حيل اسحن گليبي سحن) وبالذات في المقطع الذي يقول: (يا ليل صدّگ ما أطخ لك راس.. واشكي لك حزن).

أخذتنا الأحاديث والأخبار إلى وقت متأخر من الليل واتفقنا أن نُعيد لقاءنا من أجل تحديد خطوط العمل بيننا والتخطيط لمشاريع مستقبلية. خرجنا من باب المتنزّه، واستقل كل واحد منا سيارة أجرة إلى مكان سكنه. تكرّرت لقاءاتنا أنا ووحيد في بغداد، فعلاقتي به تعود إلى عام 1982، عندما حدّثني آنذاك الدكتور عزيز الشيباني عن وجود رفيق يعمل في مطار صدام، وقد تعرّض خطهم الحزبي للمداهمة واعتقلوا مسؤول الخط (أبا ماجد)، فلا بد لنا من إنقاذ رفيقنا الذي كان ضمن هذا الخطّ لتجنب اعتقاله. اتفقنا حينها أنا والدكتور عزيز أن ندعوه إلى الهويدر للتعرف عليه والطلب منه إلّا يعود ثانية إلى أهله. حددّنا موعداً معه وانتظرناه على تخوت مقهى الحاج إبراهيم الجولاغ في منطقة الحمام، وعندما وصل، ذهبنا وإياه إلى بيت عزيز وتحدّثنا حول الوضع

وإشكالية العمل، ومن خلال الاطلاع على وضعه الأمني، اقترحت عليه أن يصعد إلى الجبل للالتحاق بالأنصار الشيوعيين واتفقنا على هذا السيناريو، صحبتُه إلى بيتنا ليبقى فيه عدة أيام في ضيافتنا إلى حين ترتيب وتأمين خطّ آمن للوصول إلى الجبل.

كنّا في تلك الأيام نذهب في مساءات الهويدر الساحرة مع صديقي عدنان صافي (أبو جنان) إلى بستان (الشكاكة) القريب من بيتنا وعينا أمي تلاحقنا داعية من الربّ أن يبعد عنا أي مكروه، وكنّا نسهر تحت قمرية العنب الجميلة إلى وقت متأخر من الليل مع أحاديث ممتعة عن الأدب والثقافة، ومن ثم نعود بهدوء إلى البيت حيث نجد الكل نياماً، إلّا أمي التي كانت تبقى في انتظارنا بداعي الخوف علينا.

في يوم مشمس من صباحات الهويدر، تحرّكنا باتجاه قضاء (كفري) إلى واحد من البيوت الحزبية التي وصلناها بسلام رغم تشديد السيطرة الحكومية على المدينة، سلّمته بأمان إلى منظمة كفري الحزبية سعياً للحفاظ على حياته وتأمين وصوله بسلام إلى الأراضي التي كانت تحت سيطرة رفاقنا الشيوعيين. شدّدت على وحيد أن يتصل مباشرة فور وصوله سالماً إلى الجبال برفاق التنظيم المدني للمنطقة الوسطى، وحدّدت له الأسماء، طه صفوگ، محمد وردة ومحمد الخضري. وعدتُ بعدها بشكل طبيعي إلى قرية الهويدر لأمارس طقوس حياتي الطبيعية، في الوقت الذي وصل فيه وحيد بسلام إلى الجبل والتقى بالرفاق الذين حددتهم له حيث اطلعوا على وضعه بشكل كامل.

بعد عدة أيام وضمن توجيه التنظيم بتعزيز قدراتنا في الداخل وبين المدن، وبناءً على وجهة نظر الرفاق المبنية على رواية وحيد لهم وأوهام التوجس من اعتقاله، فقد اقترحوا عليه العودة إلى بغداد وممارسة حياته الطبيعية في العمل والبيت على أن يتواصل معي لترتيب وضعه الحزبي، لكني لم ألتقِه بسبب وضعي المفاجئ وصدور الأمر بإلقاء القبض علي مما اضطرني

إلى التواري عن الأنظار لأنني أصبحت مطلوباً من أجهزة السلطة. وهذا ما فصّلتُ الحديث به سابقاً.

وحين عدت إلى بغداد بعد عدة سنوات واتصلت به مجدداً لأجل تجديد عملنا الحزبي، فكان لا بد لنا، في خطواتنا الأولى، من تكوين محطات حزبية عبر أشخاص نثق بهم، ولهم امتداد تاريخي وسياسي في نضالنا، فحدّدت عدة أهداف للتحرك بالتنسيق مع وحيد، وأخذت له في مدينة بعقوبة أحلام كرادي ولطيف صالح للاتصال بهم كلّاً على حدة، بعدما زوّدته بأدوات الاتصال وحدّدت له أمكنة تواجدهم الدائمة وطرق الاتصال بهم.

وتمّ اللقاء الأول معهم في مدينة بعقوبة، برغم موقفهم السلبي والمتردّد أمام هول الضغوطات والمتغيرات المحيطة بالناس بفعل سياسة النظام الغوغائية في الرعب والتخويف، كل ذلك انعكس سلباً على ولوج الناس أو التماسهم بخطوط السياسة في العراق، ولكن كان لا بدّ من خطوة لتعزيز عملنا وإثبات وجودنا بين الناس بالردّ على إشاعات النظام البعثي بأن الشيوعية انتهت بالعراق إلى غير عودة.

## الجواسيس: أبو بهاء، أبو هيمن، شهاب

تعرّفت في بغداد على عبد الخالق مطلگ الدليمي (أبو بسيم)، وهو رجل أعمال من سكنة مدينة الشعب في بغداد، وهو من كوادر القيادة المركزية، الجناح الذي خرج من جسد الحزب متبنياً سياسة الكفاح المسلّح وإسقاط النظام العارفي في 17 أيلول 1967، حدّثني أثناء لقائنا عن واقعة اغتيال الشهيد ستار خضير قائلاً: كنا نتوقع اغتيال أحد كوادرنا الحزبية، فذهبنا إلى مكان الحدث لنجد ستار خضير يلتقط أنفاسه الأخيرة وهو يهتف باسم الحزب، تطوّرت علاقتي بأبي بسيم وبدأتُ أزوّده بأخبار الحزب اليومية، وقد قدّم لي خدمات كبيرة ومهمة في حياتي في تلك الظروف الصعبة.

اكتشفت من خلال لقاءاتنا وأحاديثنا، أن لديه ارتباطاً مع الكادر الحزبي من مدينة البصرة فالح حسن (أبو بهاء) المعتقل في سجوننا في منطقة زيوه الفصيل المستقل والذي كانت التحقيقات لا تزال جارية معه بناء على أدلة دامغة بتعاونه مع أجهزة البعث الأمنية وهو يرفض الاتهام بشدّة ويهتف بحياة فهد والشهداء. وعندما سألت أبا بسيم عن تواجده الآن، أجابني بأنه ذهب بمهمة حزبية إلى الجبل لكن زوجته مع طفلتيه يعيشون في منطقة راغبة خاتون في الأعظمية، وهنا شعرت بمسؤوليتي الأخلاقية والفكرية والأمانة الحزبية بالتحري عن التفاصيل الخطيرة التي بلّغت الحزب بها.

فقد كان الانطباع العام السائد في أوساطنا في الجبل، أن أبا بهاء وزوجته نصيرة من بيت القيسي، مناضلان جديران بمهامهما النضالية في داخل الوطن وأن اعتقال أبي بهاء في الفصيل المستقل، ما هو إلّا ظنون وهو من باب الحيطة

والحذر وسوف تنجلي، ويجدر بنا القول إن أبا بهاء وزوجته هما كادران حزبيان تركا العراق عام 1979 إبان الحملة الشرسة ضدّ الشيوعيين وأصدقائهم ليصلا إلى جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية يتنقلان بعدها بين العواصم بيروت ودمشق ومن ثم يستقرّان في شمال العراق، ضمن توجهات الحزب، بين مقاتلي الحزب الشيوعي العراقي، وقد رُشّحا من تنظيم المنطقة الجنوبية للعمل في الداخل، وقد عملا لعدة سنوات في بغداد والجنوب وكردستان.

وقد قال أمامي أحد قياديي منظمة الجنوب حميد بخش (أبو زكي)، الذي وقّع على عضويته الحزبية الرفيق فهد مؤسس الحزب الشيوعي العراقي والذي يعتبره وسام شرف وتفضيلاً له عن الآخرين: «لو عندنا مئة رفيق أمثال أبي بهاء لأسقطنا النظام البعثي من زمن».

تعود الأيّام ونلتقي، وأبو زكي نفسه يحقّق مع أبي بهاء بتهمة الجاسوسية، وكاد الأخير يسقط من هول الصدمة حين أدلى باعترافاته الكاملة والسنوات التي عمل بها مدسوساً بين صفوفنا، ومن المعلومات الخطيرة التي قدّمها للمخابرات لسنوات مضت، من البصرة إلى عدن، إلى بيروت ودمشق، وعن الجبل وحياة الأنصار والوضع الداخلي للحزب، كنت حارساً على تلك الاعترافات أثناء سردها تحت قطع صخري في وادي (گلي زيوه). وهنا أسجل نقداً ذاتياً وندماً شخصياً لمشاركتي في استخدام القوة عندما كان أبو زكي يحقّق معه في وادي (گلي زيوه) وأنا المكلّف بالحماية أثناء جلسات التحقيق اليومية.

كنت أسمع بعضاً من اعترافات إبي بهاء الصادمة وهو يُدلي بها بترتيب منمّق وتسلسل تاريخي، بعدما رفض لأيام طويلة التهمة الموجهة إليه. كنت دائماً ألح بالسؤال على أبي بسيم في بغداد قائلاً: ما أخبار صديقك البصراوي؟ هل عاد من الجبل؟ فيجيبني: اتصلت بزوجته وقالت إن أخباره مقطوعة، كان ذلك في الوقت الذي اتُّخِذ فيه القرار بإعدامه، وقد نُفّذ حينها فعلاً. ويبقى

السؤال، كيف انكشف أمره للحزب بارتباطه بالمخابرات؟ هل هي صدفة؟ أم هو الدور الفعّال لقوة تنظيمنا في الداخل؟ تعالوا إذن نطّلع ونتعرّف على حكايته وهي واحدة من عدة حكايات مشابهة:

كان فالح حسن (أبو بهاء) يصعد إلى الجبل من بغداد ضمن اللقاءات الدورية والتواصل مع التنظيم، وللاطلاع على آخر التطوّرات والمستجدات في العمل التنظيمي ويلتقي بالرفاق المسؤولين قبل المؤتمر الرابع بعام تقريباً. عند عودته إلى بغداد عبر تنظيمات محلية دهوك في سيارة عمومية مع ركاب من قرى المنطقة باتجاه مدينة الموصل عبر طريقٍ تحت سيطرة تشرف عليها المخابرات العراقية، توقّفت السيارة بأمر من المفرزة لتفتيش روتيني، وأشاروا إلى أبي بهاء للترجّل من السيارة بهدف التأكد من هويته، ربما لأن لون بشرته بين أهالي قرى آشورية ويزيدية دعت رجال السيطرة للشكّ به، وأُشيع وقتها أنه كان ضمن المفرزة ضابط مخابرات كبير (مانع عبد الرشيد) هو أخ القائد العسكري (ماهر عبد الرشيد)، وكان ضمنها أيضاً شهاب العميل المزدوج بيننا وبين أجهزة السلطة، وقد حُقّق مع أبي بهاء في الشارع وأطلقوا سراحه بعدها مع التوصية بالكتمان التام والتحذير بالتستّر على الخبر وتأمين طريق آمن له إلى بغداد. كان ذلك بعد أن همس ببعض الكلمات في أذن الضابط مما أثار انتباه شهاب العميل المزدوج، والذي كان بحاجة إلى تعزيز موقعه بين صفوفنا، فنقل شهاب ما حدث إلى محلية دهوك التي بدورها نقلت الأمر إلى قيادة التنظيم. ولكن بقيت قيادة التنظيم في شكّ وتحرٍّ عمّن هو المقصود، رغم تشخيص ملامحه، فلربما كانت هذه واحدة من ألاعيب السلطة في زرع الشكّ بين صفوفنا، خصوصاً أن أكثر من رفيق يتوجّه يومها إلى الداخل ومن الطريق نفسه.

عشية عقد المؤتمر الرابع للحزب الشيوعي العراقي، بُلّغ أبو بهاء ليكون ضمن المندوبين لحضور وقائع المؤتمر من الداخل، فوصل قبل عقد المؤتمر

مندوباً من أجهزة السلطة التي كانت تتابع تطورات المؤتمر عن كثب، لكنه عند انعقاد المؤتمر حُجر بعيداً عن مكان وقوعه مع عدنان الطالقاني (أبو هيمن) سكرتير محلية السماوة سابقاً، المقيم حالياً في مملكة السويد، لحجم الشكوك ولغط الكلام حول وضعهما الأمني.

في هذا المكان تعرّفتُ عليهما بشكل جيد ولأوّل مرة ألتقيهما في منطقة (لولان) الحدودية ورافقتهما بمفرزة لعدة ليالٍ إلى مناطق بهدينان، الفصيل المستقل في منطقة زيوه. مررنا بقرية (جمجو) حيث كان شارعها سالكاً إلى القصبات والمدن العراقية التي يسيطر عليها الجيش والجحوش (والمقصود بالجحوش هم الأكراد الذين يقاتلون مع قوات النظام العراقي ضد معارضيه ويطلق عليهم النظام اسم فرسان، أما المعارضة الكردية والشيوعية فتسميهم جاش وهي مختصر من كلمة جحوش، انتقاصاً من إنسانيتهم وعملهم مع السلطات ضد أبناء شعبهم)، وكانت لديهما فرصة، بل فرص للهروب باتجاه موقع السلطة، لكنهما لم يفعلا، ولربما أبعدا عن تفكيرهما ما تخبّئ لهما الأيّام من أدلة وشهود ودور العميل المزدوج شهاب في كشفهما.

وصلنا بسلام إلى الفصيل المستقل، وكان من الرفاق المتحمسين في النقاشات والمشاركات لوثائق المؤتمر الرابع في المحاضرات التي يدلي بها قادة الحزب، عمر الشيخ، آرا خاجادور وحميد البياتي، مرة أخرى، يُزج بأبي هيمن إلى بغداد وكانت عواقب هذه المرة وخيمة على الناس وعلى التنظيم. كنت في خضّم الاستعدادات للنزول إلى بغداد من الفصيل المستقل، وفي ظلّ السرّية التامة المحيطة بتلك التفاصيل، فاجأني أبو هيمن هامساً لي: سوف أسبقك إلى بغداد وعندما تصل إليها اتصل بي على هذا الرقم (رقم هاتف أعطاه لي) لنرى عن أي شيء سيتمخّض الجبل، فليس الأمر سوى ولادة فأرٍ تنكيلاً بقادة الحزب، تفاجأتُ بمعرفته تلك التفاصيل، في الوقت الذي كنا مبلَّغين حزبياً بمتابعة خطواته، بلّغت الحزب بفحوى الحديث وخطورته،

ورغم ذلك أُرسل مرة أخرى إلى بغداد دون العودة إلى الحزب ولا إلى الجبل ودون ردّ اعتبار للرفاق الذين غُيّبوا، والذين كانوا على اتصال مباشر معه وهم الشهداء أبو جهاد، أبو سالار، أبو بشرى، أبو أحمد، أبو سرمد وآخرون.

أما أبو بهاء فقد تم إنهاء ملفّه بلقائه وجهاً لوجه مع العميل شهاب، الذي أشار إليه من بين عدد من الرفاق في أطراف مدينة العمادية مما أدى إلى اعتقاله بأمر من الحزب بعد أن جُرّد من سلاحه وتفتحت قريحته بسيل من الاعترافات ملأت عدة دفاتر.

في سياق متابعة أجهزة السلطة الدقيقة لعملائها ووكلائها، وعن طريق مندس آخر شهد الواقعة، فأوصل خبر ما حدث بسرعة البرق إلى السلطات العراقية، فاتهمت شهاب على الفور واحتجزت زوجته وأطفاله الأربعة رهائن لديها مقابل ثمن، وهو النيل من ركائز مهمة في صفوفنا، وهنا خطط شهاب مع السلطة للانتقام من ثلاثة كوادر من محلية دهوك كان من بينهم الشهيد مجيد السهلاني (أبو رؤوف) وهو كادر حزبي من أهالي الناصرية، مقابل حياته ـ شهاب ـ وحياة عائلته ومحاولة لردّ اعتباره أمام الأجهزة الأمنية، وقد نقل جثثهم بعد قتله لهم إلى السلطات تأكيداً لفعلته الشنيعة.

# في بيت الحاج غازي ببغداد

وبالعودة إلى حديثي الذي يتشعّب من تلقاء نفسه أقول: عشت متخفياً لفترة دامت أربعة أشهر في بيت الحاج غازي متنكراً بينهم باسم أحمد وحاملاً هوية رسمية باسم (عبود علي)، من سكان بابل وطالب في أكاديمية الفنون الجميلة، فقد رُتّب لي الأمر في الفصيل المستقل في منطقة زيوه مع نفس صورة بطاقتي الجامعية.

عشت تفاصيل ويوميات تلك العائلة، وأصبحت واحداً منهم في السرّاء والضرّاء، وقد عايشت واحدة من مآسيهم التي كانت فصولها قريبة إلى دراما تراجيدية. فقد كان الحاج غازي متزوجاً سابقاً، من امرأة دليمية تسكن منطقة الفضوة في محلة الشيخ عمر، وقد أنجبت له ثلاثة؛ بنت اسمها أعياد وولدان هما فارس وباسم، ولقد هجرهم وهم في أعمار صغيرة بعد خلافه مع أمهم مما أدى إلى الطلاق بعد مشاكل كثيرة بينهما.

وتمر السنون إلى ما يقرب من 26 عاماً وهم لا يعرفون شيئاً عن والدهم ولا هو يتذكر سوى أسماءهم التي تعود إلى ذاكرته في حال يصادف الحديث عنهم، فنحن العراقيين لدينا تركيبة معقّدة جداً لا نسعى إلى تذليلها وفكّ وثاقها وهي جملة من المواقف والتقاليد والصراع بين البداوة والتحضّر وانفجارية التغيّر في المواقف والتلوّنات، مما جعلنا مسؤولين عمّا حصل لنا من ويلات ومصائب فتّتت نسيج مجتمعنا بالكامل. (أذكر مثالاً ما جرى في محافظة ديالى، حيث انقطعت الكهرباء لعدة أيام في درجة حرارة لا تطاق عطلت أعمال الناس والجميع صامتون كل واحد منهم يقول: لا علاقة لي بالأمر).

بالعودة إلى الرواية، في مساء يوم الجمعة، بينما كنا جالسين في فسحة منزل الحاج غازي، سمعنا عدة طرقات على الباب، فنهضت أم فلاح لتفتحه فوجدت ثلاثة أشخاص بسن الشباب، بنتاً وولدين، فبادروا بالسؤال: هذا بيت غازي محمد؟ وأبرزوا صوراً قديمة له، فأجابتهم أم فلاح (أي عيني إنتو منو؟) فأجابوها: نحن أولاده من زوجته الأولى. فقالت لهم بترحاب: تفضلوا عيني، وبحكم وضعي الأمني الحذر، كنت مصغياً للحديث، دخلوا فسحة البيت حيث نهضت مع الحاج غازي للسلام عليهم، فسألوا الحاج غازي مباشرة: أنت أبونا؟ فجاوبهم: أنتم منو؟ فقالوا: «أحنه أولادك، لكن هل أنت فعلاً غازي أبونا ولك زوجة سابقة اسمها (...)؟». وهنا بدأ النحيب والعتاب مردّدين: كيف تمكنت طيلة هذه السنوات أن لا تسأل عن أولادك؟ فكانت التبريرات العراقية التقليدية سيدة الموقف.

بعد هذه الواقعة أصبحوا أصدقاء لي، ألتقي بهم وأتعاطف معهم وأنقل معاناتهم بفقدان الأب طيلة هذه السنوات إلى والدهم، كنت ألومه أحياناً كثيرة، لكن لا حيلة في اليد، في إحدى ليالي بغداد الرائقة، ذهبتُ إلى (مسرح المنصور) لمشاهدة مسرحية (العودة) لكاتبها الشاعر الراحل يوسف الصائغ، مصطحباً معي أبناء قريبي الحاج غازي، وهم فلاح ومصطفى وهِبة، لكي أعطي لنفسي متّسعاً من الاطمئنان والتحرّك والتكيّف مع الوضع والتعامل معه على أنه أمر واقع ولا بدّ من خوضه، مع الشعور الدائم بأني معرّض للاعتقال والموت اللذين كنت أتوقعهما في أية خطوة. كانت مسرحية العودة من ضمن الدعاية الموجّهة للحرب وآلاتها العسكرية، فهي تروي قصة جندي هارب من جبهات الحرب يعيش في صراع بين الخوف من الموت في الحرب والوطن، فتقوم زوجته بدورها الوطني في أن تحثّه على الالتحاق بجبهات القتال انتصاراً للأرض والوطن، وفعلاً فقد كانت هذه المسرحية واحدة من ماكنات الحرب التعبوية لدفع الناس إلى المحرقة.

كنت أحاول أن أكون جسر محبة ممتدّ بين هؤلاء الشباب وبين أبيهم للتعويض عن تلك السنوات القاحلة التي نالت من «يُتمهم»، والقريبون مني في بغداد، شعروا بهذا الهاجس القوي في داخلي بالحنين، فاقترحوا علي أن ألتقي والدتي في بغداد، الأمر الذي رفضتُه سابقاً لاعتبارات أمنية رغم حاجتي الكبيرة لها كأم وإنسانة وللحبّ الكبير بيننا. تلك العواطف والحنين لها دفعتني، رغم المخاطر الجدّية والمخيفة على حياتنا، أن أقرّر لقاءها. وفعلاً فقد التقيت أمي في بغداد لأول مرة في أيار عام 1986، في منزل سريّ في منطقة (الدورة) ببغداد، ليلة كانت عاصفة وحزينة ومخيفة، أخذتنا فيها الأحاديث والذكريات الموجعة عن معاناتهم في غيابي وممارسات السلطة... حتّى الصباح.

عندما ودّعتها على مضض والدموع الجارفة تسيل على خديّ، كان في نيّتها أن تتعقب مكان البيت الذي جمعنا في بغداد لتعود لزيارتي مرة أخرى، رغم تأكيدي لها بأنّي في زيارة ليوم واحد إلى هذا البيت، ولكنه قلب الأم التي تتشبث بولدها البكر، سند ظهرها وأملها القادم في الحياة، وبلسم معاناتها لسنوات بسبب غيابه.

# تقصّي أخبار «الكبسة»

بعد ما يزيد عن أربعة شهور في إقامتي ببغداد واستقراري نسبيّاً، استلمت رسالة حزبية من الراحل طه صفوگ (أبو ناصر) يسأل فيها عني ويلمّح بها حول حجم الكارثة التي وقعت في جديدة الشطّ، وبها إشارة واضحة لي حول ضرورة تقصي ما الذي حدث؟ وكيف وقع؟ ومن هو المسؤول عن ذلك؟ وما هو مصير الرفاق؟... إلخ. كنتُ قبلها بأسابيع قد ذهبت ـ رغم المخاطر ـ إلى القرية المعنيّة، حيث الكارثة، للاطلاع، وجلست في أحد مقاهيها لعلي أعثر على خبر يمكن الوصول من خلاله لبعض التفاصيل، لكني رجعت خائباً. كانت تلك الضربة قد راح ضحيتها 13 رفيقاً من خيرة المناضلين، هذه الضربة الماحقة التي قضت على أكثر أوكار الحزب تحصّناً وتجهيزاً، فقد كان هذا المكان محطّة أكثر من كونه وكراً، يحتوي على أسلحة وعلى تجهيزات طباعية مُعدّة لتنطلق منها المنشورات والأدبيات الحزبية. كان بستان جديدة الشط من أملاك الحاج صفوگ العلگاوي (أبو طه). وهو والد الشهيد (ستار) والرفيق الراحل طه (أبو ناصر) رفيقي في الجبل، الذي وصلتني الرسالة منه.

ولم تكن هناك أية أخبار مؤكدة عمّا حدث، لأن أغلبية من كانوا في التنظيم والمتعاطفين معهم يقبعون في السجون والمعتقلات، وكل الصلات التنظيمية والاجتماعية والاتصالات مقطوعة إلّا ما ندر ضمن أحاديث متناقلة عبر الألسن هنا وهناك لا تخلو من المبالغات وبعضها بعيد عن الواقع، لكنها متداولة بين الناس عن العدد والتسليح و«خطة الانقلاب الشيوعية».

ولم يكن في هذه الحالة من مرشح يُكلّف بالمهمة سوى أمّي، نعم! فهي امرأة ذات تاريخ نضالي حافل يشهد لها فيه كلّ من عرفها، كما أنني كنتُ قد التقيتُها لقاءً عاصفاً في أحد أوكار الحزب في منطقة الدورة ببغداد قبل أن أُوَجّه للتحري عن الواقعة، هذا اللقاء الذي سُفِحت فيه الكثير من الدموع المالحة. فهي المرأة المجرّبة في المواقف من خلال مواكبتها لأخيها الشهيد خزعل السعدي قائد مقاومة الكاظمية صبيحة 8 شباط عام 1963 في المعتقلات والاختفاء، وقد استقت منه معاني النضال والمثُل في مسيرة حياة صعبة.

وبالرغم من أني كنتُ متردّداً من تكليف أمّي بهذه المهمة، إلا أن مصلحة الحزب كانت تقتضي التحرّك بسرعة لكي لا يكون هناك مزيد من الضحايا من خلال الاعترافات. وبالفعل فقد رُتِّب الأمر بسرعة، وفي خطوة غير محسوبة بدقّة جيء بأمّي إلى منزل ابن خالتي الحاج غازي في الكاظمية. وكان لقائي الثاني بها أشبه بـ «اجتماع حزبي» وجّهتُها فيه للذهاب إلى منزل الحاج صفوگ والعودة منه بتقرير مفصّل عن الواقعة، كما وجّهتها للطريقة التي تستطيع بها أن تُقنع الحاج صفوگ ببعض الدلائل وكيفية منحه الشعور بالأمان لكي يتحدّث، لأن الواقعة كانت قد حدثت قبل شهور ولا زال الحدث ساخناً والخوف متسلّطاً على قلوب الجميع في المنطقة، بما فيهم عائلة الحاج صفوگ التي كانت قد تعرّضت للحجز والاستجواب والعسف، كما أن بيته كان قد هُدم وجُرفت بساتينه بسبب من كونها محطة شيوعية. وحين وجدتُ لديها الاندفاع والإقدام على اجترار الصعاب مهما كلفها الأمر، ودّعتُها ثانية فذهبَت من فورها إلى جديدة الشط، ورغم خطورة الخطوة والموقف والنتائج، إلّا أنها دخلت إلى المكان بدون أيّ خوف أو تردّد، وشاهدت بعينيها حجم الدمار الشامل الذي حلّ بالدار التي كانت قد سوّيت بالأرض، ولم يكن بستان الحاج الذي كان عامراً بالأشجار المثمرة سوى أرضاً خراباً ليس فيها أيّ أثر للّون الأخضر. فقد قتل المجرمون كلّ أثر للحياة، وأماتوا الزرع والضرع.

بعدها توجّهَت أمي إلى بيت الحاج صفوگ بغرض تدوين الشهادات حول ما حلّ بالمكان، لكن بمجرّد أن عرّفت عن نفسها وعن المهمّة التي جاءت من أجلها حتّى ثار الحاج صفوگ وأخذ يرعد ويهدّد ويلوّح بتسليمها للأجهزة الأمنية ظنّاً منه أنها مرسلة من قبلهم للإيقاع به.

كان الحاج ينزل في مسكن ابنه مخيبر، وكان الجهد الذي بذلَته أمّي لإقناعه بأنها غير مُرسلة من سلطات الأمن جهداً استثنائياً، من خلال تمريرها لبعض المواقف التي رويتُها لها وبمواجهتهم ببعض الأدلة والمشاهد والوقائع، تمكّنَت في نهاية المطاف، بعد التصاعد الخطير في الموقف، من إقناعهم بنبل مهمتها، وأنها مرسلة من الحزب، وقد كان حاضراً كل من الحاج صفوگ وابنه الكبير مخيبر ولينا ابنة مخيبر، وبعض من أهل البيت. وعلى حدّ تعبيرها أنها تمكّنت من إقناعه «بشهگان الروح». بعدها تغيّرت النظرة إليها وطريقة التعامل معها، وشعروا رغم الخوف الكامن في نفوسهم بأنهم وجدوا كنزاً كانوا قد فقدوه.

جلست الابنة لينا، مع قلم جاف وعدّة أوراق مُنتزعة من دفتر مدرسي، لتكتب تقريراً طويلاً ومفصلاً بخطّ اليد بعد أن وقف جدها صفوگ وأبوها مخيبر يدوران حولها وهما يُمليان عليها بأدقّ التفاصيل ما حدث في تلك الليلة المشؤومة وفي اليوم الذي تلاها من أحداث هي أقرب إلى فيلم دراميّ طويل لا يزال بطله مجهولاً... وسلّموا التقرير إلى أمي.

في النهاية إذن، وبعد طول عناء تمكنت «الرفيقة» الراحلة خيرية الشوربة بنت علي جاسم السعدي، من إنجاز المهمّة «الحزبيّة» الموكلة إليها في انتزاع كل التفاصيل المهمة حول ما حدث هناك وما تعرّض له رفاقنا: أبو جلال، أبو جيفارا، أبو سهيل، أبو غسان، أبو ستار، أم ستار، سفانة، أبو ازدهار وخالد جاسم معاوية.

# العودة إلى الجبل بـالتقرير

كان ذلك في نهاية حزيران من العام نفسه، وبعد استلامي للتقرير من عائلة أبي ناصر، وهو عبارة عن أوراق مستلّة من دفتر مدرسيّ ومرتّبة بعناية، تحمل بين سطورها تفاصيل بالغة الخطورة عمّا جرى وسيجري، ونظراً لحجم الضرر الذي سوف تُسببه المعلومات التي انطوى عليها التقرير مستقبلاً على التنظيم، ورغم خطورة الموقف، فقد حملتُ الرسالة وذهبت بها هذه المرة، مستقلّاً القطار الليلي الصاعد من بغداد إلى الموصل فوصلتُها صباحاً، ومن محطة الموصل أخذت عربة أجرة تكسي إلى مرآب النقل العام لمناطق شيخان والقوش وبعشيقة وتلكيف... إلخ.

وفي يوم قائض بامتياز حيث الشمس تسخو باللهب. كانت وجهتي مدينة القوش وكانت السيارة التي ركبتها تنقل ركاباً من أبناء المنطقة. وبعد عملية تفتيش روتينية عاديّة في إحدى السيطرات الخارجيّة التي يُديرها الجيش، تحركت السيارة إلى وجهتها، وكانت على جهة من الطريق تقع القرى التابعة لسهل الموصل، بينما على الجهة الأخرى سلسلة الجبال التي كان يتمترس خلفها مقاتلو البيشمركَة والأنصار وبعض الفصائل الأخرى المقاومة للنظام. وفي وسط الطريق إلى القوش طلبت من السائق التوقف حالاً في مكان خال من أية مظاهر للحياة، فبدا في اللحظات الأولى متشكّكاً من شدة المفاجأة، لكني لم أترك له وقتاً للتفكير، ففي اللحظة الأولى من الوقوف وعلى وجه السرعة فتحتُ الباب وترجّلتُ وسط نظرات فضول الركاب وهمهماتهم، ومضيتُ متخفياً بين الحقول الزراعية والأشجار، سالكاً طريقي بين وديان السلسلة

الجبلية، وقد كانت في حوزتي مادّة سامّة قررت تناولها فيما لو غدوت في قبضة رجال أمن السلطة، لأُنهي حياتي.

كانت مغادرتي لبغداد محزنة بعض الشيء، إذ رحلتُ تاركاً رفاقاً وأحبّة دون إعلامهم بهذه الخطوة السريعة، ورغم شعوري المرّ بوطأة هذا الاختفاء المفاجئ عن حياتهم، لكن لضرورات العمل السريّ التزامات وعهود يُجبر المرء على التقيّد بها رغم الحسرة والخوف الذي يخلفه في نفوس الآخرين، كان وقع اختفائي المفاجئ عليهم ليس بالأمر السهل، وذلك بسبب تعقيدات الوضع السياسي في العراق، فقد اعتقد البعض منهم بأنني وقعت بين أيدي الأمن أو المخابرات أو الاستخبارات وبأنني سأدُلي باعترافات كاملة عنهم وعن طبيعة ارتباطاتي وتحركاتي السابقة وعن عملي معهم، وكان البعض الآخر قد أُجبر ومن باب الحرص الأمني على الانتقال إلى مناطق سكنية أخرى، وقد عرفت ذلك لاحقاً من رفاق ما زالوا على قيد الحياة.

حين ترجّلتُ من السيّارة، رأيت أن حركة الفلاحين وآلياتهم تعمل كما هو الحال آنذاك، وكان وجود المفارز والدوريات الحكومية أمراً اعتيادياً لمن هو ليس في مثل حالتي، بينما كان ذلك يشكّل لي بعض الخطر الذي كنتُ أتجنّبه بحسّي النضالي وتجربتي الحزبية. لذا تمكّنت، وبسرعة من اختراق تلك الحقول بفلّاحيها وتراكتوراتها لأصل إلى مفارز رفاقنا حيث مقرّهم الذي يقع عند الجبل، وهناك التقيت بالرفيق صباح كنجي، بعدها بيومين كانت وجهتنا أنا وصباح منطقة وادي مراني حيث الفوج الأول لقاطع بهدينان. وفي ساعة متأخرة من ذلك اليوم الصيفي، وبعد أن كان التعب والنعاس قد أخذا حصتيهما منّا بسبب السير المجهد طوال اليوم، غططنا في نوم عميق مليء بالكوابيس في أحد الكهوف، ثم تحرّكنا باتجاه مقرّ الفوج الأول ومركز الإقليم في وادي مراني في جبل گاره.

بعدها بيومين رافقتُ مفرزة أخرى متوجّهة إلى منطقة (زيوه) الحدودية،

سيراً على الأقدام لمدة يومين، وسط غابات من الأشجار المثمرة واللذيذة حتى وصلنا حيث مقر الفصيل المستقل للتنظيم المدني وبعض مقرات إداريات الحزب، فوجدنا أن الفصيل قد تحوّل إلى المقرّ الصيفي أعلى جبل متين، وكانت بالنسبة لي أول مرة أتواجد في هذا المكان الذي كان عبارة عن (صرايف) بدائية اتّخذت من جذوع الأشجار وظلال أوراقها ملاجئ صيفية لا تحتاج إلى الكثير من التحصينات التي تكون عليها المقرات الشتوية عادة. وهناك التقيت بالرفاق حميد مجيد وآرا خاجادور وعمر الشيخ وحميد بخش وباقي القيادات، وبالطبع طه صفوگ الذي كلّفني بالمهمة التي أتممتها على أحسن وجه.

بعد أن أطلعتُ الرفاق على تطورات الأوضاع في الداخل وحركة المجتمع، سلّمتهم التقرير المفصّل الذي كان وقعه هادراً ومدمّراً، إذ تبيّن من تفاصيله أنه قد تمّ في ساعة واحدة هدم كل ما بناه التنظيم الحزبي لسنوات، وقد ضُربت الثقة والتضحيات التي قُدِّمت في سبيل لمّ شمل الناس وكسب تعاطفهم مع الحزب، وذلك من شدّة القمع الذي مارسه النظام بوجه معارضيه. لاحظت علامات الحزن التي بدت تتعاظم على وجه أبي ناصر حين كان يقلّب صفحات الرسالة التي سلمتُها إليه، ولم يتمكن من إكمالها إذ تدفّق من عينيه ـ وهو المقاتل الشرس ـ سيلٌ جارف من الدموع الحارّة، ثمّ راح في نوبة نحيب، ولم أتمالك نفسي أنا أيضاً فرحت أنتحبُ معه، لكنّي حينها كنت أحسّ بالرضا في داخلي، لأنني شعرت أنني أزحتُ عن كاهلي مهمة ثقيلة، وقد تبيّنَت في ما بعد، وعبر مصادر مقرّبة وشهود عيان، تفاصيل الكيفية التي وقعت بها الكارثة، ومن هو المسؤول عنها. لم أمكث طويلاً هذه المرة في الجبل في منطقة (زيوه) الحدودية أكثر من ثلاثة أسابيع، عدتُ بعدها سريعاً إلى بغداد بعد اتفاقات جديدة وتعليمات كان وراءها ما جاء في التقرير.

# عودة إلى بيت الحاج غازي

تقرّر نزولي إلى بغداد عبر مدينة الموصل، وعن طريق محلية نينوى، وانطلقتُ من سهل محافظة نينوى عبر سيارة خصوصية لعائلة مكوّنة من ثلاثة أشخاص، رجل وامرأة وابنتهما الشابة، من القرية إلى داخل مدينة الموصل، وفور وصولي المدينة حسبت حسابي على أن يكون وصولي إلى بغداد ليلاً، وهكذا بعد أن أمضيت نهاراً كاملاً متجولاً في مدينة الموصل، توجهت إلى الكراج العام وصعدت في أحد باصات (المنشأة العامة لنقل الركاب) مع ركّاب آخرين أغلبهم كانوا جنوداً ذاهبين أو عائدين إلى وحداتهم العسكرية، وتبدو على وجوههم علامات البؤس والإعياء والرفض لطول تفاصيل مُجريات الحرب وويلاتها.

ذهبت فور وصولي إلى بغداد، بعد أن تأكّدتُ تمام التأكّد من أني غير مُتابَع أو مراقب من أجهزة السلطة، وركبتُ باص مصلحة نقل الركاب متوجّهاً إلى محلة الشيوخ في مدينة الكاظمية حيث وكري الحزبي، ولم يكن لي هناك من عناء في معرفة المكان ولا الخطوط ولا العلاقات، كل شيء كان مؤمناً، وكانت في جعبتي آفاق عمل جديدة وواسعة تمتد من بغداد إلى ديالى. وصلت إلى مكاني بأمان تام وكان تخطيطي كله أن أبدأ، وبنشاط أكثر فاعلية وتأثيراً، بفتح قنوات أخرى عبر الاتصال برفاق آخرين منسيين بحكم الظروف التي مرّ بها البلد من إقصاء وحذر لنشاط الشيوعيين، بل وفي محاولة لقلع جذورهم من أرض العراق الطيبة والتي ارتوت تاريخياً بدمائهم وعرقهم لسنين طويلة من النضال والكفاح الوطني.

كانت عودتي الثانية إلى بغداد عودة محمّلة بأحلام وتطلّعات ليست طوباوية، إنما واقعية ومنطقية، على أرضية بنيتها في الحقبة الماضية من الاختفاء ومدّ جسور العلاقات، وأصبحت أكبر وأوسع بعد أن تكيفتُ مع ظروف البلد وتطوراته من خلال خبرتي في التسلل الأول، قد كنت حاملاً في حساباتي ومخططاتي مشاريع كبيرة مبنية على تداعيات دراماتيكية يعيشها البلد من ظروف حرب حرقت الأخضر واليابس، فهنا في بغداد، تململ جماهيري واضح من خلال رفض الحرب والاستياء من أساليب السلطة في التعامل مع الناس بقسوة ورعب، فالسجون ممتلئة برافضي الحرب وبمعارضي النظام من شتى الانتماءات السياسية.

في اليوم التالي وبعد أن سكنت حركة الناس قليلاً ذهبتُ متأبطاً بعض الكُتب للإيحاء بأنني طالب جامعي، فتوجّهتُ إلى منطقة (باب المعظم) بسيارة أجرة عمومية ومنها ذهبت إلى منطقة الراشدية قرية (الصمود) بأطراف شمال بغداد، حيث مكان عملي في معمل حدادة الحاج غازي، وضمن مربع محدود ضمّ عدة ورشات، كراج غسل وتشحيم السيارات، مقهى ومطعم لمالك واحد هو عبد الخالق مطلگ الدليمي المكنّى بأبي بسيم، والذي كان لديه عدّة مستأجرين عراقيين ولكن أغلب الخدمات كان يقوم بها عمال مصريون، وأنا بتّ ضائعاً بينهم من الجانب الأمني، فحتى المارة لدى مصادفتي لهم يكلمونني باللهجة المصرية في سؤالهم حول مكان ما أو شخص ما.

كنت أحمل هويةً شخصية باسم عبود علي الطالب في (أكاديمية الفنون) الجميلة ومن أهالي الحلّة، ولكن الاسم المتداول به بين أوساط الشيوعيين وأصدقائهم، فهو علي، المعروف في بغداد علي الحلاوي. كان عملي يبدأ من الساعة الثامنة صباحاً لغاية السادسة مساءً بهدوء وتروٍّ رغم الخطورة المتوقعة حول مصيري في كل لحظة من لحظات تحركاتي ولقاءاتي وعلاقاتي، فالبلد يمرّ بحالة حرب طاحنة، فقد لا يمر وقت طويل دون هجمات على كل حدود

أرض العراق في محاولة احتلالها من قبل الإيرانيين، مما خلق وضعاً متداعياً أدى إلى استنفار أمني ومخابراتي في عموم البلد.

كان أول ما صادفني في نزولي من باص مصلحة نقل الركاب الشاب محمد، وحسب المعلومات التي عرفتها عنه سابقاً أنه عضو عامل في جهاز الاستخبارات العامة ويمتلك في المربع الصناعي محلاً يتصدر ركناً مقابل الشارع العام الذي يربط العاصمة بغداد بمحافظة ديالى، يبيع فيه قطعاً احتياطية للسيارات وذلك على سبيل التمويه على دوره أو المهمة الملقاة على عاتقه، رحب بي، وقال: «هاي وينك علي وين الغيبة الطويلة؟». فكانت حجّة غيابي أن الوالدة مريضة واضطررت للبقاء بجانبها بناءً على رغبتها، لكني شعرت من ردّة فعله أنه لم يأخذ كلامي على محمل الجدّ، ولم يعّد من سبيل لي إلّا التحرك السريع والبحث عن مأوى آخر، فالحذر واليقظة أصبحا مُلازمين لي تجاه أي تحرك جديد. بدأت أحسب خطواتي بدقّة متناهية، فصار وقت وصولي إلى موقع العمل ووقت خروجي في ساعات غير منتظمة، حتى أنني لم أعُد أذهب إلى العمل بشكل منتظم نوعاً ما، فكنت أقضي ساعات طويلة في شوارع بغداد ومقاهيها، وألتقي يومياً برفاق وأصدقاء متعاطفين معنا، أغلبهم متردّد ويحمل في داخله نيات سيئة وخوفاً من خوض العمل السياسي المعارض، حتى لو كان بحدود التعاطف أو التعاون، لأن سياسة البعث الشديدة تجاه معارضيه تركت بصماتها القوية على معنويات الناس وتفاعلهم مع أي مشروع سياسي.

كانت واحدة من ورشات العمل في ذلك المربع الموجودة في قرية الصمود، تتضمن ورشة غسيل وتشحيم السيارات، كانت الورشة هذه، شأن كلّ الورش، تُدار من قبل مجموعة عمّال مصريين يعملون ليل نهار في غسل وتنظيف السيارات. كان العراقيون بحكم الظروف القاسية التي كانوا يمرّون بها، وكردّة فعل على سياسة النظام وموقفه المبالغ فيه بالرعاية والاهتمام بالمصريين، خصوصاً بعد أن صرّح صدام حسين من على شاشة التلفاز بأن من

يعتدي على مواطن مصري فهو يعتدي على صدام حسين شخصيّاً، كل ذلك جعل العراقيين يصبّون جام غضبهم على العمال المصريين.

ففي عصر يوم من تلك الأيّام اللاهبة من شهر تموز جاء شخصان يقودان سيارتين جديدتين من نوع تويوتا سوبر صالون، تلك الموديلات التي يمنحها نظام البعث للضباط الذين يتخرجون توّاً برتبة ملازم ثانٍ في الجيش العراقي، وترجلا منهما وسلّما مفاتيحهما إلى مشرف العمل المصري (أبو سريع) في الورشة، كنت جالساً على كرسي أبيض بلاستيكي بجانبه، وفي الحديث معه حول مصر وشوقه إلى عائلته وبعد أن غسلوا السيارتين بعناية رجع الضابطان وتحجّجا بعدم الاهتمام بسيارتيهما وتنظيفهما بشكل جيد، وهكذا اختلقا الذرائع ليهجما عليهم بطريقة حقيرة مع ركلات مدمّية تحت مرأى ومسمع من الناس الذين تجمّعوا حولهم ولا أحد منهم يمكنه الاعتراض، ثم رحلا وتركاهم مرميين على الأرض مضرّجين بالدماء، بعد أن أذاقوهما أنواع الضرب والإهانة.

تركتُ المكان حالاً، خوفاً من أن يُفتح ملف للتحقيق وأُطلب لأكون أحد الشهود، مما سيؤدي بي إلى التهلكة وكشف هويتي الحقيقية، فذهبت حزيناً إلى مدينة الكاظمية إلى بيت الحاج غازي في منطقة محلة الشيوخ، ولم أعد إلى العمل لعدة أيام متأثراً بتراجيدية المشهد، مارستُ حياتي بشكل طبيعي بعد أن تأكدت من الحاج غازي بأنه لم يأت أحد من شرطة النظام، وهم أيضاً ـ أعني العمال المصريين ـ لم يتجرؤوا على أن يقدّموا شكوى خوفاً من نتائجها الوخيمة على مصلحة شغلهم ورزقهم.

كنتُ ألتقي (أبا بسيم) مالك المكان المؤجّر بالمصادفة، وكانت تدور بيننا نقاشات عديدة، فهو من جناح القيادة المركزية، لكنه مُتابع جداً لأوضاع الحزب، لكن بعد أيام، صادفني منغّص آخر عكّر مزاجي وشوّه طريقي وشلّ تحركاتي وحساباتي، وكان من المفارقات الموجعة والعجيبة التي أقلقتني

كثيراً. ففي أحد اللقاءات مع (أبي بسيم)، وهو من كوادر القيادة المركزية في منطقة الفضل (الفضوة)، قال لي إنه سوف يعرّفني بشخصية شيوعية مهمة مختفية في بغداد، ويعني بذلك مسؤول التنظيم حالياً، وبعد حديث طويل معه عرفت بأن المقصود هو فالح حسن (أبو بهاء)، وأنه ذاهب حالياً بمهمة حزبية إلى شمال العراق ليلتقي برفاقه في التنظيم ويتابع نتائج المؤتمر وزوجته ابنة طبيب الأسنان الشهير عبد الستار القيسي شقيق المحامي أبو سعيد القيسي.

توقف مشيداً بدور (أبو بهاء) وزوجته، وكيف أنه يقدم له معونات مادية أحياناً، وبأنهم يسكنون في مناطق الأعظمية، فلم أعلّق ولم أعِر اهتماماً للحديث، فقد مررت عليه مرور الكرام، بعد أن تيقّنت من أن أبا بسيم لا يعلم أن أبا بهاء معتقل في الفصيل المستقل، وأن التحقيقات معه على أشدّها بعد اعترافاته المفضوحة. بعد مدة سألتُه عنه فقال لي: أنا أتصل بزوجته وهو في مهمة في شمال العراق. نقلت هذه المعلومات إلى الرفيق عمر الشيخ (أبو فاروق) في (گلي زيوه) في قاطع (بهدينان).

في الجبل، وقبل نزولي إلى بغداد، كانت معلوماتي عن أبي بهاء هي أنه اعتُقل في فصيلنا (الفصيل المستقل) بسبب من تورّطه بالاندساس لصالح المخابرات العراقية، غير أنه كان أحد كوادر التنظيمات المدنية المرسلة من قبل قيادة الحزب للعمل في الداخل، ومن خلال التحقيق معه وتعذيبه تبيّن أن زوجته تعيش مع أطفالها في الأعظمية «منطقة راغبة خاتون» تحت حماية أمنية مشددة، وكانت قد أُسرت في أحداث بشتاشان وأُطلق سراحها في ما بعد وكان وضعها النفسي مُزرياً، وفي ضوء تلك الفوضى العارمة زُجّ بها إلى بغداد ولاحقاً التحق بها زوجها، لكن موقفها بالنسبة لزوجها ما زال غامضاً. يعني هل كانت على دراية بتلك الدراما؟ ولقد ادعت أخيراً في مقابلة تلفزيونية مع الدكتور حميد عبد الله بعدم معرفتها عن مصير زوجها.

تظاهرت بلا مبالاة وعدم اكتراث بالموضوع، في حين أن الرفيق عمر

الشيخ (أبو فاروق) وقبل تسلّلي طلب منّي الحصول على رقم هاتف زوجة أبو بهاء، مع توصية دقيقة ومهمة جداً منه وهي الاتصال فقط لمرة واحدة ومن تلفون عمومي للتأكد من المجيب على المكالمة، وأثناء اتصالي كان هنالك صوت امرأة في الطرف الثاني.

أعود إلى الموضوع، وأن ما استشفيته من حديث أبي بسيم أن زوجة أبي بهاء كانت تسكن وأطفالها في بيت في منطقة الأعظمية، وكان وضعها طبيعياً جداً وهي زوجة مناضل لا يُعلى عليه في قيادة التنظيم السري. وهنا وجّهت إلى نفسي نقداً ذاتياً شديداً مصحوباً بألم وندم واعتذار من كل أحرار العالم والشيوعيين الوطنيين لأنني ساهمت في تعذيب أبي بهاء، وتلك الأساليب التي انتهجناها في تعذيب رفاق الأمس والتي لا تليق بأهدافنا ومشاريعنا السياسية وخطابنا الوطني ولا تتلاءم مع أخلاقي كمناضل حرّ.

ولقد صار شبه مؤكد لدى قيادة الحزب، من خلال تلك الوقائع، بأن زوجة أبي بهاء نصيرة القيسي، هي أيضاً متورّطة معه في العمل لصالح أجهزة البعث، علماً بأنها كانت أيضاً كادراً متقدماً في الحزب الشيوعي العراقي، وبعد اعترافات أبي بهاء الخطيرة التي أدلى بها أمام لجنة التحقيق بقيادة حميد بخش (أبو زكي) في وادي (گلي زيوه) في منطقة بهدينان، تأكد بأن أبو بهاء كان منذ أيام عدن وبيروت في نهاية السبعينيات وحتّى قبل خروجه من العراق مرتبطاً بأجهزة البعث أثناء اعتقاله على أثر الهجمة التي تعرّض لها الشيوعيون العراقيون عام 1978، لكن علاقته انقطعت بأجهزة الأمن العراقي في تلك المدن العربية التي تجمّع بها الشيوعيون العراقيون.

بعد التحاقه بكردستان وعودته لمهامه الحزبية التنظيمية في بغداد، اتصل أبو بهاء بأجهزة الأمن من جديد لتقديم خدماته، وهذا الحديث سمعته حين كان يرويه في وادي (گلي زيوه) إلى الرفيق حميد بخش الذي كان يحقّق معه، وكنت حينها حارس المكان السري تحت نتوءات من الحجر، حيث كان يسرد

قصة حياته بإسهاب في حديث طويل مقروناً بالمفاجآت وقدرة الأمن العراقي على اختراق قوى المعارضة من داخلها، وصبره الطويل بزجّ الناس وتركهم للزمن وانعطافات الأحداث.

استعدتُ هذا الشريط في بغداد أثناء حديث أبي بسيم عن بطولة وشجاعة أبي بهاء في التنظيم ومواجهته لأساليب البعث الدموية تجاه نشاط قوى المعارضة، لم يعد هناك كلام كثير لرفاق محلية البصرة بعد أن كانوا يعتبرون أبا بهاء مناضلاً من الطراز الأول وضرورة الاقتداء به، وأن التنظيمات الأخرى في الفرات الأوسط وبغداد والمحافظات الأخرى عاجزة عن تأهيل هكذا كوادر مناضلة وزجّها للعمل في الداخل وسط الناس وبين الجماهير.

إن ذاكرتي الذهبية أفادتني وساعدتني كثيراً في عملي الحزبي (السري)، حيث أنني لم أُضطر يوماً إلى تسجيل أي عنوان أو اسم أو حتى رقم هاتف خلال تنقلي بين الجبل والموصل وبغداد وديالى. مكثتُ في بغداد رغم خطورة الوضع فكانت دائماً ما تصادفني مفارز أمنية في الطرقات وتطلب من المارة إبراز هوياتهم وغالباً ما كانوا يتعرضون للتفتيش، وكان السؤال أشبه بالتحقيق يشعرك بأنك متهم أو مطلوب لأجهزتهم القمعية، فأنت بحاجة إلى قلب من حديد، فحسب الشاعر والمتصوف الفارسي، شمس التبريزي، الذي يعتبر المعلم الروحي لجلال الدين الرومي «عندما أخبرته أن قلبي من طين.. سخر منّي لأن قلبه من حديد، قريباً ستمطر، فيُزهر قلبي ويصدأ قلبه».

تمكنتُ بفترة زمنية قصيرة وقياسية، وارتباطاً بخطورة الأحداث، أن أمدّ شبكة من العلاقات التي كنتُ من خلالها أتلقى الأخبار عن تطورات الوضع السياسي والاجتماعي وممارسات النظام، بعضها كان حزب البعث يبثّها كدعاية لجسّ نبض ردود أفعال الناس. والكثير من هذه الأخبار كنت أتأكد منها قبل تدوينها وإرسالها إلى الجبل، لأن نشرها في جريدة رسمية، توزع بشكل سرّي ومحدود في بعض مدن العراق مثل (طريق الشعب)، يستوجب توخي

الدقة والموضوعية، فأنت بحاجة ماسة وضرورية إلى تعاطف الناس معك، إذْ يجب مخاطبتهم بواقعية عمّا يجري من أجل خلق تعاطف حقيقي يغذّيهم بالمعنويات.

كنت أمرّ بحالات ومواقف أقرب إلى الخيال وأنا أتجوّل في المنطقة أو أجلس في المقهى، فأحياناً كنت ألتقي بأناس على معرفة قديمة بهم ولديهم معلومات عني على أنّي مختفٍ أو خارج العراق، فكانوا ينظرون إليّ بصمت واستغراب عند لقائي بهم وجهاً لوجه ويبادرون لسؤالي: ألست محمد ابن حسن المرشيد؟ وكنت أحاول بشتى ألاعيب التمويه أن أوضّح أنني لست الشخص المقصود، وأجيبهم على الفور: ومن هو هذا محمد؟ هذه الأمور كانت تدعوني إلى الزيادة في الحذر واليقظة والخوف من تلك المصادفات العجيبة خوفاً من تسرّب أية معلومة عني ليتمّ تلقفها من قبل أجهزة السلطة وتبدأ في متابعتي، حينها ربما ستكون عملية اعتقالي سهلة.

كنت أرى الناس في الشوارع والأماكن العامة، متعبين متشائمين ورافضين وغاضبين من تدهور أوضاع البلد رغم جهود السلطات في ترقيعه على كافة الأصعدة، إنها الحرب، فارزة وفاصلة في حياة الناس وتدنّي الوضع السياسي العراقي، كنت أرى بغداد حزينة رغم ضجيجها الصاخب على مدار اليوم، فعلى وجوه أهلها ثقل من غبار الماضي وخوف من المستقبل، فنظام البعث لم يعد مؤتمناً على إدارة دفة الحكم لاستمرار تعاملهم الفظ والفاشي مع الناس، وسياسة الترغيب والترهيب لم تعد صالحة في كل المواقف والمنعطفات حيث كانت تخرج أحياناً عن سيطرتهم.

فالشيوعيون القدامى الذين أُجبروا على ترك الحزب بعد الحملة الدموية عليه واستفراد البعثيين بالساحة وتصدّرهم للمشهد السياسي العراقي دون منافس يحظر عمل الأحزاب إلّا من خلال حزب البعث ضمن المادة (200)، ومن منطلق أن كل من يقدم على عمل سياسي معارض يجب أن يضع في

الحسبان أنه ليس وحده من سيستهدف، بل العشيرة والقبيلة والنسب. انطلاقاً من هذه الظروف وقساوتها، ظلّوا يتطلّعون إلى سماع أي خبر عن الحزب وأحواله ومصيره ورفاقه، ولكن يعتريهم الخوف والتردد مباشرة في حال فتحتُ معهم موضوعاً عن التعاون وتسهيل حركتنا بعيداً عن التنظيم، عندها يستعيدون تجارب الماضي ولوعته وإخفاقاته محمّلين الحزب المسؤولية عن ما جرى مع البعثيين في مشروع الجبهة، وتركهم تحت رحمتهم ضمن شعار (دبّر حالك رفيق) التي تحوّلت في ما بعد إلى أسلوب للسخرية والتهكّم على لسان قاعدة الحزب (سلّم حالك يا رفيق) استخفافاً واستهجاناً وطريقة غير شجاعة في مواجهة الانعطافات والأزمات.

ورغم مرور كل تلك السنين العجاف، لم أقرأ منشوراً أو نشرة داخلية حزبية ضمن (مناضل الحزب) تُناقش تلك الظاهرة المخيفة في حياتنا وتداعياتها السلبية في علاقة الحزب مع الجماهير ضمن منهجية النقد والاعتذار بغرض لملمة الجراح وتحديد أفق واضح للمستقبل ورسم خارطة طريق محددة. اتبع البعثيون معنا كشيوعيين سياسة (الجزرة والعصا) من أول يوم لانقلابهم عام 1968، من اغتيالات الملاكات الحزبية التي تحفّظت وعارضت النقاط الجوهرية لمشروع العمل الجبهوي مع البعثيين أمثال: ستار خضير، محمد الخضري، شاكر محمود، عزيز حميد، وآخرين.

أمّا في دائرة وضعهم الداخلي، فهناك صراعات تجري راح ضحيتها قسمٌ من كوادرهم قتلاً واغتيالاً وتسفيراً، وقاعة الخلد نموذج عن ذلك. لذا، فالعمل وسط الناس في تلك الظروف وفي ظلّ قوة البعث آنذاك وغطرسته، كان أشبه بالخيال، فقد كان الاعتقال والتغييب من نصيب من تشكّ السلطات في مواقفه المعارضة لها أو الممتعض من أساليبها الدموية، أو من يكون سياسياً معارضاً لها انطلاقاً من مفاهيم الحرية والثقافة، فكيف إذا كان يسعى إلى إسقاطها في عقر دارها ومحيطها الأمني؟

كانت بطاقة هويتي الشخصية المُعدّة بشكل قانوني، وتأمين مأوى آمن لي وعمل مناسب ومستقر، بعيداً عن الشبهات وعيون المتابعة؛ أموراً سهّلت لي حرية الحركة والعمل والتنقل والاتصالات بين أوساط الناس. ولكن كان لعملي الجديد في العاصمة بغداد تحدياته الكبيرة والخطيرة والمخيفة، فأن تكون أحياناً أمام موقف من الصعوبة جداً التعامل معه بالحُسنى والرضا مهما عززتَ من مواقع تواجدك بين الناس، ووفرتَ لهم قسطاً من الأمان والطمأنينة، لكنك تكون في الوقت نفسه أمام تحدّيك لنفسك وخوفك في حال وقعت بين أيديهم، ودائماً تسأل نفسك: هل ستضمن صمودك أمام أساليبهم القذرة؟ وهل تستطيع أن تصون ثقة الناس الممنوحة لك «بالقطّارة»، أي بالكاد انتزعتها منهم؟ كانت تلك التساؤلات تعذبني يومياً وأنا أتجول في شوارع بغداد أو أثناء ذهابي إلى مدينة الحرية للالتقاء برفيق، أو باب الدروازة في الكاظمية للغاية نفسها.

ذات يوم بعد رجوعي من بغداد إلى منطقة لولان، علمتُ أن محرري جريدة الحزب (طريق الشعب)، ينوون نشر خبر مفاده أن هناك مظاهرات واعتصامات في أكاديمية الفنون الجميلة وكلية التربية الرياضية في منطقة باب المعظم في آب 1986، وبما أنني كنت في هذا الوقت بالذات في بغداد وكان تواجدي شبه يومي في المكان المحدد، فقد أبلغتهم بأنني لم أرَ قطّ هكذا مظاهرات، ودعوتهم إلى إيقاف نشر الخبر، ويبدو أنه جاءهم من أحد المندسين لإظهار عدم مصداقية أخبار جريدة الحزب وإضعاف ثقة الناس بها، التي هي في الأصل مهزوزة وبحاجة إلى استعادتها بوسائل جديدة.

استكمالاً للموضوع فإنني أذكر أن جريدة (طريق الشعب) نشرَت خبراً مماثلاً، ومن مندسّين أيضاً، وذلك في ربيع عام 1984، وقد علمت ذلك حين مرّ بِنا شخص عابراً إلى إيران والتقى بمفرزة من رفاقنا في قاطع السليمانية وسرّب خبر مظاهرات في منطقة السنك ببغداد تطالب بإسقاط الدكتاتورية

ووقف الحرب، وتفرقت بعض خمس دقائق. واتضح أن تلك الأخبار ملفّقة وهدفها الاستهلاك الداخلي بزعم رفع معنويات الرفاق.

أعود إلى تواجدي في بغداد فأقول إني بعد فترة وجيزة بدأتُ بالتكيّف مع الوضع الجديد رغم خطورته في مواجهة نظام دموي قاتل، فقد بدأتُ حركة أكثر أماناً ودراية ومعرفة بتفاصيل حياة الناس وتطلعاتهم السياسية، إذ عشت وسطهم في منطقة شعبية وصناعية في مكان عملي اليومي، من الصباح حتى المساء في قرية الصمود في منطقة الراشدية، وقد كنت أمضي وقتي بين حدادة الحاج غازي ومقهى أبي بسيم، اعتدت وبشكل يومي أن أقطع المسافة ما بين سكني في محلة الشيوخ في الكاظمية وبين قرية الصمود الراشدية حيث عملي، بمعنى أني كنت أمرّ يومياً على السيطرة العسكرية بين بغداد وديالى، من جانب مدينة الشعب، مما جعل وجهي أليفاً لهم وتوقفوا عن سؤالي عن هويتي في توثبهم الدائم لوقف سير السيارات الداخلة إلى العاصمة والخارجة منها للتدقيق بهويات الراكبين، في حين أن الحرب ما زالت مشتعلة على حدود البلدين؛ العراق وإيران.

وقد شاهدتُ عدة مرّات بأمّ عيني كيف كانوا يُنزلون أشخاصاً من وسط الركاب ويعتقلونهم، ولم يتجرأ أحد على التفوّه بكلمة أو ينبس ببنت شفة، فقد كنا في حالة حرب والبلد مهدّد بالاجتياح، وكلّ القبائح مبرَّرة، أما لقاءاتي المهمة فقد كنت أقضيها في زحمة تلك الأيّام ومقتضياتها.

خلاصة القول، أنه رغم الحذر والبطء في الحركة والتحرك بين ناسنا ومعارفنا ورفاقنا، ومواجهة تحديات الاختيارات الصعبة، على من نتحرك؟ ومن هو هدفنا القادم؟ وكيف؟ إلّا أننا كنا نشعر بالمقابل بتعاطف الناس معنا من خلال وقوفهم عند تاريخ الشيوعيين الوطني. هذه الإضاءة التاريخية سبقت جريمة 8 شباط 1963 التي راح ضحيتها خيرة ملاكات الحزب الشيوعي العراقي على يد قطعان الحرس القومي والبعثيين. لقد كان تاريخاً ناصع

البياض في الانتماء والوطنية، وما زلنا نتباهى ببريقه المضيء، ونعارك به المتخاذلين، فإنك تشعر من خلال اللقاءات والاتصالات بأن الناس من حولك يتابعون أخبارنا عبر النوافذ المغلقة والمخيفة التي أسدلها النظام على حياة الناس بالرعب والموت، لربما تكون إحدى إخفاقاتنا التي ما زلنا حتى الآن نعاني منها. فقد كان السواد الأعظم لقاعدة الحزب الشيوعي العراقي، طيلة مسيرته النضالية، من الطلبة والموظفين والمثقفين (الأنتجلستيا) العراقية، بعيداً عن البروليتاريا الثورية الحاسمة والحازمة في اتخاذ القرارات التاريخية في المنعطفات المهمة.

إن تجربة الثورة في 14 تموز 1958 وما أعقبها من اصطفافات جماهيرية كانت لصالح أهدافنا حين كان الشارع يهتف لنا (حزب الشيوعي بالحكم مطلب عظيمي)، لكن الفرصة ذهبت هدراً من بين أيادينا، فقد تبين لي أن الشارع نبض لتأتي حفنة من القوميين والبعثيين يقفزون على السلطة ويرهنون مقدرات البلد لأجندتهم السياسية، وما زالت الدماء تسيل على أرصفة الشوارع وفي أقبية المعتقلات.

أدّت مجزرة 8 شباط 1963 وما سبقها من أحداث، إلى نجاح الانقلاب القومي ضدّ قاسم والشيوعيين، فإن فتوى المرجع الديني السيد محسن الحكيم باعتبار الشيوعية كفراً وإلحاداً لاقت دعماً من عدة مراجع ورجال دين معروفين وفي مقدمتهم أبو قاسم الخوئي والجزائري، ولكن إنصافاً للأمانة وحقّ التاريخ علينا أن لا ننسى أن هناك مراجع وقفت ضدّ هذه الفتوى وفي مقدمتهم الحسني البغدادي الذي أعتبرها ناقوس خطر لتفتيت وحدة نسيج المجتمع العراقي، ودعوة صريحة وظالمة لإراقة وسفك الدماء وقتل الناس، وهذا ما وقع بالفعل في جريمة كبيرة بحقّ الناس.

كان الصراع الكردي مع الزعيم قاسم حول مصير القضية الكردية وأجنداتها الخارجية والتدخل في إرادتها حلقة موجعة في تاريخ العراق

السياسي الحديث، فقد كان موقف الأكراد السلبي من أحداث شباط وتأييدها في الساعات الأولى من حدوثها، رغم حمّامات الدم بحق أبناء شعبنا، قد ترك تداعياته الخطيرة على مستقبل العمل المشترك والعيش الآمن، فقد نال الشيوعيون قسطهم الكبير من الترهيب والقتل، ومن نجا بجلده وهرب إلى الجبال، تلقى عقابه على يد إخواننا الأكراد. كان المرحوم الملّا مصطفى يبطش بالشيوعيين وأصدقائهم في المدن والقرى الكردية.

# الاختراق الآخر والعودة للجبل

في تلك الأيّام من عام 1986، أيام العيش والعمل الحزبي السريّ في بغداد وسط الناس، كنتُ قد تعرّفت على خطّ حزبي كامل يمتدّ من مدينة الكاظمية مروراً بمدينة الحرية وصولاً إلى الشعلة وبغداد الجديدة، هذا الخطّ الحزبي كان مُختَرقاً بالكامل من قبل مديرية الأمن العامة، وكان يضمّ بين صفوفه رفاقاً يعملون بكل نكران ذات ولَم يتنبّهوا إلى أنه خط مُموّل من الأمن وبإشراف مباشر منهم في طبع أعداد من الجريدة (طريق الشعب) وطريقة توزيعها ومن يستلمها وردود الأفعال حولها ومحاضر عن لقاءاتهم وتحركاتهم اليومية، حكاية هذا الخطّ الحزبي بدأت في كلية الهندسة جامعة بغداد بتشكيله الأول، عندما بدأ علاء سفر، الشيوعي القديم والطالب في كلية الهندسة وابن مالك فرن الصمون في منطقة الحرية الأولى في بغداد، بالتحرّك لتشكيل خلية حزبية مع زملائه في الجامعة عادل موات وحسين، حالمين بوطن هادئ بعيداً عن الدكتاتورية والحرب، لكنهم لم يعلموا أن عيون الرقباء كانت ترصّدهم وترصد طبيعة علاقاتهم، فاعتقلوا تحت عتمة الظلام وتمّت مساومتهم تحت وطأة الحراب وبالتهديد والوعيد وأجبروهم على أن يواصلوا عملهم الحزبي برعايتهم، أي أجهزة الأمن، ليكون التنظيم كميناً مبيّتاً للشيوعيين مقطوعي الصِّلة ممّن يبحثون عن خيوط للوصول إلى تنظيمات الحزب.

وهذا ما جرى مع عبد الرضا دبش وخطيبته في كلية الإدارة والاقتصاد في بغداد ومع الضابط غسان من أهالي الكاظمية ومع نيران من مدينة السليمانية الطالبة في كلية الهندسة، وآخرين لم يسمح لي وضعي الأمني بالتعرّف عليهم.

ومن خلال علاقتي بعبد الرضا دبش اطّلعت على تلك الخيوط المعقّدة في العلاقات والعمل، فوجدت عندهم آخر أعداد طريق الشعب وبيانات اللجنة المركزية في اجتماعات دوراتها العادية وأيضاً كنزاً من المعلومات حول عقد المؤتمر ونتائجه ومنها مقال في جريدة السياسة الكويتية بقلم رئيس تحريرها أحمد جاراللّه حول آلية الصراع في الهرم القيادي وعدة قضايا عالقة منذ سنوات، بالإضافة إلى مواقع المراكز الحزبية. وهذا كله كان قد تفجّر داخل أروقة المؤتمر الرابع وخيمته، وكانت تتصدر صورة عريضة باللباس العربي (عقال وعباءة) للقيادي الشيوعي باقر إبراهيم، وكان يبدو تقريراً مُعدّاً في دوائر المخابرات العراقية.

تعاملت مع عبد الرضا بحذر، ومن خلاله تعرّفت على الضابط غسان، باسمي الحركي (علي الموسوي)، الذي كانوا ينادونني به، المرّة الوحيدة التي شعرتُ بها أنني مراقب كانت أثناء ذهابي من الأعظمية إلى سكني في مدينة الكاظمية، فغيّرت اتجاهي إلى مدينة الحرية حيث بيت عبد الرضا دبش، لكن يبدو لي أنها كانت تحوطات محاذرة أكثر من اللزوم.

في منطقة الحرية الثالثة في بغداد، قضيت تلك الليلة الكئيبة والقلقة في بيت عائلة عبد الرضا، وبقينا إلى وقت متأخر من الليل في غرفته. كان شباك الغرفة يطلّ على شارع وسط الحي السكني تبرز من خلاله حركة الناس ذهاباً وإياباً، فيما نحن منغمسون في النقاش والتحليل والرؤى حول الوضع السياسي في العراق وإمكانية إسقاط النظام البعثي، كانت أحلام ثورية (طوباوية)، وكان حاضراً بيننا دفؤنا الوحيد إبريق الشاي العراقي، (خميرة الثوار) كما نسمّيه في الجبل. في ساعة متأخرة من الليل خلدنا إلى النوم ولَم أعرف كم مضى على نومي القلق، وفي معمعة الكوابيس أفقنا على أصوات صراخ وصياح في داخل البيت ومن على سطحه، من أهله ومن الذين عبروا إلى سطحه. بعد تلك الخضّة النفسية تبين أن مجموعة شباب تسلقوا على سطح البيت لسرقة الطيور

من برج كان في السطح ولم ينجحوا، إذ باءت محاولتهم بالفشل بعد أن شعر بحركتهم ربّ البيت السيد عبد الرحمن، فقال لي عبد الرضا إنها المرّة الأولى التي تحصل فيها هكذا حادثة منذ ولادته في هذا البيت، كانت مصادفة رهيبة وعجيبة، في ليلتها داهمتني سلسلة من الأفكار والاحتمالات، فلم تغمض عيناي حتى الفجر، فقد كنتُ أراني معرّضاً في أية لحظة للمداهمة والاعتقال.

في الصباح الباكر، ذهبت في سيارة نقل عمومي إلى مدينة الكاظمية وإلى محلة الشيوخ، بيت الحاج غازي، بعدما ما تأكدت أنّ كل شيء حول البيت هادئ وطبيعي. في يومها كان الناس يتناقلون في مجالسهم وفِي الشوارع بهمس، حديثاً حول محاولة انقلاب عسكري قام بها (عمر الهزاع) ومؤيدون له، وقد أعدم مع ولديه (رائد ونقيب) في يوم واحد في قاطع الإعدام في سجن أبي غريب، وقد روى سجناء عبر شهادات للتاريخ أن عمر الهزاع قد أبلغ ولديه في الزنزانة أن ينهضا من الصباح ويسبّحا ويقرآ القرآن، لان ذلك اليوم سيكون موعد إعدامهم، وهذا فعلاً ما حصل بعد ساعات. كانت المحاولة في يومها قد باءت بالفشل، وانتشرت أخبار عن مداهمات وحملات اعتقالات كبيرة امتدت إلى أقرباء وعشيرة وصحب عمر الهزاع.

كانت بين الحين والآخر تجتاح الشارع العراقي موجة دعايات حول محاولات انقلاب فاشلة كان يقف خلفها النظام وأجهزته لدوافع عدة، منها معرفة ردود الأفعال في الشارع وتعزيز ذاكرة الناس بالقدرة الخارقة لأجهزة البعث في كشف المحاولات الانقلابية والقضاء عليها في مهدها، وأحياناً تعقبها موجة من الإعدامات لمعارضين قابعين في السجون العراقية من تجارب نضالية سابقة.

في المنفى ـ حيث أنا الآن ـ كنت في مواقف عديدة أعاقب نفسي على خطوتي بترك الوطن والأهل والرفاق والهويدر، لكن في المقابل أهوّن عليها لأني حظيت برفيقة عمر رائعة وعائلة دافئة عوّضتني عن تلك الهزيمة

والعقوبة وتعذيب الضمير، بعد تلك التجربة البائسة من المعترك السياسي والفكري والنضالي، التي عانيت منها كثيراً وتصادمت أفكاري وآرائي مع خط سياسي (فكري) لم يستوعب ما أحمله من تجربة بسيطة انتشلتها من عملي في تنظيمات الداخل حول رؤى الناس وتطلعاتهم نحونا، والآفاق المُحتملة في خوض العمل السياسي المعارض والخوف منه. كان هناك من أراد أن يبقى مُصرّاً على فهمه الخاطئ في الدفاع عن سياسة ومسلكيات خاطئة، رغم إدراكه بخطورة تلك المِحنة. كانوا مجرد ببغاوات لمواقف سياسية لا يفقهون منها شيئاً. إنني لا أميل إلى التنظير كثيراً ولا أفقه به، وعندما أكتب وأعطي وجهة نظر فلا أنظر إلى قاع البئر. التجربة البسيطة والمتواضعة هي التي منحتني رؤى سياسية ومواقف فكرية أكثر قرباً بالواقع وتشبثاً بالمستقبل وحفظ الأمانة المبدئية.

# أعضاء شبكة الأمن في الجبل

بالعودة إلى عام 1980 وما أعقبه من سنين عجاف واكبتها تحولات دراماتيكية هزت كيان المجتمع العراقي وأعمدة بنائه: استبداد الحزب الواحد، تهجير قسري وحرب تُوّلد أخرى، والعراقيون بعثيون وإن لم ينتموا؛ كنت أحضر العديد من اللقاءات والأمسيات مع الأصدقاء والمعارف بهوية مغايرة تماماً، فقد كنت أخفي ارتباطي بتنظيمات الحزب الشيوعي العراقي وأية معرفة بما يحدث اليوم وتناسي ما حدث في الماضي.

كنت أنصت باهتمام إلى النقاشات والتحليلات اليومية حول الوضع السياسي وتداعياته ووتيرته المتسارعة صوب الأزمات والفواجع، وصورة المشهد العراقي القادمة في ظلّ نظام قمعي، فقد كان هذا المشهد متصدّراً جميع الجلسات والحوارات والتحليلات، وكانت هي الوحيدة التي تعكّر مزاج الناس بشكل يومي لخوفهم على أولادهم من الموت والضياع والأسى، رغم محاولة النظام الحثيثة في توفير كلّ مستلزمات المواطن، فلا أزمة سكر ولا طحين ولا طوابير على محطات الوقود، كل شيء متوفر في الأسواق والمحلات رغم غلاء بعض المواد، فالدول الأوروبية والخليجية تضخّ الأموال والمواد والمعلومات لينتصر العراق، ولوقف الزحف الإيراني وشعار تصدير الثورة، هذا والعراق يقدّم القرابين من أبنائه دفاعاً عن البوابة الشرقية.

في ظلّ هذه الدوامة اليومية والتراجيديا السوداء، كانت مشاعر الناس واهتماماتهم محصورة في العيش الآمن وإنهاء الحرب وهو جلّ مطلبهم،

فالحركة والنشاط والسياسة وسط تلك التداعيات، مخيفة جداً، وردود أفعال الناس وتفاعلهم مع أي نشاط سياسي غير تنظيمات حزب البعث يُفضي بهم إلى التهلكة، وأية خطوة بهذا الاتجاه غير محسوبة بدقة، قد تطيح بك وبرفاقك وبعائلتك وحتى بسابع جار لك. أضف إلى ذلك، خوف الناس وردود أفعالهم السلبية تجاهنا، المبنية على أحداث ومحاولات وقعت سابقاً كانت نتائجها وخيمة على ثقة الناس بالآخرين. فقد شكّل حزب البعث خطوطاً وهمية باسم الشيوعيين عبر أعضاء سابقين تعاونوا مع الأجهزة القمعية البعثية، ودفعوهم للتحرّك على شيوعيين يشكّون بهم أو يتوجسون منهم، من خلال نشاطهم وعلاقاتهم ومواقفهم، ممّا سهل عليهم الإيقاع بهم، فحدث هول من الكوارث.

سبب هذه الديباجة أنني أود الربط بين تلك الأيام وما أنا عليه في بغداد نهاية صيف 1986 حين تعرّفت على الخطّ الحزبي المموّه المطبوخ مخابراتياً، والذي كانت عناصره أشخاصه الأساسية ـ كما ذكرتُ ـ علاء سفر وجماعته. ففي اليوم الذي التحقوا به في الجبل عبر خطوط أجهزة المخابرات، قامت أجهزة الأمن باعتقال ذويهم بغرض التمويه وإبعاد الشبهات عنهم في أداء مهامهم الجديدة.

كان من ضمن هذا الخطّ أيضاً كما أتذكّر، الطالبة الكردية نيران في كلية الهندسة من مدينة السليمانية، والطالبة أسماء من كلية الإدارة والاقتصاد. في استطلاعي ومتابعتي لهذا الخط، مُعتمِداً على عدة مصادر مختلفة، مفادها أن السلطات توصلت إلى قناعة بعدم فائدة وجدية هذا الخطّ الحزبي في المدن العراقية. وبعد عدة سنوات من التجربة، وجدوا مخرجاً آخر أكثر جدية لأجندتهم المرسومة، وهو أن يزجّوا بهؤلاء الرفاق في الجبل عبر مناطق دهوك باعتبارهم رفاقاً قدامى، ليصلوا إليه بسلام عبر خطوط الأجهزة الأمنية (بعناصرها المندسة) داخل خطوط تواجدنا في الجبل، فسهّلت تزكيتهم السريعة، ونُسّبوا إلى الفوج الثالث في بهدينان، وشاركوا بهمّة في المفارز والمهمات التي

أُوكلت إليهم، والتي تخللتها بعض العمليات العسكرية. ولكن ما حدث كان خارج الحسبان والتوقعات، ففي يوم قائظ من أيام الجبل، كانوا يجلسون بملل في إحدى غرف الفوج يتحدّثون عن خططهم المستقبلية ومصيرهم في حال تمّ كشفهم من قبل تنظيمات الحزب، أو من قبل رفاقهم الأنصار الذين يتقاسمون معهم الجوع والعوز والنضال، غير منتبهين إلى أن أحد الرفاق كان متدثّراً ببطانية في زاوية الغرفة وسط حزمة من الأغطية، استعداداً للنوم، قد التقط كل أحاديثهم وترك المشهد إلى النهاية. في نفس اليوم، بلّغ التنظيم بما سمعه، غير مصدّق هو نفسه ما سمعه، فتمت متابعة حركاتهم وسلوكهم، ليتمّ اعتقالهم بعد أيام والتحقيق معهم، فأدلوا لهيئات التحقيق في منطقة (زيوه)، بسلسلة من الاعترافات بعد محاولات فاشلة للتهرّب.

أثناء لقاءاتي براضي عبد الرحمن في بغداد كنتُ أحاول إيصال الحكاية إليه، وما وقع من أحداث مفجعة، لكنه ظلّ يدافع عنهم مؤمناً بهم وبنضالهم وشجاعتهم ومقتنعاً أن ما جرى لهم كان ظلماً لأنهم مناضلون وأولاد عوائل معروفة. أما عن نتائج التحقيقات معهم، فقد أطلعني الرفيق طه صفوگ (أبو ناصر) على جزء منها، فلمستُ من خلالها تورطهم وندمهم، فاقترحت عليه أن نمنحهم فرصة جديدة للحياة، لأن الذي حصل معهم كان أكبر من تحمّلهم وقوة إرادتهم، فقد كانوا متورّطين، مذكّراً إياه بسطوة البعث وأساليبه الدموية، لكن رأيي ذهب هباء، وتمّت تصفيتهم.

# قرار العودة النهائي للجبل

قرّرت أن أترك بغداد وأعود إلى الجبل مرّة أخرى، رغم حسّي المبكّر بحكم الوقائع والحيثيات بعدم وجود أية خطورة حول وضعي الأمني، كانت تفاصيل حياتي اليومية طبيعية، فقد أصبحتُ جزءاً من مشهد يومي؛ حركة ناس ومجتمع وشارع وهموم الناس اليومية، وقد كان عملي اليومي شبه مستقر وبات وجودي مألوفاً في المكان والزمان وعند الناس. كانت وتيرة الحرب بين الجارتين المسلمتين العراق وإيران تتصاعد، ومع كل إشارة ببدء هجوم جديد؛ تقف عيون وقلوب الأهالي عند بوابات المدن تنتظر تدفقاً جديداً مستمراً لجثامين قتلى جبهات الحرب، ملفوفة بالعلم العراقي إلى المدن والنواحي والقرى العراقية، وهذه التفاصيل باتت جزءاً من مشهد عراقي يومي قاتم. ومع كل هذه المشاهد التراجيدية لكنها لم تؤثر على حركة الناس وتفاصيل تطلعاتهم اليومية في العيش والبناء والحركة.

توجّهت إلى المرآب العام ببغداد متوجّهاً إلى الموصل، فوصلتُها بدون عقبات، وكان مقصدي هذه المرّة باتجاه قرية (بروزاوا) التي كانت مشمولة بقانون قطع الكهرباء عقوبة على إيواء سكانها للمقاتلين أسوة بباقي قرى كردستان، حيث يسكن رفيقنا أبو آشور وعائلته، والذي كان مرابطاً في الجبل مع رفاق محلية الموصل وكان يزور عائلته لساعات متى ما سنحت له الفرصة، ويعود إلى الجبل في ذات الليلة خوفاً من هجمات الجيش ومحاصرة القرية واقتحامها.

كانت قريتا (خورزان) و(كرسافة) هما أولى القرى التي دخلتها حين كان

رفاقنا يسيطرون هناك على تلالها ووديانها. أخذتُ طريقاً فرعياً سيراً على الأقدام وتسلقت إلى قرى (بيرستك) و(أيسيان) على سفح سلسلة جبال شيخان ـ القوش، الذي يقرّبني من مفارز تواجد رفاقنا في التنظيم المدني لمحلية الموصل، وكنت في طريقي إلى الجبل أتسلق سفحه بين حقول زراعية وأشجار وفلاحين لم يعيروا اهتماماً لمروري، وذلك لطبيعة المنطقة والحالات المتكرّرة على مدى سنوات طويلة من عمر الحركة الكردية. وصلتُ إلى تخوم القرية واختفيت بين أحراشها الواقعة على نهر جارٍ وجلستُ أترقّب حركة الناس من الرعاة والفلاحين والنساء الأيزيديات والمسيحيات اللواتي كنّ يتردّدن إلى النهر ويحملن مشاريب الماء على أكتافهن الصلدة بملابسهن القروية. كان كلّ شيء يوحي بالاطمئنان من الوضع الأمني ويشجّع للدخول إليها. وبعد قليل تسللت إلى داخل القرية عن طريق ترابي فرعي محاط بمزارع واسعة وأشجار عالية قاصداً بيت الرفيق أبي آشور الذي لم أزره إلّا مرة واحدة ولليلة يتيمة مع الرفاق الشهيد بطرس (عامل)، كان من الصعوبة أن أعثر على بيت وسط أعداد من بيوت الطين المتناثرة هنا وهناك والقريبة من بعضها شكلاً، إضافة إلى أن عواء كلاب القرية المستفز، الذي غالباً ما ينذر أهالي القرية بقرب حدوث شيء، كان عاملاً ليس في صالحي كرجل غريب في قرية صغيرة.

لم أكن أعلم بأن الطريق الذي مشيته سيؤدي بي إلى بيت أبي آشور، لكن لحسن الحظ وجدت نفسي أمام بابه أدفعه بسرعة لأدخل وأقابل بترحيب مشوب بالدهشة استقبلتني به أم آشور، وأذكر أنه كان لديهم ضيوف أقارب من بغداد أم وبناتها الثلاث إحداهن كانت طالبة جامعية في بغداد. وبعد أن هدأت النفوس وزال التوتر والخوف دار حوار سياسي بيننا، وكانت البنات متعاطفات مع مشروع نضالنا، أما الأم، فكانت متحفظة و «تدردم» أحياناً بكلمات مفادها أنه لا جدوى من تضحياتنا، ويبدو لي أنها عاصرت تجربة مرّة في النضال السياسي مطلع الخمسينيات، استمر حديثنا على مائدة غداء

مفروشة على الأرض تحتوي على لبن وخبز يابس منقوع بالماء وخضروات بريّة. كانت ظلمة تلك الليلة دامسة، لا تنير سماءها سوى قنابل التنوير المضيئة المفزعة التي بين الحين والآخر تحيل الليل إلى نهار بغرض رصد تحركات المفارز التي تنشط ليلاً، لكن لهب الفانوس الخافت الذي كان يُنير جلستنا كان يُضفي شعوراً بالأمان. وفي تلك الليلة دخلت مفرزة شيوعية إلى القرية. تفاجأ الرفيقان عامل وأبو آشور بوجودي غير المتوقع، وفي ذات الليلة تسلقنا جبل (متين) ليلاً تجنباً من أيّة مفاجآت غير مُرضية، وفي الصباح كنّا متدثرين بملابسنا المبللة في اشكوفت (كهف) صغير على سفح الجبل، مصرّين على النضال من أجل حياة أفضل لشعبنا المقهور.

بعد أيام، بينما كنت بين رفاقي في الفصيل المستقل في منطقة (زيوه) على نهر الزاب، صدرت قرارات وتوجيهات جديدة باتجاه العمل في الداخل في التسلّل إلى المدن العراقية، مع تغييرات في طريقة العمل والمواقع لمقتضيات النضال الضرورية والأمنية. بُلِّغت بالتوجه إلى مناطق السليمانية وكركوك برفقة الرفيق طه صفوگ (أبو ناصر)، معلّلين ذهابنا إليها بأن عملنا بات صعباً في دشت (سهل) الموصل والقرى المحيطة به لحجم الاختراقات الأمنية داخل صفوفنا والانعطافات الجديدة في الوضع السياسي والعسكري في مناطق السليمانية المتجهة إلى تهدئة الوضع وإلى اتفاقات جديدة بين قوات الاتحاد الوطني الكردستاني (أوك)، وقوات البيشمرگة الأخرى العاملة في كردستان ومن ضمنها قوات الأنصار التابعة للحزب الشيوعي العراقي. بعد أيام وليال من السير في مناطق (بهدينان) تحت الأمطار، وصلنا إلى منطقة (بربينان) في (لولان)، وهي شريط حدودي في مثلث قمة جبلية تركية عراقية إيرانية، واضطررنا إلى أن نبقى فيها عدة شهور بسبب ظروف الطقس والمناخ وبسبب التساقط الكثيف للثلوج التي غطّت قمم الجبال وسدّت الطرق والمنافذ للعبور إلى الأراضي الإيرانية، منفذنا الوحيد، للوصول إلى مناطق قاطع

ومدن السليمانية وكركوك. في فترة وجودنا، عُقد اجتماع للّجنة المركزية، أول اجتماع بعد عقد المؤتمر الرابع للحزب، وحضر الاجتماع بعض الرفاق من (العشرة المبشرين بالجنة)، وكان من ضمنهم أبو ناصر، وقد كان يلحّ على أخذ إجازة طويلة خارج العراق ويبدو متذمراً من أبسط المواقف. أثناء تواجدنا في الموقع، توفي الرفيق الراحل مهدي عبد الكريم (أبو كسرى) عضو اللجنة المركزية، في نوبة قلبية مفاجئة لم تمهله طويلاً، وخيّم الحزن علينا وسط دهشة الجميع لهذا الموت المفاجئ، فشيّعناه في اليوم الثاني، وسط عاصفة ثلجية كثيفة، تشييعاً مهيباً بمشاركة كبيرة من أهالي القرى وممثلي الأحزاب الكردستانية ودفنّاه في مقبرة إحدى القرى تحت وابل من العواصف والثلوج، وفي المقبرة رثاه الرفيق الراحل رحيم عجينة بكلمة مؤثرة وحزينة ألهبت مشاعر المشيّعين وأضافت دفئاً وحرارة إلى ندف الثلج المتساقطة فوق رؤوس المشيّعين من كل الأطراف التي كانت تشارك في التشييع.

# المقرّ الصيفي

بعد مسيرة أيام، لم تكن سهلة كما توقّعتها، وصلتُ إلى مقرّنا الصيفيّ المؤقت (الفصيل المستقل) في وادي (گلي زيوه)، حيث رفاقنا لا يزالون في مقرّهم الصيفي على سفح جبل (متين)، وفي يوم وصولي كان الرفيق كريم عرب (أبو ماجد) مكلفاً برعاية مزرعة صغيرة تحوي على بعض الخضروات الصيفية الشحيحة، من ناحيتي كنت أعاني بسبب السنوات التي قضيتها في الجبل والجوع الذي عشته من مشكلة عدم تمكني من تناول الأكل المعلّب، وتحديداً اللحم المفروم (كورن بيف)، الذي كان عشاء ذلك اليوم عند وصولي إلى موقع الفصيل، وعلى الرغم من فرحة الرفاق بذلك لكنني أخذت أبحث عن بديل أسدّ به جوعي، حينها أشار إلي الرفيق سلام العگيلي (محمد عرب) بوجود مزرعة على سفح مقرّنا، فذهبت إليها وعدت مع عدد من حبّات الطماطم وقطعتها وقمت بقليها بطاولة سوداء صدئة مع قليل من السمنة الإيرانية، فاستشاط الرفيق أبو ماجد غضباً من دخولي المزرعة دون أخذ موافقته واعتبر ذلك خرقاً حزبياً ـ وما أسهل تلك الاتهامات ـ وطالب بكل جدّية باجتماع طارئ للفصيل بغرض محاسبتي، لكن تصرّفه هذا تحوّل إلى استهجان ونكتة، إضافة إلى أن الرفيق أبا داود (حميد مجيد موسى) كان متواجداً في المقر الصيفي مع زوجته أم أسيل، وأطلق من المطبخ ضحكته المعهودة حين سمع الخبر.

استقرّيتُ في تلك (الصريفة) على السفح حيث مطبخ الفصيل مع الرفيقين أبو ناصر وسلام عرب وبدأت أعدّ نشرة أخبار لصحيفة الحزب مع تقرير كامل

عن تقييمي للوضع العام في بغداد عبر مشاهداتي اليومية وآراء رفاق وأصدقاء الحزب من خلال شبكة علاقاتهم اليومية وبكل أمانة وجرأة بعيداً عن أية مجاملات. وهذه واحدة من مشاكلي في حياتي على المستوى الشخصي والحزبي، فلم أهادن أو أتملّق أحداً، وكنت صريحاً في التعبير عن آرائي حتى لو كانت ضدّ التيار الجارف ومهما كانت نتائجه، فكنت أطرح قناعاتي بشفافية، وهذا ما سبب لي صدامات لا تخلو من الحقد مع من لم يستطع من الرفاق أن يتبنّى مثل هذه المواقف الجريئة. وفي سلسلة أحاديث مع الراحل جبار الصكَر (أبي ظافر) في مدينة مالمو السويدية، قال لي: أنت يا أبا بيدر آراؤك ومعطياتك سبقتنا بأشواط، ولهذا السبب فالجماعة يهاجمونك، قلت له: فقط وراء ظهري وهذا يزيدني تمسكاً بمواقفي.

# التحرّك نحو لولان

بعد قضائي مدّة ليست بالطويلة في الفصيل المستقل، بُلّغتُ من أبي ناصر أن أهيئ نفسي للتحرّك مع مفرزة من قاطع (بهدينان) إلى مناطق (لولان) حيث مقرّات القيادة هناك من المكتب السياسي إلى اللجنة المركزية والمكتب العسكري والإعلام، إذ جمعوا تلك المكاتب العليا في هذه المنطقة بالذات من موقع لولان المهم عسكرياً، لأنه عصيّ على الاحتلال ولا تستطيع القوات العراقية التقدم نحوه بسبب وعورة موقعه وتضاريسه، وزد على ذلك، أنه كان يقع في المثلث الحدودي بين قمم جبال إيران وتركيا والعراق.

رافقنا في تلك المفرزة التي طالت خمس ليال، المريض (أبو عليوي) ورفيقته التي كانت ذاهبة للعلاج. وهذه الرفيقة هي من أهالي ناحية (مانكيش)، وقد التحقت بالجبل بعد انتفاضة أهاليها وهرباً من حملة الاعتقالات التي شملت أهالي المدينة. وقد أوليتُهم، طيلة الطريق، اهتماماً خاصاً بسبب وضعهم الصحيّ الصعب، كنت أحملهم في ركاب البغل وأهيّئه لهم، وكنت في مرات عديدة في المناطق الخطرة من أراضي تركيا، أقوده لهم.

وصلنا بسلام أنا وأبي ناصر مع علي الشرطي واستقرينا في منطقة (بربينان)، وأبو ناصر من الجنود المجهولين في الحزب، عاش أكثر تفاصيل حياته في التنظيم متخفّياً في الريف والقرى وسط الفلاحين، فلم يؤهله وضعه السياسي للاطلاع على الأدبيات الماركسية. كشأن الكثيرين من الشيوعيين العراقيين الذين انتموا إلى الحزب ولا يعرفون إلا القليل عن ماركس ولينين، عنك أدنى معرفة بسيطة عن تاريخ الماركسية اللينينية.

طيلة فترة قربي من أبي ناصر كان يتطلّع إلى استراحة مقاتل من كثرة السنوات التي قضاها في الجبل، وهذا كان حقّه الطبيعي في التطلع إلى حياة أخرى، لكن الذي تفاجأت به، والذي حدث بعد وصولنا إلى الموقع وتحديداً قرية (بربينان)، أنه قد عُقِد اجتماع للّجنة المركزية، وهو أول اجتماع بعد المؤتمر الرابع للحزب. وبُلِّغ أبو ناصر بحضور الاجتماع باعتباره من العشرة المبشرة مما أعطاه حقنة «منشّطة» بمعنويات عالية، وبلّغني بالانتقال إلى قاطع السليمانية وكركوك لنقل عملنا إلى هناك بعد أن هدأت جبهة الحرب بين قوات الاتحاد الوطني الكردستاني (أوك) والفصائل المسلحة في الجبل ومن ضمنها قوات الحزب الشيوعي العراقي.

فُتِحت لنا آفاق جديدة للتوغّل إلى بغداد بعد أن سُدّت أمامنا أكثر المنافذ والمحطات من قاطع (بهدينان) ومدنه المحيطة بمحافظة الموصل. إن أهم الأسباب التي أدّت إلى كشف خطوط التنظيم والمحطات الحزبية لأجهزة البعث هي كثرة الاندساسات والاختراقات الكبيرة في التنظيم. بقينا هناك بسبب كثافة الثلوج على القمم من تشرين الثاني عام 1986 إلى شهر آذار عام 1987، وقد استحال عبورنا إلى الأراضي الإيرانية والدخول منها إلى الأراضي العراقية مرة أخرى عبر مناطق (بشدر) و(قلعة دزه) باتجاه مناطق (قرداغ) و(كرميان).

في منتصف آذار عام 1987، بدأ الثلج بالذوبان من على سفوح المرتفعات الجبلية، مما دفعنا إلى حزم حقائبنا والتحرّك إلى هدفنا المقصود، وهو قاطع السليمانية وكركوك، وتحديداً إلى مناطق (قرداغ ـ كرميان)، رافقنا في العبور إلى الأراضي الإيرانية عضو المكتب السياسي الدائم عمر علي الشيخ (أبو فاروق) بأوراق رسمية صادرة عن الحزب الاشتراكي (حسك) جناح رسول مامند، وفي قناعة أنفسنا أنها تمويه على السلطات الإيرانية في أننا لسنا شيوعيين، لكن الواقع أن السلطات الإيرانية تعرف بكل هذه التحركات من

خلال اتفاقيات والتزامات مبرمة بين الأحزاب الكردية والمخابرات الإيرانية (اطلاعات)، حتى أنهم كانوا يعرفون الأسماء الحركية للكثير من الرفاق.

أخبرني الشهيد أبو علي السماك، وهو من أهالي الكوت (الصويرة)، الذي انسحب من مواقع الأنصار في منطقة (شرباجير)، أنه في عام 1988 يوم كان في مدينة قم الإيرانية، سلّم نفسه إلى الاطلاعات الإيرانية على أنه جندي هارب من جبهات الحرب، فما كان منهم إلّا أن واجهوه بأدلة دامغة وتفاصيل دقيقة عن فترات تواجده في مقرّات الحزب. وأبو علي السمّاك هذا كان قد ترك التنظيم بعد انعقاد الجبهة الوطنية، ثم عاد إلى الحزب بعد الحملة الدموية التي شُنّت ضدّ الشيوعيين عام 1978، فوصل إلى سوريا، وعبر مع قوات الأنصار للحزب الشيوعي إلى كردستان. أما ابنته الوحيدة رماح فقد تركها طفلة ولم يلتقِ بها، وفي أحداث عام 1991، عاد وعبر الحدود إلى مدينته واستشهد ضمن تداعيات الأحداث في حينها.

بعد رحلة شاقة ومضنية بسبب كثافة الثلوج في القمم، دخلنا الأراضي الإيرانية، ومن إحدى القرى الحدودية ركبنا سيارة نقل عمومي إلى مدينة (شنويه) الإيرانية ومكثنا نحن الرفاق الستة في بيوت لرفاقنا كانت عبارة عن محطات عبور من وإلى كردستان لنقل الجرحى والمرضى والمهام الحزبية المستعجلة.

بعد أيام تحرّكنا بسيارات تابعة لرفاق وأصدقاء الحزب الشيوعي العراقي إلى مدينة إيرانية حدودية (زيوه) قريبة من مناطق (دولا كوكا) لنا بها مقرّ بقيادة (أبي هيوا). وهي عبارة عن نقطة عبور الرفاق إلى وادي (دولا كوكا) حيث مقرّ قاطع السليمانية وكركوك الجديد وقيادته المؤلفة من أحمد باني خيلاني (أبي سرباز) المسؤول الأول، والمسؤول السياسي محمد النهر (أبي لينا) والمسؤول العسكري إبراهيم صوفي (أبي تارا)، بعد أيام معدودة من وصولنا إلى ذلك المقر الحزبي الدافئ والأكل اللائق بوجباته الثلاث.

طلبتُ من الرفيق أبي ناصر أن أسبقهم إلى مقرّ قيادة القاطع، وصادف في ذلك اليوم عودة رفيق لنا من العلاج من مناطق دربندخان، وكان له أخ شهيد، فرافقته إلى المقر. بقيت أياماً في مقرّ وادي (دولا كوكا) مقرّ قاطع السليمانية وكركوك الجديد داخل قطع جبلي بتضاريس معقدة وعلى ضفاف نهر جارٍ بقوّة نتيجة ذوبان الثلوج من قمة الجبل على مدار السنة، ولم يكن سهلاً عليّ التعّود على صوت خرير الماء المتدفق بكل عنفوان. ساهمتُ بكمائن مع رفاقنا في المواقع المتقدمة المجابهة لقوات الجيش والجحوش الذين كانوا بقيادة (أنور بتواته)، وهو من «أصدقاء الريّس» صدام حسين ويحمل عدة أنواط شجاعة، وقد علمتُ أنه يعمل حالياً بموقع مستشار عند رئيس الإقليم كاكا مسعود وابنه (نوزاد) الذي كان يعقد صفقات تجارية مع رجال النظام السابق.

# قلعة دزه وبشدر

في ربيع عام 1987، حدث تململ جماهيري كبير ضدّ مؤسسات البعث وثكناته العسكرية في إقليم كردستان، وبشكل خاص وبوتيرة سريعة في محافظة السليمانية وقصباتها، قد تكون اليد الطولى لهذا الالتحام الجماهيري الاتفاق الجديد بين قوى المعارضة على الساحة الكردستانية بعد إصابتها بالقوقعة والانحسار والاحتراب نتيجة ذهاب الاتحاد الوطني الكردستاني (أوك) إلى التفاوض مع السلطة المركزية في بغداد قبل وبعد أحداث (بشتاشان).

أثناء تواجدي في أحد الرواقم المطلّة على مدينة (قلعة دزه) وضواحيها، مرّت جماعات من المسلحين (الجحوش) الهاربين من مواقعهم العسكرية باتجاهنا مع أسلحتهم قاصدين مقرّات الحزب الديمقراطي الكردستاني (حدك) التي تقع داخل الأراضي الإيرانية خلف مقرّاتنا ولَم نعترضهم حيث تجاوزوا مقرّاتنا وربايانا، فكان يفترض بنا اعتقالهم وتجريدهم من أسلحتهم، لكن للأسف الشديد لم يحدث شيء من هذا القبيل، مما قلّل من قوتنا وهيبتنا بسبب قرارات قيادة القاطع بالاتفاق مع قوات الحزب الديمقراطي الكردستاني (حدك).

بعد أيام تحركتُ مع مفرزة كبيرة باتجاه قصبة (قرداغ) التابعة لمحافظة السليمانية والتي تحرّرت من قبضة السلطة المركزية على ضوء تطورات الوضع الجديد في التفاهمات السياسية بين قوى المعارضة والتلاحم الجماهيري معها. ولم تعُد هناك مخلّفات ظاهرة من حقد وانتقام على الساحة بين تحالفي (جوقد) و (جود)، وربما كانت مضمورة تماشياً مع تداعيات تطورات الوضع

الجديد. إن الليالي والأيام التي عبرنا بها مناطق بشتاشان وجبل قنديل وقرية (ورتة) ومناطق أربيل (سماقولي) كانت محفوفة جداً بالمخاطر.

في ليلة مقمرة من نيسان 1987 مررنا بناحية (قرداغ) التي تحرّرت على يد أنصار الحزب الشيوعي ومقاتلي القوى الأخرى، بعد أن تجاوزنا بصعوبة ربايا السلطة حول قضاء (چمچمال). كانت قرداغ مدينة مهجورة وأبنيتها مهدمة لا يعكر هدوءها إلّا نباح الكلاب ونقيق الضفادع في مياهها الآسنة. في الصباح الباكر وصلنا إلى قرية نائمة في حضن جبل قرداغ حيث لنا فيها مقرّ ورفاق، من هنا بدأت حكاية جديدة للنزول من قرى ومرتفعات وبيوت مناطق (كرميان) صوب العاصمة بغداد.

# معركة قرداغ

تقع ناحية قرداغ إلى الشمال من مدينة السليمانية، وهي عبارة عن تسعة مرتفعات منها (داري زرد، شافان، جافران). وبسبب موقعها ومناخها وأنهارها ومرتفعاتها الجبلية المكسوة بأشجار الفاكهة، فقد أصبحت قبلة للسواح الذين كانوا يقصدونها من كل حدب وصوب، حتى أن بعض المهتمين بادروا إلى إنشاء كابينات سياحية فيها لاستيعاب الزائرين، إضافة إلى أهميتها التاريخية لاحتوائها على منحوتة صخرية للملك (لولو) الذي عرف سابقاً بـ (نارام سين)، ووجود قلعة (باوكري) التي تُعدّ من أماكن العبادة التي يرتادها الناس إيماناً منهم بتحقيق أمنياتهم الشخصية، فضلاً عن مقابر صخرية تاريخية موغلة في القِدم، لكن الأضواء لم تُسلّط عليها لتوثيقها كجزء من حضارة العراق التاريخية.

في طريقنا إلى مناطق السليمانية عبر مدن (زيوه وشنويه ورضائيه) الإيرانية، كانت ترِدُنا أخبار انتصارات رفاقنا في تحرير (نوجول وقرداغ) من قبضة السلطة الحكومية والجحوش، بالتعاون والتنسيق مع قوات ومقاتلي الأحزاب الأخرى، وذات ليل صيفي لدى مرورنا في ناحية قرداغ وأطرافها وجدناها مهجورة ومهدمة لا يعكّر هدوءها إلّا نباح الكلاب السائبة ونقيق الضفادع في برك المياه الآسنة. وفي اليوم الثاني من وصولنا إلى إحدى قراها البعيدة، حيث مقرّ رفاقنا المؤقت هناك بين زحمة البيوت الطينية، بدأوا يحدثوننا عن معركتها ومقاومة البعثيين فيها الذين تحصنوا في مقرّ لهم في بناية عالية محصّنة ومشيّدة بالكونكريت، فقد دافع البعثيون ولم يستسلموا رغم نداءات رفاقنا لهم للاستسلام، غير أنهم أُبيدوا جميعاً داخل مقرّهم.

لم تتسنّ لي زيارة ناحية قرداغ نهاراً بسبب المهمّة الملقاة على عاتقي، وهي التوجه إلى بغداد. فبعد عدة أيام توجّهت على عجل إلى منطقة (كرميان)، ومنها قرّرتُ التسلّل إلى بغداد بتوقيت خاطئ وبطريق غير مدروس وغير آمن، وهنا وقعت الكارثة كما سيأتي الحديث عنها. كانت عودتي ميؤوس منها ولكنني عدّت إلى مقر القاطع في جبل قرداغ، وهناك باشرنا ببناء المقرات بعد هدم الناحية ونقلها في جولات يومية عبر تراكتور كان يسوقه النصير جوتيار.

كانت الأخبار اليوميّة تتوارد إلينا عبر الأهالي والتنظيم، عن نيّة السلطة بالقيام بهجوم كاسح لإعادة الناحية. فعندما بدأَت بتطويق الناحية بقوة كبيرة من الجيش والجحوش مدعومة بالمدرعات، تحرّكنا بقوة مقابلة بقيادة الشهيد جوهر باتجاه القرى المحيطة بالناحية، وتم اختيار تسعة أنصار، كنت واحداً منهم، لدخول الناحية من معبر الجنوب. وفي اللحظة الأولى لوصولنا، اشتد القصف المدفعي على الناحية مع تحليق مكثف لطيران السمتيّات، فاحتمينا في أحد البيوت في أطراف الناحية وقُطعت وسائل الاتصال برفاقنا، وكنا ننتظر تعزيزات وإمدادات وتوجيهات عن خططنا، ولساعات لم يصلنا شيء. وسيطرت الدبابات على مرتفعات الناحية، وبتنا وجهاً لوجه معها، فبات وضعنا حرجاً جداً وأرواحنا قاب قوسين أو أدنى من الموت.

تمكّنا من تسلق أحد المرتفعات رغم القصف الكثيف علينا بعد أن حدّدوا مواقعنا في سفوح المرتفعات، وتوزعنا على ثلاثة مرتفعات، وبتنا في مواجهة حية مع الدبابات في المرتفعات المقابلة، كنا نرى بعضنا بالعين المجردة إذ تفصلنا عن بعضنا مسافة بضع عشرات من الأمتار، واشتدت مقاومتنا الشرسة بأسلحتنا الخفيفة وبإيمان ومعنويات لا تلين، ولم يجرؤوا على اقتحام المرتفعات التي نحتمي بها تخوّفاً منا، فنحن فوج كامل مع عتاد منوّع ومقاومة شديدة. كنا نسمع أحاديث الجنود الذين كانوا يصفون مقاومتنا على أنها قوة كبيرة ومجهّزة بأسلحة ثقيلة، بينما كنا نحن تسعة شيوعيين،

نناور باستغلال الوقت حتى حلول الليل مما يسهل عملية انسحابنا، حيث بات لا بدّ منه للخلاص من كثافة نيرانهم. وفي أول عتمة هبطت على سفوح التلال، انسحبنا بسرعة البرق باتجاه وادٍ من الغابات والأشجار التي حمتنا من القصف والموت المحتم.

في صباح اليوم التالي التقينا برفاقنا الذين اعتقدوا أننا أصبحنا في عداد الموتى. عاد الجيش وسيطر مرة أخرى على ربوع ناحية قرداغ وأعاد الأهالي إليها. ثم بدأوا بإعمار الناحية، وعززوها بقدرات إضافية من القوة العسكرية.

نحن الشيوعيين في تجربة الكفاح المسلح، لم نتمكن من إيصال رسالتنا إلى أبناء شعبنا من القوات المسلحة والجيش النظامي بأننا هنا في الجبل ثوار عراقيون ندافع عنكم ومن أجلكم نتحمل تلك الظروف الصعبة فلا توجهوا سلاحكم نحو صدورنا، وجهوها إلى صدر النظام، الذي أجبرنا أن نقاتل بعضنا، ونحن وإياكم نحمل مشروع وطن ضد النظام وسياسته الهوجاء. وإنها لمفارقة عجيبة، لأن أكثر المعارك إيلاماً مع أبناء شعبنا من جيشنا الباسل كان مردّها تعقيد الأوضاع السياسية في العراق.

# معركة دربندخان

لم يمضِ أسبوع واحد على معركة ناحية قرداغ، التي هُزمنا بها، وأعادها النظام إلى حضنه مجدداً؛ حتى تقدّم الجيش مسنوداً بالجحوش (الفرسان) باتجاه قرى (دربندخان) لخوض معركة مع أنصارنا المتواجدين في تلك القرى للحدّ من نشاطهم وإبعادهم عن أطراف المدينة والشوارع الرئيسية، وكنتُ ضمن مفرزة يقودها كاكا شوان أحد قادة مقاتلي الفوج التاسع، أنا كنت العربي الوحيد بين أعضاء المفرزة، واشتبكنا في أحد المرتفعات مع قوة كبيرة من الجيش متقدّمة باتجاهنا بغطاء مدفعي كثيف، احتمينا من القصف في تضاريس الجبل والقطوع الصخرية فأخّرنا تقدمهم نحونا وأربكنا خططهم، مما اضطرهم للانسحاب أمام زخات طلقات بنادقنا، وبطريقة كانت غير متوقعة ومفاجئة شعرنا بهزيمتهم وانتصارنا وقد أسرنا بالإضافة إلى عدد من الجحوش ثلاثة جنود من أهالي مدينة الناصرية.

كان الجنود خائفين مرتبكين يرتجفون رعباً، تشبثوا بي وأمسكوني من رقبتي بعد أن تكلمت معهم بالعربي: «دخيل الحسين دخيل علي احمونا من الإعدام»، كانوا يحملون انطباعاً أننا عصاة وقتلة ووحوش. إنها ثقافة البعث في تشويهنا وتشويه مشروعنا وأهدافنا وكان واضحاً أيضاً ضعف خطابنا السياسي في وصوله على أقل تقدير إلى المناطق والمدن المحيطة بنا. وفي الحديث معهم ومحاولتي طمأنتهم بعد أن سلمونا سلاحهم، وباتوا في قبضتنا أسرى وعزّل. تقدم أحد رفاقنا الأكراد وصفع أحدهم على وجهه بدون وجه

حقّ متوعداً إيّاهم بالإعدام والانتقام، كان تصرفه مخيفاً لهم من خلال أسلوبه وصراخه والوعيد من خلال نبرات صوته وأسلوبه.

حاولت مراعاة الوضع بالتطمينات مما دعاهم إلى التمسّك بي أكثر إلى حدّ التوسل والدعاء. قلت لهم: «نحن هنا شيوعيون عراقيون ولسنا عصاة أو مخربين وقتلة بشر»، وهذا ما كانت تحمله رؤوسهم تجاهنا، كما تنعتنا سياسة النظام لتشويه حقيقة مواقفنا ونبل أهدافنا. «نحن نخوض حرباً وطنية ضد صدام حسين وزمرته وسياسته»، كانوا يقولون بتوسل: «نحن مجبورون ونخاف أن نقول لا أو نهرب من الجيش. أين نذهب ولا أحد يأوينا، وإذا هربنا من العسكرية كان أهلنا سيبلّغون عنا لأنهم يخافون من عقوبات النظام القاسية والمرعبة». أحدهم كان يبلغ الأربعين، لكن كان يبدو عليه أنه أكبر من هذا العمر، حيث الشيب غازٍ شعره وتجاعيد وجهه بادية للعيان بسبب التعب والهمّ، يقول: «عندي ثلاث زوجات تركتهنّ في الناصرية مع أولادي الصغار بلا معين ولا معرفة بمصيري».

بادر الجندي الآخر بعد أن رآني بدون رداء سميك وملابسي رثة بينما الشتاء قادم على الأبواب، فخلع «قمصلته» العسكرية المرقّطة وأعطاني إياها، وبقيَت سنوات معي حتى تركتُها في العاصمة طهران، وعندما سألني المحققون في مراكز الحجز (أوردكاه) في المدن الإيرانية عنها. قلت لهم إنها قمصلة أهداني إياها أحد أبناء قريتي وصديقي، كان متطوعاً في القوات الخاصة في الجيش العراقي قبل خروجي من العراق باتجاه الجمهورية الإسلامية في إيران، فانطلت عليهم الحكاية. وهذه شبيهة بقصص وحكايات أبناء شعبنا الفارين إلى إيران.

وصلنا إلى مقرّ قاطع قرداغ الجديد حيث العمل متواصل في البناء والتشييد في جبل قرداغ تحت إدارة النصير أحمد لولو من أهالي حلبچة، ووضعناهم في السجن وهو عبارة عن غرفة شبيهة بغرفنا نحن الثوار مع مجموعة من السجناء

السابقين من جحوش ومرتزقة ومندسين، وكان من ضمن أُولئك الأسرى بعثي من أهالي مدينة العظيم، كان متغطرساً وقليل الكلام وغير مؤدّب بألفاظه، يوحي لك أن هناك أمراً سرّياً يحدث في الخفاء يسنده ويقوّيه، وكان قد تمّ أسره من قبل رفاقنا في معركة تحرير ناحية (نوجول) في مناطق كرميان.

حاولت مرات عديدة أن أستفزه بالكلام حول جرائم البعث، ولكنه كان يجاوبني بالصمت والنظرات الحاقدة. سألني مرة: أنت من مدينة ديالى. قلت له: كيف عرفت؟ قال لي: أنا من أبناء ديالى وأعرف اللهجة. كانت هناك صفقة تُحاك بالخفاء وكما اتضح لاحقاً، أنه سينجو من الموت وهو واثق من أنه سيكون طليقاً حرّاً، كانت هناك مفاوضات تجري حوله عبر وسطاء لإطلاق سراحه مقابل فدية مالية وليس مقابل الإعلان عن مصير مئات الشيوعيين المعتقلين والمغيبين في سراديب البعث.

بعد فترة اختفى من السجن، وتأكد لنا إطلاق سراحه. وكانت المعلومات التي تصلنا تباعاً حول مصيره تؤكد لنا أنه أصبح شرساً أكثر من الماضي ضدّ مؤيدي حزبنا في محافظة ديالى، بل كان أحياناً يقف مع المفارز المسلحة في الطريق التي تتصدى للسيارات القادمة من محافظة كركوك ونواحيها، عسى ولعل أن يتعرف على أحد رفاقنا المتوجهين إلى العمل في الداخل ضمن قوافل الركاب، لينتقم منه وليبرهن مجدداً عن ولائه للبعث.

# قادر رشيد والشعبة الخامسة

كنتُ متّهماً بالانتماء إلى الشيوعية، ومعارضاً سياسياً مناوئاً لحكومة البعث عندما وقعتُ بيد كمين للاستخبارات العسكرية التي أودعتني في ما بعد في الشعبة الخامسة في الكاظمية، وكان ذلك يوم 7 حزيران العام 1987 في الطريق العام بين قادر كرم وكركوك، في تلك الربية التي تتوسط الطريق التي سبقها ترتيب سريع مع اعتراض شخصي مني وإلحاح عن كيفية الوصول إلى بغداد عبر ربية جحوش السلطة، لكنهم أعلموني أن هناك تنسيقاً مباشراً بين قادة ربية الجحوش وقادة محلية كركوك والسليمانية بقيادة الراحل قادر رشيد (أبو شوان). فتوجّهت إلى بغداد عبر طريق مدينة كركوك، أقلني على الدراجة النارية مامستا علي وأنا صعدنا خلف أحد الرفاق الأنصار من داخل قرى كرميان باتجاه قرية قريبة على الشارع العام.

كانت لحظات لا تنسى ولا الزمن قادر مهما طال على محوها من رأسي، فقد أصبحَت جزءاً من ذاكرتي اليومية من مقادير السياسة في العراق، وقد رويتها بكل أمانة في كتابي (سجين الشعبة الخامسة). وعندما وقعت الفاجعة، وبتُّ تحت أنيابهم المفترسة، قطعتُ عهداً على نفسي منذ اللحظة الأولى، وأنا مكوّر في المقعد الخلفي للجيب العسكري (سيارة عسكرية) تحت بساطيلهم النتنة متوجّهين إلى مديرية الاستخبارات العسكرية في مدينة كركوك كما تبين لي لاحقاً، بعدم جدوى العمل في تلك الظروف العصيبة من تاريخ العراق سنة 1987، فليس سهلاً أن تعمل بها سياسياً معارضاً لمشروع دولة تتشدق بالوطنية والقومية والأمة العربية وتحرير فلسطين، أو أن تحقق

الحدّ الأدنى من هدفك الذي تطمح إليه، لأن ذلك يعتبر ضرباً من الخيال وقريباً إلى الجنون.

ومع ذلك لم أتخلّ عن الأنصار حتّى بعد خروجي من زنزانات الشعبة الخامسة، فقد شاركت بمعركتي قرداغ ودربندخان ولم تمضِ على عودتي من بغداد إلّا أسابيع معدودة.

في عام 2009 التقيت بالراحل قادر رشيد في العاصمة السويدية ستوكهولم في بيت الرفيق والنصير سالم شذر وبحضور جمع من الأنصار؛ سلام العگيلي، محسن الجيلاوي، خالد صبيح وآخرين، وعاتبني بشدة على اتهامي له، حسب اعتقاده، في كتابي.

قلت له، لقد رويتُ بكل أمانة ما حدث معي، وبإمكانك أن تردّ أو تفنّد ما ورد من حقائق في ذلك اليوم الحقير من ظهيرة شهر حزيران. فتوعّدني أنه سوف يردّ بالتفصيل عمّا حدث، وطلبتُ منه الأمانة في القول والردّ، لكن لم ينشر لا رداً ولا توضيحاً، ورحل إلى دار حقّه. ولتحلّ الرحمة على روحه وعلى أرواح كل مناضلي وشهداء الحزب والوطن.

وفي سنوات مضت استوقفني كتاب للمرحوم قادر رشيد، يُعدُّ في حينها، الأول من نوعه حمل عنوان (بشتاشان بين الألم والصمت)، كانت بعض متونه من الحكايات والصور والأحداث من بعض الأحداث التي كنتُ مساهماً فعالاً بها وشاهداً حياً على مجريات تفاصيل أحداثها، مثل انسحابات موقع (هزارستون) ومن (خورنوزان) آخر معاقلنا في قاطع السليمانية وكركوك قبل الرحيل إلى مناطق (شرباجير). فقد واكبتُها بكل التفاصيل اليومية من معارك وانسحابات وقرارات لحقت بها، فكتبت رؤيا نقدية ضمن تجربتي الشخصية بمقالة مطولة بعنوان: (بشتاشان بين الواقع والخيال) كانت بمثابة شهادة حية ونشرتها في عدة مواقع من ضمنها الحوار المتمدن وصوت اليسار وكتابات والنور.

كان الراحل قادر رشيد منزعجاً مني في روايتي للأحداث وتفنيدي لسطور كتابه، حاولت في تلك الشهادة أن أبسّط له الموقف؛ لست أنت المستهدف كشخص، وإنما التاريخ لأنك دوّنت تلك المعلومات بناءً على رواة لا هم ولا أنت كنتُم في قلب الحدث في تلك الأيّام العاصفة من تاريخ تجربتنا. توقّفتُ معه على أحداث خورنوزان وتفاصيلها التاريخية من الألف للياء، والتي جاءت في كتابه على عكس ما حصل، وبعيداً عن واقع الحدث. فمعلوماته لا تمتّ إلى ما حدث بصِلة، من شخوص وأحداث، بل حتى أسماء الرفاق الذين اعتمدهم واستند إليهم في رواية الأحداث لم يكونوا معنا في تلك العواصف من عام 1985، وهو أيضا كان في يومها يتعالج في مستشفيات العاصمة طهران.

لقد روى في كتابه الأحداث نقلاً عن رفاق لم يشاركوا فيها، ولم يُتعب نفسه في توخّي الدقّة. إنهم لم يكونوا أصلاً في الموقع آنذاك، وحتى الاعتماد على مقاتلي الحزب الديمقراطي الكردستاني (نوجة خانقين)، والذين أيضاً في تلك الليلة القمرية ألقوا السلاح وولوا الأدبار، ولم تلتحق تلك المفرزة التي كان يُفترض بها أن تشاركنا في الكمين المتقدم للقوة التي تسللت من قوات الجيش، بعد أن تركوا المكان مهجوراً في تلك الليلة.

كان قادر رشيد متمسكاً بموقفه بناءً على تلك المصادر التي لا تمتّ للحدث ووقوعه بأي قرب أو صلة، فانتهى اللقاء بيننا دون اتفاق، لكن بعد فترة زمنية وصلني الكتاب بطبعته الثانية، وقد تضمن في صفحاته ملاحظاتي وآرائي مع نشر صورتي في كتابه، والتي لم يكن لها وجود في الطبعة الأولى.

# التوجه إلى إيران

في نهاية عام 1987 في مقرّ الحزب بسلسلة جبال قرداغ، وصلتُ إلى طريق مسدود في الحوار مع الرفيق طه صفوگ (أبو ناصر) المسؤول الأول في التنظيم المدني الشيوعي في قاطع السليمانية وكركوك بخصوص بقائي في الجبل ورغبتي في استعادة حياتي المدنية، فقرّرتُ حينها أن أترك مواقع النضال باتجاه الأراضي الإيرانية التي هي منفذنا الوحيد إلى العالم الخارجي، والاتصال بالعالم الآخر.

في ذلك اليوم الممطر، والسماء ملبّدة بالغيوم السود صادف خروج مفرزة إلى منطقة (دولا كوكا) الحدودية مع إيران، حيث كان لنا مقرّ هناك للاستقبال والتموين والتنسيق، وكانت المفرزة بقيادة سردار شقيق الشهيد البطل ياسين في معركة (سويلميش) البطولية وأبي حسن الحلاوي، أردت أن أرافقهم إلى الحدود ومن هناك أتدبر أموري باتجاه الأراضي الإيرانية وقراها القريبة من الحدود العراقية، ورغم خطورة الموقف وتداعياته في ما لو انكشف أمري للسلطات الإيرانية الأمنية (اطلاعات) بأني شيوعي، وأنني كنت مقاتلاً في كردستان مع الأنصار ضد أجهزة السلطة المركزية، فسيكون سجن (إيفين) مأواي الأخير في ختام قصة حياتي، وسوف يلفّني النسيان.

طلبتُ من أبي ناصر، أنه في ما إذا كان هناك إشكال ما، فسوف أبقى إلى حين حلّه، بعيداً عن نظرية المؤامرة، لنضع أنفسنا بعيداً عن صناعة التهم وأسلوب التشهير تعزيزاً للحقيقة، لكنّ الرجل قال لي بشيء من التشفي ستكون حياتك

في إيران جوعاً وعوزاً وحسرة على قطعة خبز يابسة، ليس سهلاً مضغها إلّا بتغميسها في الماء الساخن، فهل هذا ختام مسيرتي النضالية وتضحياتي الجسام كمناضل سياسي يحلم بوطن معافى خالٍ من الدكتاتورية.

في تجربتي السابقة المرّة في الجبل مع العديد من الأنصار الذين تركوا مواقع النضال للعديد من الأسباب والدوافع والنوايا، لم نكن نرحمهم مهما كانت العوامل والمسببات والمواقع وسفر النضال، فقد تم استهدافهم بأقسى التهم القبيحة (العمالة للنظام)، وكانت هذه التهمة ورقة أكثر نذالة للتسقيط السياسي للمعارضين في الرأي والموقف والسياسة، إنها أساليب لا تقل خسّة عن ممارسات النظام البعثي السابق في هذا السياق.

قبل تحرّك المفرزة بلحظات من جبال (قرداغ) في شتوية قارصة، سلّمتُ سلاحي ومتعلقات الحزب إلى الرفيق سلام العگيلي (محمد عرب) وودعته بألم، فبكى مع الشهيد صباح أبو النور، وقد صادف أيضاً وجود الشهيد عمر أحمد إسماعيل (شيروان) في المقر (قرداغ) الذي سلّمته رسالة كنت قد كتبتها على عجالة، لإيصالها إلى الأهل لطمأنتهم، وذلك بحكم المعرفة السابقة به إذ كنا طالبين جامعيين في أروقة كلية الآداب، وتحسّباً مني بتعقيد الأمور لاحقاً لغياب حقيقة المشهد أمامي في خطواتي القادمة وأنا أتجه إلى الأراضي الإيرانية والحرب الطاحنة مع العراق ما تزال مستمرة، حيث سيكون من الصعوبة الاتصال بالأهل والرفاق. وهذا ما حدث لفترة طويلة عشتها بين إيران وسوريا حتى وصولي إلى أرض السويد، فكان اتصالي بهم يتمّ عبر الهاتف وأثيره المتقطع والمقتضب والمكلف والمخيف. شعرتُ في تلك اللحظات السريعة من التوديع واللقاءات، التي كانت مؤلمة لي، بنهاية العالم وتلاشى حلم بنيتُ عليه حياتي وضحيّتُ من أجله.

وكانت لي قصة مع المفرزة وطبيعتها والإشكالات التي واجهتُها بعد يومين مضنيين بقطع مسافات طويلة، حيث رافقني حينها علي الكرّادي حتى

وصولنا إلى قرية (قزلر) التي تقع على أطراف جبال السليمانية، في جوّ ممطر وعواصف ثلجية مخيفة.

أبلغني أبو حسن الحلاوي، في جامع القرية، حيث كنا محشورين حول موقد الجامع لتدفئة ملابسنا التي بللها المطر الغزير، وكمحاولة لمقاومة البرد القارص الذي كان يهزّ أجسادنا كسعفات على وشك السقوط، قال لي: «لدينا قرار من قبل قيادة القاطع، أي من أحمد باني خيلاني (أبو سرباز) وطه صفوگ (أبو ناصر) ومحمد النهر (أبو لينا) أن تكون هذه آخر محطة لنا معكم»، تفاجأتُ وكان ردّ فعلي حاداً وتكلمت مع النصير سردار، الذي كان غير مقتنع بذلك التصرف المشين، إلّا أنه كان عاجزاً عن عمل أي شيء. تركونا في قرية محاطة بالربايا الحكومية ومقرات إيرانية لحرس الثورة الإيرانية في جبهة حرب ساخنة ووسط عواصف ثلجية قاتلة إلى درجة أن القرويين نفسهم عدّوها الأولى من نوعها.

بعد أن يئستُ من إقناعهم بتغيير موقعهم لصعوبة وضعنا، وربما سنتعرض للموت بحكم طبيعة المنطقة وأحوال الطقس، لم يبق أمامنا إلّا التحرك والمضي قُدماً دون أيّ اتجاه محدّد، انتظرنا حتى حلول الليل وتحركنا تحت جنح الظلام باتجاه إضواء تلوح في الجبال. اخترنا الأقرب لنا وسط عواصف ثلجية قاتلة، تردّدنا في المبيت في قرية (قزلر)، خوفاً من مداهمات سريعة لموقع القرية وإمكانية التقدم نحوها، وهي التي كانت لنا فيها تجربة مؤلمة في بدايات انطلاق الكفاح المسلح، حيث فُرضت على مفرزة من الأنصار معركة غير متكافئة راح ضحيتها الشهيد معتصم عبد الكريم وآخرون. كان ذلك في مطلع الثمانينيات، وفي بداية تجربة الكفاح المسلح، حين وصلتنا مفرزة إلى قرية (قزلر)، وبعد دخولها القرية والمبيت في جامعها تعرّضت إلى إنزال جيش عبر الطائرات السمتية، ودارت معركة غير متوقعة ولا متكافئة راح ضحيتها عدد من الأنصار. وفي حينها انتشر خبر

بأن أهالي القرية وسكانها الأصليين يعملون لصالح أجهزة السلطة الحكومية كمخبرين.

تمّ وضعنا، كرفاق درب ومصير مشترك في فوهة مدفع خطير، وبعد أن توصلنا إلى قناعة بأننا على شفير الموت تحركنا نحو المجهول، وبعد ساعات رهيبة وخطيرة من السير وسط عواصف ثلجية وبين ألغام الربايا العراقية والإيرانية، أي تحت لهيب جبهة حرب ساخنة، وجدنا أنفسنا داخل مقرّات الاتحاد الوطني الكردستاني في مناطق (سرگلو وبرگلو)، حيث استقبلونا بكل احترام وتقدير ونلنا اهتماماً كبيراً من (مامستا بكر) ومن (كاكا شورش)، وهما قياديان بارزان في (ئالاي شورش)، التنظيم اليساري في الاتحاد الوطني الكردستاني، وكانا محظورين عن أي نشاط حزبي لتقاطع مواقفهما مع سياسة الاتحاد الوطني الكردستاني. وبقينا شهوراً معهما تقاسمنا فيها رغيف الخبز إلى حين شنّت الحكومة علينا هجوم (الأنفال)[1] الكيماوي في ربيع عام 1988مع تقدم كبير وواسع من كل المحاور للجيش والقوات الخاصة والطيران.

كنا آخر حلقة في الانسحاب بعد أن أخلى مقاتلو الاتحاد الوطني الكردستاني (أوك) مقرّاتهم ومواقعهم للجيش والجحوش، وصفّوا حساباتهم مع قلة من السجناء في عمق الوادي بأن قاموا بتصفيتهم وقتلهم. إن الانسحاب السريع والمفاجئ وغير المنظم أربكنا وأضاعنا وسط الجبال المكسوة بالثلوج لأيام وليال تحت زخات المطر ورائحة الكيماوي

(1) أُطلق على حملات القتل بالسلاح الكيمياوي (عمليات الأنفال) وكان يقودها ابن عم صدّام (علي حسن المجيد) الذي لُقّب بعدها بـ (علي الكيمياوي)، وكان يشغل منصب أمين سر مكتب الشمال لحزب البعث. وقد جاء اسم الأنفال ـ الذي يعني الغنائم ـ من السورة القرآنية التي حملت نفس الاسم، والتي نزلت في محاربة الكفار وسلب غنائمهم، في إشارة إلى قوات الجحوش لنهب القرى الكرديّة المقاومة، من أموال ومواشٍ.. بل وحتى سبي نساء. وانتهت الحملات بالقضاء على أكثر من 4000 قرية وقتل ما يزيد عن 180 ألف كردي. ونزوح ما يقرب المليون.

وضجيج الناس وصراخ أطفالهم. وفي ليلة مظلمة وحزينة وصلنا إلى مدينة (سردشت) الإيرانية بين أفواج من أهالي القرى المهزومين ومقاتلي الاتحاد الوطني الكردستاني، الذين حملوا معهم كل ما تيسر من حاجات ثمينة وخفيفة وملابس محزومة على ظهورهم كباقات الحطب و«شكابين» الشوك، تعلو جباههم مسحات الكآبة والهزيمة والمصير المجهول والشعور بالخيبة من مرارة النتيجة المتكررة على طول التاريخ.

قلتُ أني كنتُ يومها ضيفاً في مقرّات الاتحاد الوطني الكردستاني في مناطق (سرگلو وبرگلو) في قاطع السليمانية مع الرفاق: الشهيد سامي حركات، أبو عليوي الكربلائي، علي كرادي، لطيف. حيث جمعتنا وجهات نظرنا السياسية المعارضة لسياسة الحزب تجاه جملة الأحداث والأوضاع الداخلية التي لم يكن مهتماً لحلحلتها حتى تفاقمت على كل المستويات وأصبح عاجزاً عن النظر إليها.

اشتدّ الهجوم مع شدة قصف الطيران والمدفعية بالسلاح الكيمياوي وتقدّم الجيش والجحوش من عدة محاور في استهداف مقرّات قيادات الاتحاد الوطني الكردستاني (أوك)، فانسحبنا مع الأهالي إلى الأراضي الإيرانية وسط الثلوج ورائحة السلاح الكيمياوي ومأساة أهالي القرى وحيواناتهم، أقمنا مع مقاتلي الاتحاد الوطني الكردستاني في فندق بمدينة (سردشت) الإيرانية.

وصلنا إلى مدينة (سردشت) الإيرانية بعد رحلة معاناة تُعدّ عجيبة ومثالية نجونا فيها بقدرة قادر مع مقاتلي الاتحاد الوطني الكردستاني (أوك). حيث قضينا عدة ليالٍ في العراء وسط الثلوج والبرد القارص والموت المحتم، لولا مفارقات الزمن في إنقاذنا. بعد أيام وصلتُ إلى العاصمة طهران بشقّ الأنفس وبأوراق مموهة وسكنت مع رفيقنا أبو محمد الصيدلاني في منطقة (كوجه مروي)، وكان يرافقني طيلة هذه الرحلة الصعبة (علي كرادي).

ومن هناك رُتّبت لنا الأوراق باتجاه العاصمة الإيرانية طهران المدينة الجميلة بعمرانها، والتي تشعر بالصخب فيها منذ الوهلة الأولى، ورغم حصولي على عمل جيد وسكن مريح في طهران، فقد كانت كل جهودي منصبّة على السفر خارج إيران، كنت في مدينة طهران على تواصل مع رفاق شيوعيين، تعرفت عليهم عن طريق الشهيد سامي حركات بعد أن زارني في بيتي في (كوجه مروي) جمال عيدي، رزاق أبو وهيب، أبو محمد الصيدلاني كانت معاناتنا مشتركة في الوطن والحنين إليه.

بدت لي مرحلة نضال صعبة وتحديات جديدة في مواجهات يومية بالموقف من الحرب والدفاع عن الوطن والمفهوم الماركسي في النضال الوطني، ثمة أصوات نشاز لم تستطع أن ترتقي لموقفك الوطني وفق متطلبات المرحلة وتداعياتها، فلم يبقَ أمامها من عذر إلّا مهاجمتك شخصياً بتُهم يظنون أنها تضعف موقفك في الدفاع عن العراق وأهله والتهديدات والمخاطر اليومية التي تعترض طريقك في النضال في بلد مثل إيران معادٍ لبلدك ووطنك، والنقطة الثانية نظامه السياسي يتعارض تماماً مع موقفك من الوطن ومن صيغة أدائه السياسي.

حين وصلت طهران في بداية العام 1988 وجدت صحبة وأصدقاء طفولة وجيراناً ورفاقاً أشعروني من اللحظة الأولى أنني وسط ناسي ومعارفي رغم ندوب الوجع والحسرة في الشوق إلى الوطن ومعرفة تفاصيل حياتهم ومصير أولادهم وبيوتهم، عشرات العوائل انتزعوهم عنوة في ليل دامس من على فراش بيوتهم ومحطات ذكرياتهم ليرموا بهم خارج الحدود داخل الأراضي الإيرانية بتهم باطلة على أنهم أتباع لإيران بعيداً عن إدارة فنون السياسة في ركوب الموجات ومواجهة المنعطفات والفهم الواقعي لتعقيدات المنطقة. لكني لم أكن أشعر بالأمان لأنني لا أنتمي إلى هذا الجو، وحتى أبناء وعوائل قريتي الذين هُجّروا ظلماً وعدواناً عام 1980 ورغم اهتمامهم بي، لكني لم أجد

نفسي بينهم. كان التدّين يغمر كل مشاعرهم، وكانت أمنياتهم مربوطة بتطلعات الدين والطائفة والمظلومية والمهدي المنتظر.

كان قرار التسفير قراراً رئاسياً غبياً بامتياز دفع العراق ثمنه غالياً في حسابات البيدر، وإلى اليوم أعيد في ذاكرتي تفاصيل المشهد المأساوي وانعكاساته على مزاج أهالي القرية، ترى وجوههم في الصباح على تخوت مقاهي القرية وحركة النساء والشباب عابسة حزينة من تداعيات الليلة التي سبقتها. في طهران وقم التقيت بأستاذي وابن قريتي زهير خزعل أيام الدراسة في المتوسطة واللغة العربية ومشاكل السياسة معه، لكننا التقينا بودّ وشوق وحنين إلى الماضي متناسين آثاره ومشاكله، وفي انتقالي إلى سوريا (دمشق) التقيته أيضا وكان يعمل مدرساً في مدارسها للغة العربية، وأراد أن يساعدني لأنني كنت في أزمة حقيقية ضمن سياقات الوضع العام، وقدم لي مقترحات تشجيعية لمساعدتي في القبول في الجامعات السورية، لكنني لم أكن مهيّأً آنذاك لعدة أسباب.

زهير خزعل، من البعثيين العقائديين إن صح التعبير، لكن إجرام النظام وغروره لم يمنعه كحال الآخرين من تهجيره في حملة العام 1980 الشنيعة، والتي سبقت إعلان الحرب. في ليلة تهجيره مع عائلته وقف وسط جموع قرية أهالي الهويدر لتوديعهم مع جيرانهم وأحبائهم بصمت مكبوت وحقد دفين على تلك الانتهاكات الإنسانية، وفي اللحظات الأخيرة من زجّه بسيارات الأمن العراقي باتجاه حدود الجارة إيران، وهو يلقي بصوت جهير شعراً عن بلاده التي جارت وعن قومه الكرام. ترك المدرّس زهير زوجته أم علي وولده علي في بيت أهلها الحاج عبود كريم وهي عائلة كريمة وذات نسب طيب وجاه، التحقت بزوجها في فترة الحصار بعد أن استقر في ليبيا للعمل هناك بمساعدة صديقنا المشترك الراحل سهر العامري.

# بيان 3087

بعد انتهاء عمليات القتل والتطهير العرقي والتهجير لأكراد قرى كردستان، وبعد الإجهاز على مدينة (حلبچة) بمن فيها، أصدرت (القيادة العامة للقوات المسلحة) بيان انتصارها على «الخونة»، ونشر في عدد جريدة (الثورة) البعثية الصادر في يوم 20 آذار 1988 وهذا نصّ ما ورد فيه:

**بيان رقم (3087) صادر من القيادة العامة للقوات المسلحة**

بسم اللّٰه الرحمن الرحيم

ككل الغزاة الطامعين اعتمدت قوات خميني الصهيوني على بعض من خان الوطن والشعب في المنطقة الشمالية من العراق ممن لفظهم الخيرون من أبناء شعبنا الكردي من بين صفوفهم وراحوا يؤدون الخدمة المخزية للأجنبي وكان من بين أعمالهم المخزية هذه تسهيل مهمات قوات الغزو في دخول قصبات وقضاء حلبچة الحدودية الواقعة ضمن محافظة السليمانية.

وكتعبير عن إرادة شعب العراق العظيم وقواته المسلحة الباسلة ومن بين ذلك إرادة الخيرين الوطنيين الشرفاء من أبناء شعبنا الكردي، وجواباً على خيانة هذا النفر الضال قامت قوات جحافل الدفاع الوطني الأول البطل وقوات بدر الباسلة وقوات القعقاع الباسلة وقوات المعتصم الباسلة وأفواج الدفاع الوطني الباسلة بتنفيذ (عملية أنفال) بإشراف اللواء الركن سلطان هاشم المكلف مؤقتاً بهذه المهمة إضافة إلى واجباته حيث اندفعت قواتنا لمهاجمة مقر التمرد الذي يقوده الخائن جلال الطالباني العميل للنظام الإيراني عدو العرب والأكراد

وذلك بمنطقة سرگلو وبرگلو وزيوة والمناطق الجبلية الوعرة ضمن محافظة السليمانية أيضاً.

وبعد قتال باسل وثأري مع الخونة تم بعون اللّٰه تعالى وبهمّة الغيارى من أبناء العراق البُسلاء عرباً وأكراداً تم وفي الساعة الواحدة بعد ظهر اليوم احتلال مقر التمرّد وأسر آمر القوة المكلفة بحراسة مقر التمرد وأعداد من الضالين والخونة بعد أن قُتل من قُتل منهم ملعوناً وبعد أن فرّ يجر أذيال الخزي والعار من تمكن منهم من الهرب.

وإنها البطولة التي لا تدانيها بطولة والإخلاص الذي ما بعده إخلاص والجهاد الذي ينال إعجاب الدنيا كل يوم لشعب القائد صدام حسين من العرب والأكراد الذين وضعوا أنفسهم في خدمة الوطن وجادوا بالحب والوفاء لقائدهم العظيم ورمز انتصارهم وعنوان نهضتهم ولفظوا من بين صفوفهم كل خائن كافر بنعمة الوطن وباع نفسه للعدو الأجنبي الطامع بأبخس الأثمان. فالحمد للّٰه على نصره وليخسأ الخاسئون.

القيادة العامة للقوات المسلحة/ 19 آذار 1988.

بعد أيام من سقوط مناطق (سرگلو وبرگلو وزيوه) بيد قوات النظام ومواليهم من «الفرسان» والأفواج الخفيفة (أفواج صلاح الدين)، سقطت منطقة (قرداغ) ثم (كرميان) فمنطقة (حوض الزاب الصغير) فجبال منطقة أربيل، وأخيراً انتهت حملات (الأنفال) بحملة السيطرة على منطقة (بهدينان). وبسقوط الأخيرة في يد السلطة فقد طُويت الصفحة المؤثرة من حركة (الكفاح المسلّح)، ودُفنت أجساد الأنصار الشهداء بعجالة، فيما ظلّ مصير الكثير من الأجداث الطاهرة مجهولاً. بعدها تفرّق من كُتب له أن يعيش من الرفاق في شتّى أصقاع الأرض، كُلّاً تحت نجمة.

# أيّام الشام.. مراجعة مع الذات

وصلتُ إلى دمشق من العاصمة طهران بجواز مزوّر يوم 15 آب من عام 1988، مكسوراً مهزوماً من نتائج تجربة فاشلة قادتنا إلى التشتت والتشهير، والتي وصلت امتداداتها إلى أرض الشام، فالصراع محتدم بين يميني ويساري إلى حدّ كسر العظم في الطعن والمقاطعة، طرف يكيل الاتهام للطرف الآخر. وبين خطّ وطني يدافع عن العراق وحربه ضد إيران وبين خط يعوّل على إيران باحتلال أرض العراق وإسقاط النظام.

كانت المعادلة السياسية بين الأطراف صعبة، وليست كل الأطراف صادقة بادعاءاتها ومشاريعها، فقسم منها وعدده ليس قليلاً كانت تُحرّكه أجندة ومصالح وارتزاق بعيداً عن المشاريع الوطنية والأهداف الخيرة. كان الشيوعيون أكثر القوى السياسية على أرض العاصمة السورية دمشق صراخاً وتشهيراً ببعضهم، بين تنظيمات الحزب الشيوعي الرسمية من جهة، ومن جهة أخرى أطراف متعددة خرجت من رحم الحزب الشيوعي برؤى سياسية ووطنية مختلفة، المنبر، التنسيق، شيوعيون عراقيون، جماعة القاعدة، شيوعيون ثوريون، وشخصيات وطنية مستقلة.

لكن كان للحزب الشيوعي الرسمي سلطته في إدارة دفة الصراع بحكم ارتباطه بجهات سورية متنفذة، أي تماشياً مع الموقف السوري بالتضامن مع إيران في حربها على العراق ومحاولة احتلال أراضيه، أما الأطراف الأخرى من الصراع، فكان موقفها من الحرب العراقية الإيرانية مختلفاً باعتبار إيران متعنّتة بموقفها وأنها ضدّ دعوات المجتمع الدولي وأن محاولاتها مستمرة

في احتلال أرض العراق، ولهذا كانت تلك التنظيمات تتعرّض إلى مضايقات للحدّ من نشاطها السياسي والإعلامي.

كان الكلّ يتّهم الكل بشتى التُهم، مع نشر الغسيل القذر على الملأ، وقد وصل الحدّ ببعض المتنفذين والناقمين إلى إعلان المقاطعة الاجتماعية بحقّ بعض المناضلين ومحاولة تجويعهم والمسّ بجوهر موقفهم الوطني، وما أكثر المتملقين والساذجين في تلك الفترة المهترئة من سفر تلك الأيّام من الأحداث.

كنت خارجاً للتوّ من رائحة واختناقات السلاح الكيمياوي في مقرّات الاتحاد الوطني، قادماً إلى دمشق حالماً بوضع سياسي آخر يكون أكثر وعياً وتسامحاً وعمقاً، هناك وهمٌ كبير جداً عند بعض الناس، بأن الشيوعيين يتفرّدون بخصال تنظيمية بعيداً عن البيروقراطية والإقصاء والثأر والتشهير، فلم نكن إلّا جزءاً من مجتمع مضطرب يشكو من عقدة صراع بين البداوة والحداثة وبين الجذر الديني ونهج العلمانية، إذ نتباهى بالاستهزاء بمعتقدات الآخرين بعيداً عن رؤية موضوعية وفهم ذاتي لمتطلبات السياسة والعصر والبناء، وما زالت تلك الأحداث حاضرة في ذاكرتي ربما لبشاعة تفاصيلها ونحن رفاق حزب واحد.

في الشام، توفّرت لي فرصة أن أكون أكثر قرباً من مفكري وقادة الحزب التاريخيين عامر عبدالله، باقر إبراهيم، حسين سلطان، عبد الوهاب الطاهر، بهاء الدين نوري، عبد الحسين شعبان، غضبان السعد، عبد الرحمن القصاب، وآخرين بمستويات مختلفة من الرفاق خارج أو داخل التنظيم فالأمر سيان، كنت أسمع منهم في الأماسي الليلية ومقاهي الروضة وهافانا استقراءات عن الوضع السياسي العراقي ومجريات الحرب والموقف من النظام ووقائع المؤتمر الرابع والصراع الداخلي وموضوع الحوار مع البعث وقيام الجبهة الوطنية والقومية التقدمية، تماماً غير الذي كنا نقرأه بأدبيات الحزب وصحافته

اليومية والتوجيهات الحزبية التي كانت تصلنا إلى كردستان في الجبل، وأيضاً أيام العمل الحزبي من يوميات الجبهة الوطنية.

في دمشق اطلعت على أعداد من جريدة (المنبر الشيوعي) التي كانت حركة احتجاجية ضدّ توجهات القيادة الرسمية انطلقت بعد المؤتمر الرابع، وقد ضمت ماجد عبد الرضا ونوري عبد الرزاق ومهدي الحافظ وعبد الحسين شعبان، وعشرات من الرفاق في مستويات مختلفة، وكان بعض القياديين الذين تمّت تنحيتهم يتعاطفون مع ما تكتبه، وقد عُرفت المجموعة بموقفها الوطني من الحرب العراقية الإيرانية وتنديدها بالمشروع الإيراني.

لكن الذي أرعبني ودعاني إلى إعادة النظر بتاريخنا بعد أحداث عام 1963 وبمسيرتنا الإنسانية والنضالية هو تساؤلي عن سبب وصولنا إلى هذه القسوة من التعامل الرفاقي والإنساني، فإن مجرد خلاف في وجهات النظر حول السياسة والموقف والتنظيم وما جرى ومُورس ضد الرفيق حسين سلطان (أبو علي) على أرض دمشق من رفاق الأمس؛ سيكتب عنه التاريخ بألم وإدانة وعار، فرفيق بثقل أبي علي الذي أفنى حياته للحزب وخسر أولاده من أجله، وهو بطل حفر نفق سجن الحلة والهروب منه عام 1967، تُقطع عنه المعونات التي كانت مصدر رزقه الوحيد بعد أن بلغ من العمر عتياً، وإن تآمر الرفاق على مقاطعته حزبياً واجتماعياً وعلى تشويه مواقفه الوطنية ما هو إلّا جريمة حزبية يعاقب عليها النظام الداخلي، وأخيراً ينتهي به الأمر على العيش في سرداب رطب في أحقر أحياء دمشق وفي شتاء قارص من ليالي دمشق الباردة، بدون ذرة ضمير ولا حياء من رفاقه.

كان صراعنا الداخلي قاسياً ومؤذياً ودموياً، مما أثار استغراب واستهجان وأسئلة الرفاق والمناضلين من أحزاب وقوى سياسية أخرى، فكانوا يلوموننا على تصرفاتنا، فكيف لنا نحن الحزب المناضل الذي تعرّض رفاقه إلى التهميش والاضطهاد والمطاردة من سلطة البعث أن نسمح بتحويل صراعنا

الداخلي وقضايانا التنظيمية ووجهات نظرنا الفكرية المعارضة إلى ذمّ وتشهير واتهامات وإبلاغ سلطات البلد المقيمين فيه بتهم مختلقة؟ كل ذلك كان مردّه، وفي تقديري الشخصي وقربي من الأحداث، دوافع وأجندات ومصالح وأهداف، للقضاء على بريق الحزب وتاريخه الناصع بمسيرته النضالية.

كنا في زمن مضى نحن الشيوعيين ننظر إلى أنفسنا بمبالغة على أننا جُبلنا من طينة خاصة حرّة، نتقدم الصفوف ليس فقط بموضوع الشهادة والنضال العنيد، بل أيضاً بالحنكة والدهاء في السياسة والمواقف الإنسانية، لكننا نتاج بيئة وثمرة تربة مريضة. العراق تاريخياً حكمه 227 بين والٍ وسلطان وخليفة وملك ورئيس، أي بمعدل 6 سنوات لكل حاكم. ومن يوم بناء مدينة بغداد التي مضى عليها 1253 عاماً كان من بين هؤلاء الحكام فقط 6 عراقيون، وأغلبهم مات مقتولاً، ولم يتخلّ أي منهم عن كرسيه أمام إرادة شعبه ومصلحة وطنه، فكانت أطول مدة تولّى الحكم فيها الخليفة العباسي الناصر لدين اللّٰه وهي 47 عاماً، أما أقصر مدة فكانت للمرتضى باللّٰه العباسي ابن المعتز فقد كانت يوماً واحداً، إذ وُجد مقتولاً في قصره. والمستنصر باللّٰه آخر خلفاء الدولة العباسية، عندما نقلت له حاشيته نيّة المغول باحتلال بغداد ووضعت له خطة في مواجهة الغزو، وبدأت بها، تراجع عنها لتكاليفها الباهظة. فبدأ بجمع الذهب والأموال لتعينه في آخر عمره، لكنها لم تنفعه بشيء، فاحتُلّت بغداد من قبل المغول وقطعوا رأسه واستولوا على الأموال والذهب، أما النساء فقد تمّ تزويجهن بالمغول.

إننا امتداد لهذا التاريخ، فما كنا نقوم به تجاه رفاقنا ما هو إلّا هذا التاريخ الموغل في القدم، لا يهمّ إن كنت ماركسياً أو قومياً أو بعثياً أو إسلاموياً، فإن دوافع التاريخ وأثره في الأحداث الدرامية هي التي تتحكم في سلوكياتك اليومية، إن كنت مرشحاً أو سكرتير حزب أو حمّالاً، فلم نتجرأ نحن الشيوعيين على كتابة تاريخنا، وإن كانت قد كُتبت نتفٌ منه عبر مذكرات شخصية، لكنها بقيت بعيدة عن صلب القضايا المهمة ومحطات الفشل، وإن أقدمنا على

كتابته، وهذا ما حدث في بعض المحطات، فكان في أغلب فصوله غير صحيح ولا يمتّ بصلة إلى الأمانة التاريخية والنضالية.

لم يُكتب التاريخ بأمانة طالما هناك انتهازيون ومنافقون ومتملّقون وصبيان يعتبرون باقر إبراهيم، حسين سلطان، عامر عبدالله، بهاء الدين نوري، آرا خاجادور، والقائمة تطول، متعاونين مع الجلاد، وقد همّشوا دورهم في صناعة هذا التاريخ الشيوعي العراقي لأنهم عبّروا عن موقفهم النضالي من محنة وطن أو خلافات فكرية أدت بهم إلى خارج حلبة التنظيم، وهؤلاء وعشرات من الكوادر المتقدمة يبقون جزءاً مهماً من تاريخ الحزب وضميره، فقد جسدوا معايير الأخلاق في الحياة والرفقة والأمانة.

لو جرّدنا الموقف من جانبه السياسي (البراغماتي)، كان علينا نحن الشيوعيين أن لا نراهن فقط على تاريخنا المجيد وسجل شهدائنا في تاريخ العراق، هذا لا يكفي أن تتصدر به المشهد السياسي المهترئ، كان لزاماً علينا أن نطرح مشروعاً سياسياً وطنياً نُعيد به مجدنا الوطني في مقارعة الاستعمار والإقطاع والموقف من الاحتلال الأمريكي ومقاومته بشتى الطرق والوسائل، لنثبت لجماهيرنا وشعبنا صدق نوايانا ومبادئنا وماركسيتنا في النضال الوطني.

كانت الجماهير تتلهّف لسماع صوتنا ووجودنا، لكننا أخفقنا في تحمّل هذه المسؤولية الوطنية. ولفراغ الشارع العراقي من قوّة مؤثرة، فقد ذهبت هذه الجماهير يائسة إلى تنظيمات أحزاب الإسلام السياسي المتخلّفة لتخلق لك ندّاً جديداً في العمل السياسي تحت يافطة العملية السياسية الطائفية الأمريكية، كان واجباً علينا أن ندينها ونرفض الجلوس على مقاعدها الركيكة جملة وتفصيلاً، بعيداً عن أية صياغات فلسفية ترهن بها مواقفك، لتضيع بها بوصلتك النضالية والتاريخية.

لقد ولّد هذا الموقف تداعيات خطيرة على تاريخ ومستقبل الشيوعية في

العراق، بعد أن كانت متصدرة للمشروع النضالي الوطني ضدّ كل المعاهدات والأحلاف الاستعمارية التي تُحاك للمساس بوحدة أراضي وسيادة المنطقة في المختبرات الأمريكية ومافياتها التي انتهكت حرمة حدود بلد وعرّضت أهله للدمار بغض النظر عمّن يحكمه، فالعراقيون الأقحاح والقوى الوطنية هُم أولى بتدبير أوضاع بلدهم وإدارة شؤونه، لكن لم يكن هناك صوت عال مدوٍّ في وقف هجمة الجراد الأمريكي، إيماناً بذلك التاريخ المجيد وقوافل الشهداء، ومن وقف بالكلمة والسلاح والرأي ضد الغزو والاحتلال، انسجاماً مع إيمانه ومبادئه، نشروا حوله كل سموم الماضي التعيس وإخفاقات تجاربه بعد أن وجدوا أنفسهم غارقين في عملية سياسية قذرة بكل تفاصيلها المملة والمخزية، وبرهنت تفاصيل أوضاع العراق السياسية عن العجز التام في النهوض بمشروع وطني تنتمي إليه كل طاقات العراق الخلاقة من جماهير وشبيبة وعمال باتجاه مطالبة المحتل بمغادرة الأراضي العراقية، عبر منظمات المجتمع المدني وحقوق الإنسان والأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي، وكنا عاجزين عن حمل السلاح لمواجهة المحتل وفضح نواياه وتعرية أساليبه، هذا الإخفاق النضالي السياسي في إعلان موقف صريح من الأحداث مقترناً بمواقف عملية تبرهن نيتنا الصادقة في حمل هذا المشروع. انتعشت مشاريع الإسلام السياسي المتخلف، بعيداً عن روح المواطنة وقيم الوطن، وهذا برهان آخر على غيابنا الفعلي عن الشارع العراقي وضعف بصيرتنا.

في دمشق عام 1988، بدأتُ أشعر بخطورة العداء للوطن والتآمر عليه من خلال أفواج من المروجين لمشاريع النيل من العراق ومقدساته بجريرة القضاء على نظام الدكتاتور صدام حسين، هنا اختلط مفهوم الوطنية بين من يحاول تشويه الموقف من الوطن والدفاع عنه وبين من يستهدف هذه الأصوات بربط عجلة تاريخ العراق وأرضه بنظام صدام حسين. أخذ الصراع السياسي بيننا، نحن الشيوعيين، على أرض دمشق فترات واسعة وحادة بين من يدعو إلى الدفاع

عن الوطن، وكانت النيات صادقة برهنتها الأيّام والسنين، وتصدّر رموز هذا الدفاع الوطني زكي خيري وباقر إبراهيم وعامر عبدالله وآرا خاجادور وماجد عبد الرضا ونوري عبد الرزاق ومهدي الحافظ وعبد الحسين شعبان وعدنان عباس وآخرون؛ وبين من يحاول تسويق مشاريع وأجندات تستهدف وحدة العراق وأراضيه عبر الإساءة إلى هذه الرموز الوطنية وتحدياتها المستقبلية.

بالعودة إلى إقامتي في دمشق، بعد أن خرجت من طهران يوم 15 أب عام 1988 بجواز سفر عراقي مزوّر إلى العاصمة دمشق، كان في استقبالي أبناء قريتي، وعلمت السلطات السورية بقدومي وطبيعة هويتي السياسية، فلم يشكل جوازي المزور عائقاً أو سؤالاً عن شخصي، خرجتُ من المطار فوجدت في انتظاري كلّاً من: جهاد كاظم، الدكتور عزيز الشيباني، خضر عبد الرزاق السعدي، حاتم جعفر، ومنذ الوهلة الأولى شعرت بالأمان عشت طيلة فترة وجودي مع الدكتور عزيز الشيباني وخضر عبد الرزاق السعدي في جمع شامل جميل ومتواضع في منطقة (ركن الدين).

في سوريا وصل للتوّ جمع من الرفاق الأنصار الذين نجوا من خطورة السلاح الكيميائي، وكان البعض منهم مستاء وناقماً، لكن موقفه تغير بمجرد أن لوّحوا له بزمالة قادمة، فتحوّل إلى رفيق معادٍ ضدّ من تقاسم معه رغيف الخبز اليابس وصحن الفول في مطاعم المرجة الشعبية في دمشق. لم استغرب من تلك المواقف تحديداً، وذلك بعد سنوات من اطلاعي وقراءاتي حول الشخصية العراقية وازدواجيتها، وهؤلاء كثيرون.

طيلة بقائي في دمشق لم يحالفني الحظ في الحصول على عمل، وبقيت معتمداً في العيش على مساعدات الأصدقاء والقريبين. كانت أجواء سوريا مشحونة بالخلافات السياسية بين قوى المعارضة العراقية في الموقف من الوطن والحرب بين الأطراف العراقية المتناحرة، فالكل يتّهم الكل في مهادنة الدكتاتورية ومحاولات من دول صديقة ومنظمات ثورية وحركات تحرّر

وشخصيات وطنية في تنقية الأجواء، كانت بصمات قرارات المؤتمر الرابع المجحفة واضحة على طبيعة ما يجري من صراعات لم تخلُ من التهميش والتشهير والمقاطعة.

كان شخص واحد، هو فخري كريم، مستفرداً بمنظمة الحزب الشيوعي، فكان سخيّ الكف مع جهات قراراتها تحكم وبعضها مشبوهة، لأن المال والقوة والعلاقات كانت بيده، ومن خلالها يتحكم بإرادة الحزب وقراراته المصيرية. كان وضعي المادي في سوريا يصعب يوماً بعد يوم، وبمبادرة طيبة من الراحل عامر عبدالله حصلت على جواز يمني، تمكنت به من السفر إلى براغ لأكون ضيفاً في بيته لعدة أيام لترتيب خطوات سفري إلى العاصمة وارشو ومنها إلى مملكة السويد استقراري النهائي.

# دمشق وبـراغ وعامر عبد اللّه

بودّي، ومن باب الاعتزاز، أن أقدّم مديحي للرفيق عامر عبداللّه، الشخصية الشيوعية والمفكّر الأهم ـ وربما الأوحد ـ في تاريخ الحركة الشيوعية العراقية على امتداد صفحات تاريخها. وعلى الرغم من أن كتاب الدكتور عبد الحسين شعبان (عامر عبداللّه: النار ومرارة الأمل) أفاض في تحليل جوانبها المختلفة ولم يترك شاردة أو واردة إلّا وجاء عليها، ولكنني من باب الوفاء أيضاً أتوقّف عند بعض المحطّات انطلاقاً من تعرّفي عليه شخصياً ورعايته لي عند لقائي الأول به في دمشق.

ولد عامر عبداللّه عام 1924 في مدينة عانه لواء الدليم (محافظة الأنبار) في عائلة عربية عريقة في تقاليدها وانتمائها الوطني. انتقل إلى العاصمة بغداد في مقتبل شبابه وانخرط في العمل السياسي في سنٍّ مبكرة، وفي بغداد تعرّف على ابن مدينته (عانة) عزيز شريف رئيس حزب الشعب وصاحب جريدة الوطن، وبسبب ظروفه الصعبة في المدينة، أمّن له ابن مدينته المذكور سكناً داخل بناية جريدة الوطن بين أكوام الورق وركام المطبعة. ومن نوافذ هذا السكن المتواضع بدأ عامر يرصد الأحداث ويكتب ويحلّل إلى أن توصّل إلى المشاركة في المظاهرات ضدّ سياسة النظام الملكي، مما عرّضه إلى الملاحقة والاعتقال، فسافر إلى بيروت بعد رؤيته مشانق إعدام قادة الحزب الشيوعي العراقي (فهد، حازم، صارم، يهودا صديق)، في 14 شباط 1949.

في بيروت تعرّف على قادة الحزب الشيوعي اللبناني وعلى شخصيات من

القوى الوطنية واطّلع على ظروف البلد السياسية مما قرّبه من الفكر الماركسي والتعمّق به، عندما عاد إلى بغداد انضمّ إلى الحزب الشيوعي العراقي وتدرّج إلى أعلى مراتبه ليصبح من أهم قادة الحزب وألمع مفكّريه.

لقد ظلّت ذاكرتي مكتظّة بصور مختلفة الأبعاد عن عامر عبدالله تشوبها بعض الالتباسات في ألوانها انطلاقاً من لغط حزبي ومحاولات تشويه، إلى أن التقيته في دمشق عام 1988، في بيته الكائن في منطقة ركن الدين فوجدته كما قرأتُ عنه وكما شاع صيته ونقله لي بعض الأصدقاء المقرّبين إليه الذين لمسوا فيه تواضعه الكبير ودماثة أخلاقه وبساطته المتواضعة وعمق موسوعته الفكرية والسياسية وقدرته على تحليل الأحداث وأبعادها التاريخية، بالضدّ من محاولات تشويهه واتهامه.

كثرت لقاءاتنا بحكم زياراتي المستمرة إلى بيته في دمشق، وتعزّزت معرفتي به بعد أن علم أنني ابن أخت الشهيد الضابط الشيوعي خزعل السعدي، واطلاعه بشكل مفصّل على مواقفي وعلمه بأني تعرّضت إلى الاعتقال في بناية الشعبة الخامسة وأساليب التعذيب في ذاك المعتقل التي نجوت منها بأعجوبة.

في أحد اللقاءات، وبعد التطرّق إلى ظروف حياتي المعيشية الصعبة في دمشق، بدأ الرجل يقترح عليّ جملة حلول لمساعدتي في ترتيب حياتي كي أتجاوز الأزمات التي لاحقتني بدءاً من تجربة الجبل إلى التسلل إلى بغداد والاختفاء فيها، وصولاً إلى ظروف الاعتقال وانتقالي إلى دمشق حيث لا أفق يلوح بحلٍّ قريب لوضعي المعيشي وأنا المقيم فيها بلا عمل ولا إنتاج.

كان أكثر الحلول الممكنة هو حصولي على جواز سفر «يمني» لأتمكن من خلاله السفر من سوريا باتجاه أوروبا، صادف ذلك في وقت صعب قرّرت فيه الحكومة اليمنية الجنوبية وقف منح جوازات سفر إلى العراقيين والفلسطينيين لضبابية مواقفهم ونتيجة لتداعيات الأحداث الخطيرة التي شهدتها اليمن

والاقتتال الداخلي بين رفاق الأمس مما أدى إلى ضياع أفق تلك التجربة الفريدة من نوعها في المنطقة.

في مطلع العام 1989، سافر الراحل عامر عبدالله إلى العاصمة عدن تلبية لدعوة رسمية من حكومة اليمن الجنوبية الجديدة (علي سالم البيض) وذلك للاطلاع على مقتضيات الوضع الجديد بعد حمامات الدم التي سالت في شوارع عدن إثر اقتتال داخلي بين الرفاق في شهر يناير 1986 قُتل على أثره كل من عبد الفتاح إسماعيل وعلي عنتر وعلي شايع هادي، وقد حُسمت المعركة بعد مغادرة علي ناصر محمد ورفاقه من عدن وهم من مثّل الطرف الثاني في الصراع والتصفيات، ليستقرّ بهم الحال في دمشق العاصمة.

وبهدف وضع خطّة خمسية لتجاوز عقبات أحداث الماضي والنهوض بالبنى التحية للبلد وعدني حينها بأنه فور وصوله إلى عدن سيبذل قصارى جهده مع المسؤولين ليحصل لي على جواز يمني. وهذا ما حصل بالفعل، فبعد أيام من وصوله العاصمة اليمنية اتصلت بي السيدة (أم أريج) زوجته وأبلغتني، مع باقات تهانٍ، بأنه تمت الموافقة على حصولي على جواز السفر اليمني، وما عليّ سوى الذهاب إلى السفارة اليمنية في دمشق مصطحباً معي صوراً شخصية لاستلام الجواز.

بعد أيام عاد الراحل عامر عبدالله إلى العاصمة دمشق حاملاً في ذهنه عبئاً ثقيلاً من تداعيات الأحداث في اليمن وأسفاً على ما أصاب هذا الشعب من ويلات وتشظٍّ وضياع للتجربة ومواقف الرفاق هناك، فأعلن عن رغبته في الانتقال إلى العاصمة التشيكية (براغ) قائلاً: سأقضي آخر عمري هناك وسأُجهد نفسي في كتابة مذكراتي حول تجربتي السياسية، وأضاف: سأتقصّى من الرفاق هناك عن الفرص وسأعلمك بالأمر لكي تتمكّن من المجيء إلينا.

في غضون عدّة أسابيع، استلمت رسالة من باقر إبراهيم (أبي خولة)

طلب مني فيها التوجّه إلى العاصمة (براغ). فرحت جداً بالخبر وحزمت أمتعتي وحقائبي وتوجهت إلى العاصمة التشيكية. وفي 15 أيار من عام 1989 وصلت أرض مطار (براغ)، وكان في استقبالي هناك الراحل عامر عبدالله الذي اصطحبني بسيارة أجرة إلى بيته الجميل في أطراف المدينة. في مساء اليوم ذاته، التقيت بالرفاق بسهرة في قصر الثقافة التشيكية، وكان بالإضافة إلى عامر عبدالله، الراحل حسين سلطان، عدنان عباس، عبد الحسين شعبان، رواء الجصّاني، نجم الدليمي وآخرون. مكثت في براغ الجميلة ما يقارب العشرة أيام كنت فيها أتجوّل يومياً في شوارع المدينة وألتقي برفاق وأصدقاء وأحبّة.

كانت الشوارع تغصّ بالشبيبة الشيوعية الذين كانوا سعداء ومسرورين، يتعانقون بقبل طويلة تعبيراً منهم على حبهم للحياة، ولكن لم يخطر ببالهم أنه، وبعد عام، ستُغتال تلك التجربة، والأحاديث التي تستهوينا، والطاغي هو العراق ونيّة النظام في توجهات جديدة حول التعددية والمفاوضات بعد نهاية الحرب العراقية ـ الإيرانية، ووصول الوسيط الدائم للوساطة والمفاوضات، الشخصية الشيوعية مكرم الطالباني حاملاً في جعبته توجهات جدية للخروج من الأزمة والعودة إلى الميثاق الوطني. تلك التطورات وغيرها قلّلت من اندفاعي نحو التوجه إلى مملكة السويد التي كنت أنوي اللجوء إليها آملاً بإيجاد صيغ للتفاهم والإعلان عن انفراج سياسي قريب، ففضّلت العودة إلى بغداد بدلاً من التوجه إلى طلب لجوء سياسي.

وقد كان بالفعل هناك توجّه عام بهذا الاتجاه تضمّن الحزبين الكرديين: الاتحاد الوطني الكردستاني والحزب الديمقراطي الكردستاني. ولكن هذا المشروع أحبط في اللحظات الأخيرة، عندما حمل الراحل عبد الرزاق الصافي وثيقة الاتفاق، إلى العاصمة دمشق، حيث توقف كل شيء وانتهى!

كان الراحل عامر عبدالله لا يخفي توجّسه من وجود أزمة فكرية وسياسية حلّت في بنية الحزب وتطلعاته وعلاقته بجمهوره، وهذا ما حصل في خيمة

المؤتمر الرابع للحزب الشيوعي العراقي في منطقة (آرموش السفلى)، التي شبهها عبدالله بأحداث قاعة الخلد عام 1979، عندما أعدم صدام حسين رفاقه. ففي تلك الخيمة (خيمة المؤتمر الرابع) تم عزل 26 عضواً من اللجنة المركزية، شمل حتى من رحل عن الحياة. وعيّن عزيز محمد نفسه سكرتيراً للحزب وقام باختيار عشرة رفاق جدد للجنة المركزية أُطلقت عليهم تسمية «العشرة المبشرة بالجنة»، واستمروا في مهامهم لسنوات طويلة.

بعد كل ما عايشتُه من تلك الأحداث، بدأت أبحث عن مخارج للوصول إلى السويد، فذهبت برفقة الدكتور عبد الحسين شعبان إلى السفارة البولندية في العاصمة براغ للحصول على فيزا لجوازي اليمني، وبسبب غياب السفير اليمني تعرقل الأمر، ولدى عودتنا إلى منزل عامر عبدالله، توصلنا إلى حل قام به الدكتور شعبان فحصلت على الفيزا. بعد يومين، ودّعني الراحل عامر عبد الله في المحطة العالمية لحركة القطارات المتجهة إلى العاصمة وارسو لأصل إليها في يوم 3 حزيران 1989 بعد رحلة مضنية وصعبة على متن باخرة بولونية عملاقة.

عاش الراحل عامر عبدالله آخر أيامه في العاصمة لندن، ولم تنقطع زياراته الدائمة إلى العاصمة ستوكهولم وحلوله ضيفاً عند قريبته السيدة هيفاء (أم هند)، وكنت ما زلت على تواصل دائم معه حتى تاريخ رحيله المرّ في شقته بالعاصمة لندن يوم 29 كانون ثاني من عام 2000 وحيداً يعاني من القسوة والإجحاف والإهمال. وما زال السجال قائماً حول ظروف رحيله الغامض. ولعلّ أهم ما صدر عنه هو كتاب الرفيق عبد الحسين شعبان الموسوم (عامر عبدالله ـ النار ومرارة الأمل)، 2014. وقد كُتبَت عنه أطروحة ماجستير في بغداد حول منجزاته الفكرية الكبيرة ودوره الرائد في السياسة ورؤيته الثاقبة للأحداث.

لقد تفجّر الصراع الداخلي (الحزبي) بسبب تباين المواقف والآراء في

ظروف كان يفترض على الشيوعيين أن يرصّوا صفوفهم لمواجهة وتحدّي متطلبات مرحلة جديدة من النضال السياسي في العراق، بعد تلك الإخفاقات التي تعرّض لها نتيجة التقديرات الخاطئة في المنعطفات المهمة في مسيرة شعبنا. وعن ملابسات وتقاطعات تلك الفترة يمكن الرجوع إلى العديد من الوثائق الحزبية سواء لقيادة الحزب نفسه وردّه على المعارضين أو وثائق المعارضة الحزبية، خصوصاً رسائل عامر عبدالله وباقر إبراهيم وعدد من القياديين، إضافة إلى جريدة المنبر الشيوعي التي احتوت على مطارحات ونقاشات فكرية وسياسية، وخصوصاً بالموقف من الحرب العراقية ـ الإيرانية.

# حول التحالف مع البعث

يجب الحديث بداية عن القيادة المركزية التي ارتبط اسمها بالرفيق عزيز الحاج مع الآلاف من الكوادر الحزبية في منطقة بغداد والمحافظات الأخرى. وكانت بعض قلاع البعث قد تعرّضت إلى هجمات عسكرية من قبل أعضاء ومؤيدي القيادة المركزية في العاصمة بغداد مع تنامي حركة الكفاح المسلح في الأهوار جنوب العراق.

في المقابل، شنّ البعثيون حملة اعتقالات وإعدامات واسعة بين صفوف مؤيديهم طالت عزيز الحاج نفسه، بواقعة مشهودة هي ظهوره على شاشة التلفزيون العراقي مُدلياً بموقفه السلبي الذي لا ينسجم مع قوة واتساع تلك الظاهرة السياسية، ممّا شتتها وزرع بذور الخلافات بينها وأضعف موقفها لأنه كان رمزها وواجهتها. وهنا يعكس دور القائد التاريخي في قيادة الكتلة.

ارتبط حدث تنظيمات القيادة المركزية بعدة عوامل وتجارب وظروف موضوعية وذاتية، بالإضافة إلى الوضع الدولي والحركات الثورية في أمريكا اللاتينية، حتمية تشكيلها وإعلانها. بعد وقوع هذه الأحداث وحتى الآن، لم أقرأ وثيقة موضوعية وتشخيص دقيق لمجرياتها وظروفها السياسية بعيداً عن السطحية والتنافرات الشخصية، ما يخدم تاريخ الشيوعيين ومآثرهم النضالية. وقد شكّل كتاب (المقايضة) لقائدها اللاحق إبراهيم علاوي منعطفاً في تحديد مساراتها والعوامل السياسية في انطلاقتها والظروف الدولية في خنقها وتشويهها.

وظلّ الكثيرون ينظرون إليها على أنها ملك لعزيز الحاج وأنها مرتهنة بموقفه متناسين شهداءها وكوادرها ومناضليها، بعيدين عن أي تقييم منصف لها ولتاريخ مناضليها. وقد شكّلت على مرّ السنين ظاهرة سياسية مهمّة في تاريخ الحركة الشيوعية العراقية، بل العالمية. وقد عجّلت تلك الأحداث بتصاعد وتيرة المفاوضات بين الشيوعيين والبعثيين لعقد ميثاق العمل الوطني، بالرغم من ارتفاع صوت الحسّ الشعبي المعارض في الشارع العراقي الذي لم ينسَ أنهم مجرمو أحداث جمعة 8 شباط 1963، فكيف يأمن الشيوعيون ويضعون أيديهم بأيدي أولئك المجرمين ذوي التاريخ الملطّخ بدماء أبناء الشعب وقواه الوطنية، الدماء التي لم تجفّ في الشارع العراقي وداخل بيوته. وموجات الاعتقالات والاغتيالات بحقّ رفاق الحزب وجماهيره التي لم تهدأ.

ولم يكن للشيوعيين من سبيل للتنفّس إلّا في إطار عمل يتحركون من خلاله ويؤمّنون حياة رفاقهم، ولم تكتمل فرصتهم بتوقيع ميثاق العمل الوطني الذي تم في 16 تموز 1973 والذي اعتبره الشيوعيون عرساً وطنياً وإنجازاً تاريخياً لنتاج تضحياتهم ونضالاتهم الطويلة. فقد روى لنا الراحلون سامي يحيى ومعلم يحيى وحسين المولى حجم المظاهرة في شوارع بغداد فرحاً وابتهاجاً بتوقيع الجبهة مع البعثيين، وكانوا ضمن الحاضرين في هذا الكرنفال، ولكن ما لبثوا أن غيّروا مواقفهم بالاتجاه المضاد لسوء نوايا هذا المشروع وأصبحوا خارج التنظيم، وأطلقوا عليه لقب «الولد اليتيم».

نتيجة لسوء نوايا هذا المشروع وفشله، بدأ الشيوعيون بالتحرّك بحُرّية محفوفة بالمخاطر، رغم النشاطات والفعاليات التي كانوا يقيمونها بمناسبات وطنية وغير وطنية، داخل البلاد وخارجها كأعياد نوروز في 21 آذار، وبيان 11 آذار حول الحكم الذاتي لكردستان العراق، 31 آذار يوم تأسيس الحزب، ثمّ 16 تمّوز ذكرى قيام الجبهة، وغيرها..

وقد جرت لي حادثة أكّدت حجم التجاوزات في ذلك الوقت، فمنذ أن

كنت طالباً في الثالث المتوسط في متوسطة تدمر في الهويدر، عندما سألني أستاذ يحيى، البعثي المتعجرف، دون الطلبة الآخرين، عن رأيي في مشروع الجبهة الوطنية والقومية التقدمية، أجبته بأنها ثمرة من ثمرات نضال شعبنا، ولم يدَعني أكمل الجملة حيث تولى هو إكمالها بأن البعث راعيها ومؤسسها وقائدها طالباً مني الجلوس في مكاني وشرارات الحقد تتطاير من عينيه المصوّبتين عليّ كسهمين مسمومين.

في اليوم التالي، ذهبتُ إلى مسؤول خليتي الحزبية موفق الشيباني، ورويت له الحادثة، فلم يكن لها وقعها وحجمها لكثرة التجاوزات والسلوكيات. كنت أواجِه بقول الحقّ دون أن أخشى فيه لومة لائم. في حادثة أخرى جرت لي في مدرستي وبعد أيام معدودات من سابقتها، كنت واقفاً في ساحة المدرسة مع مجموعة من زملائي الطلبة حين توجه الأستاذ يحيى باتجاهنا مع الطالب البعثي جبار، ابن صديقه رئيس الاتحاد الوطني (البعثي)، بوجهه العبوس وعجرفته المعتادة، وتوجه بالكلام إليّ متهماً إياي بإنشاء تكتلات ضدّ مسيرة الثورة وصفعني على وجهي بقوة جعلت الدماء تتدفق من أنفي.

وصل الخبر إلى أهلي فتوجهوا إلى بيته الكائن وراء مدرسة الوثبة في بعقوبة، وبوساطة من جيرانهم، بيت بنت خالتي أم الشهيد ماجد هاشم الياسين، نتجت بعدها معاملة حسنة معي بتخفيف خشونته، إضافة إلى قرب نهاية العام الدراسي الذي سأنتقل بعده إلى ثانوية الانتصار في مدينة بعقوبة، حيث تعرفت هناك على أساتذة جدد وأجواء مختلفة وكان من ضمن من تعرفت إليهم الشيوعي صلاح وهابي. في خضم تلك الظروف والأوضاع والصعاب، استوعبنا معاني الانتماء السياسي والمسؤولية في الحفاظ عليه من خلال التعمق بالقراءة حول الأدب الماركسي والبيان الشيوعي وتجارب حركات التحرر وقوى التقدم وملحمة (كومونة باريس) ودروسها الغنية في آلية استلام السلطة، وصداقات جديدة وآراء

مختلفة حول الجبهة والمواقف، وكان الشهيد الشاعر خليل المعاضيدي هو الرائد في تلك الأمور.

كنا طيلة العمل الجبهوي في القرية، نعاني من مشكلة عقد الاجتماعات بسبب المضايقات اليومية من البعثيين ودسّ أنوفهم في الصغيرة والكبيرة، وكانت بساتين الهويدر المكان الوحيد الآمن لعقد تلك الاجتماعات حيث كنا نجلس تحت فيء أشجارها وسعف نخيلها وثمار فاكهتها المتدلية من فوق رؤوسنا المنحنية لكتابة المحاضر الحزبية التي نختمها بالتقرير المالي. كان البعثيون يفتعلون المشاكل معنا، بدءاً من نظرات الاستفزاز اليومية والإزعاج، وصولاً إلى الكلام الجارح.

واحدٌ من تلك النماذج كان حسين محيي المعروف بـ (حسين نسيمة)، هكذا كان يُكنّيه أهالي القرية، باسم أمه، وكانت أم الشهيد (وليد سيبور) تنعته بالمسلول أو الأثول، تهكّماً وسخرية، كما كانت تفعل حين تسخر من البعثيين جميعاً أثناء اجتماعنا في منزلها مع الراحل عصام زهدي. وكانت أم وليد قد فُجعت بفقدان ابنها وليد زوج كميلة ابنة نملة، الذي قتله البعثيون رمياً بالرصاص بسبب هروبه من الخدمة العسكرية أيام الحرب.

بالعودة إلى حسين نسيمة فقد كان عضواً متفرغاً في الحزب رغم أنه لا يفقه شيئاً من أمور السياسة، وكانت مهمته محصورة يومياً من الساعة العاشرة صباحاً، أي بعد أن يوصل الرفيقة سعديّة بنت طيرة خطيبته إلى وظيفتها في بعقوبة (البريد المركزي القديم)، إلى وقت متأخر من الليل واقفاً في مداخل القرية زارعاً الطريق جيئة وذهاباً، متأبطاً جريدة الثورة التي ربما لم يقرأ حرفاً واحداً منها، حتى أنه كان يحمل العدد نفسه لأيام عدة يراقب الناس ويتطفّل على يومياتهم بأدق تفاصيلها. هو واحد من مجموعة البعثيين الذين تطوعوا بحملة لدعم المشروع القومي والقضايا العربية، وكان من ضمن الذين سافروا إلى لبنان لأداء مهام ما زالت مجهولة النوايا والقصد. وعندما عاد من آخر

تلك المهام تفرّغ، كما سبق وقلنا، لمتابعة أحوال الناس والتطفل على حياتهم اليومية والعامة.

في 9 نيسان من العام 2003 تم إسقاط حكومة البعث، فترك القرية وعاش في بغداد هرباً من انتقام أهالي القرية منه ومن عائلته، شأنه شأن بعثيين آخرين اختفوا من القرية للسبب نفسه، إلّا أن البعض منهم تكيّف مع التغيّرات الجديدة وتصدّر مشاهدها في أجهزة ومؤسسات الدولة الجديدة عبر الأحزاب والعشائر والطوائف والميليشيات.

في ظهيرة يوم 13 من شهر آب اللهاب عام 1983، ولا بأس من ذكر مختصر لما رويته سابقاً، جرت محاولة إلقاء القبض علي من قبل مفرزة استخبارات عراقية، ولكني نجوت بأعجوبة من هذا الأمر، ذلك أنه في اليوم الذي سبق قرار اقتحام منزلي، حذّرني أحد معارفي وهو موظف في واحد الأجهزة الأمنية من أن هناك نية للقبض عليّ، فأخذت تحذيره على محمل الجدّ ليقيني بأن حديثه وتحذيره كانا مقصودين ويخبئان خلفهما أمراً سيحدث لي، وفعلاً هذا ما حصل وكان السبب في نجاتي من الاعتقال.

وقد روى لي بعض المقرّبين من حسين نسيمة عن دوره القذر في البحث عني حيث أقفل منافذ القرية من قبل مجموعة من الشباب لتراقب المقرّبين مني اجتماعياً وسياسياً من أصدقاء ورفقاء، إلّا أنني تخلصت منهم ممّا جعلهم يطلقون الإشاعات الواحدة تلو الأخرى للحدّ من عزيمة الناس وزرع الخوف في نفوسهم. ومما يدعو للخوف ما حصل قبل عام من الواقعة التي استهدفت حياتي، فقد شهدت قرية الهويدر حدثاً مدوّياً سبّب لغطاً وهمساً بين أوساط أهالي القرية وحافزاً لبعض شبابها الناقمين على سياسة البعث، هو إقدام الراحل ستار جاسم حمزة الطائي الجندي الاحتياطي في القاطع الشمالي (قاطع بنجوين) وهو ذو ميول إسلامية، بالتسلل في ليلة دامسة وخلسة مصطحباً سلاحه الشخصي إلى إيران، رغم اشتعال الحرب

على طول الحدود بين البلدين، كما روى لي الحادثة أثناء زيارتي له في منزله في مدينة قم عام 1988.

في تلك الحقبة التاريخية، ظهرت بوادر تحوّل في عقلية الناس باتجاه فكر الإسلام السياسي، بعد أن فرغت الساحة العراقية من أي نشاط سياسي معارض ووطني، لشدة وطء أساليب البعث الدموية تجاه معارضي سياسته الدكتاتورية. لذلك، ومن وجهة نظر البعثيين وأجهزتهم القمعية، فإن ما قام به ستار الطائي هو خطوة وسابقة خطيرة، خصوصاً وأنه ينتمي إلى عائلة وعشيرة الكثير منها محسوب على تنظيمات حزب البعث، ولكن كل تلك الخصال البعثية لتلك العائلة وتاريخها وانتمائها المشهود له لم تشفع لها، حيث احتجزوا العائلة بكاملها لسنوات طويلة ومخيفة. ففقدت أمه بصرها، وعانى أشقاؤه الأمرّين في السجون العراقية ولسنوات، إلى أن اختار البعثيون أحد أخوته (فاضل) ونفذوا به حكم الإعدام بعد سنوات من الاعتقال.

لماذا فاضل؟ حاولت الحصول على معلومات تدلّني على السبب الحقيقي لاختيارهم لفاضل، لكني عجزت عن إيجاد شيء مقنع بعيد عن التأويلات والتقديرات، لربما كان السبب صراحته وجرأته المعهودتين، ففي يوم إعدامه الذي تمّ في بناية الشعبة الخامسة التابعة لمديرية الاستخبارات العسكرية، كنت جالساً في المقهى والليل قد أسدل أستاره على هذا المكان، فلفت انتباهي رجلان يحومان حول مقهى السيد كامل السعدي يسألان عن قريب لتلك العائلة التي غيبتها المعتقلات البعثية بكاملها، وذلك بغية إبلاغهم بالنبأ المفجع، وهذا ما حصل، فقد أبلغوا أقرباءه بإعدامه ومنعوهم من إقامة مراسم العزاء.

بكيت ليلتها بمرارة على الراحل فاضل لودّية العلاقة بيننا و«المناكدات» المستمرة حول إنجازات الشيوعيين، منها أن البعث قد استلم السلطة بعدد يكاد لا يُذكر من الأعضاء، وبأننا نحن الشيوعيين لا نصلح سوى للتنظير.

وكانت تلك إجراءات البعث القمعية تجاه معارضيهم وأسلوبهم للحدّ من جرأة الشباب على الإقدام على خطوات مشابهة لتلك التي قام بها ستار، والتي تعرض بسببها مصير ذويه للخطر والدمار.

أما أنا، فقد كانت قضيتي مختلفة، فرغم اختلاف انتمائنا السياسي وتوجهاتي وطريقة اختفائي وطبيعة الصراع معهم، إلّا أنه لم يكن لديهم أي توجه لحجز عائلتي، بل اكتفوا بممارسة الضغوطات عليها وعلى رفاقي وأصدقائي لمعرفة أخباري ومكان تواجدي وطرق الاتصال بي وقنوات تنظيمي، علمت هذا الأمر من والد أحد المسؤولين الأمنيين الذي جاء إلى منزلنا بزيارة للاطمئنان عليّ، في المرّة الأولى التي زرت بها العراق بعد الاحتلال.

ونقلاً عن ابنه المتواري عن الأنظار بعد الاحتلال رجل المخابرات محمد سلمان الذي حمّله سلاماً لي وتحيات شوق ومحبة، ونقلاً عن لسان محمد سلمان نفسه، فقد كان السبب بسيطاً وجوهريّاً وهو عدم الإثبات لأهالي القرية بأنني كنت خارج مرماهم وتمكنت من الإفلات من قبضتهم. ولم يكتفوا بذلك بل أطلقوا حملة شائعات كانت إحداها أنه رجال السلطة ألقوا القبض علي وأنني قابع في سجونهم أنتظر قرار إعدامي، ومضوا إلى أكثر من ذلك بإشاعة خبر تصفيتي جسدياً ليعرفوا ردود فعل الناس ولدفعهم باتجاه العمل السياسي المعارض ضدّنا ولإثارة الذعر في نفوسهم إذا «سوّلت» لهم أنفسهم أن يحذوا حذوي في المعارضة والنضال والجرأة في إعلانها.

في خضم الصراع والنقاشات واللقاءات في شروط وآلية عقد الجبهة مع البعثيين، زارنا في دارتنا البهرزاوي القيادي المركزي عبد الرحمن إسماعيل علاوي، كانت المرة الأولى التي أراه فيها وألتقي به، وكنت قد سمعت عنه الكثير وكان حلمي يزداد يوماً بعد يوم للقائه. فقد شكّل لي أسطورة في ذاكرتي من أحاديث أهلي وأهله عنه. كان خارجاً لتوّه من قصر النهاية الذي زاره لمرات عديدة لشدّة موقفه وتشبثه بمبادئه، استقبله أهلي بحفاوة وبفرح غامر وبفخر واعتزاز.

وكانت صدمتنا كبيرة حين كشف ليلاً عن جسده الذي كانت آثار التعذيب بادية عليه، فقد جاء مباشرة إلينا من سجن (قصر النهاية) قبل المرور إلى دار أهله في مدينة بهرز خوفاً من مفاجأته لهم وتحسباً للطوارئ وحفاظاً على شقيقتيه بلقيس وأحلام. قام آنذاك والداي الراحلان بمعالجة ندوبه وآثار التعذيب على جسده التي صدمني منظرها لكثرة القروح فيها، وهذا ما زاد عزمي ومنحني الاندفاع والقوة إلى ولوج عالم السياسة. كنا نمضي الليالي وهو يخبرنا عن قصص وبطولات الشيوعيين في (قصر النهاية) وصمودهم الأسطوري، وكنت أصغي إليه بفضول وتطلع وشوق لمعرفة المزيد.

واحدة من تلك الليالي، جمعتنا صدفة بابن خالي خزعل، الراحل قصي، زوج أختي نظيرة، ودار بينهما نقاش شديد استغربت فيه حينها من تحامل عبد الرحمن على زوج أختي ابن الشهيد الشيوعي خزعل السعدي، كيف أن هذا الأخير لم يحمل لواء ورسالة والده الشهيد، متعجباً من قوله إنه مستقل سياسياً. فخاطبه جده: وثأر أبيك؟ من هو الأولى به؟ أنت أم ابن الجيران؟

استمرت ليالينا الجميلة والمشوّقة ولكنها لم تدُم طويلاً، ففي ليلة حالكة الظلام كنّا نغطّ في نوم عميق لم يوقظنا منه سوى ثقل أحذيتهم وهي تدوس على أجسادنا الممدّدة على الفراش، بعد أن تسللوا إلى بيتنا الطينيّ بواسطة سلالم أسندوها إلى الجدران بحثاً عن قريبنا عبد الرحمن، وفي لحظة تاريخية ومرعبة في حياتي، غيّبوه مع والدي (حسن السعدي) عن أعيننا لمدة عام قضيناه في العوز والفقر والمعاناة. إلّا أنه حصل، وبعد مضي ذلك العام من الجوع والخوف واليأس واليتم أن سمعنا وفي ليلة حالكة، صوتاً يستغيث بنا لمساعدته يخترق جدار المنزل وصداه يتردد في زواياه، فإذا بوالدي وهو مرميٌّ عند عتبة بابنا (المحبة لا تعرف عمقها إلّا ساعة الفراق). أما عبد الرحمن فقد التقيناه بعد سنوات، حيث كان قابعاً في قصر النهاية.

في العام 1975 تلقينا تعليمات من التنظيم بتجميد منظماتنا المهنية من اتحاد

الطلبة واتحاد الشبيبة ورابطة المرأة، مما سبب نقاشاً وخلافاً في الرؤيا بين الرفاق، حيث اعتبرها البعض سابقة خطيرة للقضاء علينا لاحقاً، وتنازلاً مذلاً لأوامر البعثيين لاستهدافنا والتي سهّلت مهمتهم، بل دفعتهم إلى المزيد من إذلالنا. ذهب البعثيون في تماديهم في الضغط على الشيوعيين للتنازل عن أمور مبدئية وجوهرية والآخرون ينصاعون لمطالبهم للحفاظ على موقع الجبهة وتطويرها، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك بالطلب من الشيوعيين بل إقناعهم بالضغط على اتحاد الطلبة العالمي لشغل مقعد اتحاد الطلبة الشيوعي الشاغر بعضوٍ من الاتحاد الوطني البعثي، وهذا ما تمّ بالفعل.

بعد فرط التحالف مع البعثيين، عدنا وفاتحنا اتحاد الطلبة العالمي بعودة عضويتنا مجدداً، ولكن الموقف كان معقداً بسبب عدم رؤية سياستنا عالمياً، وهي من الصعوبات التي واجهها الشيوعيون لإقناع دول العالم وحركات التحرّر بسياستهم الجديدة تجاه التطورات السياسية في العراق ومنعطفاتها الجديدة بتغير المواقف ومواكبتها، الأمر الذي انعكس علينا نحن شيوعيي القرية وقرار التجميد سلباً وفراغاً في العمل حيث أحالونا إلى خلايا حزبية منتظمة.

قلّ نشاطنا الاجتماعي في السفرات واستقبال شبيبة المناطق الأخرى في بساتين الهويدر الخضراء، غدت اجتماعاتنا الحزبية أكثر جدّية وسرية ولا تخلو يوماً من المواجهة مع حليف بدأ يتمرّد علينا ويستفزنا لأبسط الأشياء وأتفه الأمور دون أي احترام للاتفاقات والمواثيق بين الطرفين غير آخذ بنظر الاعتبار العلاقات الاجتماعية التي تربط أهالي القرية الواحدة، وكانوا يسعون دوماً وعبر عدة أساليب، بعضها كان رخيصاً جداً، ساعين إلى خلق مشاكل يومية بأدقّ تفاصيل حياتنا وصولاً إلى عملية الكسب الحزبي بدماء جديدة.

كانوا قد سدّوا أمامنا كل منافذ التحرّك والنشاط الجماهيري ومارسوا علينا شتى الأساليب والإغراءات بمواقع مؤسسات الدولة وفرص القبول في مدارس وجامعات العراق وخارجه. طيلة سنوات العمل الجبهوي، لم تتكوّن

بيننا أية علاقة ودٍّ واطمئنان ونحن أبناء قرية واحدة ومن نسيج اجتماعي متداخل لمئات السنين. مثال على ذلك، حين تصدّر وفدنا الرفيقان طارق الطيار وذاري كاظم، لمشاركتهم في مناسبتهم الأليمة (انقلاب 17 تموز) مصطحبين معنا باقة ورد حمراء مشاركين إيّاهم احتفالهم المسائي الذي لم يشفع لنا عندهم، لكنهم ما لبثوا أن عادوا في الصباح إلى أساليبهم البوليسية.

وصل التنافر والصراع إلى البيت الواحد الذي كان يعجّ بالخلافات والمواقف، مثلما كان يجري في بيت نياح بين البعثي ظاهر والشيوعي سامي اللذين كانا في صراع دائم. كان الصراع مخفياً ومخيفاً بين الشيوعيين والبعثيين داخل القرية وضمن البيت الواحد كما ذكرتُ. وكان رفيقي محمود شيبون (أبو هدير) واحداً من الذين عانوا من هذا الأمر، فروى لي ذات مرة عن صداماته اليومية مع أخيه البعثي المتعجرّف حامد وزوج أخته مدير شرطة محافظة ديالى اللذين كانا يحذّرانه للابتعاد عن التنظيم والصراعات والمواقف المتشددة، لأن ما يسمى بالجبهة الوطنية ما هي إلّا وسيلة للقضاء على الشيوعيين.

# السويد وإعادة التفكير

وطئت قدماي مدينة (إيستاد) السويدية يوم الثالث من حزيران عام 1989، قادماً من بولونيا على ظهر باخرة عملاقة، متخفّياً بين جموع البشر، خائفاً من أي طارئ قد يحدث، لأن مصيري كان مجهولاً، فقد كنت لا أزال ضمن دائرة الشكّ.

علمتُ عبر الميكرفون أن الباخرة كانت تقترب من المياه الإقليمية السويدية، وكان الهدوء يعمّ أجواء الباخرة بعد ليلة صاخبة عاشها المسافرون بين باراتها ومطاعمها وملاعب القمار فيها، وخلدوا إلى النوم وهم سكارى. وأنا مركون في زاوية ميتة من الزوايا بلا نوم أنتظر مصيري، تكاد أمعائي تتقطع من حدّة الجوع، والكوابيس تهاجمني طيلة الليل، وأتساءل مع نفسي ماذا سيحدث لي بعد تلك الرحلة الطويلة؟

في الفجر الأول من يوم مشمس وتحت سماء صافية، رست الباخرة على دكّة ميناء مدينة إيستاد السويدية، وهمّ المسافرون بالخروج من على ظهر الباخرة وسط صخب مزعج وأصوات عالية من أثر مفعول الخمر طيلة الليل، مجتمعات تعرف كيف تعيش وتعبر عن كوامنها الحقيقية في العيش السعيد، كنت أنا آخرهم أحمل من بقايا خيباتي الطويلة باتجاه كابينة تدقيق الجوازات. وقدمت لهم جواز سفري اليمني الجنوبي الذي مُنح لي من سفارة اليمن الجنوبي الديمقراطي الشعبي في العاصمة دمشق بجهود الراحل القائد الشيوعي عامر عبدالله. وبدون متاعب كنت أتوقعها بحكم جذوري الشرقية انتهت بلمح البصر مقابلتي وببعض الأسئلة التقليدية وربما لكثرة المارين

والعابرين رافقتني سيارة شرطة إلى فندق في وسط المدينة ووجدت مجموعة لاجئين سبقوني من جنسيات مختلفة.

من هنا بدأ مشواري الأخير في معترك حياتي الاجتماعية والسياسية والنضالية، وفي يوم 14 حزيران العام 1989، حصلت على الإقامة في السويد (لجوء سياسي) وبدأتُ مباشرة العمل بدون الذهاب إلى أساسيات اللغة السويدية وما زلت إلى يومنا هذا بعيداً عن أية عطايا أو مساعدات، وهذا يُحسب ضمن إرثي الشخصي والاعتداد بنفسي، فقد كوّنت نفسي بالاعتماد على جهودي الشخصية وعصاميتي، مما دفع الآخرين في محاولات يائسة بالمسّ بي وبتاريخي السياسي لعجزهم عن تحقيق مكاسب واتخاذ مواقف شجاعة، والأيام هي التي برهنت على هذا السجل.

في مملكة السويد بدأت أشعر، ومن خلال متابعاتي السياسية اليومية عبر عدة وسائل وقنوات، بحجم المؤامرة المُبيّتة لتدمير بلدي العراق من خلال المنعطفات التي مرّ بها من حصار قاسٍ إلى غزو واحتلال. إن انتمائي ومعتقداتي الفكرية حتّمت عليّ أن أدافع عن بلدي وتاريخه وتراثه من خلال عدة نشاطات وندوات وكتابات وتواقيع بيانات تدين أيّ خدش يمسّ وحدة العراق وتاريخه، وهذا الموقف لم يرُق لمن رهن مواقفه في التعويل على العامل الخارجي في إسقاط نظام دموي من خلال اجتياح بلد وتفتيته بالكامل وتحويله إلى طوائف وميليشيات، بجريرة أن العراق لم يعُد بلدهم لأنه محكوم من دكتاتور قاسٍ.

وهناك البعض ممّن يعانون من نقص تكوينهم الفكري وقصر نظرهم السياسي من الذين لم يرتقوا إلى هذه المواقف، لم يعُد أمامهم من طريق إلّا التشهير بمواقف المناضلين الذين كنت واحداً منهم، فراحوا ينثرون التهم علينا محاولين الطعن بشرفنا الوطني والنضالي في محاولة يائسة لإضعاف موقفنا، لكننا ازددنا تمسّكاً بالمبادئ الوطنية. كنت أتمنّى على قيادة الحزب

الشيوعي العراقي، وأنا المحسوب على هذا الرعيل الثوري، أن لا تذهب مع قوى الاحتلال وتشارك بعمليته السياسية القذرة، وأن تعلن موقفها السياسي من قوى الاحتلال وعمليته السياسية ضدّها وضد مشاريع الرجعية المرتبطة بعجلة القوى التي تضمر حقداً وعدواناً للعراق.

كان يُفترض بقيادة الحزب، وامتداداً لتاريخه المعهود، أن تتبنّى مطالب الفقراء والشباب وتطرح مشروعاً سياسياً متكاملاً ويطالب برحيل المحتل مع أجندته عن أرض العراق الوطنية بدون أي شرط أو قيد، وهذا الموقف يُعزّز بالفعاليات والنشاطات والنضال الفكري والسياسي وسط الجماهير وبين بيوت الصفيح.

منذ وصولي إلى أرض مملكة السويد في منتصف عام 1989 بدأت مع جمع من الوطنيين العراقيين بتكوين تيار وطني للدفاع عن العراق أمام العالم والوقوف ضدّ الحصار ومعارضة احتلاله وعمليته الطائفية ومحاربة رموزها وذيولها الذين برزوا اليوم بعد انتفاضة شعبنا التشرينية التي قلبت كل الموازين وتحليلات المتابعين، جيلٌ ثوريّ جديد يريد وطناً، وقد تجاوز كل تابوهات الأحزاب، وإعادة العراق إلى موقعه التاريخي الشامخ، في التخطيط لاستهداف العراق، ومن خلال متابعاتنا وعلاقاتنا حول حجم الضرر الذي يبيّته الغرب ودوائره المخابراتية، والاستعانة بدول إقليمية وحفنة متعاونين مع مشروع استهداف العراق بذريعة قلع نظام قمعي، وذلك للنيل من العراق.

## أوّل الكارثة.. آخر الكارثة

بدأت الكارثة بنزعة عشائرية وثأر البدوي المتغطرس، بدخول صدام دولة الكويت وليعلن انضمامها إلى جمهورية العراق تحت تسمية رجوع الفرع للأصل وإعلانها المحافظة التاسعة عشرة للعراق، وبعد سويعات من البيان الأول للقيادة العراقية بدعم الحكومة الجديدة في الكويت بقيادة علاء حسين، وهذا ما كان يتربص به أعداء العراق للنيل منه، فحقّق لهم حلمهم بتحطيمه وإرجاعه إلى فترة العصور الوسطى، فجيّشوا جيوشهم وزيّتوا جنازير مدرعاتهم وفتحوا مطاراتهم وأعدوا عملاءهم وهيأوا دولاً من مجموعة الصمود والتصدي تجاه سماء وأرض العراق، لكن النظام وأبواقه لم يدركوا حجم الخطر القادم على دولة العراق ككيان ووجود، كتاريخ وجغرافية.

وبعد مضي ربع قرن، وبفضل الأمريكان، لم يُعد للعراق مكان في الخرائط، كما توعدت وزيرة الخارجية الأمريكية (أولبرايت) حين قالت: «سوف نعيد العراق إلى القرون الوسطى». فقد شاركت أكثر من ثلاثين دولة في الاعتداء على أرض العراق من حفر الباطن السعودية، الواجهة المعلنة لطرد القوات العراقية من أرض الكويت، وهدد صدام ونظامه بإبادة نصف إسرائيل من خارطة الشرق الأوسط، ومع بدء الاعتداء على أرض العراق، أطلق صدام 39 صاروخاً نوع سكود العراقي باتجاه الأراضي الفلسطينية، وفي زحمة التهليل والزغاريد العربية، بل وحتى قائد القوات المصرية من حفر الباطن وهو يشاهد انطلاق الصواريخ فقد كان يصرخ ابتهاجاً بها كما ذكر الإعلامي المصري الكبير محمد حسنين هيكل في كتابه اللاحق (عاصفة حرب الخليج). يا ذلنا العربي!

جيش عربي يقاتل جيشاً عربياً وهو مصطفّ مع قوى الشرّ والاستعمار، لكن من أين كما قال شاعرنا الكبير مظفر النواب في وترياته الليلية، «من أين سندري أن صحابياً سيقود الفتنة في الليل بإحدى زوجات محمد؟».

لم تحقق صواريخ سكود أهدافها، حتى أنها لم تُصب هدفاً واحداً مؤثراً، فأكثرها انفجر في الجو قبل وصوله، بفعل المضادات الإسرائيلية، لكن الشعور العربي في حسابات البيدر يُعدّ انتصاراً عربياً وقومياً، وإسرائيل هي التي حصدت حقل البيدر بدعم عالمي لها قلّ نظيره.

عرفت إسرائيل كيف تستغلّ هذه التطورات سياسياً بظهورها كدولة معتدى عليها ومسكينة، وضمن طبيعة النظام، حيث لم تكن هناك رؤية عراقية عميقة بخطورة تطورات الأحداث، فقد تمّت معالجتها بطابع بدوي عشائري بعيداً عن القرارات الجماعية المدروسة والمتأنية في مواكبة الأحداث وخطورة تطوراتها، ولم تكن هناك دبلوماسية محنّكة في كسب أي تعاطف دولي وعالمي من القوى المحبّة للخير والمؤثرة على الساحة الدولية في تعزيز مواقفها باتجاه قضية العراق وحمايته.

# عودة واستذكار

لو عدنا إلى الماضي ورأينا كيف اعتلى صدام حسين عرش الدولة خلسة من خلال مسرحية تراجيدية بإخراج فاشل ذهب ضحية عرضها على قاعة الخلد خيرة ممثلي قادة البعث وهم 22 كادراً حزبياً ووزيراً، ففي عام 1979 استدعى صدام حسين نائب رئيس الجمهورية، على طريقة محمد علي باشا والي مصر في مذبحة (القلعة)، أعضاء القيادة القطرية والكادر المتقدم، بعد إجبار رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر على التنحّي من مسؤولياته في الدولة والحزب، للانتقام من كل قادة البعث الذين عارضوا مجيء صدام حسين إلى دفة الحكم بهذه الطريقة، ثم استهدف الكادر البعثي الذي كان صدام يضمر حقداً وكراهية تجاههم في مسرحية مكشوفة سيناريو وإخراجاً ليقضي على حياتهم في ضربة واحدة وليسدل الستار على هذا المشهد الدرامي ويتوّج رئيساً وقائداً للعراق بلا منازع ولتهتف الجماهير في الشوارع «صدام محبوب العرب، صدام محبوب الشعب»، ويتلقى التهاني بارتكابه أكبر مجزرة بحقّ رفاق الأمس.

ومن فصول تراجيدية المشهد المسرحي، أنه في الوقت الذي اعتُقِل به أحد قادة حزب البعث وهو محمد عايش اعتقلوا زوجته من بيتها وقبعت ثماني سنوات في سجن حاكمية المخابرات تعتقد أن زوجها هو من كان وراء اعتقالها بوشاية منه، عندما كانت تنتقص من سياسة حزب البعث، لكنها صدمت عندما أطلق سراحها ووجدت أن زوجها قد أُعدم في اليوم الذي اعتقلت به، بهذه العقلية والقسوة حكموا العراق وفرّطوا به.

يذكر الكاتب والشاعر السوفييتي سيرغي دوفلاتوف الذي عاش لاجئاً

سياسياً في أمريكا ومات هناك، ونُصب له تمثالٌ وفاءً له ولشعره ولنشاطه المحموم في سنوات الحرب الباردة، يقول: «كنا نلعن ستالين بشكل دائم نتيجة أعماله، ومع ذلك أريد أن أسأل، من الذي كتب ووشى برفاقه بأكثر من أربعة ملايين تقرير له؟». لقد استلم صدام حسين مقاليد الحكم في العراق علناً بعد أن كان يديرها عبر أجهزته القمعية سراً وبحنكة عالية. وفي ذلك اليوم قرعت الطبول رنيناً وبهجة بتقلد صدام مقاليد الحكم المطلقة في العراق، وتسابق الشعراء والمغنّون والملحنون في البحث في بواطن قواميس اللغة العربية للعثور على مفردات يغدقون بها على صدام وفحولته على جثث ضحايا رفاقه المغدور بهم.

رافقت مراسيم التقليد هذه خطط تنمية بدعم الاقتصاد العراقي بوافر متراكم وربحي من عائدات النفط العراقي الذي غزا الأسواق العالمية، فبدأت شركات عالمية تلهث لتوقيع عقود الاستثمار، مما ترك بحبوحة اقتصادية على حياة المواطن في البناء والعيش، هذا وسرعان ما تعرقل في إنجازاته المهمة بفعل انتصار الثورة الإيرانية ومشروع تصدير الثورة إلى دول الجوار بسياقات طائفية لتفتيت وحدة المجتمع العراقي، فوقعت الحرب وخاضها العراق بالنيابة عن دول الجوار فأنهكت كاهله مدة ثماني سنوات، حرب طاحنة ولدت حروباً أخرى داخلية وخارجية، ولم ينفكّ العراق منها إلّا باحتلاله وتدميره كاملاً، بعد أن سبق ذلك حصار اقتصادي فتت وحدة المجتمع وتقاليده المعروفة عنه.

في اعتلاء صدام حسين هرم سلطات الدولة العراقية، بات رئيساً بلا منازع، وراح الملايين من الرعاع يهتفون: «بالروح بالدم نفديك يا صدام». وملأت البيوت والدوائر والشوارع صوره بأوسمته العسكرية مكشّراً مرّة وغاضباً مرات، وكان في حينها قد قضى على تنظيمات (حزب الدعوة الإسلامية) وملأ بهم المقابر والسجون والمعتقلات، ولم يعُد للشيوعيين وجود فعلي في الشارع السياسي حيث أُغلقت كل مقرّاته وصحفه وتنظيماته بعد إخراجهم من

إطار الجبهة الوطنية والقومية والتقدمية والتي أُقسِم اليمين عليها بين الشيوعيين والبعثيين في يوم 16 تموز 1973.

كنتُ لا أزال شاباً مندفعاً وحديث العهد بالسياسة، لكن بقوّة الإيمان والإرادة بالعمل السياسي داخل تنظيمات الحزب الشيوعي العراقي وبعنفوان ذلك الشباب تمسّكت بروح التحدي والعمل سراً رغم دموية البعث من خلال قانون رقم (200) سيّئ الصيت والأخلاق، إذ يُجبرونك على التوقيع عليه أو بالأحرى لا خيار لك في العيش والحياة إذا لم تبصم عليه. يتم، بموجبه القانوني والسياسي والقضائي، حرمانك من العمل السياسي إلّا داخل صفوف حزب البعث من خلال ما سُمي حينها بالخطّ الوطني. وقد راح العديد من الشيوعيين ضحية هذا القرار بعدما أجبروا تحت التعذيب ولأسباب عديدة على توقيع قرار المادة إيّاها، لكنهم بعد خروجهم من المعتقلات عاودوا ممارسة النشاط السياسي فاعتُقلوا ثم غُيبوا. وظل حزب البعث عاملاً بهذا القانون وكان ساري المفعول لحين هدّه عام 2003 على يد المحتل الأمريكي. إن اشتداد قسوة الحملة ومباغتتها على تنظيمات الشيوعيين وغياب الموقف الواضح من قيادة الحزب الشيوعي تجاه هذه الحملة لم تترك مجالاً للشيوعيين في استيعاب طرق مواجهتها، مما أدت إلى استسلام آلاف منهم بتلك الأساليب القذرة والتي لا مناص منها، حيث لم تتبقَّ خيارات أمامهم إلّا الرضوخ والتوقيع على القرار.

في الشهور الأولى من استفراد صدام حسين بالسلطة أعيدت الحسابات مرة أخرى في استهداف الشيوعيين، فشمل حتى من وقّعوا على قرار 200 سيئ الصيت. وبدأت ملامح الحرب العراقية الإيرانية تلوح في الأفق القريب، وتحسباً للطوارئ بوقوع منعطفات جديدة قد تمسّ كرسي السلطة، شنّ النظام حملة جديدة على تجمعات الشيوعيين في كل بقعة من أرض العراق، وفي محافظة ديالى استُهدِف خيرة الشيوعيين وغُيّبوا في معتقلات النظام إلى يومنا

هذا ومنهم الشاعر خليل المعاضيدي، دهش علوان دهش، كاكا حميد، حجي كامل، مصطفى الدوة، جاسم كسارة، والعشرات.

في فضاء قرية الهويدر بدأنا صراعاً خفيّاً وحذراً مع البعثيين للخروج من تلك المآزق والحفاظ على مياه وجهونا على أقل تقدير وعلى أواصر علاقتنا السابقة بعدم اختراقنا وبثّ روح الشك والفتنة بيننا، لكن البعثيين الهويدريين لم يتركونا بحالنا، كانوا ينغّصون علينا حتى لقاءاتنا العاديّة وأمسياتنا الليلية بأساليب رعناء ورخيصة، مما زاد من لحمتنا في التواصل واللقاءات والتشاور والحفاظ على أسرار بعضنا في المضيّ قُدماً متأملين انعطافاً مفاجئاً يقلب موازين حياتنا في مواجهة البعثيين.

كان قبولي الجامعي بكلية الآداب جامعة بغداد عام 1980، إنقاذاً لي، فقد منحني فرصة أخرى للعمل من جديد في التنظيم الشيوعي السريّ، ولم تغِب عن بالي لحظة واحدة فرضية الاعتقال، كنت معرّضاً يومياً للاعتقال والاشتباه، تكوّنت لي شبكة من العلاقات بمعرفة بعضنا داخل الحرم الجامعي من خلال الحوارات حول الشعر والأدب والثقافة والنساء. في أول درس للثقافة القومية، وقف الأستاذ البعثي فاتلاً شاربيه الكثّين والطويلين واللذين احتلّا نصف وجهه العبوس، قائلاً من على منصة القاعة: «من لم يكن بعثياً فليخرج من القاعة». وكان مجموعنا تقريباً أربعين طالباً، خرجنا ثلاثة، أنا كاتب هذه السطور ومحمود صالح من الأعظمية وخدر هفن من ناحية القوش محافظة الموصل. علّق الأستاذ قبل خروجنا من باب القاعة: «الظاهر أن روح أفكار الثورة لم تصلكم بعد!»، صمتنا وخرجنا وذهبنا إلى نادي الكلية نحتسي القهوة، وحديثنا متوجّس وحذر لِثقل أساليب البعث المتعارف عليها في الشارع العراقي من مكر وخداع. لكن بمرور الأيّام والسنين تبين فعلاً أننا كنا رفاقاً شيوعيين سابقين، كان كل واحد منا معروفاً في منطقته، وبعد سنوات أكون أنا وخدر هذا مقاتلَين مع الثوار في الجبل

بينما كان محمود محكوماً في سجن أبي غريب لمدة عشرين عاماً بتهمة نشاط شيوعي سريّ.

في بغداد، ومن خلال آفاق الدراسة، بدأت مرحلة جديدة وخطيرة من النضال الشيوعي عندما اعتلى صدام حسين مقدرات البلد من خلال تحكمه وحكمه المطلق، ولم تغِب عن ذهنية ابن البلد مفردات الخوف والتملق والموت والوشاية، فباتت ممارسات يومية تقليدية في حياة العراقيين. الابن يشي بأبيه والعكس صحيح، وإن أدت تلك الوشاية إلى الموت المحتم والسجن المؤبد ضمن سياقات وتعقيدات الوضع السياسي. الناس بدأت ترقص على جثث ضحاياها متباهين بأخلاق الطاعة إلى جلاديهم، ومن كانوا يرفضون تلك التقاليد: الطاعة والنفاق والابتذال والرخص في الجانب الإنساني؛ توّجه لهم كلمات اللوم والتندر تحت مسميات غريبة على بنية المجتمع العراقي وتقاليده التاريخية.

لم يترك صدام ورهطه زاوية في حياة العراقيين إلّا ودسوا أنوفهم بها وحولوها إلى أهداف لمشاريعهم الجهنمية. لقد أرادوا وحققوا ما ابتغوه طيلة سنوات حكمهم وسيّروا البلد على سجيتهم ونواياهم غير الصالحة للمواطن البسيط، الكل يهتف لهم بالولاء، ووسط ذلك الضجيج كنّا نخوض نضالاً صامتاً وصعباً ومستحيلاً، وعلى أقل تقدير نحتفظ بمواقفنا ونبقى محافظين على تاريخنا ومبادئنا وقيمنا في خوض معركة الوجود والبقاء، حتى وأن كان اسماً فقط ممتداً إلى ذلك المشوار التاريخي النضالي.

انقلبت رأساً على عقب كل بنية المجتمع العراقي بتأثير مباشر وغير مباشر من سطوة سياسة النظام بقوة الحديد والنار مقرونة بإنجازات من بناء وتنمية وتطور علمي وامتيازات اقتصادية واجتماعية، كل هذه العوامل اجتمعت ليتمكن النظام من فرض سيطرته على عقول الناس ومقدرات البلد، مما شكل عوائق بل موانع جدّية على عملنا الحزبي اللاحق المعارض. قال لي رفيق قديم

عندما حدثته عن نشاط الشيوعيين في الجبل وتبنّيهم السياسة الجديدة: وماذا يعني هذا أمام الإنجازات الاقتصادية التي حققها لنا النظام؟

لكن تلك الإنجازات لم تدم طويلاً، ربما كانت أشبه بالمخدر (حبوب منومة) للمستقبل القادم القريب والمخطط له، بدءاً من الحرب مع الجارة إيران لثماني سنوات، الحرب التي أحرقت اليابس والأخضر ودفع ثمنها الشعبان العراقي والإيراني. جاء بعدها قرار نهايتها في 8/ 8 / 1988 وتعويض الناس عمّا أصابهم من خسائر مادية وبشرية، وتكريم ودعم العائدين من الأسر الإيراني بعد سنوات عجاف قضوها في سجون الاعتقال الإيرانية والضغوط التي مورست عليهم في غسل أدمغتهم (التوبة) ليلتحقوا بتنظيمات قوى الأحزاب الإسلامية التي حملت حقداً دفيناً على العراق والعراقيين، وهذا ما رأيناه بعد احتلال العراق من قتل للضباط والعلماء والملاكات العراقية بشتى اختصاصاتهم وتفريغ البلد من كنوزه العلمية والاقتصادية والصناعية.

كان يفترض بالنظام العراقي، بعد انتهاء الحرب، المباشرة بحملة إنجازات تبلسم أوجاع الناس وإطلاق حملة بناء وتنمية وحريات وتعددية، وبدلاً من مكافأة الناس عن المعاناة والخوف التي طالت أغلبية العوائل العراقية الذين ما زالوا يئنون من ويلات حرب الدكتاتور ورهطه ضد الجارة الكويت، لتولد حرب أخرى نتائجها دمرت العراق أرضاً وشعباً ونسيجاً عبر حصار اقتصادي فُرض بسببها مدة 13 عاماً لتؤدي تلك المآسي والكوارث إلى احتلال البلد وتدميره بالكامل وتحويله إلى كانتونات وكيانات طائفية مبعثرة وميلشيات وإرهاب، هذا ما لم يحسب صدام حسين حسابه بسبب سياسته الدكتاتورية تجاه شعبه الذي يتحمل الجزء الأكبر في صنع الطواغيت.

ربما كان العراقيون هم الأكثر قرباً في احتراف هذه الصناعة من خلال رسومات السياسة العراقية التي انعكست مع الوقت على بُنية وتكوين وسيكولوجية العراقيين، فبات الفرد العراقي يشعر أنه متهم ومشتبه به والخوف

يتلبّسه بالكامل، مما زرع في نفسه عقدة تأنيب الضمير، فهو مُلزم أن يُقدّم كل فروض الطاعة إلى جلاديه، لينعم بليلة هادئة بعيداً عن إرهابهم.

نحن الشيوعيين لم يكن لنا أي وجود فعلي بين الجماهير، فقد رمتنا تلك السياسات التي انتهجها البعثيون خارج حدود أرضنا الوطنية. لكن لا يمكن أن ننسى تقصيرنا الذاتي في وجودنا الفعلي بين جماهيرنا وناسنا والعيش بينهم وبين معاناتهم لنكون جزءاً منهم، حتى نتمكن من تعبئتهم لمشروعنا السياسي وفق سياقاتنا الوطنية ضمن أرض الوطن، ففروض الطاعة الممزوجة بالخوف والتملق تقدّم على طبق من ذهب لأصغر مسؤول بعثي في شارع فرعي لقرية صغيرة. لكن رغم الويلات والهزائم التي راح ضحيتها أبناء شعبنا، أين كنا نحن الشيوعيين؟

في مطلع الثمانينيات لم يعد لنا وجود رسمي ولا قانوني ولا جماهيري بفعل شدة وطأة النظام الدموية، لكن وجودنا كان كتاريخ ومواقف وشهداء وأخلاق محفورة في الذاكرة العراقية، وكجزء من نضالات شعبنا. فُرض الحظر على الشيوعيين ونشاطهم بل ووجودهم ضمن قرارات بعثية مجحفة سياسياً وأخلاقياً وقمعياً. كانت الاعتقالات تتمّ بناءً على توجّس أو تحرك ما، أو موقف أو علاقة أو مناسبة أو همس حديث بين أربعة جدران.

إذا كنت شيوعياً سابقاً فأنت متّهم ومشتبهٌ بك، وما عليك إلّا أن تثبت عكس ذلك بالذلّ والخوف. أنا كنت واحداً من مئات من هؤلاء الشيوعيين المتناثرين على بقاع أرض الوطن، نعمل ضمن خيوط تنظيمية فردية أشبه بخيوط العنكبوت، معرّضة للقطع بأية لحظة من خلال اختفاء رفيق لك فجأة وبدون معرفة أخباره وما جرى له. كانت طفولتي في قرية الهويدر هي الأساس في تحديد مسيرتي، بل، وقد رسمت مواقفي الأخيرة أجواءُ القرية والعلاقات بين ناس يعلوها الصخب والودّ والاحترام، لكنني منذ طفولتي كنت شاهداً ومتابعاً لأحداثها اليومية وتفاصيلها الدقيقة، وبفضول أحياناً كثيرة، إذا تطلب الموقف.

لكن الصراعات السياسية التي كانت يومية دفعتني إلى الجهة التي يقف عليها الشيوعيون الأكثر ثورية وصلابة في مواجهة البعثيين. حين نلت العضوية الحزبية بعمر 16 عاماً، حملتني عبئاً أكبر من طاقتي وقدراتي الذهنية والفكرية. ومن يومها تمسكت ورفاقي بطروحاتنا الجريئة من الأحداث اليومية والمشاكل مع البعثيين وموضوع الجبهة الوطنية ومستقبل العلاقة معهم، حيث شكلنا تكتلات وتجمعات خارج الإطار العام للتنظيم كردّ فعل على سياسة البعثيين واليأس من موقف رفاقنا في ردود فعلهم على تجاوزاتهم بحقنا وحق شعبنا. هزّت مواقفنا بدن البعثيين ورجال الأمن في القرية، فباتوا ينظرون إلينا بحقد ولؤم وخوف لجرأة طروحاتنا وتحليلاتنا وعدم الاكتراث بهم، كنا صادقين بانتماءاتنا ومواقفنا وحرصنا على الحزب رغم توجسنا من سياسته وجرأة الانتقاد لأسلوب علاقته مع البعثيين. كنت ضمن مجموعتين من غرفة عمليات في رصد الأحداث اليومية وتحليل تجلياتها في القرية على تخوت مقهى الحاج إبراهيم الجولاغ، في الغرفة الأولى التي كانت تتكون من محمود شيبون وعبد الأمير الطائي، وأنا، وبعض المحيطين بنا والقريبين منا.

الغرفة الثانية، كانت تضم إضافة لي كلّاً من الراحل سامي يحيى، الراحل الأستاذ يحيى حمدان، حسين مولى ومن بعض القريبين منهم، هؤلاء كانوا خارج التنظيم الرسمي لمعارضتهم وموقفهم من مشروع الجبهة، فوجودنا داخل التنظيم، كان لا يمنعنا من الملاحظة والنقد الجريء في الموقف من سياسة البعث ومطالبة التنظيم عبر الهيئات العليا بمواقف حازمة تجاه سلوك البعثيين تجاهنا في القرية.

وبعد أن عجزت لجان الجبهة في اجتماعاتها الدورية عن وضع حدّ لتلك التجاوزات التي زادت عن حدّها في أجواء القرية المحمومة، وعندما كانت أغلبية الناس تخلد إلى القيلولة في ظهيرة الصيف؛ كنا نحن أحيانا نتأخر على تخوت مقاهي القرية العتيقة (مقهى مال صاحب) في بداية مدخل القرية، أو

أحياناً في ليل القرية المنعش كان البعثيون في حالة استنفار ولا يذهبون إلى بيوتهم إلّا إذا ذهبنا إلى بيوتنا، بهذا الودّ المفرط، كانت قيادة حزبنا تدعونا إلى «تعزيز وترسيخ المسيرة الثورية وتوجه العراق صوب الاشتراكية»، (شعار المؤتمر الثالث في بغداد عام 1976).

كان أبو داود العتّال يرمز لنا «بالطيبين» ويتمنى علينا القضاء على الأفعى بضربها على رأسها، ويحذرنا من قطع ذيلها، أما شهيد العراق فليح حسن السعدي (فليح بحر) فكان يصيح على الجسر بصوته الجهوري وعبر أغصان «الفرتقال»[1] وعناقيد التمور: «اهجِمَوا على الطيبين في ليل البساتين» مع مواويل حزينة تدعو صاحبيه الراحل صبحي عباده وجعفر أبو التسعة إلى النحيب، وإلى حزن الجالسين.

انخرطتُ في العمل السياسي في وقت مبكر جداً، ولم أكن أفقه منه شيئاً سوى فزعة عشائر وتأثير محيط البيئة، كانت بيئتي (عائلتي) لها الدور الأكبر بولوجي المبكر لهذا العالم الحقير والوسخ تحديداً في العراق وتحت أنظمة حقيرة وأحزاب انتهازية، فالسياسة في العراق عبارة عن صفقات وهزائم ونفاق وكذب وارتزاق، وهي بعيدة عن الصدق والوطن وضمن فضاء المناورة المتبادلة والمصالح الضيقة، وإلّا فماذا يعني ويجري في عراق بعد احتلاله بتبديل الوجوه والملابس والمحابس؟ ما هو المبتغى من هذا الطرح؟ أعني الأطر التنظيمية والممارسات السياسية وليس كفكر ونظرية واعتقاد.

كانت طبيعة تكوين المجتمع في القرية أغلبها من الفلاحين والمزارعين وملاكي الأراضي بحكم جغرافية وطبيعة القرية وتكوينها الطوبوغرافي،

---

(1) من الطريف والحريّ بالقول إن قرويي بعقوبة ينطقون هذه التسمية على فاكهة (البرتقال) التي كانت بساتينهم غنيّة بها. وقد وردت هذه المفردة ـ للطرافة ـ في قصّة (العيون الخضر) للكاتب (فؤاد التكرلي) بمجموعته القصصيّة (غرباء)، على لسان بائع البرتقال في بعقوبة وهو يروّج لسلعته بالصياح: «فرتقال.. فرتقال».

القرية كانت عبارة عن واحة من البساتين محاطة بنهر ديالى من كل الجهات، كأنها جزيرة وسط المياه، وفي القرية، رغم تركيبتها هذه برز قادة سياسيون وعسكريون وعلماء وشعراء وأطباء وأربعة وزراء في حكومات متعاقبة على الحكم في العراق منهم طلعت الشيباني وزير تخطيط في زمن حكم الزعيم عبد الكريم قاسم، خزعل السعدي ضابط شيوعي لامع في ثورة 14 تموز 1958 وقائد ميداني في مقاومة انقلابيي 8 شباط في مدينة الكاظمية، سعدون شاكر وزير داخلية حكومة البعث، علي عباس ططو عالم نووي مات في حادث سيارة بظروف غامضة، والشاعران أحمد البياتي وكاظم الأعور.

في مطلع السبعينيات كان اتجاه الناس في القرية مع المدّ الشيوعي، وهي السمة الغالبة في تحديد اتجاهات وانتماءات أهالي القرية السياسية، فلم يكن هناك للبعثيين من عدد يذكر، لكن مع تطورات الأحداث وسيطرة البعثيين على رقاب العراقيين مستغلين أخطاءنا في اتخاذ القرارات الثورية والسريعة في حسم الأحداث، بدأت كفة الميزان تميل باتجاه البعثيين، وكان أغلبهم قد انتمى ليس عن قناعة ودراية وإنما ظروف البلد دفعتهم إلى هذا الاتجاه إضافة إلى عوامل اقتصادية واجتماعية، وأضف إلى ذلك بُنية وتكوين الشخصية العراقية بحدّ ذاتها التي تميل مع القوي ومالك الجاه والمال والسلطة. أغلبية شيوعيي قرية الهويدر أُجبروا على توقيع قرار 200 المجحف، لكنهم لم يتحولوا إلى وكلاء أمن أو جواسيس على رفاقهم أو وشوا بأحدهم رغم دمجهم ضمن ما يسمى بالخط الوطني، فهذه المواقف لمّتنا أكثر وقربت من وجهات نظرنا في قضايانا، والثقة في تبادل المعلومة لخدمة الجميع.

في بدايات عام 1980 كان نشاطي الشيوعي في الهويدر محصوراً ودقيقاً في الاختيار والحديث والتحرك، وكان لي رفاق علاقتي بهم مميّزة على المستوى الاجتماعي، لكن لم أحسب يوماً بأنني سأفاتحهم بالعمل السياسي السريّ، ليس لسبب ما وإنما خوفاً عليهم وحرصاً على التنظيم لأنهم كانوا دائماً ملاحقين من

الأجهزة الأمنية ومعرضين للاعتقال في أية لحظة، أحدهم ذاري كاظم مالية، كان لا يمر يوم إلّا وألتقيه، وتجمعنا الكثير من التفاصيل اليومية والحياتية وكان مُلاحقاً بشكل يومي من رجال الأمن، وتحسّباً مني وبيقظة أمنية بقيت علاقتنا بهذا الإطار خوفاً من أن يتعرض للاعتقال وبحوزته جزء من خطوطنا التنظيمية.

عندما تعرضتُ للاعتقال في صيف عام 1983، وفي اقتحام بيتنا في القرية واحتلاله لعدة أيام عثر رجال الاستخبارات على بعض الرسائل من ضمنها رسالة من صديقي ذاري، عندما كان جندياً احتياطياً في قاطع البصرة، يصف لي بها مجريات الحرب ومعنويات الجيش العراقي، فاعتُقل على أثرها في مديرية الاستخبارات العسكرية وتعرض لما تعرّض له، وتمت مساومته وكان لا يزال في متعة شهر العسل مع زوجته العزيزة فاتن غني.

وعندما عدتُ إلى العراق لزيارة أمي قبل رحيلها بعد الاحتلال الأمريكي، عاتبني رفيقي ذاري لعدم مفاتحته بعملي الحزبي آنذاك، فشرحتُ له تداعيات الوضع السياسي والأمني في حينها وحرصاً عليه من أي طارئ يسبب له الأذى.

منذ أن وعيت على الدنيا، وأنا ملازم لأبي في دكانه الصغير في طرف منطقة الحمام في سوق قرية الهويدر بأيام العطل المدرسية، وكان حديث الشيوعيين ونقاشاتهم لا ينقطع في دكان أبي اليومي، جلال باي، قاسم بيه، محمد العلي، أحمد حسين، أبو دبلة وآخرون. وقد ازداد فضولي في التعرف إلى الشيوعية وفهد ولينين وحسن عوينة وخزعل السعدي هذه الأسماء طرقت سمعي لأول مرة في دكان أبي المتواضع، فمن هناك كانت البداية، وكان المشوار طويلاً وصعباً وخطيراً لمن يؤمن به ويعشقه، وكان المهر والثمن غالياً وهي حياتك ومستقبلك في الحالتين من عدوّك الطبقي الذي هو أصلاً مستهدفك دوماً، يكفي أنه عدوّك، وهو الذي أجبرني على ترك مقعدي الدراسي في الآداب في جامعة بغداد، وأيضاً ليس بعيداً عن المؤسسة التي تنتمي إليها إذا تمسّكت بتلك المبادئ وروح الشهداء والثوابت الوطنية وستكون مستهدفاً وعلى كل

الأصعدة والعلاقات. تأصلت بي تلك الثوابت الوطنية والاجتماعية وتبلورت في ذهني نهجاً وسلوكاً وطريقاً نحو الهدف المنشود والمراد.

الضغوط التي تعرضتُ لها في مسيرتي النضالية زادتني تمسكاً بالفكر ومواصلة الطريق، وتعرّضت طيلة هذه المسيرة إلى مخاطر جمّة كادت أن تودي بحياتي، ومنها مواقف أثبتت صدق انتمائي وتمسّكي بالشيوعية كفكر ونهج وأخلاق وموقف وثوابت، وعلى الرغم من الإحباطات والإساءات والهموم.

انتميت إلى الحزب الشيوعي في فترة الجبهة مع البعثيين ومواليدي هي التي حتمت علي هذا الانتماء لأنني من مواليد 1958، ورغم أخطاء هذا الإنجاز الجبهوي لأسباب تكتيكية وسياسية، لكنها لمّت الشيوعيين وضخّت دماء جديدة وطاقات خلاقة وجماهيرية هزّت أركان البعثيين، فلم تستثمر في بناء تنظيم شيوعي صحيح ووطني، كان مشروع الجبهة سيكون مشروعاً وطنياً كبيراً، ولو كتب له النجاح، لكان العراق اليوم في مصاف دول العالم المتمدن.

سبقنا شيوعيون في القرية، كانوا مثالاً للنضال، ومناضلون يُحتذى بهم، وكانوا رموزاً لنا نحن الشيوعيين من الجيل الجديد، وهم أمثال الراحل محمد دفاعي، الشهيد جاسم كساره، والشهيد خزعل السعدي الذي كان محط إعجاب وحديث أهالي القرية بما سطره من مقاومة بطولية ضد انقلابيي شباط 1963 في مدينة الكاظمية واستشهاده البطولي تحت تعذيب ودموية الانقلابيين.

كان شيوعيو القرية ومؤيدوهم خلية نحل في العمل والنشاط والسفرات واستقبال وفود شيوعية من خارج القرية بسبب طبيعتها وبساتينها، وبسبب هذه النشاطات والفعاليات زادت الاحتدامات مع البعثيين لأتفه الأسباب، فكان البعثيون يخلقون أيّ سبب للاصطدام. حدث مرة أن علّقنا يافطة على واجهة مقهى الحاج إبراهيم جولاغ بمناسبة تأسيس الجبهة الوطنية، ولم نُشر بها إلى أن حزب البعث هو مؤسسها وقائدها، فطلب منا البعثيون رفعها وإلّا فأنهم

سيقومون بتمزيقها. وفعلاً رُفعت تفادياً للاصطدام وملامة القيادة في تحمل مسؤوليتنا في مواجهة البعثيين.

وحادثة أخرى في مقهى دردي المسفّر إلى إيران بحجة التبعية عام 1980 وهو بريء منها، كان العراقيون في أيام رمضان يتبارون بلعبة (المحيبس)، وهي واحدة من طقوس هذا الشهر، زارنا فريق من بعقوبة من رفاقنا الشيوعيين ولعبوا معنا اللعبة، فاستفز البعثيين هذا اللقاء وحاولوا بكل الطرق إفساد هذا اليوم بنفس الأساليب القذرة والدنيئة التي أدت إلى فرط عقد الجبهة من قِبلهم والتملّص من هذه المسؤولية التاريخية والأخلاقية، فلو كانت هناك نيّة صادقة في بناء العراق لكان العراق اليوم بمصاف دول العالم المتقدم والبناء بعيداً عن الحروب والطائفية والقتل. وكان الشيوعيون ضمانة أكيدة في بناء وتقدم العراق.

البعثيون لم يتحمّلوا هذا الهامش من الإنجاز الديمقراطي الذي يصبّ في وحدة العراقيين وتمسكهم بوحدة بلدهم في البناء والتطور والحرية والتحولات الديمقراطية، بل راحوا يتآمرون على هذه التجربة حتى انقضّوا عليها انقضاضاً تاماً ليعلنوا العراق بلداً دكتاتورياً لا مجال فيه لعمل الأحزاب إلّا لحزب البعث.

كانت جريدة (طريق الشعب) الجريدة المركزية للحزب الشيوعي تباع في العراق أكثر من صحف النظام البعثي، وهو الحزب الحاكم، فكان يرعبهم هذا الالتفاف الشعبي، وبعد أن قضوا على مشروع الجبهة ذهبوا بالعراق إلى نفق مظلم من الحروب وقمع الناس، وختاماً سلّموه إلى جنود الاحتلال الأمريكي وعملائهم جسداً بلا روح. إن اسم العراق الآن موجود لفظاً، لكنه ككيان مهمّش ومهدّد بالتقسيم والضياع، امتدت حملة البعثيين ضدّنا من جنوب العراق إلى قرية الهويدر لاستهدافنا بحملة مسعورة وحاقدة طالت الجميع بمختلف المواقع والمسؤوليات وكل من يحمل بصمة الشيوعية والديمقراطية

أو قريباً منها ومن أفكارها، ولا ننسى ثقل التراكمات السابقة من سلوك البعثيين تجاهنا وضعف موقفنا في مواجهة أساليبهم القذرة.

كان عمر الجبهة غصّةً في نفوسنا ووجعاً سبّب ضعفاً في المواقف جرّاء حملة البعثيين ضدنا لعدم اتخاذ ردّ حازم تجاههم ووقف حملتهم، ومما سبب انهياراتنا السريعة موقف قيادة حزبنا باعتبارها تصرفات طائشة وفردية ستنتهي بأول اجتماع للجان العليا للجبهة الوطنية والقومية التقدمية، أي أنهم سقطوا كأوراق الشجر في الخريف سريعاً وتخلوا عن التنظيم وتركوا الحزب وتنحّوا جانباً، لكنهم لم يتحولوا إلى أعداء لنا، بل بقينا رفاقاً تجمعنا تلك الأيّام من عمر الرفقة والانتماء.

وعندما أسقط الأمريكان البعث عام 2003 بعملية احتلال قذرة دمّروا بها البلد، كان الشيوعيون الذين أُجبروا على مواقف لا يتمنونها قد عادوا إلى التنظيم مجدداً على أمل تعويض ما فاتهم من مساحات النضال والتواصل مع قضايا الناس، لكن المؤشرات والأحداث تؤكّد أنها كبّلت الحزب بقيود أخرى في التقدم والتنظيم والمواقف. كنت واحداً من هؤلاء الشيوعيين، الذين تعرضوا للاعتقال أكثر من مرة من قبل مديرية أمن ديالى، وقد مورست ضدي ضغوطات من أجل تحييد موقفي وشراء ذمتي. وفي هذا الوضع وعلى أنقاض الانهيارات السريعة شكلنا خلية حزبية سرية أسميناها ديالى، بمبادرة من الراحل فاضل هاشم الشيخ داود، وكان من أعضائها أنا والراحل ثامر البغدادي، كنا نستلم أخبار الحزب على أوراق شفافة مكتوبة على طابعة من الراحل فاضل عن كل مستجدات أخبار الحزب من تشكيل مفارز مسلحة في الجبل إلى اجتماعات اللجنة المركزية ومكتبها السياسي والجدل العقيم بين شعار إسقاط النظام أم إنهاء النظام.

طلبنا من الراحل فاضل أن يجد لنا طريقاً للالتحاق برفاقنا في الجبل لصعوبة الوضع وظهور مستجدات جديدة على الوضع السياسي في العراق

بتسلّم صدام حسين مقدرات البلد على جثث رفاقه والتلويح بحرب قادمة، لم يدم عملنا طويلاً بعد أن التحق فاضل بالجيش كجندي احتياط في جبهات الحرب ومات فيها، بقينا أنا والراحل ثامر البغدادي مقطوعي الصلة ولم يلُح لنا أمل قريب، إلى أن التحقتُ بمقاعد الدراسة في كلية الآداب جامعة بغداد عام 1980، على تلك المقاعد وجدت التنظيم ينتظرني، هكذا يتراءى لك في اللحظات الأولى، فوجدت نفسي ومكاني عضواً نشطاً في منظمة (الصدى)، عبر مسؤولها المباشر آشتي الشيخ عطا، وتشهد لقاءاتنا المهمة لاحقاً في الجامعة المستنصرية والمعهد الثقافي البريطاني في الوزيرية ومدينة كفري أيام العطل المدرسية من خلال تلك المنظمة وظروف العمل فيها والتحديات التي واجهتنا وأساليب المراوغة. اكتسبتُ خبرة تنظيمية ودراية في العمل السري بمواجهة الصعوبات والمخاطر من خلال التكيّف مع ظروف البلد وتطوراته السياسية المتوترة سريعاً بحكم عقلية النظام ونهجه العدواني تجاه شعبه.

من قرية الهويدر كنت أتحرك، كلما شعرت بضرورة المهمة الملقاة على عاتقي، إلى المناطق المحررة في جبال العراق من (كرميان) إلى (قرداغ) وإلى سهل (شهرزور) وقرية (أحمد برناوا)، شكّلتُ خطوطاً حزبية بمستوى المهام وخطورتها ودعمتُ تجربة الأنصار (الثوار) بثوار جدد ممن كان يرغب بالالتحاق ووضعه الأمني صعب وحياته مهددة من قبل أزلام السلطة أو خوفاً من سوقه إلى جبهات الحرب ليموت هناك في حرب غير عادلة.

في العام 1983 شُخّصت من قبل عملاء السلطة وكنت حينها بمناطق (شهرزور) بقاطع السليمانية حيث كادر التنظيم المدني للاتحاد الوطني الكردستاني أنور المزوري المقيم في قضاء (كلار)، وفي التنسيق المشترك للعمل بيننا، رصدت الاستخبارات العسكرية في القضاء أنور وتم اعتقاله، ومن ضمن اعترافاته كنت مشمولاً فاقتحموا بيتنا في قرية الهويدر يوم 13 تموز 1983، وتخلّصتُ منهم بأعجوبة بمساعدة أهل وأصدقاء لأدشّن مرحلة جديدة

من النضال بعيداً عن الأهل والجامعة والمدينة، مشوار جديد من النضال زادني حنكة ودراية ومعرفة واطلاعاً.

في يوم 13 آب عام 1983 وصلت إلى بيت الشيخ عطا الطالباني في قضاء (كفري) وكان مدير بلديتها ووجهها السياسي المعروف والمتمرّس في النضال تاركاً خلفي حزمة من الذكريات ورفاق درب ومقاعد دراسة. في المرحلة الثالثة من كلية الآداب في جامعة بغداد، بعد أيام كنت مرتدياً ملابس النضال، شروال كردي، وجمداني وبشتين وغدارة مع ستة شواجير من الطلقات. كان في استقبالي رفاق التنظيم المدني الشهداء محمد وردة (أبو جيفارا) ومحمد الخضري (أبو جلال) وطيب الذكر سلام العگيلي (محمد عرب). في السنوات التي قضيت العمل الحزبي بها في الداخل، كانت تجربة ساعدتني على النضال والاحتكاك اليومي مع ممارسات السلطة وحجمها الحقيقي فتكونت لدي رؤية نضالية مبنية على واقع البعث اليومي المؤلم المعاش، ومشاعر الناس المختلفة تجاهنا.

ففي جولاتي الأولى في قرى شهرزور التقيت برفاق من عدة مفارز ومدن برؤى سياسية مختلفة وتحليلات بعضها عجيبة وغريبة، تركوا العراق منذ سنوات وابتعدوا عن مواكبة تلك التطورات وعلى أقل تقدير منذ استلام صدام حسين دفة الحكم الذي قلب العراق رأساً على عقب من ضمنها أخلاق الناس ورؤاهم المختلفة. فعندما كنا نلتقي بأية قرية مع مفارز أخرى كانت تصلهم إشارات أن هناك رفيقاً عربياً من التنظيم المدني جديد الالتحاق، وعلى ضوء ذلك تتمّ النقاشات وأخبار الداخل ومجريات الحرب وتنظيماتنا ومشاعر الناس وقوة البعثيين وتأثير مجريات الحرب عليهم بشكل عام، لم تُرِحهم استنتاجاتي واستقراءاتي للوضع السياسي وتداعياته.

كان البعض يعتقدون أن النظام على حافة الهاوية وآيلاً للسقوط بناءً على معلومات مغلوطة، قسم منها يشارك النظام في ترويجها لحسابات مخابراتية

لحصر ردود الأفعال. استقراءاتي للوضع السياسي في العراق دفعت البعض إلى الهمس بالتشكيك بوضعي الأمني، وهذه طبيعية ضمن الظروف التي نعيشها في الجبل ومعاناته اليومية وتطلعات الرفاق بالعيش الطبيعي ضمن المدنية والناس، فكانوا يتشبّثون ببصيص أمل يعيد إليهم أملهم وحياتهم ضمن حدود البشر الطبيعية.

بعد عشرين عاماً التقيت بأحد الرفاق الذي كان ضمن مجموعة الأمس وذكّرته بالموقف والمكان فلم يستطع التبرير إلّا تعبيراً بالبُعد عن معطيات الواقع المعاش. تجربتي مع الثوار في الجبل والتي امتدت من 13 آب 1983 إلى 20 آذار 1988، لم تكن سهلة، لكن أعطتني تجربة قوية من النضال على أقل تقدير على المستوى الشخصي، وأفادتني جداً وعلى كل المستويات التنظيمية والسياسية والعسكرية واللوجستية والعلاقات وبناء المواقف، دعتني كي أعيد النظر بكل قراءاتي وقناعاتي ومواقفي، ولهذا سأبقى مديناً لها وستبقى وسام شرف أحمله ما حييت.

في المرات التي ذهبتُ بها إلى الداخل (بغداد أو المحافظات) وطيلة وجودي في الجبل، كنت على قناعة تامة بضرورة المهمة الملقاة على عاتقي في مواجهة النظام في عقر داره. وكنت مدركاً لحجم الخطورة إذا وقعتُ في يدهم، لكن إيماني كان مطلقاً بالشيوعية ونبلها وأهدافها ومشروعها السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري والأدبي والأخلاقي.

# حياتي كلاجئ سياسي

في يوم 18 أيلول 1992 تزوجت من (جنان) ابنة الفنان (سامي كمال) بعد قصة حبّ عنيفة، بعد أن تحولت إلى حالة عامة في تدخلاتها المتعددة. كُتبت سطورها مدينة مالمو بالحبّ والحلم والأسطورة وروت معانيها، وإذا أتى يوم وأراد أحد المعنيين كتابة رواية عن تجمّعات وحياة الجالية العربية في مدينة مالمو فستحتضن فصولها قصة حبنا تلك. أراد بعض أصحاب النفوس المريضة دسّ أنوفهم العفنة في هدم هذه العلاقة بتهم جاهزة ورخيصة، لكنهم تلقّوا ـ من مات وممن بقي يتنفس ـ عقابهم الربّاني والاجتماعي، وطالما المتوفى يأخذ خطاياه إلى قبره، وأنه لا مبرر لمحاكمة جانٍ متوفٍّ فقد أخذ الموت بثأر ضحاياه، وستكون محاكمته في الآخرة عمّا جنت يداه.

رُزقت من حبيبة العمر بنجمتين نوّرتا حياتنا، بيدر وسدير، قاسمتني زوجتي حياتي بحلوها ومرّها وساندتني بمواقف حياتي الصعبة وربطت مصيرها بمصيري، وأصبح أهلها أهلي في الغربة.

في بدايات علاقتنا اعترتنا مطبات عديدة في طريقنا المنشود، كادت أن تحبط مشروعنا الإنساني، لولا حالة العشق المتبادل بيننا إلى حد الثمالة والتصوف في تمكنه على أن يتغلب على كل الظروف الصعبة والافتراءات التي طالت مشروعنا الذي تُوّج بالاقتران ليسجّل صفحة في صدق النوايا والظفر. مرت على تلك التجربة ثلاثة عقود بنجاح يتلوه نجاح على المستوى العائلي وتكوين أسرة ناجحة بمقاييس الزمن المتقدم مقروناً بنجاحات أخرى. انعكست تلك

العلاقة بشكل حسن على المحيط القريب منا، في المرتبة الأولى عائلة زوجتي، الذين باتوا بمثابة أهلي في السراء والضراء، وعمتي التي تتمتّع بحس إنساني في تقديراتها للأشياء حولنا. نجاح تلك العلاقة رغم الظروف الصعبة من حياة الغربة سجّلت محطة وموضع تقدير من الآخرين.

مات والدي في نهاية التسعينيات وتلقيت الخبر عبر الهاتف وأحزنني رحيله وأنا بعيد عنه في ظروف العراق الصعبة، والتحقَت به أمي إلى السماء مع أخوين لي وأولاد أخت وأخ، وقد تصالحت مع نفسي في تلقيّ تلك الفواجع المحزنة وفي رؤيتي لرحيلهم. إنهم انتقلوا إلى عالم آخر أكثر أماناً وطمأنينة رغم الخيبات التي اعترتني على فقدانهم، وأنا بعيد عنهم أجرّ أذيال خيبات البُعد والغربة.

في مدينة مالمو السويدية انطلقَت الجمعية العراقية من بيتي، وكنت من مؤسسيها الأوائل، فترت علاقتي مع إدارييها لمحاولة تحزيبها بتخلف والموقف من الوطن وجمع الجالية. وغلبت على أهدافها الاجتماعية المعلنة لغرض انطلاقتها العلاقات الخاصة الضيقة والمصالح المشتركة بعيداً عن أهداف تأسيسها. كانت فكرتها وهدفها أن تكون بيتاً واسعاً لكل العراقيين ووجهاً ثقافياً وتاريخياً وتراثياً للعراق ولضعفها الكبير بمواكبة هذا الجانب وتخلفها مع مواكبة قضايا العراقيين في الثقافة والفكر. دعت الحاجة بتزايد عدد العراقيين القادمين إلى السويد إلى تشكيل عدة مؤسسات وجمعيات لتضطلع بهذه المهام، كونها واجهة للعراق وأهله.

وفي ذروة فجيعتي برحيل أبي وضعتُ إعلاناً لرحيله، وحدّدت به سرادق العزاء والفنيات الأخرى، وبدون سابق إنذار، قبل أيام كنت حاضراً لاجتماع موسع للجمعية، لمناقشة مشاكلها الداخلية، وتكلمت بوضوح حول عمل الجمعية ومهامها الاجتماعية والثقافية كوجه عراقي في المهجر، وحملت المسؤولية المباشرة في الهيئة الادارية والواقفين خلفها فيما يحدث من نكوص

وجهل وتخندق ومشاكل، لكن يبدو لي أن هذا الحديث لم يرُق لهم فأضمروا على الانتقام منيُ وهذه شيمة الجبناء المهزومين.

والموجع أنها كانت تأتي ممّن كانوا يتملّقون لي في كردستان حتى يكسبوا ودي أو يحيّونني كي أردّ لهم التحية فقط. كنت ضمن تنظيمات الفصيل المستقل (تنظيمات الداخل) ولم يكن وجوداً اسمياً فقط، بل جسّدتُه ميدانياً في تسلّلي إلى بغداد عدة مرات في ظروف صعبة للغاية، حيث خطر الموت في كل خطوة. قام هؤلاء الأقزام بتمزيق الإعلان عن يوم فاتحة أبي، منهم من رحل ومنهم من تلقى صفعته مني، بهذه الأساليب الرخيصة والجبانة يسيئون للمناضلين بعد أن عجزوا عن المواجهة المباشرة في النيل من المواقف والنقد.

بعد هذا التصرف المُدان والذي لا يليق بآدمية البشر من بعض الرعاع، راحت منظمة الحزب الشيوعي تدعم هذه الأصوات النشاز في تشويه سمعة الآخرين للتغطية على مواقفهم السابقة وتاريخهم المشبوه، بل ذهبوا إلى الجهات الأمنية السويدية وقدموا معلومات كاذبة ومشوهة عن حياة المناضلين، وعندما فتحت الجهات الأمنية السويدية الملفات وتوضّحت الصور أمامها قدمت الاعتذار وأشادت بمواقفنا الوطنية مع بلدنا العراق وأرضه والدفاع عن مقدساتنا.

في العام 2000 زارني باقر إبراهيم (أبو خولة) في بيتي، سبق الزيارة حديث عبر الهاتف بأنه يودّ زيارتي من سكناه في مدينة (هلسنبوري)، واستقبلتُه في المساء، وقال لي وصلني استدعاء من الشرطة السرية السويدية (سيبو)، وفي الصباح ذهبت معه إلى بناية المخابرات في وسط مدينة (مالمو). وتحدّثت مع مكتب الاستعلامات حول استدعائه وانصرفت أتجوّل داخل المدينة في انتظاره، لكن الانتظار طال ساعات في جلوسه أمام لجنة للتحقيق حول تقارير من منظمة مالمو للحزب الشيوعي العراقي حول تخاطب باقر إبراهيم مع أجهزة نظام البعث، وفي الختام تمكن أبو خولة من طرح رؤيته الوطنية في الدفاع عن العراق أرضاً وشعباً، فتمّ الاعتذار منه وقال له أحدهم: لو كنا

في موقعك وبلدنا تعرض ويتعرض إلى هذه الهجمة الشرسة وفرض الحصار الجائر، لوقفنا بمستوى موقفك. فتمّ توديعه بسلام حارّ والشدّ على يديه مع أخذ نسخ من كل كتاباته ونشاطاته وتاريخه السياسي.

وفي تعاقب المسؤوليات على المنظمة الحزبية في مدينة مالمو السويدية، وفي إحدى دوراتها كان مسؤولها الحزبي قاسم سلمان داود (أبو الجاسم) أحد الكوادر الحزبية في الفرات الأوسط، وفي أول اجتماع حزبي وقف بعض أعضاء المنظمة ضدّ توليه القيادة لسبب لا غير: أنه على علاقة متواصلة مع باقر إبراهيم الذي خرّب الحزب. فما كان من أبو الجاسم إلّا أن وقف شامخاً مفتخراً بعلاقته بباقر إبراهيم. وفي النتيجة أدت تلك «الشللية» إلى الإطاحة به كمسؤول أول في المنظمة.

وسبقتها معي واقعة جبانة، وأقول جبانة، وأقصدها، لان الذين تآمروا خلف الستار، كانوا يظهرون أمامي بوجه آخر في داخل القاعة. ففي عيد ميلاد الحزب، وهو حزبنا نحن المضحّين والمناضلين الذين وقفنا معه بأشد الظروف في مواجهة الدكتاتورية، عندما كان يحتاج إلى رجال ومناضلين. فعلى ضوء ميلاد حزبنا وفي الحفل المقام لهذا الغرض في إحدى قاعات مدينة مالمو، كانت زوجتي وأخواتها هن من يحيين الاحتفال بأغانٍ مهداة إلى ميلاد الحزب، وكان هناك همس بين بعض أعضاء المنظمة حول وجودي وحضوري في القاعة وهم بغنى عن التعريف السيّئ بتاريخهم الأسود، وعندما أبلغني الرفيق أبو جاسم عن هذا الهمس رجاني أن لا أقوم بأي تحرّك يُفسد الاحتفال، لكني حاولت أن أستفزهم فمنحوني الودّ وهذا ديدن المشبوهين، وفي الوقت نفسه كان من ضمن حضور الاحتفال وكلاء أمن وبعثيون سابقون لاجئون مثلنا.

في العام 1991 زار الجنرال شوارزكوف، القائد الأمريكي الميداني الذي قام في الهجوم على أرض العراق من حفر الباطن السعودية؛ مدينة مالمو عبر باخرة قادمة من العاصمة الدانماركية (كوبنهاغن) لإلقاء محاضرة

في جامعة السويد، فتصدينا له نحن وبعض الشبيبة العراقية على رصيف المرفأ استنكاراً لقدومه وهو الذي قتل شعبنا ودمّر بلدنا. فاستُدعيتُ بعدها للتحقيق من قبل رجل المخابرات السويدية لكنهم تفهّموا موقفنا الوطني في الدفاع عن بلدنا.

في السويد فُتحت أمامي أبواب ومجالات عمل واسعة ومساحات معرفة وتنمية فكرية وسياسية وأدبية في القراءة والبحث والتقصي، مما عزّز من وعيي وإدراكي وتجاوزتُ عدّة أعمدة من القناعات والمسلمات التي فُرضت علينا بسبب تربيتنا الحزبية الخاطئة، وهي العبادة والهالة في تضخيم الأشياء والاعتماد على مصدر واحد للمعلومة فقط، هي ماذا قال الحزب. لكن ماذا قالوا عنه هو تشويه ومعاداة له، كنا جيلاً مضللاً بمسلمات فكرية واجتماعية مستبدّة وفارغة. أصبحت القراءة بالنسبة لي ليست فقط متعة وتسلية بل بحثاً واتقاداً ذهنياً ومعرفياً وتحليلياً، تلك الأرضية دفعتني إلى مواقف متطورة ومتفردة في التحليل والقراءة والموقف من مجمل القضايا التي عصفت بعراقنا وحزبنا والمنطقة والعالم، ورغم شحّة قراءتي للماركسية، لكني قرأت ماركس وأنجلز بمنظور واقعي ونقدي.

كانت النيّة هي التخطيط لتحطيم العراق، الوحش المرعب والمبكي، مما جعل مواقفنا في الدفاع عنه صعبة في مستوى التحدّي الصعب، وكان الدفاع عنه ضعيفاً في بداية الأزمة، أي في بداية غزو العراق، لأن سياسة النظام الاستبدادية طيلة فترة حكم البعث كانت قاسية ودموية، فتركت تداعياتها السلبية على مزاج الناس من مفهوم الوطن والسيادة الوطنية كموقف وانتماء ومصير.

فاجأ انهيار البعث المتابعين والمهتمين وطوابير المتعاونين مع قوى الاحتلال حتى على مستوى هرم الدولة، وما زالت الشكوك تحوم حول قادة البعث في التعاون مع قوى الاحتلال: طاهر جليل حبوش، صبري الحديثي، محمد سعيد الصحاف، وقادة عسكريين وإعلاميين وموظفين حكوميين.

في السويد شكلّنا تياراً وطنياً من الوطنيين بمختلف مشاربهم وانتماءاتهم، كان في مقدمة مهامنا فضح الاحتلال ونواياه وإدانة المتعاونين معه عبر أمسيات ولقاءات وبيانات، تمكّنا من خلالها من استقطاب أوساط وشخصيات، فصوّبنا مواقفهم باتجاه الوطن والشعب والأرض. كانت سنوات الاحتلال ولياليها المرعبة وصناعة من أرتال الإسلام السياسي كفيلة في تغيير مواقف الناس نحو رصيف الخير والسلام والتحرر، كنا في مفترق طرق متعرجة وديانة خطيرة وطويلة، إما الوقوف مع الوطن بكل تجلياته أو الخضوع واللهاث وراء مغريات وعطايا الاحتلال من أراضٍ ومنح ورواتب تقاعدية بدون مسوّغات دستورية ولا قانونية، في سابقة خطيرة جداً بتحويل البلد إلى بطالة وفوضى عارمة بدون تنمية ولا حركة مجتمع ولا ثقافة وبدون صناعة ولا حتى زراعة.

تحطّمت قوى الإنتاج في المجتمع فنشأت مافيات وقوى فساد تحكّمت بمصير البلد وساهمت في خرابه وتحطيم بُنيته التحتية. كان للدين المتمثل بالإسلام السياسي دوره وقيادته الفاشلة في عرقلة تطور البلد بل مشى به إلى حافة الهاوية من خلال تعزيز الهوية الطائفية والتفريط بسيادة البلد. وأصبح الانتماء للوطن فقط من خلال العشيرة والحزب والمذهب، وباتت الثوابت الوطنية محطّمة أمام غول هذا التداعي في الهزيمة والاستسلام، فتركت تلك السياسة خلال سنوات الاحتلال عاهات ثقافية وفكرية ومشعوذين من رجال دين وتقليد أعمى لهم عبر جملة خرافات وادعاءات طائفية كاذبة لقيت صداها بين أوساط أبناء شعبنا المكتوي بنار تخلفهم.

كان نشاطنا على الأرض السويدية مكفولاً قانونياً ضمن قوانين ومساحات الحرية المعمول بها في التعبير عن الرأي بعيداً عن العنف، مما زاد اعتزازنا بموقفنا والتمسك به أمام هول الإخفاقات التي اعترت العملية السياسية برمتها وعلى شتى الأصعدة، وهذه المواقف لم تكن وليدة الصدفة وإنما نتاج نضال طويل منذ أن تعرّض العراق إلى الغزو والهجمات للنيل من سيادته وتراثه وتاريخه.

بعد غياب ربع قرن عن العراق وطئت قدماي أرضه، امتلأتُ غبطة ودهشة لما رأيته من تغييرات طرأت على مزاج الناس وعلاقتهم بالأشياء والتي كانت تُعدّ بالنسبة لنا من بديهيات التواصل وهي من صلب مهامنا وأهدافنا، فلم يعد لعقلية المواطنة والدفاع عن العراق في عقول العراقيين، من أثر يذكر، متبخرة تماماً بحكم الظروف الصعبة التي مروا بها من سنوات الحصار إلى مأساة الاحتلال وبفعل سياسة النظام السابق وإرهابه المنصبّ على حياة الناس، مجتمع باتت أُسسه التحتية مهدمة تماماً بحيث لا يتشرف العراقي بانتمائه. اختلّت عنده معايير الوطنية، لم يرَ في أفقه إلّا عراقاً يحكمه البعثيون لتجربة كانت مريرة معهم، تركت آثاراً ومخلفات في مفاهيم المواطنة والوطنية، تلك التحولات الخطيرة في عقلية المواطن العراقي أعادتني إلى سنوات مطلع الثمانينيات على أقل تقدير بمضمار عملي الحزبي وشبكة علاقاته، فالتمسّك بمبادئ النضال لم يعُد أمراً سهلاً ولا مستساغاً بين عامة الناس بعد تجربة الجبهة الوطنية المريرة وما لازمها من تعرجات وإخفاقات وموقفنا غير المعلن في رفض تلك السياسات التي أضرّت بفعالية وجودنا في سهولة استقطاب الناس إلى هدفنا بإعادة الجزء المتجزئ من تنظيماتنا. كان عملنا شاقاً وخطراً بين أوساط شعبنا. ولربما أعطانا بدء الحرب العراقية ـ الإيرانية دفعاً جديداً باتجاه تعرية نظام البعث وحربه، فشكلنا قاعدة جماهيرية على ضوء إدانة تلك الحرب وويلاتها.

كان كل الرفاق الذين التقيتهم بعد هجرة عقدين ونيف يحملون رؤى أخرى بتطلعات بعيدة عن أهدافنا وجهل كامل عمّا أصابنا طيلة سنوات الهجرة من معارك داخلية ومواقف سياسية وصراعات فكرية وانشطارات بتكوين تنظيمات جانبية بأسماء شيوعية شتى، لكن عودة الحزب بعد الاحتلال وتشريعه فتح مقرّاته شوّق الرفاق القدامى وأبناء الشهداء الذين تهافتوا على تلك المقرات، إنه فردوسهم المفقود، كان يُفترض من قيادة الحزب أن تستثمر تلك الفرص

على مبادئ نضالات الحزب الوطنية وذخيرة شهدائه والموقف من الاحتلال وعمليته الطائفية ورفض التعامل مع رموز الإسلام السياسي وتعرية الإمبريالية على صخرة الفهم الماركسي اللينيني لها.

لكن المفروض من هذا كله لم يتمّ، فخلق فجوة واضحة بين تاريخنا ومبادئنا والموقف من الإمبريالية والقبول بدخول مجلس الحكم الذي عيّن أعضاءه الحاكم المدني الأمريكي بول بريمر. مما خلق بلبلة فكرية بين شعاراتنا وموقفنا العملي من الاحتلال وأدواته أثّر تأثيراً كبيراً وواضحاً في العلاقة العضوية بين الحزب وجماهيره، وإن نتائج الحملات الانتخابية كانت واضحة جداً على طبيعة تلك العلاقة وديمومتها المستقبلية.

شيوعي يتبجح بإعطاء صوته إلى قوائم أحزاب الإسلام السياسي حسب ظنّه، لا فرق بين الاثنين كلاهما حزب وفي العراق، شاهد حجم الهزيمة على مستقبلنا السياسي. أثبتت تطورات الأحداث عجزنا بالارتقاء إلى تلك المفاهيم مما وضعنا في حالة حرجة، أما تاريخنا وتضحياتنا في العمليات الانتخابية التي جرت وعُزلتنا الجماهيرية فهي ما زالت تتصدع نحو الهلاك، منذ الأيّام الأخيرة من فرط التحالف مع البعثيين الذين ازدادوا شراسة حولنا وعلينا.

في إطلالة صيف ساخن عام 1978، انتقلت حملتهم مباشرة من ثغر العراق، مدينة البصرة، إلى قرية الهويدر حيث جرجروا تحت فوهات البنادق، إلى مديرية أمن ديالى، الرفاق ماجد صبري، هاشم كسارة، جميل خماس من على تخوت قرية الهويدر وزوايا الدرابين ودروب البساتين، فواجهوا أساليب البعثيين بتحدٍ وصمود، ولاقوا على أثر تلك المواقف إهانات وأساليب قذرة من التعذيب والتهديد بالموت.

قال لي الراحل ماجد صبري: كان تحدّينا لهم مبنياً على ارتكازنا القويّ على ظهر حزبنا، بأنه سيعلن النفير العام والنزول إلى الشوارع إذا لم يوقفوا حملتهم الدموية ضد مكتسبات التحالف معهم، وهذا ما كنا نتلقاه ونسمعه من

رفاقنا عندما بدأت الحملة في البصرة ضد رفاقنا، وبعد فترة وجيزة جداً بانت نيّة البعثيين في تحطيمنا، وكان القرار متخذاً لا عودة عنه، بعيداً عن أساليب تخديرنا بحملة مؤقتة يقودها صقور البعث، لكن تبيّن أنه أمر دُبّر بليل. من هنا بدأت معنويات رفاقنا تنهار بوتيرة سريعة في التوقيع على قرار 200 سيّئ الصيت والسمعة، وتُعدّ جريمة قتل صديق الشيوعيين في مدينة بعقوبة عدنان الحداد تحت التعذيب تحدّياً سافراً لقيم الإنسان والنكوص عن الالتزامات والاتفاقات المبرمة مع خطّ الجبهة الوطنية في بناء العراق السياسي ضمن وحدة وطنية تأخذ على عاتقها بناء عراق متعدّد وديمقراطي، وربما نحو الاشتراكية، في كل كان يوم يسقط رفيق سياسي وهو يجرجر أذيال خيبات الذل والهوان بإجباره على التوقيع بالقوة. وتحت مظلّة هذا الوضع المتردّي يزداد البعثيون في تصعيدهم المختلف والواطئ ضدّنا للنيل من صمودنا.

هناك من استطاع من شيوعيي القرية أن ينجو بثيابه بالهرب إلى بغداد والمحافظات العراقية الأخرى، لكنهم عادوا بعد فترات متقطعة، ليأسهم من منفذ أمان قريب أو تسوية في الأفق بعد أن ضاقت بهم الأمكنة وطرق النجاة والعوز والحنين خارج سيطرة وهيمنة البعثيين. أنا كنت أيضاً في ذلك العمر أحاول الالتحاق بالجبل في صيف عام 1978مع الرفاق ذاري كاظم، والشهيد المعلم يحيى حمدان، وعبد الزهرة تيتو، حيث وصلنا إلى أطراف قصبة العمادية ولم نعثر على من يدلنا إلى ذلك الطريق الجبلي إلى رفاقنا، فعُدنا أدراجنا.

في عام 1986كنت مقاتلاً ضمن فصائل الشيوعيين في تلك المنطقة، ومررتُ مرات عديدة من تحت قصبة العمادية فأدركتُ أننا لم يكن يفصلنا عن رفاقنا آنذاك إلّا عبور طريق فرعي وتسلق الجبل باتجاه مقرّاتهم الأولى التي كانت في بداية انطلاق التجربة، وبعد أن فشلنا في عدة محاولات عدنا إلى القرية وتعرضنا للمطاردة والاعتقالات والإهانات ولا بصيص ضوء بعيد يهدينا إلى الطريق لحفظ ماء وجوهنا والتمسك بمبادئنا الشيوعية.

لم تنقطع علاقتي بالتنظيم رغم شراسة البعثيين، فقد بقيت أعمل سرّاً وبخطوط رفيعة لمدّ شبكات من العلاقات والخطوط الحزبية ونجوت مرات عديدة من موت محقّق لولا الصدف التي لعبت دوراً كبيراً في نجاتي.

في تجربة الجبل، وفي تلك السنوات من النضال الصعب ازداد تمسكي بالفكر الشيوعي بالدراية والمعرفة والتماس المباشر بتفاصيل وأساليب العمل، بدأت تتشكل في وعيي رؤى وقناعات جديدة وثورية في العمل السياسي وأكثر عمقاً ودراية بنظرية الفكر الماركسي وتجاربه التاريخية وفلسفته بالحياة والعمل والتطلعات إلى المستقبل، وترسّخت في ذهني معاني الوطنية والنضال، والمواقف كانت حصيلة خمس سنوات من تجربة الجبل حيث تخللتها مرات في التسلّل إلى بغداد التي كانت كفيلة بمنهج حياة ونضال ورؤى جديدة بمفاهيم متطورة حول الفكر ومعطياته وتكتيكاته واستراتيجيته وفي أساليب نضال أكثر قرباً وواقعاً ومعنىً من حياة شعبنا.

فترة رغم حراجتها وصعوبتها وموتها سريرياً، لكن كانت هناك طاقات جبارة وخارقة وجدّية في مواجهة البعث بروح استشهادية نادرة وشجاعة. كانت لي أيضاً مرحلة جدّية في مراجعة المناقشة والوقوف عند قضايا فكرية وفلسفية تعلمناها في بداية خوضنا العمل السياسي حول البيان الشيوعي الذي خطّه كارل ماركس وفردريك أنجلز 1848 وما تضمنه من قرارات ووصايا لبناء النظام الاشتراكي، وقرأت عن بعض المفاهيم حول فائض القيمة وأصل الملكية وتوزيعها ومجانية التعليم وموضوع المرأة والطفل والضريبة وقضايا النضال الحقيقية في الموقف من الوطن. لكن أين نحن من أول تجربة اشتراكية في ثورة أكتوبر 1917وما حققته تلك التجربة من مضامين البيان الشيوعي حول تحقيق النظام؟

في عام 2007 أطلقتُ موقعاً إلكترونياً إعلامياً باسم «شبكة بيدر» تيمناً باسم ابنتي البكر بيدر، محاولة ومبادرة شخصية مني مع عدد من المعاونين الشباب،

محاولة جادة ووطنية لرأب الصدع في نسيج المجتمع العراقي جراء سقوط الطاغية والاحتلال البغيض، وقد جاء الإعلان في هذه الديباجة في مخاطبة العراقيين بالتعريف عن «من نحن؟» بالقول:

عراقيون، رفاق درب وموقف وفكر، فرّقتنا ظروف بلدنا القاسية، وجمعتنا سنوات النضال والغربة في الدفاع عن عراقنا، ونبذ الطائفية وكره الاحتلال.

نحن في شبكة البيدر، نعلن عن مركزٍ إعلامي وفكري وثقافي مستقل، دعتنا غيرتنا وشرفنا إلى المساهمة الجادة بتأسيس صرح إعلامي يساهم في عافية العراق وبعد جهود ومشاورات صريحة وعلنية على قاعدة انطلاق صرح إعلامي عراقي مستقل ووطني يلبي متطلبات المرحلة الحرجة التي يمر بها بلدنا وشعبنا.

ستعتمد شبكتنا الإعلامية على قاعدة حرية التعبير والدفاع عن حقوق الوطن والمواطن وفق معايير الوطنية والشرف ولملمة جراح الطائفية وأساليب الاحتلال وفق منهجية خطاب سياسي وثقافي وفكري لإبراز مكانة العراق الحقيقية التي تعمل المتغيرات على إرباك فهمها والتشويش على طبيعتها المتميزة.

شبكتنا الإعلامية، صرحٌ إعلاميّ مستقل يساري يؤمن بالرأي الآخر ويدافع عنه، ويتمسك بالهوية الوطنية العراقية باعتبارها جامعاً مشتركاً للمكونات العراقية المتنوعة، ويدعو خطابها إلى استقلال العراق واستعادة السيادة الوطنية العراقية وبناء نظام ديمقراطي حر وموحد. تقر شبكتنا بالتعددية الفكرية والسياسية والقومية والدينية، وفي الوقت نفسه تؤمن بالتوجّه الديمقراطي والحريات واحترام حقوق الإنسان.

ستعالج شبكتنا الإعلامية مشاكل وهموم الناس، ولا سيّما ما يتعرضون له من إرهاب وعنف وانعدام الأمن والأمان. وستولي اهتماماً كبيراً لموضوع الإرهاب وفضحه ورفضه بأشكاله ومنابعه، والدعوة من خلال موقعنا لكل

الناس الخيّرة في المساهمة الجدية مع هموم الوطن في بناء عراق جديد خالٍ من الاحتلال والطائفية والإرهاب، عراق تعدّدي ديمقراطي.

واصلنا عملنا في هذا الموقع لمدة ثلاثة أعوام بمسؤولية عالية واستقطبنا خيرة الكتّاب والمثقفين بين صفحات موقعنا اليومية، وأحاطتنا شريحة متميزة من أبناء شعبنا ومتابعون من وطننا العربي، لكن لظروف خارجة عن قرارنا توقّف الموقع، وما زال العديد من المتابعين يسألون ويطلبون مني شخصياً إعادته، وهناك خطوات بهذا الاتجاه، وفعلاً فقد أُطلِق مجدّداً بثوب جديد بألوان العراق وأهله.

# تقييم للتجربة الشيوعية

بداية عليّ القول إن ما ساعدني في حياتي على التكيّف، ولو قليلاً، للخروج من الخوف الذي كان يلازمني في حياتي هو التقرّب إلى الشيوعيين من خلال الجلسات والعمل باتحادات الطلبة والشبيبة واللقاءات اليومية، وحينها بدأت بالبحث والقراءة غير المدروسة من سلامة موسى إلى يوسف سلمان يوسف (فهد) كتاب (حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية)، لكن بدون وعي وإدراك لمضامينها العميقة، فبدأت تتشكل عندي بدايات وعي مبكّر.

وبعد أن فهمت الشيوعية بمعانيها، كنت لا أتردد في اتخاذ المواقف بأصعب الحالات، بعيداً عن التزلف والمواربة، مما عرّضني في ما بعد في سيرتي النضالية والاجتماعية إلى تقاطعات حادة في العلاقات. منذ يوم أول اجتماع لي في خلية حزبية للأصدقاء فهمت أن الشيوعية هي الوطن، ولكي تعتلي إلى مقام هذا الانتماء، فإن الوطن بوصلة عالية وغالية ولا يمكن المساومة عليه.

في أواسط الثمانينيات عندما بدأت المياه الراكدة تسري في مجرى حياة الشعب السوفييتي، حركة الغلاسنوست (العلانية) والبيرسترويكا (إعادة البناء)، وفي خطاب شهير للرئيس السوفييتي غورباتشوف، في المؤتمر الخامس والعشرين للحزب الشيوعي السوفييتي، يومها كنت نصيراً مع الثوار في الجبل في منطقة زيوه في قاطع بهدينان، حيث انقسم الرفاق بين مؤيد ومعارض، من خلال ترجمة سطور الخطاب من قبل بعض الثوار في الموقع الأنصاري من خريجي المدارس الحزبية والأكاديميات السوفييتية، وكان أكثرهم متابعةً الراحل علي العقابي (أبو برافدا).

عندما ترأس ميخائيل غورباتشوف قيادة الحزب والدولة بعد عدة قادة رحلوا سريعاً وفي وقت قصير، أراد الرئيس السوفييتي الجديد القيام ببعض الإصلاحات السياسية والاقتصادية، وخطا خطوات ميدانية من خلال زياراته للمؤسسات والجمعيات ودوائر الدولة. وقد خاب ظنه بعد أن كان يعتقد بوجود بعض الإخفاقات هنا وهناك من الممكن ترميمها دون المساس بالأساس المنخور. لكنه أول ما فتح ملفاتها انهارت الدولة، لأنها كانت مترعة بالبيروقراطية والفساد والمحسوبية والنفاق والاعتقاد الأكثر قرباً مما حدث، كان الرئيس غورباتشوف على علم وتنسيق مع قوى معادية في تحطيم بلد الاشتراكية الأول الاتحاد السوفييتي.

رسالتنا نحن العراقيين الوطنيين في المهجر لم تعُد سهلة في تحديد نقاطها في خوض الدفاع عن أرض العراق أرضاً وشعباً وتاريخاً، فقد انهارت تجربة النظام الاشتراكي في الاتحاد السوفييتي ودول البلقان بعد تجربة حكم فاشلة تركت ظلالها السلبية على عمل وفعالية حركات التحرر في العالم والأحزاب الشيوعية، وتحديداً في المشرق العربي ومغربه. في أوروبا الغربية لم تعُد ذات تأثير واضح، لأنهم قبل انهيار تلك التجربة بسنوات طويلة خرجوا بنظرية (الأوروشيوعية) أو الشيوعية الأوربية. طيلة مسيرة الحركة الشيوعية العراقية مرّت بمخاضات وانشقاقات وصراعات حول مواقف فكرية وتنظيمية ووطنية، لكن بقي بريقها ساطعاً لوجود عقل ديناميكي في استيعاب ماهيات الصراع والسيطرة عليه داخلياً، يعني تجنّب في نشر غسيلنا الوسخ أمام الملأ بحجة ليس وقتها الآن. وما زالت تلك الديباجة سارية.

ربما كان هذا سابقاً في الخمسينيات والستينيات، أما السنوات التي أعقبتها من تعقيدات وتطورات فالأمر يختلف، ظلّت الأجندة والمصالح والغايات تدير الصراع بعيداً عن الحرص في حفظ تاريخ الحزب النضالي والوطني،

وتلك الأجندة وجدت ضالتها في القيادات التي تعاقبت على قيادة الحزب منذ مطلع الستينيات لتحوله إلى جثة هامدة بلا روح.

عن تجربتي في الجبل، أروي لكم عن تلك الظاهرة التي انسلّت من جسم الحزب الشيوعي العراقي وهم الشيوعيون الثوريون الذين التقيت بهم لأول مرة في مناطق (سرگلو وبرگلو) في غرفة صغيرة بائسة ضمن محيط مقرّات قيادات الاتحاد الوطني الكردستاني. كانوا يقضون جلّ وقتهم في القراءة والمتابعة وتصدير بعض البيانات حول تطوّرات الأحداث، هم رفاق شيوعيون عراقيون ما تبقى من تنظيمات حزبية أي جماعة (سليم فخري) ضابط شيوعي سابق، خرج من الحزب ولم يعد بعد خط آب عام 1964 الشهير وموقفه المعارض من تجربة الاتحاد الاشتراكي العربي.

تأسست هذه المجموعة في العاصمة بيروت، وانتقلت عام 1979 إلى كردستان، من شخصين هما زهير وسالم، زهير هو رياض جاسم جابر من مدينة الناصرية شارع الحبوبي وهو خريج جامعة يوغسلافيا وكان عضواً ناشطاً في اتحاد الطلبة العراقي. في منطقة نوكان وبعد انتهاء الحرب العراقية ـ الإيرانية اغتيلا بمسدسات كاتمة للصوت من قبل عناصر مندسة في الحزب الاشتراكي الكردستاني (حسك) جماعة رسول مامند، ولا زالت قبورهم إلى الآن موجودة في زلي في منطقة دولتو خلف جبل مامند.

# في بغداد المحتلّة

في شباط من عام 2004، حزمت حقيبتي للعودة إلى الوطن بعد ثلاثين عاماً من النضال والمنفى والمكابدة والمعاناة الحقيقية واليأس من مشروع الأمس الذي ضاعت بوصلته في طرقات الغربة والانتقام الرفاقي. عدتُ وفي نفسي ألم وغصّة وتساؤلات مشروعة ومنطقية، كيف أُهدرت سنوات نضالنا وتضحياتنا بهذه الغفلة التاريخية المتقلّبة من الزمن ومن مشروع وطني ونضالي وديمقراطي تعتمده جماهيرنا المكتوية بنار الدكتاتورية البغيضة ونحن «طليعتها الثورية» حسب المفهوم الماركسي، ليتحول الوطن إلى جثة هامدة تتناهشها غربان العالم السود عبر مسيرة متلكئة من عملية سياسية فاسدة وباطلة أجراها وعمّدها دعاة الاحتلال بأيادٍ محلية.

هناك تجارب عالمية، قد تكون قريبة إلى وضعنا العراقي، في احتلال الأوطان بتنصيب حكومات محلية عميلة يربطونها بسلسلة من العقود والاتفاقات خلافاً لإرادة الشعوب، لكن إرادة تلك الشعوب دائماً ما كانت تنهض من جديد بدعم من القوى الوطنية الخيرة وتنهي هذا الوضع لمصلحة البلد. فهذه تجربة دولة فيتنام، عندما أُجبر الأمريكان على الانسحاب مهزومين عام 1973 تحت إرادة المقاومة الشيوعية، أراد الأمريكان أن يخرجوا من البلد بماء الوجه من خلال مفاوضات قادها السوفييت والصينيون بعد أن شكل الأمريكان حكومة محلية لهم في مدينة (سايغون) ترعى مصالحهم عبر سلسلة من الاتفاقات والمصالح والعمالة. لكن الأمر انقلب لصالح الشعب الفيتنامي، إذ قام الحزب الشيوعي الفيتنامي بتعبئة الناس باتجاه التحرر الوطني وطرد عملاء المحتلين وقدموا

مليون شهيد حتّى النصر النهائي في عام 1976، فدخل قادة الحزب الشيوعي الفيتنامي الجنرال جياب مع الثوار إلى مدينة سايغون والتي سمّيت فيما بعد مدينة هوشي منه تيمناً بالقائد الشيوعي هوشي منه، وأعلنوا عن طرد عملاء الأمريكان وتحقيق النصر الوطني النهائي.

وإلى يومنا هذا تعتبر تلك التجربة نبراساً للوطنيين ووصمة عار في جبين المحتلين والعملاء، حيث مات القائد هوشي منه في بيت من بيوت القش مع رفاقه القدامى، رفاق السلاح والمقاومة، وما زال إلى يومنا هذا رمزاً للأحرار وقبلة للثوار في دحر أعتى نظام مستبد وقامع لحريات الشعوب.

عدتُ إلى بغداد مستجيباً لتوسلات أمّي المفجوعة بسلسلة من المآسي والأوجاع والتضحيات، رغم تردّدي توجساً على وطن استُبيح في عزّ النهار بالتعاون مع بعض من أبنائه المهزومين وممن ارتضى لنفسه تلك السنوات من الظلم والتعسف جراء سياسة النظام القمعية السابقة، وأنا الناشط المدني على مدى سنوات في تعرية الحصار وإدانة الغزو وتجريم الاحتلال وإدانته رغم التيار العام والجارف لتبرير الاحتلال والتعويل على عملية سياسية فاشلة صنعها المحتل بأدوات رخيصة تحت عناوين شتى، ولم تحيّد تلك الادعاءات والتهديدات من موقفي الوطني بالدفاع عن العراق وأهله تجاه هؤلاء المدعين والمتبجحين بحب العراق والدفاع عنه، وبعد سنوات من مآسي الاحتلال وما أدى إلى ويلات وكره وموت خرجوا، من تحت المعطف وأقلامهم جافة بالهجوم على رموز العملية السياسية وصنّاعها بدون ذرة أحساس وضمير، للإعلان عن توبتهم وندمهم من مواقفهم السابقة في تأييد مشروع الاحتلال والاعتذار من الناس الذين دفعوا الغالي والنفيس من أجل العراق وأهله.

وصلتُ إلى دمشق ليلاً في ذلك اليوم الربيعي، وكان في استقبالي في المطار محمد البهادلي (أبو أمل) وانتقلنا معاً إلى بيته في مخيم فلسطين. كانت دمشق هادئة، لكن نسماتها المنعشة ردّتني إلى ذكرياتي فيها التي عشتها إبّان إقامتي

فيها عام 1989؛ مقهى الروضة وهافانا والشام وركن الدين والمسرح القباني، ثم عادت بي الذكريات القهقرى إلى ذلك المكان البعيد؛ قرية الهويدر، حيث ذاكرتي ما زالت طرية بذاكرة المكان والأهل والرفاق، وحيث قداح الهويدر لا يزال فوّاحاً بعطره وجماله، وحيث مرابع الطفولة التي تتماوج في ذهني. لقد شدّني حنين جارف إلى تلك الذكريات والأصدقاء والرفاق والدرابين وبيوت الجيران وأسرار «الفضوة». أمي وجلساتها العصرية على عتبة باب بيتنا مع صاحبتها حمدية امرأة ميزر، سليمة امرأة عمي مجيد وهلالة امرأة علّو أبو الطبل الحاضر دائماً مع طبله معلقاً برقبته ليحيي أفراح أهالي القرية، وفي رمضان يؤشر لهم بحلول وقت السحور فجراً.

ومع ساعات الفجر الأولى، والناس في دمشق نيام حيث الشوارع فارغة من المركبات والمارة، تحرّكت بنا سيارة التاكسي باتجاه معبر ربيعة، نقطة الحدود الفاصلة ما بين سوريا والعراق، الدولتين الجارتين اللتين تحكمهما قوانين حزب واحد، اسماً وأيديولوجية، لحكومتين ظلّتا تضمران حقداً على بعضهما، بل يتآمران على بعضهما علناً وتحدياً وخلسة، مما أبقى حدودهما مغلقة طول الدهر. ولولا الاحتلال الأمريكي للعراق لبقيت مغلقة إلى أبد الآبدين، ولبقي شعار الوحدة والحرية والاشتراكية معلقاً في كل زاوية ومكتب وساحة ومقهى في أروقة البلدين.

بعد ساعات، كنا على مشارف المعبر الحدودي تتراءى أمامنا طوابير من السيارات الصغيرة والكبيرة على جانبي الشارع متوقفة بانتظار أمرٍ من جنود الاحتلال ليعبروا الحدود باتجاه الأرض المغتصبة، والناس بوجوه مكفهرة يعلوها الضجر والتعب والتململ. كان رفيقا سفري اللذان رافقاني بالتاكسي من دمشق مخيم فلسطين عضوي مجلس وطني قبل الاحتلال، ورغم أنهما كانا يتحدثان طيلة الطريق بهمس، لكن الصوت كان مسموعاً لي: «هذه نتائج الاحتلال، دمروا بلدنا ووطننا»، وكأن وطنهما كان مزهواً وآمناً قبل

الاحتلال، هذا كان ردّي التلقائي مع نفسي. النظام يتحمل ما جرى، لكن هذا لا يبرر همجية القوى الإمبريالية بتدمير بلدنا باحتلاله، كان على صدام حسين أن يفوّت الفرصة على الأمريكان في احتلال العراق وتدميره، والسياسة فنّ الممكنات، لكن يبدو لي أن الرجل ظلّ بدويّاً ولم يستفد من تجربته الطويلة في الحكم حول ألاعيب السياسة وفنونها، وكما اتضح بأنه كان يعتقد أنها فزعة عشائر تُحلّ بفصل وتُختتم بالذبائح.

سألني أحدهما عن الفترة الزمنية التي قضيتها خارج العراق، «إنها عقدان ونيف»، وأرادا أن يعرفا ميولي السياسية والأسباب التي دعتني لترك العراق، فقلت: «بسبب اضطهادنا من قبل النظام، وأنا شيوعي فكراً ووطنية، وما زلت معتزاً بشيوعيتي». أجابني أحدهما: «لكن الحزب الشيوعي الآن يقف مع العملية السياسية التي كان الاحتلال من نتائجها»، فكان جوابي له: «الحزب جزء من الحركة الشيوعية العراقية، هناك اتجاهات وتيارات وتنظيمات، فالاجتهاد مفتوح للجميع في تبني رؤاه السياسية والفكرية والتكتيكية»، فأجابني: «أنت تتكلم بلغة عراقي قح»، فقلت له: «وهل تعتقد أن سياسة النظام نجحت في تشويهنا والنيل من عراقيتنا وفي إظهارنا عملاء للأجنبي من خلال إعلامه وقنواته وعملائه كما يحلو له نعتنا، وأننا نعيش على فتات الأجنبي الذي دمر بلدنا كما كان النظام وماكنته الإعلامية ودعايته البرغماتية في تشويه رسالتنا ونضالنا؟ دافعنا عن بلدنا وتاريخه بأصعب الظروف والصعاب، ونحن مطاردون من أجهزة النظام وصدرت بحقنا أحكام قضائية باطلة للنيل من مواقفنا وتشويه تاريخنا الوطني، وهل تصدقون ماكنة النظام الإعلامية والمخابراتية بأننا كنا عملاء وأدلاء خيانة؟».

إنصافاً للتاريخ، وهذه حقيقة، أننا كنّا الوحيدين في تجربة الكفاح المسلح، نحن الأنصار الشيوعيين قيادة وقاعدة ضدّ الاحتلال وضد التدخل الإيراني في شمالنا الحبيب، في حين كان العديد من القوى الكردية لا يهمها إلّا التخلّص

من صدام حسين بكل الوسائل سواء المشروعة أو غير المشروعة، وقد وقفنا أيام الحرب مع إيران، ضدّ احتلال أي شبر أو راقم من أرضنا الوطنية المقدسة باستثناء نفر ضالّ، فقد كانت قلوبنا تعتصر ألماً وضمائرنا تؤلمنا عند رؤيتنا للجنود الإيرانيين و«حرس الثورة» يشقّون طرق أرضنا العراقية باتجاه مدننا الآمنة، ويثبّتون العلامات بمسافات الوصول إليها، كنّا على غفلة منهم نمزّقها بحقد ونضعها تحت أقدامنا. «375 كيلومتر إلى مدينة كربلاء»، كانت اللافتة التي أنا شخصياً مزّقتها على غفلة منهم، رغم إدراكي المسبق بنتائجها الوخيمة فيما لو عرفوا بي.

تكونت علاقة طيّبة بيننا كرفقاء سفر، وعندما وصلنا إلى نقطة الحدود السورية، قالا لي: «خليك مرتاح بالسيارة»، وأخذا جوازي معهما، بعد دقائق معدودة عادا مع تخليص كل الإجراءات باتجاه العبور إلى الأراضي العراقية. وفي نقطة العبور العراقية، كانت الحدود مغلقة إلى إشعار آخر، وكان مئات الآلاف يصطفّون على جانبي الطريق العام بغضب وفوضى مع قوافل من المركبات المركونة على الطريق. كان المسافرون ينتظرون منذ أيام، فالتعب والتراب والضجر والاستياء كان بادياً على محياهم، وهم يفترشون الأرض والطعام ملقىً أمامهم بطريقة فوضوية. كان قسم منهم، وللتعبير عن ضجرهم يغنّون بتندّر أغنية المطرب العراقي قاسم السلطان، الأغنية التي شاعت قبل غزو العراق والتي تدعو صدام حسين إلى خوض الحرب «فوت بيهه وعالزلم خلّيهه». لكن بعد وقوع الاحتلال اختفى الجميع، فلا هو «ولا الزلم فاتوا بيها».

بعد انتظار وترقّب طويلين وسط تلك الحشود البشرية في نقطة الحدود، أطلّ علينا (علي غيدان) بأوسمته العسكرية فوق مركبة همر أمريكية طالباً منا التروّي والانتظار لأسباب أمنية تهمّ المواطن والوطن، وعلي غيدان هذا صار في ما بعد واحداً من القادة المتّهمين بتسليم مدينة الموصل العراقية إلى تنظيمات داعش الإرهابية عام 2014.

لم يبق أمامنا إلّا عبور الحدود خلسة في غفلة من التزاحم والفوضى إلى الطرف الثاني من الأراضي العراقية بدون تأشيرة ولا دمغة جواز ولا حتى سؤال بتجاوز الحدود، هنا التهبت روحي بحرارة تلك الأرض وقدسيتها الإلهية، «اللّٰه يا هالوطن شمسوّي بيه اللّٰه»، ركبنا مباشرة سيارة تاكسي مع سائق من أهالي مدينة الفلوجة أنا وأخي أحمد الذي رافقني من الدنمارك وعضوا المجلس السابقان، هنا تجلّت مشاعر الروح خليطاً بين الفرح والحزن وعاودتني الذكريات إلى حدّ البكاء، فيما السيارة تمضي على أرض الوطن المحتل المتّجه نحو مصير مجهول.

منذ اللحظات الأولى تتراءى أمامك آثار الاحتلال التي مزّقت الوطن إلى أشلاء، ففي السنوات التي سبقت الاحتلال، دخل العراقيون عنوة بدوامة من الخوف والحرب والحصار نتيجة لسياسة النظام الهوجاء، مما سهّل للاحتلال الأمريكي اختراق التربة الوطنية العراقية بسهولة فاجأت العالم.

كنت مكسوراً وغاضباً وحزيناً لحدّ البكاء، وأنا أرى الجنود الأمريكيين فوق دباباتهم (الهمر)، عكس السنوات التي مضت، عندما كنت مقاتلاً في الجبل حاملاً روحي على كفي وغير مبال بمفارز السلطة في كل ركن وزاوية، لأننا كنا أصحاب قضية ومشروع وطني محقّ، كنت أتسلّل إلى بغداد بمعنويات قوية وتحدٍّ عالٍ، لكن هذه المرة تختلف من حيث المعاني والموقف، في مشهد محزن لوطن دفعت روحك ومستقبلك من أجله، تحسّ مباشرة أنه لا يعنيك، أو أنه وطن اغتصب عنوة طموحك وتضحياتك وسنوات نضالك التي ذهبت هدراً وسُرقت في غفلة عنك بسبب مصالح الدولة ومطامعها.

في المسافات الأولى على طريق واسع ونظامي، لم يغِب عن نظرك تصميمه وهندسته، إنه مدخل لبلد مثل العراق يليق به وبعمقه التاريخي، لكن بنظرة حالية ومتفحّصة تبرز أمامك شواخص التخريب القادمة في وطن تكالبت عليه كل وحوش العالم، أعداؤه وناسه (سياسيو الغفلة)، الذين عادوا مع محتل

قذر، وممّن كانوا مترعين بقذارة البعث فأبدلوا جلودهم سريعاً من الزيتوني إلى العمامة والمحبس وتصدروا أجندته في التخريب والتقسيم والفساد والقتل. عاد البعثيون يحكمون العراق مرة أخرى، لكن هذه المرة باسم آخر وثوب آخر ينسجم مع متطلبات المرحلة وأجندة الدول والبلدان.

بعد ساعات من السير في شارع واسع ومفتوح باتجاه العاصمة بغداد، الطريق خال وهادئ إلّا من مرور الدبابات الأمريكية ودورياتها بين الحين والآخر، تاركة غصّة في النفس وأتربة غبار تتطاير على جوانب الطريق لسرعتها القصوى. قال سائق التاكسي معلقاً: «هم يسيرون بسرعة خوفاً من كمائن العراقيين المقاومين لهم لأنهم تعرضوا لأكثر من مرة إلى كمائن وعبوات قتل».

في بداية طريق (الستّين) قرب الفلوجة أوقفتنا دورية عسكرية عراقية طالبة منّا الانتظار قليلاً تحسّباً لحدوث وضع طارئ، هناك معارك قرب الشارع العام بين الأمريكيين ومسلحين متمردين، هذا الانتظار لم يدُم طويلاً، فسرعان ما سمحوا لنا بالتحرّك، مع التوصية بالحذر.

بدأ الغروب يسدل أستاره على الشوارع بعتمة، لكن هناك من بعيد بريق ضوء، إنها بغداد أجمل مدن اللّه، ازدادت دقات القلب خفقاناً من أثر الحنين والقرب من تلك المدينة المشعّة، إنها ذاكرة مترعة بالحنين والحبّ والأدب وهواجس الموت والحرب والقمع، ثم انثالت عليّ ذكريات الأهل وجلساتهم وصور الأصدقاء والرفاق والجيران والأزقة ونواح أمي على فراقي وهي التي كانت متعلقة بي إلى حدّ العبادة، الموت ولا مفارقتي.

في الساعة العاشرة من ليل 28 شباط 2004، كانت بغداد نائمة وخائفة والشوارع فارغة، لا يعكّر صفو نومها إلّا أصوات الانفجارات بين الحين والآخر، ونحن نودع النائبين في منطقة الأعظمية حيث يسكنان هناك مع عائلتيهما، أرادا منا أن نكون ضيفيهما في تلك الليلة عند انبلاج الفجر، وذلك تحسّباً منهما للتوقعات

المحتملة في خضمّ أوضاع غير مستقرة، لكن لهفتنا لقرب اللقاء بالأهل والرفاق والأصدقاء ورائحة النهر ووجه أمي، كانت الأقوى.

لم يبقَ أمامنا في تلك الساعات من الليل، في مدينة تشعر أنها مغتصبة للوهلة الأولى، إلّا أن نطلب من سائق التاكسي أن يسير بنا باتجاه ديالى ـ قرية الهويدر. في البدء تردّد السائق الفلوجي خوفاً من طريق مظلم وبعيد ومدينة ملتهبة بأحداثها اليومية، لكنه ما لبث أن وافق لكثرة إلحاحنا عليه فانصاع مرغماً أو ربما تعاطفاً معنا بعد أن عرف بسنيّ غربتي من خلال أحاديثنا مع الآخرين داخل السيارة طيلة الطريق، تجنباً لقلق أهالينا إذا ما تأخرنا، وقلق زوجتي وبناتي في السويد على تأخرنا إلى هذا الوقت من الليل في متابعتهم لخطوات وصولنا من مدينة مالمو السويدية عبر هاتف الجيران بيت جميلة أم عبد في الهويدر.

سألتقيهم إذن بعد فراق طال عقدين ونيف، هناك مرابع الطفولة وسنوات الصبا والرفقة ورائحة السواقي وإرهاصات السياسة ورائحة الورق القديم وتحدّي البعثيين، هاجمتني تلك الذكريات والصور في الطريق العام الخالي من المركبات عدا سيارتنا التي كانت تشقّ طريقها في عتمة الظلام بين بغداد وبعقوبة. كنت في غيبوبة كاملة وسط تلك التداعيات من الذكرى والألم، والتي أخذتني إلى زمن غابر بعيد. فطنت على مفرق الوثبة (مدرسة الوثبة)، الطريق المؤدي إلى قرية الهويدر، كل شيء متغير ومتحوّل إلى فروع وطرقات أخرى، بساتين شُقّت شوارع بين أشجارها وبيوت بُنيت تحت ظلال سعفات نخيلها.

بعد مسافة من طريق متعب بالحفريات ومظلم وموحش وخطير، قاربت الساعة منتصف الليل. لكن رغم رهبته، تأخذك الذكريات والتأملات إلى ماضٍ ما زلت مغروساً فيه ومهووساً بلوعته وفراقه وذكرياته التي اختلطت بين خمسة وعشرين عاماً وأنت طالب جامعي يرتاد الطريق يومياً، وبين الحاضر الذي أخفى معالمه وشوّه شوارعه. الهويدر التي يبكيني فراقها كلما مرّت على

ذاكرتي لأن فيها لوعة أهلها حباً لي وتأملاً بالعودة، ولم تتركني رغم مرور السنين، كلما حاولت الابتعاد عنها كانت تطاردني في منامي ويقظتي.

وصلنا القرية التي عادة ما ينحب أهلها الهويدراويون في عاشوراء بأسى ولوعة مقتل الحسين والغدر الذي حلّ به وبعائلته وصحبه، فلم نرَ سوى اللون الأسود المخيم على هذه القرية في كل حدب وصوب حتى في ملبسهم. وكانت جوقات اللطم وصوت الحادي والنسوة الموشحات بالسواد يصرخن كلما ارتفعت أصوات لطم الرجال، كل ذلك أعادني إلى ذكريات الطفولة الأولى التي كنت فيها شديد الإعجاب بالحسين ومتألماً لاستشهاده من رواة واقعة الطفّ، للرادودين حمزة الصغير ووطن النجفي، اللذين كانا يحضران بالتناوب سنوياً إلى القرية في عاشوراء.

كان أهالي القرية يعبّرون عن هذه الواقعة بالتشابيه والرموز والأفعال والنذور والطبخ للعامّة، وأذكر أنني يوماً كنت من ضمن مشاهدها اليومية التي باتت جزءاً من ذاكرتي، وأنا الطفل الذي لم يكن يعي درامية المشهد، فلعبت دور العباس في إحدى المرات، وبدأ بعدها تأثري برسالته الإنسانية، وزاد تمسكي به أكثر. وبعدما تبنيت الفكر الماركسي بوعي سياسي، باتت بعدها قضية الحسين بالنسبة لي رسالة فكر ونضال وتمرّد على الظلم. استذكرت الروائية الجزائرية أحلام مستغانمي حين قالت: أحببت داغستان لأجل الشاعر رسول حمزاتوف الذي صرّح قبل وفاته قائلاً: «حياتي سوداء.. كنت أتمنى أن يكون لدي الوقت لتصحيحها».

مع توقف تام للزمن في خضمّ تلك التداعيات، وقفت سيارة التاكسي أمام باب منزلنا العتيق في منطقة الحميدية، فداهمتني رائحة الحنطة السمراء، من تنور (ييّه) الواقع في باب بيتنا، والخبز (المگسّب) والحنّية، فرأيت وجه أمي شاحباً ومتعباً ومعاتباً، لابسة ثوبها الأسود متضرّعة إلى الخالق رافعة يديها طالبة منه عودتي إليها، وهي المفجوعة بفراقي لسنوات طويلة، وكانت جالسة

على كرسي متحرّك، وتحاول جاهدة الوقوف لتثبت لي بأنها ما زالت قوية رغم مرور السنين القاسية عليها. خنقتني العبرة وتسارعت دموعي، ولعدة لحظات فقدتُ الذاكرة والمكان والوعي أيضاً، بل وحتى هذه الساعة لم أتذكر ما حصل في تلك اللحظات والمشاهد التراجيدية السوداء، واستفقت على توافد أهالي القرية والمحبّين إلى منزلنا رغم تأخر الوقت ليلاً.

تملّكني الحزن في ذلك اليوم العصيب، فبالرغم من فرحة اللقاء بالأهل والأحبة، بدت لي الحياة متوقفة وبدا كل الذين أمامي المتوشحين بالسواد، من نسوة ورجال، على شكل أشباح ننظر إلى بعضنا البعض بحيرة ودهشة.

في صباح اليوم التالي، وبعد سبات دام 25 عاماً، بدأت تصحو ذاكرة الطفولة، وتمرّ صور زوايا بيتنا العتيق وسنوات الشباب الغضة، وعادت ذكريات الصبا والفتوّة والحبّ العذري وإرهاصات السياسة الأولى، وأدعية والديّ وحرصهما المبالغ به وخوفهما الشديد من ولوجي عالم السياسة مبكراً، وتأثير ذلك على شخصيتي ضمن مجتمع قروي واعٍ حيث خرج منه ساسة ورموز في مجالات عدة وتركوا بصمتهم التاريخية على أهالي القرية، رجال كانوا يتطلعون إلى عراق أفضل ينعم بالحرية والكرامة الإنسانية، أمثال طلعت الشيباني الذي كان وزير تخطيط في حكومة الزعيم عبد الكريم قاسم وخزعل السعدي أحد الضباط الأحرار وأحد قادة ثورة 14 تموز 1958 الذي استشهد بعد انقلاب 8 شباط 1963 بشكل مريب، والدكتور علي عباس الططو العالم الفيزيائي الذي توفي في بغداد إثر حادث سير غامض ومجهول في مطلع السبعينيات.

كنت منذ نعومة أظافري ملازماً لأبي في إدارة جميع شؤون دكانه الذي كان يتوسط منطقة الحمام في القرية، حيث حركة الناس في تواصل مستمر ذهاباً وإياباً مع سرعة تبادل الأحاديث السياسية منها والاجتماعية، والانتشار السريع للإشاعات المبالغ بها أحياناً حول الوضع السياسي العام والتقلبات

والاصطفافات، أغلبها كان من نسج الخيال، منها أن احتراق الطيارة في الجو بالمشير عبد السلام عارف وموته كان «انتقاماً ربانياً» كما كانت العامّة تردد، ولا سيّما بعد المجازر التي حصلت بعد انقلاب 8 شباط 1963، وخصوصاً انتقامه من الزعيم عبد الكريم قاسم الذي كان قد عفا عنه وأطلق سراحه.

ظلّ العراقيون يحللون تداعيات مقتل الزعيم، منها أنه كان الأجدر به أن يتسلل ليلاً وفي عتمة 8 شباط إلى شوارع بغداد مع الجماهير الهائجة علّه يقلب الموازين بوجه الانقلابيين، لكنه لم يكن مقتنعاً بالذهاب إلى وزارة الدفاع، بل كانت وجهته إلى معسكر الرشيد، غير أن مدير خططه العسكرية، الشيوعي طه الشيخ أحمد، غيّر الاتجاه نحو وزارة الدفاع، فسهّل ذلك على الانقلابيين محاصرته. جدير بالذكر أن هذا الشيوعي ورفاقه ظلوا مؤيدين وداعمين لسياسة الزعيم ومواقفه رغم معرفتهم بمناوئته للشيوعيين وخشيته منهم في محاولة للتوازن مع خصومهم من البعثيين والقوميين الذين أعادهم إلى مراكز مهمة وحساسة أدت إلى الانقضاض عليه وعلى الشيوعيين.

كان العراقيون يمنّون النفس لو أن الزعيم مشى على خطى الرئيس التشيلي المنتخب، سلفادور أليندي، الذي مات في القصر مدافعاً عن عدالة قضيته وعن النظام الديمقراطي بوجه رصاص انقلابيي بينوشيت العام 1973.

بعد مقتل المشير عبد السلام عارف في يوم 14 نيسان 1966، حسب العراقيين، يوم «صعد لحم نزل فحم»، مع صحبه في الطائرة حيث كان في استقباله حشد كبير في مدينة البصرة، تسلم أخوه عبد الرحمن عارف مقاليد الحكم، فشهدت الساحة السياسية العراقية هدوءاً نسبياً، لكن البعثيين مع مجموعة من الضباط القوميين في القصر الجمهوري خططوا بسرية تامة للانقلاب على الحكم وتسلم السلطة.

في حديث ودّي جرى بيني وبين الرفيق باقر إبراهيم سألته: أين كنتم في

تلك المرحلة؟ ألم تفكروا باستلام السلطة؟ فأجابني: كنا نعاني من انقسامات وانشقاقات من جهة وموقف رفاقنا السوفييت في اتجاه مدّ جسور الودّ مع ساسة الحكومات المتعاقبة على حكم العراق من جهة أخرى.

استلم البعثيون الحكم ولعبوا على وتر التقدمية لتثبيت إدارة الحكم عبر الإعلان عن عدد من الخطوات والدعوات إلى الإصلاح والانفتاح والتنمية، إضافة إلى مدّ الجسور إلى العالم الخارجي، خصوصاً الدول المعتبرة تقدمية واشتراكية، فسال لعاب الشيوعيين في التقرّب منهم لطيّ صفحات الماضي الدامية، وساد الهمس بين أوساط قوى شعبنا عن نية مشروع للتفاوض بين البعثيين والشيوعيين في مشروع جبهة وطنية وقومية تقدمية، وهنا بدأت التساؤلات لدى عامة الناس: هل جفّت دماء الشيوعيين في مجزرة شباط 1963؟

كانت الدماء لا تزال تسيل باغتيال كوادر شيوعية، كانوا ضدّ مشروع التحالف والتعاون مع البعثيين بجبهة وطنية، وهذا ما كان يتناقله الناس، منهم ستار خضير، محمد الخضري، شاكر محمود، كاظم الجاسم وعزيز حميد وبأن دماءهم ذهبت هدراً، وكانت عربوناً لعقد التحالف مع البعثيين في عرس عقد الجبهة الوطنية يوم 16 تموز 1973، لكن من الذي أبلغ البعثيين بالمواقف الرافضة لهؤلاء الرفاق لمشروع التفاوض، حتى يتمّ إسكات أصواتهم بمسدسات البعثيين الكاتمة؟

وقد سبق تلك التطورات الخطيرة تحوّلات مهمة في مسيرة الشيوعيين العراقيين، منها «الانتفاضة الحزبية» التي تمخّض عنها ما يسمى انشقاق يوم 17 أيلول 1967 ضمن القيادة المركزية ومن بينهم خيرة شيوعيي قرية الهويدر مع الاصطفاف الجديد ثابت زيدان، مجيد خماس، خليل زهدي، خليل جابر، قاسم بيه، محمد العلي، رشيد خماس، جلال ابن باي، وكان والدي حسن السعدي من مؤيديهم، حيث كانت أغلب الأحاديث والتطورات والتصورات

والتحليلات تتمّ في دكانه المتواضع وسط سوق القرية في منطقة الحمام وكنت شاهداً وحاضراً ومنتبهاً لتلك الأحاديث وتناقلها وطريقة صياغتها، فمن هنا بدأت الاسئلة تتزاحم وتكبر والوعي يتشكل بمفاهيم ومسارات جديدة، حددت طريقي في الاختيار والانتماء لبريق الشيوعية الوضاء، ومن وحي تلك الأيّام على تخوت قرية الهويدر، سمعنا خبر صعود رائد الفضاء السوفييتي يوري غاغارين عام 1961 على متن مركبة الفضاء السوفييتية (فوستوك 1) الذي أضاف إلى شيوعيي القرية إنجازاً وتباهياً بقدرة الاتحاد السوفييتي والشيوعية، مما سبّب تصادماً مع الرجعيين ومؤيدي السياسة الأمريكية.

كان غيدان حسين الركابي المعروف بـ (شخصية نكا)، القروي الفظّ والمدافع عن الإمبريالية ليلاً ونهاراً، أكثر بروزاً في تصديه لهذا الصراع المحتدم بين أبناء القرية الواحدة، فكانت سفرته الأخيرة إلى قلعة الإمبريالية (أمريكا)، وعودته الميمونة منها أكثر شراسة ودفاعاً عنها بصوته الجهوري والمزعج أحياناً كثيرة، عندما كان يتصدر جلسة لمجموعة من أهالي القرية الطيبين جالساً في طرف التخت الخشبي العتيق في مقهى الحاج إبراهيم الجولاغ في منطقة الحمام بهندامه الأنيق وبراطمه البارزة والمتدلية والمتفطرة بثقل (والتي تُعدّ اليوم من لمحات الجمال الأنثوي المميز)، حيث كان يروي لهم بفخر عن دهاء السياسة الأمريكية تحديداً في أمريكا اللاتينية والشرق الأوسط، وقدرتها الخارقة في معرفة الممحي والمستور والمخفي، فسأله أحد فلاحي القرية، بكل براءة وصدق: هل هم يعرفون إذا ما تودّدت إلى زوجتي همساً في الليل وفي الغرفة المغلقة بعد أن تطفئ الفانوس؟ فجاوبه بسخرية: إلّا إذا كنت رجلاً مهماً.

لم يبخل غيدان لا بوقت ولا بزمن ولا بغيرهما لشن الهجوم اليومي على السوفييت والشيوعيين، فكنت، أحياناً كثيرة، أقف بعيداً مختبئاً في أحد أركان مقهى الحاج إبراهيم جولاغ مستمعاً إلى لعلعة صوته وأحاديثه، والصمت

المهيب، وإصغاء جلسائه له ولقصصه اليومية عن السياسة الأمريكية وأنيابها، وكانت النقاشات الحادة تستمرّ لأيام متتالية في دكان أبي.

ذات ليلة سكر وعربدة في بستان (مال فريق) حول بيكات (كؤوس) العرق المحلي وتشريب الباميا الخالي من اللحم، دار الحديث عن كيفية اغتيال عبد السلام عارف من قبل محمد العلي وفاضل حسين وعباس نعمان سفر المجمعي المعروف بـ (أبو دبله) وآخرين، وكيف كلفوا والدي بمهمة تتبعه ورصد تحركاته في بغداد من أوقات الدخول والخروج حتى معرفة نوع السيارة.

كنت أرافق والدي في كل جولاته ببغداد في مهمته الجديدة، ممتلئاً بالأفكار والأسئلة والخوف الممزوج بالتباهي والمجهول من تداعيات هذه الأجواء المخيفة والمرعبة لطفل بعمري وماذا ستكون خياراته والمجالات المفتوحة أمامه؟ سوى ولوج عالم السياسة من أوسع أبوابها، رغم قصر النظر بعالمها ومعالمها وحيثياتها، لكنني ولجت بها وبقوة تعبيراً عن طموحي وتأثراً بأجوائها، لم أكن حينذاك واعياً ومدركاً لتفاصيلها وخباياها.

كان مجرد ذكر أسماء رموز السياسة الكبار من فهد أبي الفقراء الذي أعدمه الاستعمار عام 1949 مع رفاقه لموقفهم الوطني الواضح من المحتل والمستعمر، ولينين وثورة أكتوبر وموته المبكر وعلاقته بزوجته (كروبسكايا) وفقوء عيني سلام عادل، سكرتير الحزب الشيوعي العراقي، في دهاليز البعثيين في شباط 1963، حيث اعتقل يوم 19 شباط من نفس العام ومات في أقبيتهم بعد أربعة أيام، وبعد سنوات متأخرة ومن بين أوراق البعثيين التي صدرت لاحقاً تبين أنهم كانوا يعتقدون أن الشيوعيين سوف يتخذون موقفاً محايداً من عملية الانقلاب لسبب واحد هو موقف الزعيم عبد الكريم السلبي من الشيوعيين وملاحقته لهم، فغصّت سجونه بهم وعُزل البعض دون تفسير أو موقف يليق بتضحياتهم وخدماتهم في إنجاح ثورة تموز ودعمها، فإنه لولا دعم جبهة

الاتحاد الوطني لها منذ إعلانها الأول عن جامعة الأحزاب، الحزب الشيوعي العراقي، الحزب الوطني الديمقراطي، حزب البعث العربي الاشتراكي، حزب الاستقلال (القومي)، كان برنامجهم أو نقطة الالتقاء بين أهدافهم هو تحرير الوطن رغم تباين منابع أفكارهم.

نشأتُ سياسياً بسرعة، على الرغم من صغر سنّي، مما وسّع معاركي مع البعثيين مبكراً، وكان والدي داعماً لي في طريقي رغم تحفظاته العديدة. في بدايتي وخطواتي الأولى فهمت الماركسية طريقاً مستقيماً وواضحاً وشجاعاً بعيداً عن التزلف والخنوع والرياء والارتزاق، وكانت نشأتي تتميّز بالقراءة المتأنية للحدث بعيداً عن العجالة وعن التأثر بطروحات الآخرين قبل التمعن بها وتمحيصها وتدقيقها.

استفاد الرأسماليون من الماركسية كنظرية معرفة وجدل لبناء ناصية اقتصادية لشعوبهم أكثر من الشيوعيين أنفسهم، وكانت تجربة السوفييت في مرحلة ستالين بقوالب جامدة قد أدّت إلى انهيار الدولة السوفييتية بالكامل، وفشل التجربة الاشتراكية كممارسة عمل وخلل في التطبيق والفهم، وليس كنظرية وطريق ونهج.

أما رفاقنا الشيوعيون العراقيون الذين كانوا يُرسلون للدراسة في جامعة كادحي الشرق، فلم يستلهموا من الفكر إلّا قشوره المتساقطة ومما يُقدّم لهم دون أية متابعة أو تطوير. وكانوا يقيّمون الأوضاع وفق المصالح الخاصة، بعيداً عن الهدف المرجوّ منهم، ولم يستفيدوا من تلك الفرص في تسليح وعيهم بالفكر والمعرفة ليستخلصوا الدروس من تلك التجربة بالنقد البناء وعكسها على تجاربهم التاريخية وفق معطيات البلد.

قامت اللجان المحلية ولجان المناطق للحزب الشيوعي العراقي بإرسال العديد من الكوادر للدراسة في المدرسة الحزبية ومنهم محلية بعقوبة، لكن حصيلة التجربة لم تكن مجدية.

وعندما سقط النظام خرج بعض البعثيين على شاشة التلفزة وجاهروا ببطولات ضدّ سياسة البعث، وكذلك بعض رفاقنا الشيوعيين الذين تركوا الحزب عندما كان يحتاج إلى رجال، لكن عندما عاد الحزب إلى العراق بعد احتلاله، عادوا إلى حضن الحزب وهذا ليس عيباً، لكن العيب أنهم راحوا يكيلون الاتهامات إلى المناضلين الذين ضحّوا بأجمل أيام عمرهم، وهذا ليس بعيداً عن بناء الشخصية العراقية وعلاقة البداوة بالحضارة.

في الأمسيات اليومية، كانت مقاهي قرية الهويدر تعجّ بناسها وزائريها ولا تخلو من التكتلات والنقاشات اليومية الصاخبة، ولا سيّما انقلابات البعثيين مرة على أنفسهم وتارة مع القوميين، فبدأت ثارات من القتل والاغتيالات السياسية. وانشقاقات الشيوعيين عام 1967 بين قيادة مركزية ولجنة مركزية، تركت ظلالها على حدة الصراعات في القرية بين ناسها لانتماءاتهم المختلفة، تكاد أن تكون في البيت الواحد وتحت سقف واحد أكثر من انتماء واتجاه بين شيوعي وبعثي وإسلاموي وقومي لطبيعة تركيبة القرية الاجتماعية السكانية والعشائرية.

لقد بدأت حركة الاحتجاج الشيوعية تأخذ طوراً جديداً إثر الانتفاضة الحزبية 17 أيلول عام 1967، بالدعوة إلى الكفاح المسلح وإسقاط حكومة عبد الرحمن عارف انطلاقاً من (هور الغموگة) وكان في مقدمتهم أمين الخيون، الذي التقيت بابنه جماهير حين كان في الجبل، وعاد بعدها إلى بغداد ومات في أقبية البعث شهيداً على خطى والديه في سجل قوافل الشهداء الشيوعيين، أما خالد أحمد زكي المهندس القادم من مدينة الضباب فقد ترك موقعه المهم كمساعد للفيلسوف البريطاني (برتراند رسل) في منظمة السلام العالمية والتآخي بين شعوب العالم، ومعه ثلة من الرفاق المدججين بالسلاح والفكر. وقد حاول الكاتب السوري حيدر حيدر توثيق فصول تلك الأحداث تاريخياً (تراجيدياً) في روايته المشهورة (وليمة لأعشاب البحر)، خصوصاً للذين استشهدوا وسط أحراش الأهوار في أول مواجهة ثورية مع السلطة.

طيلة هذه الفترة التاريخية من عمر الحركة انهارت نظريات ودول ولم يجرِ تقييمها على ضوء تداعيات ذلك الزمان والمكان، واكتفينا بالترديد الساذج إنه انشقاق قام به عزيز الحاج وضعُف وأدلى باعترافات كاملة على رفاقه مع لغة السبّ والشتم والتشهير، علماً بأننا كنّا نبدي إعجاباً بالمواجهة مع البعثيين في العاصمة بغداد، مما ترك فرحاً وأثراً إيجابياً على معنويات أهالي قرية الهويدر، واعتبروه انتقاماً لقتل الشيوعيين عام 1963، مما زاد في شراسة البعثيين في استهدافهم لكوادر القيادة المركزية وأصدقائهم والتنكيل بهم. بقدر ما أرعبني هذا الموقف التراجيدي، لكنه زاد من تصميمي الداخلي على الاعجاب بالشيوعية التي بدأ يتردد صداها على مسامعي من أحاديث أهل القرية، تزامناً مع تصاعد وتائر الأحداث اليومية، ومنها سيارة أمن مسرعة تشقّ طريقها وسط تجمّع أهالي القرية ويُرمي من صندوقها أحد كوادر القيادة المركزية، ثابت نعمان زيدان، مضرّجاً بدمائه ويهتف صامتاً محاولاً التقاط أنفاسه المقطوعة من شدة التعذيب. كنت واحداً من أهالي القرية الذين تجمعوا حوله باستغراب والألم يعتصرني أسوة بالآخرين إلى حدّ البكاء. ورغم صغر سني، لكني كنت أرى تعابير الغضب والحنق على الوجوه.

كان اندفاعي قوياً لدخول المعترك السياسي، لكن العوامل الاجتماعية (العشائرية) هي التي حدّدت مساراتي في البداية ضمن موقف أبناء القبيلة من أهل وأقرباء وأصدقاء، إن صح التعبير باختصار الانتماء العشائري، فخلال مسيرتي النضالية، التي لا زلت أحبو في طريق عالمها الواسع والمعقد والمخيف، استوعبت الوعي بالقراءة والمتابعة، ففي بداية عملي السياسي اختلطت لدي المفاهيم والرؤى وبدت ضبابية الصور بين الأفكار الشيوعية من نضال طبقي وضد الإمبريالية والصهيونية وخضوع الأقلية للأكثرية والتقدم الاجتماعي وبين شعارات البعثيين «نفذ ثم ناقش»، وأيضاً صراخهم ضد الصهيونية، ولكن كيف يمكنني فرز الأحداث في هذا العمر؟

إذن، هي البيئة التي حدّدت بوصلة الاتجاهات، وخلال هذه الفترة انتمى عدد كبير من الشيوعيين إلى الفكر ليس نتاج وعي، بل بفعل العوامل الاجتماعية والانتماءات المناطقية ووشائج القربى وتأثراً بأخلاق الشيوعيين ومواقفهم والتصاقهم بقضايا شعبهم ودفاعهم عن حقوق العمال والفلاحين.

في بداية توقيع وثيقة الميثاق الوطني في 16 تموز 1973 والإعلان عنها في التلفزيون العراقي بين أحمد حسن البكر، رئيس الجمهورية العراقية، وعزيز محمد، سكرتير الحزب الشيوعي العراقي، هلل الشيوعيون لهذا الإنجاز التاريخي ضمن سياق بنوده المعلنة، وغصت شوارع العراق بالشيوعيين تأييداً وفرحاً به، وظلّ خبر ذلك اليوم سيرة على ألسنة أهالي قرية الهويدر لسنوات عديدة. كما روى لي عن فرح الجماهير به، الراحلان سامي يحيى والأستاذ يحيى حمدان وحسين مولى، رغم تحفظهم المعلن عن هذا الاتفاق ولم يعودوا إلى تنظيمات الحزب ثانيةً.

وقد سبق توقيع الميثاق الوطني صراع سياسي داخل قيادة الحزب الشيوعي بين مؤيد ومعارض بعد أن كانت الكفة ضد مشروع توقيع الجبهة، لكن عزيز محمد استطاع في اللحظات الأخيرة وبعقليته التوفيقية أن يسحب إلى بيت الطاعة أحمد باني خيلاني (أبو سرباز). وبعد إصدار الصحيفة المركزية (طريق الشعب) وفتح المقرات والإعلان عن بعض نسائم الحرية المزيفة، أصبح الذين كانوا معارضين لها من أشد المدافعين عنها وعن قيامها باعتبارها إنجازاً تاريخياً ومباركة سوفييتية ضمن خطط التطور اللارأسمالي.

سألت مرة الرفيق باقر إبراهيم، وبعد سنوات طويلة من خراب العلاقة مع الحليف البعثي: ما هي الآليات التي اعتمدتموها بقيام الجبهة؟ فقال: بصراحة لم تعُد لنا خيارات كثيرة أمامنا، وقد ضغط أصدقاؤنا السوفييت في تحليلاتهم حول خطوات حزب البعث باتجاه الإصلاحات والتنمية والبناء والعلاقات الدولية مع دول المعسكر الاشتراكي، والخطأ الذي

وقع ليس في المبدأ وسياسة التحالفات، لكن في التكتيك ورسم أسس العلاقة الصريحة.

راح البعثيون يعلنون أنهم قادة الجبهة في تحديد مساراتها ونشاطاتها وهم صنّاعها وهم المسؤولون عن تعميقها أو تسطيحها، لكن في النهاية ليس فقط سطحوها وإنما هدموها وإلى الأبد، كان هذا المشروع يعدّ أملاً وطنياً لو كانت النيّات صافية وصادقة.

وعن ذلك، يقول البعثي حسن العلوي في واحدة من أطروحاته: في اليوم الأول من توقيع وثيقة العمل الوطني بين الحزبين الشيوعي والبعثي وزعنا تعميماً حزبياً سرّياً على الكادر البعثي في عموم العراق حول كيفية وآلية تفتيت الحزب الشيوعي العراقي والسبل الآيلة إلى ذلك، مقروناً بفترة زمنية محددة ومرسومة.

يؤكد البعثي الآخر، طاهر توفيق العاني، (المعتقل عند الأمريكان بعد الاحتلال): في بداية الجبهة زارنا وفد سوفييتي شيوعي في بغداد للاطلاع على تطورات الوضع السياسي على ضوء الإنجاز الجديد بما يسمى الجبهة الوطنية وتقييم تلك الفترة، في يومها شكا الشيوعيون العراقيون إلى الوفد عن بعض الممارسات والضغوطات من قبل البعثيين في التضييق على رفاقهم الشيوعيين وملاكاتهم الحزبية وسدّ منافذ العيش والمستقبل والحرية والأمان أمام طريقهم في المجتمع.

كانت هناك ضغوط واضحة في الجوانب النقابية والثقافية تتعارض مع سياسة العراق الجديدة في التحالف الوطني والعمل الجبهوي، وعندما التقى الوفد السوفييتي الشيوعي بصدام حسين نائب رئيس الجمهورية آنذاك، خرج بانطباع أن الرجل يخطو بثقة مؤمنة باتجاه بناء العراق والتصدي لمشاريع الإمبريالية في المنطقة ومدافعاً عن حركات التحرر في العالم وتعزيز السلم الاجتماعي والتقدم الاقتصادي في العراق، وما عليكم أيها الشيوعيون

العراقيون إلّا أن تتعاونوا معه وتضعوا يدكم بيده للمضي قدماً باتجاه عراق تعددي، كان ردّ الشيوعيين، كنّا نفضّل أن تلتقوا بناظم كزار مدير الأمن العام وواحد من صقور البعث الجارحة، حتى يتكوّن لديكم انطباع وتقييم آخر، غير الذي رأيتموه.

تولى ناظم كزار مديرية الأمن العام (رسميّاً) في 30 حزيران عام 1970 وذلك لأقدميّته في حزب البعث ولقساوته الشديدة في التعامل مع معارضيه في الفكر والسياسة والتوجهات حول كل التيارات والتنظيمات، ولاحظ تعويل الشيوعيين العراقيين الكبير على عقلية صدام حسين وسياسة النظام وتحديداً حول الشيوعيين، فصدام حسين هو من رشحه لتولي هذه المهمة الأمنية الخطيرة، رغم المعارضة الشديدة من الجهاز الحزبي البعثي، وبعد ثلاث سنوات من صدى الرعب والموت في دهاليز قصر النهاية أُنهي دوره في صراع مكشوف ومتآمر حول كرسي الحكم.

إن نهاية هذه الدراما التراجيدية عجلت في خطوات الرفاق الشيوعيين نحو توقيع ميثاق العمل الوطني (الجبهة الوطنية والقومية التقدمية) مع كل تلك التداعيات في التصادم والاختلاف سارت أمور الجبهة مدة خمس سنوات، فكانت حُبلى بأوجاع ومعرضة في أية لحظة إلى الإجهاض القسري أو بمولود معاق، أكملها البعثيون بمذبحة رفاق شيوعيين بتهمة التنظيم داخل مؤسسة الجيش بإعدام 30 شيوعياً وصديقاً للشيوعيين (جماعة بشّار)، لم تثمر محاولات عامر عبدالله وعزيز محمد في لقاءاتهما مع القيادة البعثية المتمثلة بالرئيس أحمد حسن البكر ونائبه صدام حسين لعدة جولات لإطلاق سراحهم، ورغم كل المناشدات الإنسانية والدولية لكنه تمّ إعدامهم.

نحن أولاد القرية الواحدة عشنا في صراع يومي محتدم مع وتائر الأحداث المتسارعة باتجاه الانفجار أو فكّ عقد ميثاق الجبهة الوطنية الذي بات وباءً علينا في إضعاف قدراتنا في الحياة، فدارت أسئلة مريبة منها عن خبر تحريم التنظيم

الشيوعي داخل تشكيلات القوات المسلحة، فهل هو ادعاء أم اتفاق؟ وعن تجميد نشاطات اتحاد الطلبة والشبيبة ورابطة المرأة والمنظمات الديمقراطية، فهل ينسجم مع لائحة بنود الشراكة السياسية؟ وعن الصراع في القرن الأفريقي والخلاف حوله، وموقف الشيوعيين منه؟ وعن البعث قائد الجبهة الوطنية، وأين دورنا نحن الشيوعيين بها وما ضرورة لجان الجبهة؟.

حظرت بعض مؤسسات الدولة التعليمية والتربوية والأكاديمية على الشيوعيين العمل والانتساب إليها، بالإضافة إلى كل من قوى الأمن والمؤسسات العسكرية والدوائر المحيطة بها، كليات التربية بأغلب فروعها العلمية والأدبية وأكاديمية الفنون الجميلة والتربية الرياضية ودار المعلمين العالية، بل ووصل الحد بهم إلى إقصائهم من مهنهم (الطاقم القديم) المجرب أكاديمياً وتربوياً، والاستعاضة عنهم بمعاهد مبتدئة من خريجي المتوسطة (دار المعلمين) مما تركت بصماتها المتدنية على مستوى التعليم والتفوق والسمعة.

جدير بالذكر أن العراق شغل موقعاً مرموقاً وكان في طليعة البلدان التي اعترفت بها منظمة (اليونسكو) حيث نال شهادات تقدير على مستوى التعليم ونيل الشهادات، فطيلة العمل الجبهوي لم تتوقف الاعتقالات الكيدية والكيفية لملاكات الشيوعيين عبر عدة وسائل واستفزازات رخيصة وطرق دنيئة. ومنها ما حدث مع المناضل الشيوعي قيس الرحبي من أهالي بهرز في ذكرى انقلاب 17 تموز عندما جاء البعثيون وعلقوا لافتة على واجهة بيته، كُتب عليها «البعث قائد الجبهة»، فأمرهم برفعها وإثر ذلك الموقف تم اعتقاله ومن بعدها إعدامه.

في أيام الجبهة الأخيرة توتّرت الأجواء بتصاعد ملحوظ على كافة المستويات، فما زالت قضية اعتقال كوكبة الشيوعيين والحكم عليهم بالإعدام بتهمة التنظيم العسكري، تتصدّر المشهد السياسي العراقي وحديث الشارع وقصصه وهمسه، وقد ضمت تلك الكوكبة أصدقاء ومتعاطفين مع الحزب الشيوعي العراقي.

يروي الراحل عامر عبدالله وزير الدولة آنذاك أن حصة الشيوعيين في تحالفهم مع البعث، وزيران هما عامر عبدالله وزيراً للدولة ومكرم الطالباني وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي، وبعد جهد حثيث، ومن خلال لقاءاته مع قادة البعث وتحديداً مع أحمد حسن البكر لثنيهم عن قرار الإعدام أو تأجيله بحق المتهمين بالتنظيم العسكري، قال عامر عبدالله إلى أحمد حسن البكر رئيس جمهورية العراق: كان الأجدى بكم أن تتبعوا سياسة نوري السعيد في استثناء اليهود من الخدمة العسكرية، فاستفزه هذا الحديث وقال: الشيوعيون مواطنون عراقيون وأبناء بلدنا لهم الحق في ممارسة معتقداتهم السياسية والفكرية، ودعهم يتواصلون مع منظمات حزبهم في إجازاتهم الاعتيادية من الخدمة، شرط أن لا يأخذوا معهم أدبيات حزبية وجريدة وكتاب شيوعي إلى ثكناتهم العسكرية، فاعتبره عامر عبدالله قسماً ووعداً وكلاماً رسمياً من أعلى مسؤول في الدولة والسلطة فأخذت مخرجاً من الأزمة، لكن بعد فترة تمّ تنفيذ حكم الإعدام بهم مما عجّل في انهيار العمل الجبهوي المشترك وفقدان الثقة بين الحليفين.

في الهويدر، أدت استفزازات البعثي صالح حميد النعمان المتكررة إلى الاعتداء عليه وإهانته من قبل الشيوعيين علي ططو، وقيس عباس، وقاسم ططو، الذين اعتُقلوا في مديرية أمن ديالى لعدة أسابيع، فاستنفر البعثيون في القرية وطوقوا الشوارع والطرق وكان يتقدمهم حاتم الطائي وكأنها «فزعة» عشائر في الردّ على الاعتداء والثأر، وفي هذا الظرف العصيب وبتصعيد متعمّد ومدروس عادت إلى الواجهة من جديد بتقديم الشيوعي التاريخي محمد الدفاعي إلى محكمة الثورة بسيناريو مُعدّ لكن المخرج كان فاشلاً، باتهامه بمحاولة تشكيل تنظيم عسكري شيوعي داخل ثكنات الجيش العراقي من خلال علاقته بالجندي عبدالله حساني المحسوب على ملاكات القصر الجمهوري، لكن موقف الجندي القروي عبدالله في دهاليز المحكمة أنقذ حياة المناضل محمد الدفاعي.

هذه النيات السيئة في المنعطفات الحادة والمبيّتة لتفتيت وحدة الشيوعيين الصلدة، كشف عنها القائد الضرورة صدام حسين في كتابه (خندق أم خندقان)، لم تسمح لي لا الظروف ولا سعة مداركي في استيعاب بعض سطوره، لكن في سنوات لاحقة، توقّفت عنده فوجدته تهديداً مباشراً للشيوعيين لاستهدافهم عاجلاً أم آجلاً، وبتنا نترقب مصيراً مجهولاً ومأساة قادمة ستحلّ بنا وتقضي علينا وتنهي دورنا السياسي والجماهيري والوطني، حيث أننا في لحظة تاريخية حرجة وحزينة أصبحنا خارج الوطن وبعيداً عن الجماهير كما غصّت بنا المعتقلات والطرقات والحدود والجبال والدول.

بعد المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي في بغداد عام 1976،خرجنا متفائلين يداً بيد متوجهين نحو الاشتراكية ومنتقلين إلى مرحلة التطور اللارأسمالي، ضمن حملة دؤوبة ذهب بها مثقفو الحزب، كانت بناءً على توصيات من القادة السوفييت ومنظري الفكر الاشتراكي الذين كانوا يبحثون في متون كتب الأدبيات الماركسية، فوجدوا أن نظرية التطور اللارأسمالي مناسبة لبلد مثل العراق في تحويله إلى النظام الاشتراكي.

نشط الإسلاميون في قرية الهويدر في ظلّ الظروف المعقّدة سياسياً للنظام البعثي، وتزامن ذلك مع تأثير دول الجوار، تحديداً إيران، في مدّها الإسلامي الجديد وموقف الإمام الخميني بتركه العراق وإعلان نفسه إماماً للمسلمين وإقامة ولاية الفقيه، وموقفنا كحزب من أحداث (خان النص) في شباط عام 1977 التي تركت ظلالها المظلمة على طبيعة العلاقة مع القوى المحسوبة على المدّ الإسلامي فكبرت الفجوة بيننا وافترقنا، وغدونا في وضع سياسي لا تُحمد عقباه ولا يمتّ إلى السياسة وفنونها بصِلة، كل ذلك زاد من رقعة خلافاتنا الفكرية والعقائدية والسياسية، فبعد أن كان لنا ندٌّ واحد لم يحمله رأسنا، أصبحا ندّين اثنين؛ حزب البعث وحزب الدعوة.

إن المانشيت العريض في جريدة (طريق الشعب)، الجريدة المركزية

للحزب الشيوعي العراقي، التي طالبت به سلطات البعث بحزم ثوري بتوضيح أحداث (خان النص)، المنطقة ما بين محافظتي النجف وكربلاء؛ كان كفيلاً أن يعتبره الحزب الشيوعي استهدافاً لمكاسب ثورة 17 ـ 30 تموز 1968 المجيدة.

في وقت مبكر، استهدفني البعثيون في كل تفاصيل حياتي، فتمّت ملاحقتي بدقة ومتابعة كل خطواتي في مجال الدراسة والحركة والعلاقات حتى أنهم حشروا أنوفهم بتفاصيل علاقة خاصة وأمور سخيفة وكأن مشاكل العراق وتطلعات أبنائه قد أنجزت ولم يعُد لديهم أي مستحق، فأثناء تأديتي امتحانات السادس الأدبي (بكالوريا) تسرّب خبر قرار اعتقالي، ولكن تدخل والدي حال دون ذلك، مما ترك أثراً سلبياً على نتائج الامتحانات وعلى وضعي النفسي.

وبعد مرور كل تلك السنوات، أتذكر اليوم بغصة وحزن عميقين الأسماء والإساءات المتعمدة لنا وقمع حرياتنا ومعتقداتنا السياسية والشخصية من قبل البعثيين أبناء القرية الواحدة ممّن تربطنا بهم علاقات اجتماعية وعائلية والذين كانوا المبادرين دائماً في التجاوز، والبعض من هذه الأسماء رحلوا، وقلة منهم استوعبت اللعبة مبكراً وما وراءها من استحقاقات في الحياة والموقف والتاريخ فاتخذت ركناً هادئاً محترمة تاريخها، أما البعض الآخر فقد نزع الزيتوني ولبس العمامة والخاتم قبل دخول القوات الأمريكية إلى مدينة البصرة ثغر العراق الباسم في أسرع مسابقة تاريخية في فلسفة التلون والمسخ حتى دون احترام للذات. إن الحقيقة دائماً قوية عندما ترتبط بالوقائع، أما بالوثائق فتكون كالحنظل، ولكل مرحلة نتائجها ورجالاتها وظروفها.

بدأ البعثيون وأجهزتهم القمعية في وقت مبكر بالحملة على الشيوعيين في قرية الهويدر في حملة تزامنت مع حملة الجنوب في مدينة البصرة التي دشنوها بهاشم كسارة أخ الشهيد جاسم كسارة (أبو كفاح) الذي اعتقُل وغُيّب تماماً إبّان الحملة المسعورة على الشيوعيين، أما هاشم فقد أطلقوا سراحه بعد أن

تركوا ندوباً وكسوراً في جسمه الهزيل، وألحقوه بماجد صبري الذي اغتيل في الحرب الطائفية التي أتت نتيجة للاحتلال عام 2006.

وفي اليوم الذي تلاه من خريف عام 1978 عادوا واعتقلوا جميل خماس وآخرين، كنا يومها مصدومين من سرعة التطورات للقضاء على الشيوعيين الذين هم حلفاء الأمس، ومن بطء ردة الفعل الذي ترك تداعياته على الانهيارات السريعة داخل صفوف الشيوعيين. وفي محاولة تُعدّ يائسة، شنّ شيوعيو القرية حملة لفضح الأساليب القمعية ومواجهتها بروح الصمود والمقاومة، لكن هذا لم يطل لجملة عوامل وظروف ألمّت بحيثيات الحملة وتداعياتها ونياتها السيئة.

إن التعليمات والتوجيهات التي كانت تصلنا من القيادة عبر أحاديث متناثرة، هي عبارة عن حملة مؤقتة لاختبار إرادة الشيوعيين الوطنية، فكانت لجان الجبهة تجتمع لإدانتها وطلب توقيفها والإيعاز لنا بالصبر قليلاً، وكان تبرير ذلك بأن هناك أجنحة داخل حزب البعث يمينية ورجعية ولا تريد دوراً للشيوعيين في العراق، هم صقور البعث المشبوه، وإلى الآن لم نتعرف على حمائمهم رغم طول تلك السنين.

ورغم كل الظروف الصعبة التي مرّ بها البعثيون بعد الإطاحة بهم وبنظام حكمهم من قبل الأمريكان، وبعد سنوات من هزيمتهم، أخبرني الصديق علي الساعدي، في عمان عام 2005، بأنه كان حاضراً في أمسية للشاعر حميد سعيد، مدير الإذاعة والتلفزيون السابق في عمان عاصمة الأردن، حيث طلب منه أحد الحاضرين اعتذاراً رسمياً عن السياسة القمعية التي انتهجها البعث تجاه الثقافة والمثقفين، وذلك في معرض حديثه عن البعث ودعمه للثقافة، فغضب وأستُفز السيد البعثي حميد سعيد من هذا الطرح وقال: «نحن أصحاب نخوة وفضل على الثقافة والمثقفين»، فبهذه العقلية يريدون أن يقحموا المشهد السياسي العراقي مرة أخرى وكأنه ما زلنا في زمن الستينيات ولم يتغير العالم ولم تترك

تجربتهم المرّة أوجاعها على حياة العراقيين طيلة ثلاثة عقود مدمرة، ومن يريد محاولاً أن يعيد مجده فلا بدّ من وقفة متأنية مع الماضي والخروج بدراسة موضوعية تلتئم بها جروح الناس عبر سياسة الاعتذار والصدق بتقييم التجربة ونقد الأخطاء وتقويم المسيرة.

كانت تجربة البعث قاسية مع العراقيين، مما سرع من احتلال العراق وفرض عملية سياسية طائفية تمخّضت عنها طوائف وعصائب وميليشيات ودواعش، كلها تصبّ في خانة الصناعة الأمريكية السياسية بامتياز، أما ثقافياً فقد انطلقت من فضاء الإسلام السياسي عبر عمليات قطع الرؤوس والسبي والاغتصاب والغزو والحرق الذي أصبح جزءاً من موروثنا الثقافي (الديني).

لكن مع مرور الأيّام اتّسعت رقعة الحملة الدموية ضدّنا لتشمل العراق بأكمله من شيوعييه وأصدقائهم والمتعاطفين معهم ومناضلين من أحزاب شيوعية صديقة وبعض حركات التحرر والتنظيمات الديمقراطية الذين يعملون على أرض الوطن، حتى أن الحملة طالت البعثيين الذين رفضوا الأساليب المعادية لحليف لهم والمشارك الفعال في توطيد السلم الاجتماعي مما أكسبهم السمعة الحسنة في الممارسة الديمقراطية من دول العالم المهمة والمؤثرة في القرارات الدولية (السوفييت) مثالاً.

إن الحجج الواهية والمعدّة مسبقاً والتشكيك بانتمائنا الوطني جعلتنا عرضة للمطاردة والاعتقال في أي لحظة أرادوا، ضمن تبريرات وسياقات أجندة سياستهم القديمة المستجدة، فمن جانبنا لم نبادر إلى خطة عمل بديلة لمواجهة تلك الأساليب والممارسات المجحفة أو على أقل تقدير العمل على وقفها من خلال ضغوطات دولية عبر شبكة علاقاتنا الأممية الواسعة مع أحزاب شيوعية وحركات تحرر ومنظمات حقوق إنسان لحفظ ماء الوجه، والمحافظة على هيبة الشيوعيين وتاريخهم الطويل في مواجهة الظروف الصعبة وتحديهم لها.

كان التوقيع على المادة 200 سيئة الصيت هو المنفذ والمنقذ الوحيد، الذي نص على منعنا من العمل السياسي إلّا من خلال انضمامنا لصفوف حزب البعث وضمن التكوين الجديد الذي استحدثوه عشية الحملة الدموية (التنظيم الوطني). في بداية الحملة، استخدم البعثيون أساليب وأدوات للحطّ من معنوياتنا في فترة الاعتقالات القصيرة وإجبارنا على التوقيع على القرار 200 لإطلاق سراحنا. لم يتمكن الحزب الشيوعي على مدى سنوات طويلة بالتعامل السياسي الواقعي (الإيجابي) من استيعاب ومواجهة هذه الحالات برؤية واقعية وتفويت الفرصة على البعثيين باستثمارها سياسياً لشق وحدة صفوفنا من خلال عملية التسقيط السياسي والذي استهدفوا به القاعدة الحزبية على خلاف المرات السابقة، فقد كانوا يوجهون ضرباتهم إلى قيادة الحزب، وهذا واضح من خلال مسيرة الشيوعيين وتجاربهم السياسية في تاريخ العراق.

إذن، انتقلنا من «مرحلة بناء الاشتراكية وطريق التطور اللارأسمالي» إلى «مواجهة دكتاتورية فاشية ونظام الحزب الواحد»، هكذا خلال عامين فقط حيث استفرد بعثيو قرية الهويدر وتنمروا على شبكة العلاقات الاجتماعية والجيرة والنسب والنسيج الاجتماعي، فأعلنوا الحرب علينا بلا هوادة ودون ضمير، مما زاد من حالات الضعف في صفوفنا، بعد أن ضيعنا بوصلتنا وليس لدينا أمل ببرق بعيد أن ربابنا سيأتي ويقود سفينتنا وينقذها من الغرق إلى شاطئ الأمان، بدأنا مرحلة نضال جديدة وعسيرة من شريك تاريخي والانتقال عبره إلى بناء نظام اشتراكي تحول في ليلة وضحاها إلى خطاب جديد بوصفه نظام فاشي، هنا تكمن المعضلة. كيف تتمكن من إقناع حلفائك ومناضليك وقاعدتك الحزبية والجماهيرية بخطابك الجديد؟ كانت مرحلة قاسية وصعبة للغاية في إرساء أسس جديدة للنضال، وكان الشيوعيون أهلاً لها رغم ظروف المهجر وسنوات القحط على كل المستويات، فتمكنوا من فضح النظام البعثي وأساليبه في معاداته للحريات والديمقراطية وحقوق الإنسان ومصادرة الحريات.

كانت الأيّام الأولى من حكم البعث الثاني تسير نحو الهدوء النسبي ما عدا بعض الاغتيالات التي كانت تسجل ضدّ مجهول، إلى أن تصلّب عودهم سياسياً واقتصادياً من خلال عائدات النفط وتأمينه، ومدّ جسر من العلاقات الدولية مع دول المعسكر الاشتراكي لتهيّئه إلى موقع مؤثر في العلاقات الدولية من خلال مصالح تلك المنظومة الدولية في الاستفادة من خيرات العراق ومشاريع التنمية.

كانت تصلنا يومياً أحاديث متنوعة لم تخلُ من المبالغة، التي هي جزء من أساليب النظام لإضعاف معارضيه، ومن تلك الأحاديث أن قادة سفينتنا (حزبنا) أبحروا بعيداً نافدين بجلودهم غير آبهين بنا، وسط بحر هائج متلاطم الأمواج، خطورة رياحه أنها سامة وقاتلة وقاضية، تلك الأساليب أدّت بنا إلى الحذر التام في العمل السياسي، فأصبحنا متّهمين في قوانينهم، بأية لحظة يتم استدعاؤنا إلى دوائرهم الأمنية والمخابراتية بينما تهمهم جاهزة، منها الخيانة والتخابر مع قوى معادية للعراق، ضمن مشهد تراجيدي من مسرحية فاشلة بقيت لسنوات طويلة تُعرض على مسرح الشارع العراقي، لكن بلا جمهور وبدون نقاد ولا متابعين.

كان عامة الناس من فلاحين ومزارعين وعتّالين (الحسّ الشعبي) يوجّهون إلينا اللوم بألم ويذكروننا بأنه سبق لهم أن حذّرونا من البعثيين وغدرهم وتاريخهم الدموي المعروف فكيف لنا أن نقع في فخهم مرة ثانية، وحسب الإمام علي عليه السلام «لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين». حريّ بنا إلّا ننسى مجازر 1963 بحق القوى الوطنية وأبناء الشعب، فإن مشروع الجبهة والتحالف مع البعثيين كان بمثابة خطة لأبادتنا والقضاء علينا وتشويهنا سياسياً.

وقّع الشيوعيون على ميثاق الجبهة بناءً على تطورات وخطوات أقدم عليها البعثيون في بناء عراق جديد، بعد تجارب سياسية مرة، منها تأميم النفط وقانون الاصلاح الزراعي الجديد واستيزار وزراء شيوعيين وقانون العمل والضمان

الاجتماعي والاعتراف بألمانيا الديمقراطية ومعاهدة الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفييتي. حدث كل ذلك في وضع سياسي مكهرب وحذر، على الرغم من كل تلك الخطوات الايجابية، لكنّ نيتهم العاطلة تجاهنا ظلّت مستمرة وواضحة، ولم تتوقف أساليبهم القمعية في الاعتقالات والاغتيالات والتضييق على أعمالنا وتحركاتنا.

أصبحَت زوايا مقهى الحاج إبراهيم الجولاغ، في صدارة منطقة الحمام، مكاناً للشيوعيين في أماسيهم ولقاءاتهم وتوزيع أدبياتهم اليومية من بيان حزبي إلى جريدة (طريق الشعب) وتحديد مواعيد اجتماعاتهم الحزبية وخطط عملهم المستقبلية. ورغم أن عقلية الحاج إبراهيم بعيدة عن الشيوعية، فقد كان ينتمي إلى بيئة تُعدّ أكثر تأثراً بالبعثيين، لكن هذا التواجد اليومي للشيوعيين وطيبتهم ودماثة أخلاقهم، دعا هذا الأخير إلى أن يكون أكثر تقرّباً إليهم، مطّلعاً على معاناتهم ومتعاطفاً مع قضاياهم ومشاكلهم.

شهد هذا المقهى طرائف وأحداثاً عديدة ظلت راسخة في الذاكرة، ومن تلك الطرائف أن رفيقنا ذاري ذات مرة فتح عبوة إطفاء الحرائق وسط المقهى الذي كان يعجّ بالرواد والجلساء فتحول فضاؤه إلى ضباب كثيف بحيث لم يعُد أحدنا يرى الآخر، وكان الجميع يبحث عن منفذ يؤدي به إلى الخارج، وتحوّل هذا الموقف في ما بعد إلى طرفة وذكرى، وإلى الآن لم يدُر في ذهني كيف قام ذاري وانتشل العبوة الحمراء المعلقة في أقصى يسار المقهى وفتحها في داخله؟

كان الضجر يدب بنا ويأكلنا، بعد أن كنا شعلة من الحركة والنشاط داخل تنظيمات صفوف الحزب الشيوعية، وفجأة نصبح متّهمين ومكبلي الحركة ومعرضين في كل لحظة للاعتقال بتهمة الشيوعية والعمل في تنظيماتها.

كانت للمقهى إطلالة خارجية، وكانت تخوتها الشرقية العتيقة المصنوعة

من خشب الصاج وكسوة فراشها من سعف النخيل الهويدراوي، وكانت جلساتنا اليومية لساعات متأخرة من الليل، تشرف على حركة الناس والسيارات والمارة، أما في الشتاء فكنّا نلتف حول موقد النار الخشبي داخل المقهى وشاي أبو محمد، الأخ الكبير للأستاذ يحيى، الذي التهمته الحرب العراقية ـ الإيرانية القذرة بدون شاخص يُذكر له. حاول رجال الأمن وبعثيو القرية أن يقتحموا ويعكروا حميمية وألفة هذه الأجواء الرفاقية، لكنهم عجزوا عن ذلك فكانوا يأتون ويجلسون في زواياه خلسة ويتلصصون على حركتنا ويتنصتون على همسنا، وكنّا غير مبالين بهم وغير مهتمين لهم.

في أحد أيام رمضان كنت هنالك جالساً مع صديقي وجاري جميل خماس وبينما كان يدخن سيجارته توجه إلينا رجل الأمن البصراوي المعيّن بمتابعة أمور القرية الأمنية بالتنسيق مع بعثيي القرية، وبعد وقفة همس مع البعثي الأمي حسين نسيمة في ركن منطقة الحمام بجانب دكان فليح قطعة، الذي مات في العمل الإرهابي الثاني على أهالي القرية بعد ما تمكن رجل داعشي بسيارته أن يخترق حواجز السيطرات ويفجّر نفسه وسط ساحة منطقة الحمام وبين مقاهيها ودكاكينها ويقتل عدداً من أهالي القرية الكادحين الطيبين.

طلب من صديقي جميل وبصيغة شرطيّ آمرة أن يطفئ السيجارة ويرميها على الأرض، لأننا في شهر رمضان وهذا محرّم ومنافٍ للتقاليد والأعراف، فتطور الموقف مع رفض جميل لهذا الاسلوب الاستفزازي، وكادت أن تتطور القضية لولا تدخل الوجهاء من أهالي القرية، وهكذا كانت أساليبهم الاستعلائية معنا دائماً فجميل خماس من الشيوعيين الأوائل، الذين اعتقلوا في القرية في بداية الحملة ضدنا وتعرّض إلى تعذيب وحشي.

بدأت تلوح في الأفق حربٌ قادمة بين الجارتين العدوتين اللدودتين إيران والعراق عام 1979 بعد نجاح الثورة في إيران وبمشاركة واسعة من كافة قطاعات الشعب، وحولت إيران من نظام ملكي تحت حكم الشاه محمد

رضا بهلوي، الذي كان مدعوماً من الولايات المتحدة الأمريكية وشرطيها في المنطقة فاستبدلته في نهاية المطاف بنظام إسلامي في ظل المرجع الديني آية اللّٰه روح اللّٰه الخميني.

كان للشيوعيين الإيرانيين، بقيادة حزب توده والقوى اليسارية الأخرى المتمثلة بفدائيي الشعب، دورٌ فعال في المظاهرات والاعتصامات وتعبئة الناس باتجاه إيران جديدة، بما يتمتع به الشيوعيون الإيرانيون من تاريخ وطني وجماهيري كبير، لكن القوى الدينية استغلت تلك الأحداث على أسس دينية لتتصدّر المشهد وتستغلّه لصالحها وبدعم خارجي كبير يحول دون مشاركة القوى اليسارية دفة الحكم في إيران، وفي ختام المشهد تسلّمت القوى الدينية دفة الحكم وأعلنت عن المشاركة الجماعية في إدارة الحكم، ولكن ما لبثت بعد سنتين أن انقلبت على قوى اليسار والشيوعية وحذّرتهم من العمل السياسي وشنّت حملة كبيرة ضدهم من اعتقالات وإعدامات، ولم ينجُ أحد منهم، وألزمت قادته بالاعتراف وإعلان التوبة عن تاريخ الماضي السياسي على شاشات التلفزة ووسائل الإعلام المقروءة أمثال نور الدين كيانوري سكرتير الحزب، وإحسان طبري أحد مفكريه، وله مخطوطات تاريخية، وآخرين.

# من وحي الزيارة

تلك إذن هي قرية الهويدر التي ودّعتُها، حيث وُلدت وقضيت ثلثاً من عمري الذي جاوز الستّين، بين أزقتها الطينية وعلى تخوت مقاهيها العتيقة وبين أهلها. لقد هاجرتُ منها مُكرهاً، لكنها لم تفلت من خاطري رغم مرور كل تلك العقود في المنفى. إنها ما زالت تعيش في تفاصيل حياتي اليومية، ويكاد لا يمرّ يوم إلّا ويهاجمني فيه شريط الذكريات عن طيبة ناسها ورائحة قدّاحها وطين شواطئها ومياه نهرها الصافية الرقراقة. وغالباً ما كنت أرى في خيالي لمعة النحاس للون المشاريب الماء على أكتاف نسائها وهن عائدات من شريعة نهر ديالى متلفّعات بالعباءات السود. يمرّ بي شريط الذكريات هذا على عتبات البيوت، عتبة تلو عتبة، على سحنات وجوه ساكنيها وأسمائهم، ها إني أبدأ من القلعة إلى الدوزة، فإلى منطقة الحمّام، ثمّ أنعطف يساراً حيث دكان أبي المجاور لباب الحمّام الجانبي، وحيث نسوة القرية يدخلن فيه ثم يخرجن منه بوجوههنّ المشرقة، وقد كساها الخجل إشراقاً أكثر. ثم يطوف بي الحلم إلى بيتنا العتيق الفاصل بين عقدي الحميدية والجبان، أهيم بحنين بين بيوت الحميديّة ويلفعني نسيم هواء بستان أم الهري، ثم إلى فروع أمّ البنات عابراً إلى أزقّة الممديّة وذكرى صديقي ثامر البغدادي الذي قُتل غيلة في واقعة (المطلاع)، وصولاً إلى فروع الجرد والفضوة، ومروراً بمنطقة الجامع ومقهى كامل السعدي (أبي عيسى) حيث غالباً ما تُسمع «الويرات»، ثمّ إلى الشيخ دگل وإطلالة شريعة نهر ديالى حيث العبور بالقفف إلى قرية السبتيّة.

في الجهة الثانية من نهر ديالى. وقبل مغادرتي القرية بسنوات، كان بستان

(مال كاوري) وشاطئه الجميل ملتقاي اليومي مع الصديق عدنان الأنصاري، وفي مشهد غروبي ساحر لاختفاء ضوء الشمس من على ضفاف الشاطئ، في ما بعد ستجرنا الاحاديث حثيثاً إلى أوجاع الناس ومعاناتها في عراق مقبل على تداعيات خطيرة.

كانت هذه القرية قد تكوّنت بسبب عوامل الطمي التي حصلت لنهر ديالى بعد أن تغير مجراه، وهي عامرة بالبساتين ومزارع الحمضيات والرمان والتمور بأنواعها المختلفة. وكان «فرتقال» الهويدر مضرباً للمثل في الطراوة ولذة الطعم. في السنوات الأخيرة باتت محاصيل القرية تعاني من مشاكل متعددة أبرزها الإهمال والتقصير بعدم مكافحة الآفات الزراعية وشحة المياه لعدم جدولته وتنظيم سيره، فاضطر العديد من الفلاحين إلى تجريف المئات من الدونمات وتحويلها إلى أراض سكنية بسبب العوامل التي ذكرناها، ممّا أدى إلى تراجع ملحوظ في الإنتاج الزراعي وعدم جدواه المادي، إذ تعرضت العديد من البساتين إلى العطش بسبب انقطاع المياه عنها، أضافة إلى كثرة الأوبئة التي أصابت أشجار الحمضيات. وكان للعنف الطائفي بعد احتلال العراق أثره السلبي أيضاً على الإنتاج.

تصلح الهويدر أن تكون مصيفاً يستقطب السواح لطبيعة جوّها وموقعها الجغرافي وسط مياه نهر عذب ومحاطة ببساتين النخيل والحمضيات وبطعم برتقالها المميز الذي دعا الشاعر المعروف (الملا عبود الكرخي)، لأن يأتي على ذكر (برتقال الهويدر) في إحدى قصائده الشعبية.

زارها في العهد الملكي فيصل الأول ملك العراق وحظي باستقبال أهلها تقليداً للأعراف الاجتماعية في احترام الزائرين والحفاوة بالضيوف. زوارها التقليديون أو المارّون على مقاهيها ومطاعمها هم ضيوف على أهالي القرية، وهذا تقليد توارث عبر سنين قيامها، فعندما يجلس الغريب على تخوت مقاهي القرية وبدون معرفة سابقة ويطلب (شاي)، ينادي أحد الجالسين القريبين منه

كلمة (وره)، بمعنى حسابه واصل، وحتى الذي قام بهذه الخطوة إذا كان لا يمتلك فلساً فعلى مالك المقهى أن يتحمل (وره) ابن قريته.

عندما أجبرتني الظروف على ترك القرية وأهلها الطيبين، كانت القرية تحتوي على قرابة 1200 بيت ويبلغ عدد سكانها نحو ثمانية آلاف نسمه جلّهم من العرب لهم تقاليدهم العشائرية وعاداتهم الاجتماعية وخاصة في الشعائر الدينية أيام محرم عاشوراء.

للرائي من الأعلى، تبدو الهويدر قرية صغيرة حصرها نهر ديالى بمنفذ وحيد يربطها بمركز المدينة، وقد تبدو للمُشاهد كجزيرة وسط المياه ومحاطة بكثافة البساتين. إلا أن الإرهابيين نتاج الاحتلال والعملية الطائفية نجحوا في استغلال هذا المنفذ الوحيد للقرية في تنفيذ أعمالهم الإرهابية تجاه أهالي القرية من قتل وقصف وحصار، وراح ضحيته أبن أخي المرحوم باسم (نوار)، بعمر 17 عاماً متصدياً بصدره البريء الرصاص الغادر.

لقد تعرضت القرية وأهاليها إلى عملين إرهابيين بطريقة السيارات المفخخة أوديا بحياة شريحة واسعة من أهالي القرية ظلماً وعدواناً. وطيلة قيام القرية تعرضت إلى أكثر من مرة إلى تدمير طبيعي أثر فيضانات نهر ديالى، لكن بقيت ملامحها طاغية ومعالمها واضحة وحافظت على تكوينها الطبيعي (القروي)، رغم الخراب الذي أصابها من أثر الفيضانات وهجمات النحر الطائفي.

تمسك أغلب الهويدراويين بطابعهم الشيعي الحاد والذي وصل أحياناً إلى مستوى التقوقع في أيام الحرب الطائفية رغم قرب القرية من المركز بعقوبة. امتازت قرية الهويدر بالزراعة ونخيلها المتميز وجمال طبيعتها وصفاء نهرها وطيبة أهلها. وخرّجت القرية رموز أدبية وسياسية تركوا بصماتهم على مكانة القرية. أمثال طلعت الشيباني وزير اقتصاد حكومة 14 تموز 1958 أول حكومة وطنية في العراق، وأيضا خزعل علي السعدي القائد العسكري والسياسي،

وعلي عباس ططو وهو عالم عراقي قُتل في ظروف غامضة، والشاعر أحمد حسين البياتي وآخرون. تكاد نسبة الأمية تكون ضئيلة جداً. عام 1980 أقدم النظام العراقي على جريمة كبيرة، سادتها أجواء الرعب والحيف الذي لحق بالناس. ففي جو إرهابي أقدم على تهجير مايقارب 150 مواطناً قروياً إلى إيران بحجة التبعية الإيرانية استعداداً للحرب القادمة والتي طالت 8 سنوات حرقت اليابس والأخضر، ومن أجل تصفية حساباته وخلافاته السياسية والدفاع عن البوابة الشرقية، فكان العدد الأكبر منهم ينتمون إلى العراق وحاملي الجنسية العراقية القديمة ومنهم وليس قليلاً من أعمدة النظام في القرية، هجروهم قسراً بعد أن اختطفوا شبابهم من ذويهم وغيبوهم في غياهب السجون، فقد هجروهم بعد أن جردوهم من كل ممتلكاتهم الشخصية وفلذّات أكبادهم، البعض من هول الصدمة ماتوا على الحدود حنيناً للعراق وأهله، في هذه الأجواء المربكة والصعبة هبّ أهالي القرية لشراء ما تركوه من بيوت وبساتين وباتفاق الجميع لتكون أمانة عند عودتهم، وفعلاً فقد عادت اليهم بعد عودتهم مع رحيل الدكتاتورية عن المشهد السياسي العراقي ومجيء الإسلام السياسي المتخلف تحت حراب الأمريكان. في العام 1988 وصلت إلى إيران (طهران.. قم.. مشهد)، بعد أن نجوت بأعجوبة من أخر أنفال حكومي سبق قرار إيقاف الحرب العراقية الإيرانية، والتقيت ببعض العوائل من أهالي القرية، من الذين هجروا، فوجدتهم يتلوّون حنيناً للعراق وأهالي قريتهم ويذرفون الدموع على تلك السنوات، ولفت انتباهي خطوة النظام الغبية في أن أبناء العديد من تلك العوائل قد انخرطوا في التنظيمات والمليشيات التي تقاتل مع الجيش الإيراني ضد العراق، لقد أعطى صدام حسين للإيرانيين قوة عسكرية ضاربة جراء همجيته المدمرة والبعض منهم عادوا في حكم العراق بعد احتلاله ورحيل النظام. وقد سبق هذا الفعل الهمجي حملات اعتقال واسعة في العراق شملت تنظيمات الحزب الشيوعي العراقي والتفريط بالجبهة وتنظيمات حزب الدعوة

وعناصر القوى القومية ورفاقهم في مجزرة قاعة الخلد عام 1979. للتفرد في الساحة السياسية العراقية وتكريساً لعقدة الحزب الواحد.

لقد جرت الرياح بما لا تشتهي سفينة التطلعات والأماني، فقد ذهبَت بنا الظروف عكس مجرى الطموح والتأمل والرغبة، فأتى الواقع بالمحتل الأمريكي وأسقط النظام ودمّر العراق دولة وبنية تحتية ومؤسسات وقدرات وتاريخاً وتراثاً بحجة الإطاحة بنظام صدام حسين والبعث. وبات العراق عبارة عن كانتونات وطوائف وتابوهات وميليشيات وقحة ودواعش متصارعة ومتناحرة تنهش ثروات البلد باسم الدين والمظلومية والطائفية. فلا مكان للوعي والمعرفة والحرية والثقافة والمواطنة، لقد أرادوه عراق التخلف والتراجع واللطم على الحسين وآله بعيداً عن قيم استشهاده ونبل تضحياته، فأين صرخة «هيهات منا الذلة» في نواميسهم وضمائرهم؟

كنت أتمنى على الحزب الشيوعي الرسمي، وهو جزء من الحركة الشيوعية العراقية، أن يتبنى مشروعاً وطنياً في مقاومة المحتل، وأن لا يشترك في مجلس حكم عماده المحتّل، وأن يعلن موقفه الرافض لمبدأ المحاصصة الطائفية، وأن لا يدعو إلى التصويت على الدستور المشوّه المملوء بالألغام، وأن يقاطع الاتفاقية الأمريكية العراقية، بل ويفضح تأثيراتها السلبية على مستقبل العراق، وأن يعيد النظر بسياسته وخطابه المستقل بعد كل تلك السنين وهي أقصى الأمنيات، ليعيد مجد تاريخ الشيوعيين الوطني في العراق، فالبيان الشيوعي الأول عام 1848 الذي صاغه كارل ماركس بمشورة رفيقه فردريك أنجلس، يُعدّ واحداً من أكثر الوثائق السياسية في أوربا تأثيراً على الإطلاق إلى الآن في ما يتضمنه من صياغات لسياسته الاقتصادية ونظمه الاجتماعية، إذ يقدّم البيان التصور المادي للتاريخ عند ماركس ونظريته عن الصراع الطبقي ونظام الخدمات الاجتماعية والتكافل الاقتصادي.

لكن كافة الشيوعيين العرب فشلوا في الأخذ بأفكار ماركس ونظريته

وتطبيقها على ظروف وأحوال بلدانهم وأوطانهم، نتيجة عدم فهمهم واستيعابهم تطبيقاته على أرض واقعنا العربي.

إن ماضي التاريخ السياسي للشيوعيين العراقيين والصراعات السياسية الداخلية الفكرية، رغم حدّيتها وجدّيتها بين تطرف اليمين واليسار وتأرجحاته، إلّا أنها لم تؤثر على جماهيريته وحراكه الوطني ودوره النضالي والريادي في قيادة الجماهير والدفاع عن مصالح المسحوقين، ففي نهاية الخمسينيات وفي خضم ثورة 14 تموز وكتلة (الأربعة) المتمثلة بعامر عبدالله، زكي خيري، بهاء الدين نوري، محمد حسين أبو العيس، وبسبب اختلاف آرائهم حول معطيات الثورة وحراكها الجماهيري الذي يمكن، بمعزل عن مواقف السوفييت وتأثيراتهم الأيديولوجية، أن يدعو قيادة سلام عادل إلى إبعادهم عن واجهة الحزب العلنية وإرسالهم إلى المدارس الحزبية في موسكو لتلقّي دورات تثقيفية تأهيلية.

أقدم المشير عبد السلام عارف، في حركة 18 تشرين عام 1963 على إزاحة البعثيين عن طريقه في نفس العام لانقلابهم، فأصدر الحزب الشيوعي بيانه الشهير الذي سُمّي ببيان تموز معتبراً حركة 18 تشرين مستمدّة من روح ثورة 14 تموز. وهنا برز تكتل جديد سميّ (مجموعة خط آب)، سمي كذلك لأنه أُعلن عنه في شهر آب سنة 1964، وقد ضم كلاً من عامر عبدالله، زكي خيري وبهاء الدين نوري وعزيز محمد.

أشاد رفاق خط آب بتجربة الاتحاد الاشتراكي العربي التي كانت على غرار تجربة مصر العربية مع جمال عبد الناصر ودعم السوفييت لها من خلال التحولات البرجوازية الصغيرة (الوطنية) والتطور اللارأسمالي الذي صنعه وتبناه السوفييت وانعكس على تجارب الشعوب والبلدان الأخرى دون دراسة كاملة ومعرفة تامة بأوضاع تلك البلدان وتطوراتها الاقتصادية. فارتأى رفاق خط آب في العراق، المهادنة مع النظام السياسي الجديد في العراق،

بتوجيهات من الرفاق السوفييت، والتوجه إلى مسار جديد في بناء مستقبل العراق السياسي.

في عام 1965 وفي اجتماع للّجنة المركزية على ضوء تطور الوضع السياسي وتداعياته، أُعلن عن العمل الحاسم الذي سُمّي في ما بعد خطّ حسين، الذي تصدّى فيه الراحل عامر عبدالله، لإسقاط النظام العارفي وذلك بانقلاب عسكري أو عمل ثوري من خلال انتفاضة شعبية. في ظلّ كل تلك التحولات الداخلية والصراعات السياسية والمواقف الإقليمية والدولية، ظهرت آراء جديدة في المواقف والرؤى والتحاليل، امتدت إلى أيلول عام 1967 وتفجّرت بتكوين جديد هو (القيادة المركزية) التي تبّنت سياسة الكفاح المسلّح والعمل العسكري لإسقاط حكومة البعث، انطلاقاً من قصب الأهوار بقيادة المهندس خالد أحمد زكي القادم من عاصمة الضباب لندن.

بعد إنهاء البعثيين لآخر لافتات الجبهة الوطنية من المقرات في المحافظات وتحطيم أدواتنا الإعلامية ومنابرنا الثقافية في نهاية 1979، لم يعد أمامي سوى القراءة والمتابعة، فقد كثرت لقاءاتي اليومية في المركز في بعقوبة وعلى خريسان ونقابة المعلمين ونادي الموظفين والمهندسين مع ثلة من الرفاق والمثقفين، فقد كنت نادراً ما أفوّت فرصة لأمسية شعرية لصديقي المرحوم أديب أبو نوار في اتحاد أدباء ديالى ومراكز الشباب، كما وكنت حريصاً وبشكل دائم على حضور نشاطات الاتحاد الأسبوعية من شعر وقصة وتاريخ حياة، بحيث كان الأديب أديب أبو نوار يدير الجلسات والحوارات بشكل دائم، كما كان يدير فعاليات المكتبة المركزية الأسبوعية.

أديب أبو نوار شاعر من مدينة بهرز ومن عائلة محسوبة على البعثيين في ولائها السياسي، له أخ صغير اسمه نجيب، رافقني في زمالة الإعدادية المركزية لحين تخرجنا سوية بنفس العام، فذهب إلى الكلية العسكرية ليصبح ضابطاً وقد دفعَته إلى ذلك جملة الإغراءات المقدمة من البعث آنذاك للشباب، من

سيارة وبيت وراتب محترم، وأنا ذهبت إلى الآداب ـ جامعة بغداد غير نادم، باحثاً عن بواطن الأدب ورموزه، وغارقاً في عالم السياسة وقذارتها وألاعيبها النذلة، استمريت باللقاء بنجيب بحكم علاقتي بأخيه أديب كلما مررت إلى بيتهم برفقة صديقي المرحوم ثامر البغدادي، كان أديب قد أكمل لتوّه إعدادية الزراعة في قضاء الخالص، وقد كان قريباً جداً لنا نحن الشيوعيين وقد تأثّر من جراء ما كنّا نتلقّاه من حيف وظلم وصفعات من البعثيين.

كانت قصائده تصرخ بالتضامن معنا وفي الدفاع عن مواقفنا، يُلقيها في الأمسيات الشعرية بتعابير من الألم والوجدان والحسرة، افترقنا عام 1983 ومن ثم التقينا لقاءً عابراً على نهر خريسان يوم 6 أذار 2004 في سفرتي اليتيمة إلى العراق بعد احتلاله، حين كان الحزن والجرح في بدايته، وقليلون من الناس تمكنوا من تشخيصه في ظلّ تسارع وتيرة أحداث البلد، فكانت تسيطر عليهم نشوة الخلاص من النظام ودمويته وحروبه وخدمته العسكرية الإلزامية، وما زالت الفوضى تعمّ البلد وتنذر بوضع سياسي خطير في المستقبل، هذا ما لمسته في فترة وجودي القصيرة في العراق وأعلمت به بعض المقربين مني، متوقعاً أن العراق قادم على وضع صعب وقد يطيح به وبنسيجه الاجتماعي وإرثه التاريخي. كان نهر خريسان يومها يتدفق من حولنا كالسيل العارم بمياهه الصافية، ونحن نروي قصص حياتنا أنا وأديب ونتذكر ألق الماضي ونتطلع إلى أفق المستقبل، ذلك النهر الذي قد يكون من المحتمل أنه أصبح شحيحاً وحزيناً ومفتقداً لناسه الطيبين.

في نهاية اللقاء الذي مرّ سريعاً دون أن نشعر، لزحمة المواضيع وتفاصيلها اليومية، اتفقنا أن نرتب لقاءً طويلاً، لكن الوقت لم يسعفنا ولا الظروف ولا الحظّ، فقد كانت زيارتي قصيرة، وعدتُ إلى السويد خائباً وحزيناً. حدّثني في ذاك اللقاء القصير والموجع عن تجربة اعتقاله في الاستخبارات العسكرية (الشعبة الخامسة) وأصناف التعذيب التي تلقّاها، وعن مسوّدته التي تصوّر

وتعكس ظروف تلك الأيّام في الزنزانة الإفرادية، كما أخبرتُه أنا عمّا تعرّضت له في هذا المكان الحقير وعن أدوات التعذيب فيه وطبيعة البشر وروح الانتقام والثأر عندهم، كنت في صباح اليوم نفسه أمام بناية الشعبة الخامسة مع ابن أختي هيثم حاملاً كاميرا تصوير لتوثيق بعض الصور من داخل المعتقل وزنزانتي رقم 3 التي أمضيت بها شهوراً، وقد ضمّنتها كتابي السابق (سجين الشعبة الخامسة)، لكن للأسف الشديد، حالت الأمور دون ذلك وأحبطت النوايا والرغبات والتوثيق، فقد كان هناك جنود احتلال مدججين بالسلاح منعونا من دخول المبنى رغم التعريف عن شخصي والهدف من وراء ذلك، فعدنا خائبين إلى قرية الهويدر.

كان الأكبر حصّة من لقائنا، الحديث عن الأمر الأكثر إيلاماً ووجعاً، وهو عن صديقنا المشترك ثامر إبراهيم البغدادي وذكرياته وحادثة موته الأليمة، حين قضى في المطلاع بصواريخ الأباتشي الأمريكية بعد الهزيمة والانسحاب من أرض الكويت، والتي تُعدّ أكبر جريمة تاريخية بحقّ الإنسانية والعالم الحرّ، الجريمة التي ارتكبها المجرم بوش، والتي مرّت دون أن تُذكر أو أن تُدان من ضمير حيّ أو منظمات إنسانية. حين ودّعت أديب أبو نوار، سقطت من عينيّ دمعتان، وشعرت حينها بأني لن ألتقيه ثانية، وهذا ما حصل بالفعل، فقد فُجعت برحيله وأنا في السويد، في إحدى مستشفيات السُليمانية بمرض لم يُمهله طويلاً، تاركاً في نفوس من زاملهُ ذكرى طيبة وعميقة، أما عن مسوّدته في تجربة حياته، فما زالت مجهولة وقد طواها النسيان، إذ مات في عراق مرتبك، وضعُه مشوّه ومصيره مجهول.

# من الزيتوني إلى الأسود

بعد سنوات طويلة ممّا تعرض له العراق، أُثبت فشل المراهنات على العوامل الخارجية في التغيير السياسي في العراق، بينما رجاحة الموقف الوطني كانت أكثر إدراكاً وفهماً بنوايا تلك المشاريع المشبوهة، وما زال العراقيون يدفعون ثمنها من الأرواح والممتلكات. وبعد مضي تلك السنين وما تعرض له العراق من تخريب وتدمير بالكامل وبات وجوده وكيانه الاجتماعي مهدداً، بدأوا يخرجون علينا كنعامات من أكوام الرمل بفضل السلاح الأمريكي وينتقدون العملية السياسية، لكنهم لم يجرؤوا على أن يتحملوا المسؤولية الأخلاقية والسياسية على مراهناتهم الفاشلة والمصير الذي تلقيناه في مسيرة النضال.

في قرية الهويدر، كان أيضاً الصراع السياسي والوطني يُدار من قبل العربنچي (أبو داود) حاملاً الهمّ الوطني وطموحات فقراء القرية سلوكاً ونهجاً وأخلاقاً وموقفاً وطنياً بتقرّبه من الشيوعيين، وبين شخصية (نكه) مروّج السياسة الأمريكية وتدخلاتها في شؤون الشعوب والمنطقة. وكان مثل هذا الصراع يدار بين البعثيين والشيوعيين في القرية لسنوات طويلة، وبقي محتدماً ولم يهدأ حتى خلال هدم تنظيمات الشيوعيين من جراء دموية البعثيين في نهاية السبعينيات. وعندما ولى البعث على يد صانعه الأمريكي بشكل طبيعي، انتقل هذا الصراع بين الشيوعيين وأفكارهم وبين من حمل إرث البعثيين المتمثل بالإسلام السياسي. لم يعد أمراً غريباً ولا تصرفاً مستهجناً أن يتحول البعثي من خلع الزيتوني وملابس الجيش الشعبي إلى ارتداء العمامة مُسبّحاً بحمده ومصدقاً بنواياه ومتستراً بالمرجعية ومظلومية أهل البيت.

هناك أعداد منهم تحولوا إلى تنظيمات الحزب الشيوعي، خلطة عجيبة ورهيبة لم تتكرر في التاريخ السياسي العراقي قط، أحدهم بات مسؤولاً لمحلية في العراق الجديد، لكنه يعلن ندمه في أنه لو أسعف الوقت البعثيين قليلاً لأصبح عضو فرقة في تنظيمات حزب البعث المنحل، فكيف له أن يرسم سياسة جديدة وفق متطلبات المرحلة الحرجة؟

بشأن عراق ما بعد 2003 قبيل وعشية الاحتلال الأمريكي وإفرازاته المؤثرة على بنية ونسيج المجتمع العراقي، كنا هنا في مدينة مالمو السويدية نخوض نضالاً لا هوادة فيه ولا رجعة عن التمسك بمقدسات الوطن كأرض وشعب وتاريخ، فلم يكن سهلاً علينا أمام حفنات من المنتفعين والعملاء محاولين في استهدافهم لنا وتحوير جوهر مواقفنا عن حقيقته، بإطلاق بالونات فارغة سرعان ما تنفجر.

لا يختلف اثنان عاقلان، وحتى ذوو العاهات، حول دموية وشراسة نظام صدام، وكنا نعترض بشدة على آلية سقوطه عن طريق احتلال أرض الوطن وتحطيم بُنية مجتمع بكامله، وكان رهاننا لا يفتر عن تبني مشروع وطني، والتعويل على قدرات وطاقات أبناء شعبنا في عملية التغيير التي تصبّ في خدمة أرضنا وشعبنا. وقد قمنا بتنظيم عدة مظاهرات تُدين مشروع نية غزو العراق، وأصدرنا البيان تلو الآخر لإدانة مشروع الحرب ومآسيها، وبادرنا إلى إقامة أُمسيات بتحديد جوهر الاحتلال ومآسيه المحتملة على مستقبل العراق وأبنائه.

عندما احتُلّ العراق عام 2003 من قبل الأمريكيين والبريطانيين وحلفائهم، كان الاحتلال قد تمّ التمهيد له عبر مؤتمرات مشبوهة في دعمها المالي واللوجستي ونيّاتها السيئة التي كان آخرها (مؤتمر لندن) عشية الحرب على العراق، حيث اجتمعت قوى المعارضة الرسمية الموالية للمشروع الأمريكي، وأغلبها كانت مقيمة في عواصم الدول الأوروبية كباريس ولندن، وبعضها الآخر كان مقيماً في واشنطن، وآخرون في بعض الدول العربية، هؤلاء الذين

لم يتعلموا منها، على أقل تقدير، بديهيات الأسس الديمقراطية في بناء الدولة السياسية المعاصرة ونظام المؤسسات وأسس التنمية فيها.

فمنذ الأيّام الأولى لوصولهم إلى السلطة بمواكبة دبابات «الهمر» الأمريكية، وجلوسهم على سدّة الحكم في المنطقة الخضراء المحمية من مخابرات دول وشركات حماية وميليشيات طائفية، شنّوا حرباً شعواء ضد أبناء شعبنا من ضبّاط وطيّارين ومفكّرين وعلماء وأطباء وأساتذة وبُناة دولة من ملاكات مختلفة بذريعة أنهم بعثيون، وشرّعوا عدة قوانين فاشية ضد الإنسان والإنسانية ليبرّروا قتلهم للناس، مثل (قانون اجتثاث البعث) الفاشي في مضمونه وأهدافه. فالعراقيون كانوا مجمعين طيلة سنوات مضت على همجية النظام البعثي السابق وسياسة الإكراه مع كل قطاعات أبناء الشعب العراقي، بالإضافة إلى سياسة الترغيب والامتيازات مما دفع بالملايين من العراقيين إلى تأييد سياستهم بعد أن أُفرغت الساحة من أية قوى سياسية بديلة، وهذا ما جعلهم يستفردون بقدرات أبناء شعبنا.

كنّا، كسياسيين معارضين، نشعر ونلمس معاناة هؤلاء الناس وتضحياتهم الجسام، بالإضافة إلى نهج ساستنا الجُدد الذين سلكوا طرقاً بعيدة عن التسامح وبناء الدولة، فقد أعادوا العراق مئات السنين إلى زمن الطائفية ونظام القبيلة والثأر والقتل والتهميش والتجويع والاستيلاء على ممتلكات الناس بعد تهجيرهم، وصولاً إلى التفريط بأرض العراق وبأهله، مما تركت مخلفاتها إلى يومنا هذا، بل أنها عززتها يوماً بعد يوم مخلّفة أكواماً من التخلف والجهل والتناحر الطائفي والضغينة بين أبناء الطائفة الواحدة والطوائف الأخرى، هذه جميعها أدت إلى احتلال ثلث العراق من قوى الإرهاب بالتعاون مع بعض سياسييه وعسكرييه. فساسة العراق الجُدد، منذ اليوم الأول من احتلاله، يتحمّلون جميعاً مسؤولية ما أصاب بلدنا وناسنا من تدمير وتمزيق وتهميش، فهم على أقل تقدير أصحاب القوة والسلطة والمال.

وإن ما يُطرح بين الحين والآخر من مشاريع تسوية ومصالحة وطنية كان بمثابة (ضحك على الذقون)، فلم تعُد هناك نيّات صادقة من كل الأطراف في بناء العراق وتجاوز خلافات الماضي وطيّ صفحة الصراع التاريخي بين معاوية بن أبي سفيان وعلي بن أبي طالب على منبر الخلافة. فتجربة إقليم كردستان ورؤية «مسعود البارزاني» السياسية كانت أوفر حظاً وأكثر واقعية من تجربتنا في لملمة الأطراف وطيّ صفحات الماضي وفي لغة التسامح والعفو عن أعداء الأمس من عملاء وقادة جحوش، والشروع ببناء إقليم أو دولة كما يتمنون في المستقبل.

# أمّي

منذ النشأة الأولى لـ (محمّد) في جوّ عائلي مضطرب ومحيط اجتماعي مقيّد بتقاليد في غاية الصعوبة في تخطيه أو الخروج من إطاره اليومي الرتيب، منذ وعيي المبكر تقرأ عليّ أمي آيات قرآنية وأدعية، وتضع تحت وسادتي آلة جارحة، سكيناً أو خنجراً، لتُبعد عني المخاطر. في البدء كنت مؤمناً في غايات أمي، وأنا أراها يومياً تسحب من كنتورها الخشبي العتيق، وهو جهاز عرسها من أبي أهداها إياه أبي بمثابة مقدم أو مؤخر زواجها منه لا أفطن أيهما الأصح؛ دفاتر مربعة صغيرة بكلمات لم أستطع قراءتها رغم كبر حروفها، لكنها ممتلئة بأدوات النصب والجرّ والهمزات، تتهيأ قبل ساعات بقراءتها بصوت مسموع وتراجيدي وحزين يترك صداه المبكي على مستمعيها بجمهرة من النساء في حضرة تلك المناسبات الحسينية أو موت بفقدان عزيز أو نذور حسينية. إذ أنه بترجّي أمنية وتحقق غايتها فلا بُد من قراءةٍ حسينية لمدة عشرة أيام تجتمع النسوة فيها باللطم على صدورهن وشقّ جيوبهن وخرمشة خدودهن.

وعندما كانت أمي تعتلي تلك المنابر وتعدّد بحزن ونحيب تلك القصائد، فإنها «تبكي الصخر أو تفك المصلوب»، بتلك الكلمات يطرق سمعي من الحاضرين في تجمعاتنا اليومية بين درابين القرية أولاد الأمهات الحاضرات تلكم المجالس، والمنكوبات بأعزائهن. مشهد يومي هويدراوي تتناوب عليه العوائل الهويدراوية للتعبير عن أحزانها، تلك المشاهد والطقوس التي لم تفكّ عن أسئلتي اليومية الموجّهة لأمي. مرة سألتها عن اللّه والوجود: هل اللّه امرأة أو رجل؟ صفعتني واتهمتني بالكفر والتشكيك بالخالق، وبقيَت لأيام وهي

غاضبة منّي. في خضم تلك التداعيات تعرضتُ إلى أوجاع مبرحة في عينيّ كادت أن تؤدي بي إلى فقدان نظري، هنا ذكرتني أمي: إنها عقوبة اللّٰه لك لأنك لا تعترف باللّٰه وتشكك بوجوده، صفعة أخرى توجهها لي بأن تشعرني بالذنب والحزن والأسى والخوف.

والدتي هي خيريّة ابنة علي جاسم السعدي التاجر في قرية الهويدر من آل بيت شوربة، هكذا يكنّون من قبل أهالي القرية، كان يقام في بيتهم عزاء عاشوراء كل عام مع الولائم، ولهذا عرفوا ببيت شوربة. جدّي لأمي كان متزوجاً بامرأتين، الأخيرة أم أمي ولها أخوان خزعل وطالب، فلم تكن غريبة مواقف أمي السياسية الداعمة لي، وهي منذ أن فتحت عينيها رأت إخوانها يخوضون غمار العمل السياسي (الشيوعي)، بل واكبت مسيرة حياتهم في النضال والسجون إلى حين استشهاد أخيها خزعل علي جاسم السعدي في مجازر 8 شباط 1963.

للطفولة امتدادات، والإنسان ابن بيئته، كان أبي متزوجاً من ثلاث نساء، وأنا ابن الأخيرة. ولطبيعة الشغل والحياة وقساوتها فقد تركت آثارها السلبية على آبائنا من أجل توفير لقمة العيش الصعبة. سياسة أبي وقساوته تجاه أمي ساهمت إلى حدّ كبير في رسم ملامح شخصيتي في التعامل مع الجيران والأصدقاء والمرأة، أحياناً تسألني بنتاي بيدر وسدير باندهاش على رقي التعامل معهن، يسرّني بالصغيرة والكبيرة والقبول بآرائهن والوقوف عند رغباتهن في الاختيار والمستقبل، أي تكوين النفس.

كان لا مفرّ لي من تلك الأجواء إلّا بالقراءة والدراسة والتفوق في المدرسة لتجاوز تلك الظروف النفسية التي تُعاني منها أمي في ترتيب أمور بيتنا وتربيتنا، والتي تركت في نفسي أثراً كبيراً من لوعات ومعاناة؛ عندما تسمع عن قصص أخواتها أو معارفها في تفوق أبنائهم في المدارس والجامعات.

ومن هذا المنطلق، بذلتُ جهوداً كبيرة في تحقيق نجاحات مهنية في مجال الدراسة وأيضاً دخولي غمار السياسة بوقت مبكر، ففرحت برؤية أمي التي كانت تتباهى بي في جلسات معارفها وصديقاتها وجاراتها، وكانت هي من تدفعني باتجاه صلابتي في مجال العمل السياسي، رغم عشقها لي إلى حد العبادة وخوفها علي من أي مكروه قد يحصل. وهي التي قومت من مساراتي في بداية الطريق وقوت من عودي. كانت تحثني دائماً على عدم التهاون مع البعثيين أو الرضوخ لهم رغم حبها لي بطريقه جنونية، كنت نقطة ضعفها، لكن كانت تشدّ على يدي وعلى قوة مواقفي وإرادتي والتمسك بالمبدأ ومواصلة الطريق رغم مخاطره الجدية.

والدتي، هي التي زرعت في قلبي التواضع والبساطة والخجل وحبّ الناس ومساعدتهم. حين كنت طفلاً في الابتدائية كانت تضعُ في حقيبتي المدرسية المهترئة صابوناً وشاياً وسُكراً تبرعاً للقضية الفلسطينية والفدائيين، من هنا نما لدي شعور لم أستطع وصفه حينها، لكن بعد سنوات أصبح ممكناً تحديده، وهو حبّ الوطن والشعور بالانتماء القومي، وطيبة قلبي هي التي قادتني إلى متاهات في الحياة والسياسة والعلاقات الاجتماعية، دفعت ثمنها لاحقاً، كنت دائماً أرى النصف الملآن من الكوب.

أحياناً كانت ثقتي بالآخرين كبيرة وذلك بدافع العاطفة ومبالغاً بها، فوصفني أحد الرفاق القريبين مني بكلمات ذات دلالة ومعنى «لطيف شيمه وأخذ عباءته»، ولطيف هو أنا محمد السعدي، الاسم المتداول في تجربة الجبل مع الثوار والمكنى به، والذي أطلقه علي الشهيد محمد الخضري (أبو جلال) منذ اللحظة الأولى التي وطئت قدماي فيها أرض كردستان (أحمد برناوا)، وكان هذا المثل سائداً عندنا بين أوساط الناس، دلالة على المرؤة والموقف والشجاعة ونكران الذات وحبّ الآخرين. كانت أمي تردد دائماً على مسامعي، بل غرست في ذهني مقولة «الشجاع يكون دائماً كريماً».

بدأت الحملة ضدّ مناضلي حزبنا، أو بتحديد أدق اشتدت في نهاية 1977، وقد بدأها البعثيون بإعدام كوكبة من مناضلي حزبنا بتهمة باطلة ومختلقة هي تهمة التنظيم العسكري داخل القوات المسلحة، والذي يحرّم علينا كشيوعيين ضمن بنود ميثاق الجبهة المذلة، وهو الشرط الذي فرض من قبل الحزب الحاكم فرضاً مطاعاً، ويحتمل كل الاحتمالات السيئة، يعني مادة دسمة وخطيرة بيدهم يلوحون بها في أي وقت وضدّ أي شيوعي لا يريدهم وبعيد عن مهادنتهم (بالمعنى السياسي)، وضمت تلك الكوكبة اللاعب الدولي لكرة القدم بشار رشيد وآخرين حصلوا على عضوية الحزب بعد أن استشهدوا، لأنهم كانوا فقط متعاطفين مع قضايا الحزب والبعض منهم كان ضمن التنظيمات قبل التحاقهم بالخدمة العسكرية الإلزامية.

لم ينصت البعثيون ولم يعيروا اهتماماً للأصوات الداعية إلى تأجيل الاعدامات من حركات تحرر ومنظومة اشتراكية وشخصيات وطنية ومنظمات إنسانية وجهود الحزب ومساعيه في اللقاءات الدورية بين أحمد حسن البكر وعامر عبدالله باعتباره وزيراً عن الحزب الشيوعي العراقي في حكومة البعث، البعث وقادته (الصقور) غير مبالين بتلك المساعي والمناشدات الانسانية، بل ضربوها عرض الحائط ولم يعيروا اهتماماً لدوافعها المستقبلية السياسية على سمعة البلد في قمع الحريات وانتهاك حقوق الانسان.

تمادى حزب البعث، موغلاً بسياسته الاستبدادية، في قمع القوى الوطنية وإقصاء الآخرين عن حرية ممارسة العمل السياسي كما نصّت عليها بنود عقد الميثاق الوطني. وفي فترة تُعدّ قياسية لقوة تنظيماتنا وجماهيرنا الواسعة؛ فككوها ووزعونا على البلدان والطرقات والفنادق والجبال مما يدلّ على نيتهم المبيتة لنا في تفتيت تنظيماتنا وملاحقة جماهيرنا وتحطيم حزبنا.

عندما بدأت الحملة كنت بعمر صغير وغير مدرك ولا مستوعب للمرحلة بكل تفاصيلها وألاعيبها السياسية رغم خطورتها، لكنني ذهبت أبحث عن

بدائل وقنوات أخرى للاتصال بالتنظيم وتشكيل خلايا حزبية، كانت طوابير من الشيوعيين وممن وقّعوا على قرار 200 سيّئ الصيت وممن لم يوقعوا عليه، ورغم تقادم الأيّام والشهور، مبهوتين وغير مصدقين لما حدث. فقد كان بمثابة زلزال هزّ عروش الساحة السياسية العراقية والعقل الاجتماعي العراقي أمام ذلك الصمت المخيف والمرعب (المهزوم).

امتدت جذور الحزب الشيوعي في عمق الأرض العراقية، وتاريخه الوطني المشرف، وساندته دولياً كل حركات التحرر والمنظومة الاشتراكية وصولاً إلى قوة جماهيرية واستعداد الشيوعيين بالكامل للمواجهة والمقاومة إلى حدّ الموت، لكن بفترة زمنية قصيرة لا تُعدّ في نضال الشعوب يتهاوى مستغيثاً مستسلماً تاركاً الملعب بعرضه وطوله للبعثيين الذين تفنّنوا وتمادوا على خطوط العرض والطول في تسجيل الأهداف تلو الأهداف رغم صفارات الحكم بـ «الأوف سايد»، وكما قيل حينها أن نية البعثيين هذه المرة استهداف القاعدة الحزبية وفتح المجال لقيادة الحزب أن تترك العراق، وتأكدتُ لاحقاً بعد الاحتلال من تسجيلٍ صوتي يوصي به مدير الأمن فاضل البراك، منتسبي الجهاز باستهداف القاعدة الحزبية وغضّ النظر عن تحركات قيادة الحزب.

في محيطنا القروي، كنا على احتكاك يومي مع البعثيين يحسبون علينا حتى شهقات أنفاس أرواحنا المرّة، يرصدون لقاءاتنا وتجمعاتنا وذهابنا ورجوعنا من وإلى القرية مع توتّر يومي في معيشتنا وحياتنا وبتمادٍ يصل أحياناً إلى حد القرف، أنا شخصياً بقيت على هذه الحال في صراع يومي معهم، لكن الذي أبعدني قليلاً عن تلك الاحتكاكات اليومية وعن وجع الرأس هو قبولي في الآداب ـ جامعة بغداد، فقد قلل من فرص تواجدي الدائم في القرية. هناك في بغداد وفي سنتها الأولى وفي أروقة الجامعة حياة جديدة من الدراسة والعلاقات، والتي فتحت لي آفاقاً جديدة على عدة مستويات. وانعكست تلك الأجواء في التقرب من حركة تنظيم جديدة (منظمة الصدى).

# خالي خزعل السعدي

يُعدّ خالي خزعل أول ضابط شيوعي طالب باستلام السلطة علناً من الزعيم عبد الكريم قاسم، في دوره المشهود صبيحة ثورة 14 تموز، لتفويت الفرصة على البعثيين والقوميين في القفز عليها بعد تذبذب مواقف الزعيم تجاه القوى السياسية العاملة في الشارع العراقي، فقد انتزع الزعيم في الخطوة الأولى لانتحاره، الكتيبة الرابعة (كتيبة المثنى) للدبابات ومرسلات الإذاعة في (أبي غريب) من الشهيد خزعل السعدي وسلمها إلى الضابط البعثي خالد مكي الهاشمي وقال له، حسب مذكرات سكرتير الزعيم (جاسم العزاوي): أريد منك أن تعدّل انحراف مسيرة الكتيبة بعد أن حرفها خزعل السعدي عن نهجها وحوّلها إلى قاعدة للشيوعيين.

اعتُقل الشهيد خزعل السعدي في سجن رقم واحد، وليست مفارقة أن تنطلق من نفس الكتيبة في أبي غريب الطائرات بقيادة منذر الونداوي وتتحرك الدبابات بقيادة خالد مكي الهاشمي وتذاع البيانات للقضاء على منجزات ثورة تموز المجيدة في يوم 8 شباط الأسود.

وقد وصف لي المرحوم الشاعر كاظم السماوي في رسالة شخصية، صوت خزعل السعدي المجلجل في سجن رقم واحد، عندما كان في زنزانته المقابلة، أثناء تلقيه خبر صعود يوري غاغارين على متن مركبة الفضاء السوفييتية فوستوك 1 إلى الفضاء في 12 أبريل عام 1961.

تروي لي أمي حكاية زيارة خالي الشهيد خزعل في سجنه وكان عمري

لا يتعدى السنة، وانقلاب السيارة بنا في الطريق بين بغداد وديالى وكان معنا الشيوعي السابق عبد الأمير تكه، الذي روى لي القصة لاحقاً، بأني نجوت بأعجوبة، بعد أن تضعضع نصيبنا عند حضرة الزعيم في خطابه الشهير في كنيسة (مار يوسف) حول الأحزاب، وكان الكلام موجّهاً إلى الشيوعيين وقد بدا مستاء منهم وهم المخلصون له ولثورة تموز.

تم منح إجازة الحزب الشيوعي لداوود الصائغ بعد أن رُفض طلب الشهيد سلام عادل في منح إجازة للحزب بحجة وجود حزب شيوعي بنفس الاسم المجاز، مما دعا قادة الحزب بإعادة الطلب باسم جريدة الحزب، (اتحاد الشعب)، فرُفض أيضاً، وعلى ضوء تلك التطورات، طلب الشهيد سلام عادل لقاء الزعيم عبد الكريم قاسم بجهود المرحوم عامر عبدالله وقد خرج من ذلك اللقاء بائساً متذمراً وحزيناً على مستقبل العراق، فانطلاقاً من ذلك، أخذ الشهيد سلام عادل على عاتقه، كقائد تاريخي، الحفاظ على الشيوعيين والحزب، فحاول استمالة داوود الصائغ وأرسل شيوعيين وصحفيين ومثقفين للعمل في جريدته من أجل الحفاظ على بريق الشيوعية.

في يوم 8 شباط 1963، كان عدد الشيوعيين في السجون والمعتقلات قد تجاوز الخمسة آلاف بين منتمٍ ومتعاطف، مما سهل على الانقلابيين من بعثيين وحرس قومي، تصفية البعضٍ منهم داخل المعتقلات، فلا جدل حول نظافة الزعيم قاسم ووطنيته، ولكن ألاعيب السياسة ودهاليزها كانت أبعد منه بكثير.

# بين السعديّين.. خزعل وعلي

قد يبدو الحديث عن أحداث العام 1963 غير مناسب والعالم يتحدّث اليوم عن صراعات سياسية جديدة ليست لها صلة بتقاليد العمل السياسي قبل ستة عقود، لكن الذاكرة هي الذاكرة، وما نكتبه نقلاً عن ذاكرة الأسلاف يُعدّ من ضرورات التدوين الذي اعتمدته هنا بما يُشبه كتابة المذكّرات.

كانت تجربة عام 1963 مهمّة، رغم قساوة الضربة وحجم الجريمة التي راح ضحيّتها خيرة قادة الحزب الشيوعي وفي مقدمتهم الشهيد حسين أحمد الرضي (سلام عادل) الذي تعود له المبادرة التاريخية في الساعات الأولى للانقلاب حين تمّ توزيع بيان مدوٍّ في شوارع بغداد يدعو فيه الناس وجماهير الحزب لمقاومة الانقلابيين لاستهدافهم منجزات ثورة 14 تموز 1958 التاريخية، كما وبادر في الصباح الأول من الانقلاب بالاتصال بالزعيم عبد الكريم قاسم ونقل له موقف الشيوعيين المتضامن معه في الدفاع عن مكاسب ثورة تموز، مطالباً إياه بتسليم السلاح إلى الجماهير المحتشدة أمام وزارة الدفاع للدفاع عن الجمهورية.

لكن الزعيم لم يُلبِّ طلبهم مع تقديره لمواقفهم الوطنية في الدفاع عن الثورة والوطن والأرض، الأمر الذي خلق جدلاً حول رفضه توزيع السلاح على الشيوعيين، وهنا يُطرح سؤال مهم: هل تردّد الزعيم قاسم في توزيع السلاح خوفاً من سفك الدماء أو توجساً من الشيوعيين في استلام السلطة؟؟ هذا ما يدعونا إلى العودة إلى الوراء والأخذ بنظر الاعتبار سياسة الزعيم قاسم تجاه

الشيوعيين مع ما ترافق من أحداث في الأيّام الأخيرة من عمر الثورة وموقفه الذي لا يتناسب مع حجم التضحيات التي قدموها للثورة والوطن ليبقى موقفه مثيراً للجدل.

وفي هذا السياق يروي العسكري والمرافق للزعيم جاسم العزاوي في مذكراته أن الزعيم عبد الكريم قاسم دعا خالد مكي الهاشمي والبعثيين إلى وزارة الدفاع وأوكل إليه مهمة آمر كتيبة المثنى للدبابات (الرابعة)، كما عيّن معاوناً له القومي خالد حسون فريد بعد أن أزاح عنها المقدم الشيوعي خزعل السعدي وزجّه في سجن رقم واحد بتهمة التحضير للانقلاب على حكومة عبد الكريم قاسم والشروع في انتزاع السلطة منه ومن صحبه، طالباً منه تغيير يوميات الكتيبة بعد أن حوّلها خزعل السعدي إلى خلية شيوعية وكانت تسمى آنذاك بالكتيبة الحمراء.

بعد سنوات ليست طويلة، ومن موقع هذه الكتيبة في أبي غريب، انطلقت الشرارات الأولى لانقلاب 8 شباط 1963، وعبر جهاز إرسالها تمّ بثّ البيان الأول للانقلابيين، ومن موقعها، انطلق أول سرب طيران لمنذر الونداوي ليدكّ مبنى وزارة الدفاع في باب المعظم، التي وصلها الزعيم تواً مع صحبه، ليلتحق به خزعل السعدي في مدينة الكاظمية حيث يقود المقاومة ضد الانقلابيين ودفاعاً عن الثورة ومكتسباتها، وما زال التاريخ عاجزاً عن التقييم الموضوعي والجريء لهذه الحقبة وعن تحديد المسؤوليات وفهم هذه المفارقات العجيبة.

اتصل الشهيد سلام عادل بقيادة الحزبين الوطني الديمقراطي والوطني التقدمي، كامل الجادرجي، والد المعماري العراقي رفعت الجادرجي، ومحمد حديد، والد المهندسة المعمارية المشهورة زها حديد وأعلنا تضامنهما في التصدي للانقلابيين، لكنهما لم يمتلكا القوة الفعلية في المشاركة الميدانية. تمكّن الانقلابيون من اعتقال هادي هاشم الأعظمي عضو سكرتارية الحزب، من خلال اعترافات كان قد أدلى بها حمدي أيوب العاني عضو لجنة بغداد

للحزب والذي اعتقل يوم 12 شباط أثناء خروجه من منزله في سيارة أجرة، حيث قاد الانقلابيين إلى بيت هادي هاشم الأعظمي.

يوم 10 شباط تراجعت المقاومة في مدينة الكاظمية بعد نفاد العتاد وعدم تلقّي المساندة، وكان من قادة المقاومة مع المقدم الشيوعي المتقاعد خزعل علي السعدي عضو التنظيم العسكري في الحزب، الذي قاد الجماهير والرفاق الشيوعيين في مقاومة الانقلابيين في مدينة الكاظمية، وبادر إلى صنع قنابل مولوتوف ليسيطر على شرطة النجدة في المدينة والاستيلاء على أسلحتها المختلفة حسب رواية جاسم العزاوي السكرتير الشخصي للزعيم عبد الكريم قاسم، والذي انقلب عليه في الساعات الأولى من إعلان الانقلاب ورواة آخرين معارضين للسعدي في مذكراتهم اللاحقة، ليتم اعتقاله في يوم 21 نيسان والإعلان عن إعدامه رسمياً يوم 11 أيار 1963 دون تسليم جثته.

أشاد الكثيرون ببطولة ومواقف الشهيد خزعل السعدي وشجاعته رغم عدم المساندة له وعدم القدرة على التوسع بعد أن حشد وعزز الانقلابيون جحافلهم في المدينة، كما ذاع صيت المقاومة البطولية في مدينة الكاظمية.

ضعُف، إلى حدود الانهيار المروّع، الرفيقان حمدي أيوب العاني وهادي هاشم الأعظمي عضو المكتب السياسي، ورغم مواقف الأخير البطولية في سجون النظام الملكي وشهرته بحفر الأنفاق والهروب من السجون وتعضيد مواقف الشيوعيين فيها، إلّا أنه قاد مفرزة من الحرس القومي إلى منزل الشهيد سلام عادل السرّي الذي انتقل إليه قبل يومين من المحاولة الانقلابية، وكان وحده الذي يعرف هذا المكان ليتم اعتقاله مع ستار مهدي المرشّح إلى اللجنة المركزية من أهالي مدينة بابل والذي كان موجوداً مع زوجته والطفل ابن سلام عادل الذي نجا بأعجوبة غير متوقعة لعدم معرفة الانقلابيين أنه ابن هذا المقاوم وإلّا لما تركوه حيّاً. وتم إعدام ستار مهدي مع سلام عادل، الذي اعتقل يوم 19 شباط ومات تحت التعذيب يوم 23 شباط من العام 1963.

قاد الأعظمي الانقلابيين أيضاً إلى بيوت جمال الحيدري وعبد الرحيم شريف ونافع يونس وجورج تلو وأبي العيس حيث اعتُقل البعض منهم والبعض الآخر بقي متخفياً داخل المنزل. ويذكر المرحوم ثابت حبيب العاني في كتاباته حول هادي هاشم الأعظمي ما مفاده أنه حين كانا سوية في موسكو للدراسة للحزبية قبل أحداث شباط عام 1963 وتكوّنت ملاحظات جدية من الرفاق السوفييت ومنا نحن الشيوعيون العراقيون حول الالتزام والضبط الحزبي. وقد أرسل قبل عودته إلى العراق تقريراً مفصلاً حول سلوكه في الدراسة الحزبية، ومع ذلك فقد تمّت ترقيته لعضو في سكرتارية قيادة الحزب الشيوعي العراقي بعد عودته إلى العراق.

وبالعودة إلى سلام عادل، فقد مات بطلاً في مواجهة جلّاديه وبات رمزاً وطنياً وقائداً شيوعياً يُحتذى به في النضال والمقاومة والشيوعية، وعن مواجهته البطولية وصبره وصموده، وهناك روايات عديدة حول استشهاده وهي تلك التي جاء بها الرفيق د. عبد الحسين شعبان في كتابه «سلام عادل ـ الدال والمدلول» حيث قام باستقصاء ومتابعة تفاصيل دقيقة لم يسبقه إليها أحد، وسلّط ضوءاً على ضعف أو عدم ذمة بعض الروايات سواء التي وردت في أحاديث بعض البعثيين أو في كتاباتهم، فضلاً عمّا ورد في رواية الرفيق آرا خاجادور وحسب اعتقاده إن الزمن وربما وهن الذاكرة أو تحرّكها بحكم العمر هو الذي كان وراء ذلك، ومع ذلك سنورد ما جاء في رواية يرويها (محمد زرقه) فلسطيني الأصل، وبعد سنوات طويلة من حدوث هذه الواقعة والذي كان ضمن تنظيمات الحرس القومي، ما مفاده: أنه في إحدى الليالي من شهر شباط، رنّ الهاتف في أقبية التعذيب وكان المتكلم شخصاً يطلب من المسؤولين في السجن الإبقاء على حياة سلام عادل وبأنه في الطريق إليهم شخصية مهمة، وكان علي صالح السعدي القيادي البعثي وأحد قادة الانقلاب. وعندما وصل السعدي إلى مكان الاعتقال السري، وجد الشهيد سلام عادل

مطروحاً على الأرض مضرّجاً بالدماء يلتقط أنفاسه الأخيرة. ويروي أنه أمسك بشعر هذا الأخير ورفع رأسه من شعره طالباً منه الاعتراف عن رفاقه وإصدار بيان يدين به موقف الشيوعيين من الانقلاب ويقدم له التهنئة بنجاح الانقلاب، مقابل إنقاذ حياته من الموت، فما كان من الشهيد سلام عادل إلّا أن بصق عليه من فمه الممتلئ بالدم والقيح من قساوة التعذيب، حينها أصدر القيادي البعثي علي السعدي أمراً بالإجهاز عليه.

وحسب روايته (علي السعدي) إلى الرفيق آرا خاجادور حين التقاه في براغ عام 1969، أنه أطلق حينها رصاصة الرحمة على حياة سلام عادل بعد أن مزقوا جسده واقتلعوا عينيه، وأنه بذلك أراد تخليصه من معاناة التعذيب ومن أوجاعه الكثيرة. وقد كانت نهايته طرداً من حزب البعث في المؤتمر القومي السابع المنعقد في دمشق يوم 10 شباط 1964. ومن بطولات أولئك الشيوعيين الميامين استمدينا قوتنا وعزّزنا مكانتنا بين الجماهير.

لم يثنِ عزمنا ما اقترفه البعثيون تجاهنا من وسائل ضغط وأساليب اعتقالات وتعذيب واستخدام الملاعب الرياضية ودور السينما والمنتديات الثقافية والاجتماعية أوكاراً للاعتقال والتعذيب الذي يمارسونهما على الشيوعيين بعد أن غصّت معتقلاتهم وسجونهم بأعداد هائلة منهم. فقد كان صراعنا معهم مخفياً، فهم لا يطمئنون إلينا ويضمرون حقداً دفيناً وذلك لتاريخ الشيوعيين في القيم والأخلاق والنضال. ونحن في المقابل كنا نعمل على إيصال صوتنا إلى قطاعات واسعة وإلى شريحة كبيرة من شعبنا وتبيان نواياهم السيئة بتدمير عراقنا وتسليط الضوء على تاريخهم المخزي الذي يشكل صفعة للضمير الإنساني.

# ملحق

## وثيقة تقييم حركة الأنصار التابعة للحزب الشيوعي العراقي في الفترة ما بين 1979 - 1988 [1]

### أولاً: ظروف انتقال الحزب إلى المعارضة

منذ قيام الجبهة الوطنية والقومية التقدمية 1973 حتى انفراط عقدها عملياً أواخر عام 1978، ارتبط حزبنا الشيوعي العراقي بعلاقات تحالفية رسمية مع حزب البعث العربي الاشتراكي الحاكم في العراق.

وكان ميثاق العمل الوطني للجبهة يجسد هذا التحالف ويحدد الأهداف المشتركة إلّا أن نهج الحزب الحاكم ونظامه ظل خلال فترة التحالف، وبالضدّ من محتوى ميثاق العمل الوطني للجبهة، يتّسم في الواقع العملي بالإرهاب البشع، تماماً كما كان قبلها.

وشهدت البلاد حملات إرهاب وحشية كانت تتركز على القوى القومية العربية حيناً وعلى الشعب الكردي وقواه القومية حيناً آخر. كما شهدت تصفيات جسدية واسعة داخل الحزب نفسه شملت العديد من أعضاء قيادته القطرية والقومية. ولم تخلُ فترة التحالف من ممارسة مثل هذه الإجراءات ضدّ حزبنا واحيانا بشكل واسع.

(1) ورقة أقرّها المؤتمر الوطني السادس للحزب الشيوعي العراقي الذي عُقد عام 1997 رأيتُ أن أضمنها كتابي هذا لارتباطها بتجربتي (المؤلف).

عكست وثائق حزبنا الصادرة عن المؤتمر الوطني الثالث ـ عام 1976، خاصة التقرير السياسي، جوهر نهج الحزب الرسمي تجاه النظام في حينه ولاحقاً في فترة ما بعد المؤتمر والموقف من الحزب الحاكم قبل الانتقال إلى المعارضة.

وورد في التقرير السياسي الصادر عن المؤتمر ما يشير إلى إمكانية انتقال حزب البعث إلى مواقع الاشتراكية العلمية وطموح الحزب للسير معه جنباً إلى جنب صوب الاشتراكية.

وتركت هذه الرؤية تأثيرها في منظمات الحزب خالقة جواً من التفاؤل بمستقبل العلاقة مع الحزب الحاكم وبالنظام وباعثة روح الثقة بهما. وكان من شأن ذلك أن أشاع روح الخدر تجاه الحزب الحاكم وأجهزة النظام القمعية ومخططاتها المعادية لحزبنا ولمصالح الشعب.

وانعكس هذا النهج أيضاً في عدم وضع القيادة أية خطة جادة للانتقال إلى المعارضة عندما يتطلب الأمر ذلك.

وفي حين كانت وثائق حزبنا الشيوعي تعبّر عن التفاؤل والطموح لتعزيز العلاقة مع الحزب الحاكم، وراح النهج الإرهابي لهذا النظام يتفاقم، ويتطور اكثر فأكثر باتجاه تنويع وتعزيز أجهزة القمع وشبكاتها وتشريع العديد من القوانين الفاشية ومحاولات تأطير المجتمع وتبعيثه.

لقد كان منطقياً أن يتمّ التوصل في حينه إلى الاستنتاج باحتمال الافتراق بين حزبنا وحزب البعث الحاكم ـ إن لم نقل حتمية الافتراق ـ واحتمال عدم إمكان صيانة منظمات الحزب وأعضائه وبلوغ أهداف حزبنا الأساسية دون اللجوء إلى العنف المضاد كأسلوب رئيسي لمواجهة عنف النظام. وكان هذا يستوجب بالتالي وضع صيانة شاملة ودقيقة واستثمار كل فرصة ممكنة لإعداد مستلزمات التغيير في أسلوب الكفاح واتخاذ الإجراءات اللازمة لهذا الغرض.

إن غياب مثل هذه الخطة مكن النظام من توجيه ضربات مؤذية للحزب ومنظماته إبان الهجوم الغادر عليه في 1977 ـ 1978، مما أثّر سلباً على الكفاح اللاحق وعلى حركة الأنصار التي تبنّاها الحزب ومارسها بعد عام 1978.

لقد واجه الحزب في عامي 1977 ـ 1978 هجوماً عامّاً على منظماته، وتحولت المظاهر والإجراءات الإرهابية التي كانت تبرز هنا وهناك وفي هذه الفترة أو تلك، إلى نهج ثابت ضمن مخطط متكامل للقضاء على الحزب ومنظماته، وهو غير مهيأ لمواجهة ذلك ودرئه. (وقد تبين من الوثائق الأمنيّة التي حصل عليها الحزب بعد انتفاضة آذار 1991 أن الخطط والإجراءات الأمنيّة والسياسية للقضاء على الحزب وضعت منذ ما قبل منتصف السبعينيات).

وكانت الدولة تمتلك إمكانيات مالية هائلة وإعلامية واسعة وأجهزة أمنيّة ومخابراتية متعددة ومتطورة، وقد جمعت أكداساً من المعلومات حول منظمات الحزب وأعضائه. ثم أن أمر النظام لم يكن قد افتضح بعد وخاصة لدى أصدقاء الحزب في الخارج.

في أيار 1978 أقدمت السلطة على إعدام 31 مواطناً من العسكريين والمدنيين شيوعيين وأصدقاء للحزب بحجج واهية، وقامت بحملات ملاحقة واعتقالات واسعة ومتواصلة، ومارست أجهزة النظام القمعية أشكالاً متنوعة من التعذيب والتصفية الجسدية وانتزاع البراءات في مختلف المناطق، واقترن كل ذلك بحملة إعلامية تضليلية واسعة ضد الحرب.

وكانت حملة الإرهاب والتضليل ضدّ الحزب قد تصاعدت في أعقاب اجتماع لجنته المركزية (ل. م.) في آذار 1978، الذي وجّه نقداً شديداً للسلطة والحزب الحاكم. وفي حزيران عام 1978 عقد المكتب السياسي (م. س.) للحزب اجتماعاً كُرِّس لبحث قضية الصيانة واتخاذ الإجراءات الضرورية لدرء المخاطر عن الحزب. آنذاك كان الهجوم على منظماته قد توسع فيما ضاقت

إمكانية اتخاذ تدابير الصيانة. وكان ما قرر الاجتماع اتخاذه من الإجراءات دون مستوى تطور الأحداث ودون متطلبات الوضع بكثير، وفوق ذلك فإنه لم ينفّذ بالشكل المطلوب.

في خضم هذا الوضع المعقد والصعب، بدأ الحزب بالتراجع الاضطراري وبشكل مرتبك متنقلاً إلى العمل السري، وقد احتفظ بمقراته وجريدته العلنية وبوزيريه وأعضاء المجلس التشريعي في كردستان، وببقائه الشكلي في الجبهة غطاء للتراجع والانتقال إلى المعارضة.

وطبيعي أن السلطة لم تترك للحزب مجالاً للانتقال إلى المعارضة العلنية أو شبه العلنية بل أنها واصلت حملاتها الوحشية الهادفة إلى القضاء التام على الحزب ومنظماته.

وتحت تأثير هذه الحملات ساد منظمات الحزب جوّ من البلبلة الفكرية والارتباك التنظيمي، وأصبحت المنظمات تعيش حالة من الضياع والتشتت.

## ثانياً: بدايات الحركة الأنصارية

في ظل هذه الأجواء برزت فكرة اللجوء إلى العمل الأنصاري المسلح في كردستان لحماية الكادر والرفاق عموماً وإبعادهم عن غدر أجهزة النظام. وانطلقت هذه الفكرة من إدراك باستحالة بقاء كادر الحزب القيادي وجمهرة واسعة من الأعضاء في المدن دون التعرض لخطر التصفية الجسدية والسياسية.

ولم تحسم قيادة الحزب رسمياً قضية الانتقال إلى العمل الأنصاري في تلك الظروف، نظراً لاستحالة عقد اجتماع (ل. م.)، إلّا أن عدداً من الرفاق في (ل. م.) ومن الكادر المتقدم الموجودين داخل الوطن آنذاك بادروا إلى تقديم المقترحات باعتماد العمل الأنصاري في منطقة كردستان دون تصور متكامل لأبعاد هذا الأسلوب وشكل الانتقال إليه.

واتُّخذت خطوة أولية بوجهتي الانتقال إلى العمل السري والأنصاري.

ولم يتم اللجوء إلى مواقع البيشمركًة في الجبال في تموز 1978 بمعزل عن مفاتحة مسبقة لبعض العناصر القيادية المجربة في الحركة الأنصارية وتشخيص بعض العناصر المؤهلة في هذا المجال وإبعادها عن خطر الوقوع في قبضة السلطة وتحديد بعض المواقع الملائمة للعمل الأنصاري في الإقليم وتوفير بعض المستلزمات الأولية البسيطة لهذا العمل.

وقد نشأت النواتات الأنصارية الأولى بجهود دؤوبة وشاقة ونكران ذات، من قبل قياديي وكوادر وأعضاء الحزب الذين ساهموا في التهيئة وتوفير مستلزمات العمل الأنصاري من سلاح وتدريب ومال وجهاز بثّ إذاعي إلى جانب حرص مجموعة الرفاق وإخلاصهم للحزب وتفانيهم في سبيل أهدافه. وقامت قيادة الحزب أيضاً بمفاتحة الأشقاء في أكثر من بلد، الذين قدموا دعمهم ومشورتهم للحزب سواء كانوا مع هذا النهج أم ضده.

وكانت الظروف الموضوعية بمجملها ملائمة نسبياً لهذه الانتقالة بالرغم من أن الحزب لم يكن مهيأً لمثل هذا العمل الكبير.

وكانت ظروف كردستان الجغرافية والقومية ملائمة إلى جانب تواجد القوى المسلحة ـ البيشمركًة (ب ـ م) التابعة للقوى الكردستانية وقواعدها في الشريط الحدودي. كما كانت لحزبنا تجارب لا بأس بها في مجال العمل الأنصاري في كردستان.

وقد ساهمت التغيرات السياسية الجذرية في الوضع في إيران عام 1978، وسقوط نظام الشاه ـ حليف بغداد أوائل عام 1979، وتحرر مناطق واسعة من كردستان إيران، وسيطرة الحزب الديمقراطي الكردستاني الإيراني الصديق عليها في خلق ظهير جيد لحركتنا الأنصارية، بالرغم من انه لا يرتقي إلى مستوى إمكانيات دولة كقاعدة خلفية.

وهكذا توجهت المجموعات الأولى من الأنصار إلى الجبل أواخر عام 1978 وأوائل عام 1979، ولكن في أوائل تشرين الثاني عام 1981 فقط تقرّر رسمياً تبني الكفاح المسلح كأسلوب رئيسي في النضال من اجل الإطاحة بالنظام الدكتاتوري وإحلال البديل الديمقراطي.

### ثالثا: المرحلة الأولى من الحركة الأنصارية

إن حركة الأنصار المسلحة في كردستان هي تجسيد للكفاح المسلح، وهي شأن سائر أشكال وأساليب الكفاح الأخرى تخضع لاستراتيجية الحزب ولنهجه العام، لأهدافه وتحالفاته. ويمكن اعتبار الفترة التي نتناولها، المرحلة الأولى من حركة الكفاح المسلح.

ولقد توجهت المجموعات الأنصارية الأولى إلى الجبال وهي تفتقر إلى المال والسلاح والمؤن، وتعاني من الارتباك وضعف الثقة بقيادة الحزب، ورغم ذلك فإن العمل أخذ يتسع ويتوطد وتزايد الجهد لتوفير المستلزمات المادية والفنية وإعداد الكادر المدرب بالاستفادة من الدعم الأممي ومن مساعدة المقاومة الفلسطينية وبعض القوى العربية التقدمية. واتسم هذا العمل بروح جهادية عالية ونكران ذات كبير من قبل الرفاق الذين ثبتوا النواتات الأولى، ولعبت مفرزة الطريق دوراً بارزاً وبطولياً في نقل الرفاق والسلاح من الخارج إلى الداخل.

لقد اقتصر العمل الأنصاري في هذه الفترة على بناء المواقع الأنصارية وتعزيزها وتشكيل مكتب عسكري، وتنظيم الأنصار المتواجدين في تشكيلات أنصارية وتدريبهم على السلاح، استناداً إلى تجربة الحزب السابقة. ولم يكن لدى الأنصار في بداية تشكيل الحركة سوى بضع قطع من السلاح.

ويعود تأريخ نشاط أول مفرزة شيوعية أنصارية إلى نيسان 1979. وتمّ تحريك المزيد من المفارز الأنصارية نحو العمق في كردستان بهدف النشاط الإعلامي

والتنظيمي وإيصال الرفاق الملتحقين إلى القواعد، واضطرت المفارز الأولى هذه إلى الدخول في معارك غير متكافئة وغير محسوبة مع العدو، ممّا سبب وقوع ضحايا غالية. وكانت ملحمة (قزلر) أولى هذه المعارك البطولية.

وفي الأيام الأولى وضع الرفاق في الحركة الأنصارية نظاماً داخلياً اتسم بالتشدّد بالطابع العسكري الذي يُفقد الحركة الأنصارية المرونة المطلوبة.

وتكونت (3) مراكز أنصارية في (3) مناطق اعتمدت أساساً على أبناء المناطق نفسها وعلى الشكل التالي:

أ ـ قاعدة حلبچة لقيادة منطقة هورامان والسليمانية، تأسست في 31/ 3/ 1979.

ب ـ قاعدة بهدينان لقيادة منطقة دهوك ونينوى، تأسست في 5/ 10/ 1979.

ج ـ القاعدة الأساسية في ناوزنگ التي نشأت قبل ذلك، حيث كان مقر القيادة الحزبية، بعد أن توفرت بعض مستلزمات العمل من مال وسلاح وكادر.

وتعززت ل. هندرين (التي تشكلت من بعض أعضاء مكتب إقليم كردستان، وهم أعضاء في (ل. م.)، وبينهم رفاق قدامى كانوا يعملون خارج منطقة كردستان، وأخذت على عاتقها مهمة قيادة العمل الأنصاري) بعناصر قيادية أخرى من أعضاء (ل. م.)، وأعيد توزيع العمل أكثر من مرة تبعاً للمهام الأساسية: المكتب العسكري، مكتب إقليم كردستان، الإعلام، العلاقات... إلخ.

وجرى الاهتمام بتطوير العمل الإعلامي وبدأ صدور جريدة «ريكاي كوردستان» ونشرات إخبارية وأنصارية، كما توفرت إذاعة وبدأت تبثّ باللغتين العربية والكردية وصدرت جريدة «نهج الأنصار» فيما بعد باللغتين العربية والكردية أيضاً، وفي فترة لاحقة تمّ نقل جريدة الحزب المركزية «طريق الشعب» من الخارج إلى كردستان.

ولم تكن جولات المفارز في العمق تهدف إلى خوض المعارك مع قوات السلطة ولكنها اضطرت إلى خوض معارك مع قوات النظام العسكرية

الكبيرة نسبياً والمدعومة بالطائرات. وعزّز ذلك معنويات الرفاق والجماهير لما شهدته المعارك من بطولات نادرة، دوت أصداؤها في مناطق واسعة من كردستان ورفعت من هيبة الحزب وبعثت الأمل لدى الجماهير.

وبرزت في وقت مبكر من العمل التناقضات بين المسؤولين العسكريين والمستشارين السياسيين في الوحدات الأنصارية وكذلك بين العاملين في المجال الأنصاري والناشطين في مجال التنظيم المدني. ونجم عن هذه التناقضات التقليل من أهمية العمل التنظيمي المدني والخلل في موازنة وتنسيق العملين الأنصاري والتنظيمي بسبب الظروف الموضوعية أو لأسباب ذاتية. ولم يتمكن الحزب من حلها وتذليلها لاحقاً.

وتميزت الحركة الأنصارية التابعة لحزبنا منذ البدء بتركيب أنصارها المتنوع وضمها منتسبين من مختلف القوميات، وبسرعة تطورها التي عكست هيبة الحزب ونفوذه وعلاقاته الأممية. وقد نالت احترام الأحزاب والقوى الأخرى والجماهير.

ولأول مرة في تأريخ نشاط الحزب الأنصاري شاركت المرأة في الكفاح المسلح، فقد التحقت عشرات من الرفيقات في صفوف الأنصار، ومنهن من زاولت العمل العسكري ضمن مفارز قتالية وعملت أخريات في مجالات المخابرة والتمريض والإعلام.. إلخ، ومنهن من استشهدن في طريق الكفاح فجسدن التضحية والفداء أمثال الشهيدتين أحلام وأنسام.

على صعيد آخر، وفي هذه الفترة من مسيرة الحركة الأنصارية وقعت أحداث سياسية وعسكرية هامة تركت آثارها على الحركة وعلى مسارها وتقييمها. وظلت هذه التأثيرات ملحوظة طوال فترة الحركة. وكان في المقدمة من تلك الأحداث الاصطدامات المسلحة بين الأطراف الكردية.

وقد انغمر حزبنا في تلك الفترة في التوسط لحل النزاعات بين الفصائل

القومية المسلحة: الاتحاد الوطني الكردستاني (اوك) والحزب الديمقراطي الكردستاني (حدك)، وبين (اوك) والحزب الاشتراكي (حسك)، وبين (حدك) والحزب الديمقراطي الكردستاني الإيراني (حدكا).

وأدت الخلافات الحادة فيما بين بعض الأطراف الكردستانية إلى وقوع اصطدامات مسلحة لاحقاً بين قوات الجبهة الوطنية الديمقراطية (جود)، فكان أن انجرّ حزبنا (الذي كان عضواً في جود إلى جانب حدك وحسك) لأول مرة إلى الدخول طرفاً في الصراع العسكري بين القوى والأحزاب الكردية، وكان لذلك أثره السلبي الكبير الذي استمر لفترة طويلة على حركة الأنصار التابعة للحزب.

وتجدر الإشارة من ناحية ثانية إلى أن إشعال النظام الحرب على إيران في 22/ أيلول/ 1980 أضعف إلى حد ما وجود وانتشار قواته في مساحات واسعة من كردستان. وساعد هذا على خلق ظروف موضوعية لصالح توسيع حركة الأنصار ونشاطاتها.

## رابعاً: الفترة من تشرين الثاني 1981 حتى أيار 1983

في أوائل تشرين الثاني عام 1981 وفي اجتماع (ل. م.)، للحزب تقرر رسمياً تبني أسلوب الكفاح المسلح باعتباره الأسلوب الرئيسي في الكفاح من اجل إسقاط النظام الدكتاتوري الشوفيني في بغداد وإقامة البديل الديمقراطي، وتبني شعار تعريق الكفاح المسلح.

وظلّ التخطيط لتعريق الكفاح المسلح ضعيفاً وأثار تفسيرات متباينة، وقد أخفق الحزب في تحقيقه، لأنه كان فوق طاقته، فتنفيذه كان يتطلب تنظيمات حزبية متينة غير جريحة واستعدادات مدروسة وظروفاً ملائمة نسبياً، هذا إلى جانب اندلاع الحرب العراقية ـ الإيرانية التي شملت عملياتها مناطق واسعة في الوسط والجنوب خصوصاً مناطق الأهوار، فضلاً عن ضرورة فهم أن

الكفاح المسلح كأسلوب عنفي اشمل من حركة الأنصار التي تعتبر أحد أشكال تجسيده.

وتعرضت محاولات الاتصال بما نشأ في الأهوار وأرياف الفرات من تجمّعات ومقاومة مسلحة للفشل بفعل أسباب عدة، منها استشهاد بعض الكوادر العاملة في تلك المناطق وضعف تنظيماتنا وتبعثرها واستمرار الضربات الإرهابية لها من قبل أجهزة السلطة الأمنيّة، إضافة إلى الضعف في تنفيذ هذه الوجبة.

وبالارتباط مع قرارات (ل. م.) في اجتماع تشرين الثاني عام 1981، انتقل مركز عمل (م. س.) إلى كردستان العراق حيث مناطق العمليات الأنصارية، وحلّ (أي م. س.) محل ل. هندرين في قيادة العمل الأنصاري. وأعيد تشكيل المكتب العسكري على نفس الأسس القديمة، كما أعيد توزيع العمل فيه.

وشهدت هذه الفترة التحاق المزيد من أعضاء الحزب بالأنصار لا سيما ممن تركوا مناطق البلاد المختلفة ولجأوا إلى الخارج وتدربوا على السلاح.

وجرى إثقال قواعد الأنصار بغير المحاربين وأحياناً بالعوائل التي لم تتحرّر القواعد الأنصارية منها حتى عندما اقترب خطر استخدام الأسلحة الكيمياوية.

وكان انتقال مركز عمل (م. س.) إلى كردستان ذا تأثير إيجابي هام، إلّا أنه في مجرى العمل برزت بعض الجوانب السلبية بسبب اضطرار (م. س.) للتدخل في أمور كان يمكن تركها لهيئات أخرى.

ومن جانب آخر فإن المكتب العسكري الذي تكون عام 1981، لم يتشكل أساساً حتى بعد تغيير تركيبه لقيادة العمليات العسكرية الميدانية أو التخطيط لها، وان تركيب الهيئات القيادية للقطاعات الأنصارية الثلاثة اخذ بنظر الاعتبار هذا النقص، وسعى إلى معالجته ولو بصورة محدودة.

كما أن الأحداث والتطورات لم تسمح بتطور دور المكتب العسكري عددياً

ونوعياً وتكوين التشكيلات المساعدة له لكي يبلغ مستوى إمكانية التخطيط العسكري للعمليات العامة والخاصة وإصدار التوجيهات المركزية في القضايا المختلفة. فلم يعقد غير اجتماع عسكري مركزي عام واحد، وظل دوره يقتصر على إصدار التوجيهات الإدارية والقيام بالقليل من الإشرافات وإصدار جريدة «نهج الأنصار».

وخلال هذه الفترة تعززت الحركة الأنصارية بشكل محسوس وتطورت عددياً، وبالدرجة الأساسية اعتماداً على مجيء الرفاق من الخارج، وبدرجة أقل من الالتحاقات من الداخل والمنطقة. وتطورت إمكانيات الحركة من حيث المال والسلاح ومن الناحية النوعية والتكتيكات الأنصارية، وخاضت المعارك بمعنويات ومستويات جيدة وبروح جهادية عالية وحقّقت بعض الانتصارات في مجال العمل الأنصاري. وتوسيع نطاق الفعاليات الأنصارية التي وصلت حتى إلى داخل بعض المدن الكردستانية، واقترن ذلك بنشاطات لمفارز أنصارية داخل المدن نفسها (مدينة أربيل، بعض مراكز الأقضية، المجمعات السكنية القسرية) وأصبحت حركة الأنصار قوة أعادت هيبة الحزب ليس فقط عند الأصدقاء والأشقاء، بل أيضاً لدى الأحزاب والقوى المعارضة الأخرى التي تتعامل مع الحزب إلى حدّ بعيد من خلال تلمس قوة حركته الأنصارية المسلحة، كما عززت هيبة الحزب لدى جماهير الشعب، ورفعت من معنويات الرفاق والجماهير وبددت مشاعر خيبة الأمل والإحباط ومخاطرهما. ومن الأمثلة العديدة على الفعاليات المذكورة عملية الطريق الدولي في منطقة بهدينان عام 1981.

ولعبت حركة الأنصار أيضاً، إلى جانب قوى الأحزاب الكردستانية دوراً بارزاً في استنهاض الجماهير في المنطقة وفي انتفاضتها أعوام 1982 و1984 و1987.

وأصبحت مناطق الحركة المسلحة ملاجئ للرفاق والمواطنين وحتى الجنود الهاربين ممن تهدد المخاطر حياتهم.

والى جانب هذا وفرت الحركة الأنصارية إمكانية افضل لممارسة النشاط الإعلامي وبشكل جيد نسبياً باللغتين العربية والكردية (الإذاعة أو الجريدة والبيانات «ومناضل الحزب» و«نهج الأنصار»... إلخ) وإعلام الداخل بمواقف وسياسة الحزب وبشكل سريع نسبياً.

وشهدت قواعد الأنصار ومفارزهم، التي كان كثيرون من مقاتليها طلبة جامعيين وخريجين ومثقفين ومتعلمين آخرين، نشاطاً إعلامياً وثقافياً مرموقاً، تمثل في إصدار عشرات المجلات الدفترية، والنشرات الجدارية، وتنظيم الندوات والأمسيات القصصية والشعرية، وإقامة المعارض الفنية، والعروض المسرحية... إلخ، وتتوج هذا النشاط بتأسيس فرع لرابطة المثقفين الديمقراطيين العراقيين باسم «رابطة الكتاب والصحفيين والفنانين الديمقراطيين الأنصار في كردستان». الذي اصدر مجلته «ثقافة الأنصار» بمساعدة إعلام الحزب.

كما لعبت دوراً في إيجاد الصلة مع الخطوط التنظيمية الحزبية المنفصلة بعضها عن البعض في الداخل، وفي مركزتها بعيداً عن مناطق نفوذ السلطة وتحكمها، وبعيداً عن مخاطر ضرباتها الشاملة. ومكنت الحركة هذا المركز من تزويد الداخل بالمال والتوجيهات والأدبيات وأحياناً بالكادر، فيما كان المركز يستلم في المقابل الأخبار والمعلومات المختلفة والمساعدات الطبية والملتحقين الجدد (ولو بحدود معينة). وساهم ذلك أيضاً وبشكل واضح في رفع معنويات الرفاق في الداخل وحفزهم على إعادة بناء التنظيم.

إلّا أنه بجانب هذه الجوانب الإيجابية كانت هناك جوانب سلبية في حركتنا الأنصارية. فإذ لا يمكن للكفاح بصيغة العمل الأنصاري أن يستمر ويتصاعد دون تقديم الضحايا والشهداء، ويتوجب القول إن الحزب قدم ضحايا كبيرة ليس بسبب اعتماد هذا الأسلوب في الكفاح، وإنما لأسباب أخرى أبرزها:

أ ـ وقوع اصطدامات مسلحة مع قوات الاتحاد الوطني الكردستاني مما كان

يجب أن تقع بصرف النظر عن مسؤولية الاتحاد الوطني الكردستاني الأساسية في وقوعها.

ب ـ وقوع أخطاء في ممارسة العمل الأنصاري نفسه جراء عدم الالتزام بقواعده ومبادئه، ذهبت جراءها ضحايا في عدد من المعارك دون مبرر. مثال ذلك المعارك في سنكاو، بولقاميش، دربندخان، كرميان، سفين، وما حصل لمفرزة الطريق ومجموعة أربيل وغيرها.

وبشكل عام فإن ما تكرس من جهد ومال وكادر في مجال العمل الأنصاري كان أكبر مما هو ضروري بالمقارنة مع متطلبات إعادة بناء التنظيم في الداخل.

وبالرغم من تطور الحركة الأنصارية عددياً ونوعياً وتوسعها في فترة زمنية قصيرة، إلّا أنها أخفقت في التحول إلى حركة جماهيرية حقيقية تضم أكثرية من الجماهير اللاحزبية، مع الإقرار بوجود تباينات في هذا الميدان بين قاطع وآخر.

وكان من أسباب ذلك قيام النظام في وقت مبكر، بعد انتكاسة الحركة الكردية المسلحة عام 1975، بإنشاء حزام أمني في المناطق الحدودية وعزل أية حركة جديدة وذلك بتدمير القرى وإتلاف بساتينها ومزارعها وتهجير سكانها إلى مجمعات قسرية وتشريدهم وإغراء جمهرة واسعة من أكثريتهم ذات الأصول العشائرية (خاصة تلك التي التزمت جانب السلطة بسبب عداوتها مع بعض أوساط الحركة المسلحة) وتجنيدها في «أفواج الدفاع الوطني» وتوفير الامتيازات المادية لها مع اعتبار خدمتها في هذه الأفواج مجزية للخدمة العسكرية. هذا إلى جانب انعدام التكتيكات المرنة في التعامل مع هذه التشكيلات من جانب العديد من وحداتنا الأنصارية.

وأخفقت حركتنا الأنصارية في كردستان في احتواء جمهرة الجنود الهاربين وخاصة من المناطق العربية. والسبب يعود إلى ضعف تنظيماتنا الحزبية في

مناطق السلطة، وبالتالي ضعف دورها في توعية الجماهير وكسب هؤلاء الجنود، وبُعد مناطقها عن مواقع الأنصار في كردستان ومصاعب الظرف السياسي وقساوة الإرهاب في بقية أنحاء العراق.

## خامساً: أحداث بشت آشان

1 ـ وقعت في كردستان العراق أواخر السبعينيات وفي عقد الثمانينيات اصطدامات دموية عديدة بين الفصائل الكردستانية المسلحة، انجر إلى بعضها حزبنا أيضاً. والتي وقع من جرائها ضحايا بلغت أعدادهم اضعاف ضحايا القتال مع القوات المسلحة للنظام. وألحق ذلك أضراراً جسيمة بالنضال ضدّ النظام الدكتاتوري وترك آثاراً سلبية على الصعيدين الداخلي والعالمي. وكانت أحداث بشت آشان من أعنفها وأكثرها مأساوية.

لقد شهدت حركة الأنصار عام 1982 تطوراً بارزاً وملحوظاً كان من ابرز مؤشراته:

أ ـ نمو الحركة عددياً وتشكيل ثلاثة قواطع عسكرية.

ب ـ انتشار فصائل الأنصار في عموم المناطق المحررة (في سوران وبهدينان) وهو ما لم يتوفر للفصائل الأخرى بسبب الاحتراب فيما بينهما.

ج ـ تطور الخبرة العسكرية واستخدام بعض التكتيكات العسكرية الناجحة والحصول على نوعيات جيدة من الأسلحة، وعقد الموسعات السنوية في القواطع لمناقشة النشاط ورسم خطته العامة.

د ـ مشاركة عدد كبير من الشباب في الحركة بينهم ضباط يمتلكون المعارف والعلوم العسكرية، وآخرون من ذوي الكفاءات الفكرية والسياسية.

2 ـ توسيع نشاط الحركة الأنصارية التابعة لحزبنا إلى جانب نشاط الفصائل المسلحة لـ (ب. م.) اطراف (جود) الأخرى وامتد إلى داخل المدن الرئيسة.

ففي شباط 1983 دخلت مفرزة كبيرة نسبياً من مفارز حزبنا الأنصارية ضمت اكثر من 90 مقاتلاً إلى مدينة أربيل. وبعد أن أكملت مهمتها الأنصارية وانسحبت من المدينة، وقعت طلائعها في كمين نصبه مقاتلو (اوك) وكانت علاقات حزبنا جيدة آنذاك مع (اوك) ولم يكن قد مضى غير أيام على توقيع اتفاقية بيننا حول العمل المشترك ضد النظام.

وكان هذا الحادث بداية المعارك مع (اوك) في منطقة أربيل والتي تطورت بشكل مفتعل مع أطراف (جود) حتى أدّت إلى أحداث (بشت آشان).

وفي الواقع لم تكن أحداث أربيل مجرد عمليات عسكرية بين مسلحي (اوك) ومسلحي سائر أطراف (جود)، وإنما كانت في جوهرها عملية سياسية، إذ سبق أن رفضت أحزاب (جود) الدخول في مفاوضات مع قادة النظام الدكتاتوري عام 1982 بينما دخل (اوك) وحده في علاقات تفاوضية، استغلتها سلطة صدام.

وتطورت الاصطدامات المسلحة حتى بلغت قمتها في أحداث بشت آشان، بالتنسيق مع النظام وانتهت هذه الأحداث بانتقال (اوك) إلى خندق النظام. واستمر هذا التحالف الجديد فترة زمنية حتى انتهى عند عقد اتفاقية بين (اوك) و (حدك) في طهران وبرعاية إيران.

لم تكن منطقة بشت آشان موقعاً عسكرياً ملائماً. كانت فيها ثغرات جدية، وقد تمّ انسحاب المركز القيادي إليها اضطراراً بعد هجوم إيران نهاية عام 1982 على مواقع (نوكان)، التي كانت قاعدة للإعلام والطباعة والعمل القيادي الحزبي والعسكري وكانت القوات الحامية لهذه القاعدة (نوكان) قليلة.

وحشد (اوك) كل ما أمكنه قبل البدء بالهجوم على بشت آشان في أوائل أيار.

وسبق الهجوم جولة تحليق طيران استطلاعي وتخويفي وعملية قصف مدفعي حكومي لأول مرة على المنطقة، فيما تم تحشيد قوات مرتزقة النظام إلى جانب تحشيدات (اوك).

ودافع الأنصار عن القاعدة ببطولة نادرة وهم يعانون من الجوع والبرد القارص والثلوج الكثيفة وقلة العتاد وترامي أطراف المنطقة، قبل أن ينسحبوا منها.

لقد شكل الهجوم على بشت آشان ضربة عنيفة للحركة الأنصارية، أدت إلى خسائر بشرية كبيرة، تمثلت في استشهاد العشرات من الرفاق، والى خسائر جسيمة في المال والسلاح والأجهزة الإعلامية والفنية.

وكشفت هذه الضربة الخلل السياسي والفكري لدينا وضعف تحليلنا لطبيعة الأحزاب القومية وعدم كفاية إدراكنا لسرعة انتقالها من موقع لآخر. كما أكدت الخلل في الجانب العسكري والثغرات في موقع بشت آشان عسكرياً وضعف التحكم بحركة القواطع وتجميع قواها عند الضرورة.

وفي تقدير خاطئ بعد معركة بشت آشان الأولى خاض الأنصار أعمالاً عسكرية أخرى غير مبررة مع الحلفاء في جود (مع حدك خاصة) أدت إلى خسائر إضافية بشرية ومعنوية، وذلك في معارك بشت آشان الثانية صيف عام 1983 نفسه.

وأفضت جسامة الخسائر البشرية والمادية والخلل في الجانب السياسي والعسكري إلى إشاعة مشاعر خيبة الأمل والإحباط في صفوف الأنصار، وتسرب المئات منهم خارج كردستان، ولم ينجُ بقية الأنصار من الآثار السلبية التي تركتها الأحداث.

وسعى الحزب والهيئات المسؤولة والكوادر والأعضاء بحرص كبير لإيقاف التدهور، وجرى العمل بكل الإمكانيات لإعادة الأمور إلى مجراها الطبيعي وتجاوز آثار تلك الأحداث. وشكلت محاولات إعادة مفارز الأنصار إلى مناطق أربيل وقلعة دزة بعد الأحداث بصيغة مفارز صغيرة متحرّكة، شكلت رغم الخسائر التي قدمتها جزءاً من الجهود المتميزة لرفع معنويات الأنصار وتعزيز لحمتهم وإعادة عدد من الصلات الحزبية المقطوعة والاتصال

بالجماهير بمساعدة الكادر المحلي. علماً أن قسماً من مفارز أنصارنا كان قد بقي في قرداغ وكرميان وبهدينان بعد الأحداث، واجترح البطولات في المنطقة.

في هذه المرحلة أيضاً برزت جملة ظواهر أثّرت سلباً على حركتنا الأنصارية. فقد أخذت تظهر عواقب أحداث بشت آشان بالاقتران مع انتقال (اوك) إلى خندق النظام الدكتاتوري، في الخلافات وتصاعد الصراع داخل قيادة الحزب، وبدأت نشاطات مؤذية من جانب تكتلات معينة، انسلخت في وقت لاحق: (بهاء ومجموعته) و(باقر إبراهيم ومجموعته).

كما ازداد نشاط القوات الإيرانية داخل كردستان العراق وترك كل ذلك آثاراً سلبية على حركتنا الأنصارية.

## سادساً: الفترة ما بعد أحداث بشت آشان 1984 ـ 1985

بعد الانتكاسة التي أصابت الحركة الأنصارية في بشت آشان الأولى والثانية، حلت فترة مؤقتة قصية نسبياً من التراجع والارتباك جراء الأضرار الجسيمة التي لحقت بالحركة مادياً ومعنوياً، بدأ الأنصار خلالها بإعادة تنظيم انفسهم وحركتهم من جديد بما توفر لديهم من إمكانات مادية وبشرية قليلة وبنكران ذات منقطع النظير وإيمان بعدالة القضية التي حملوا من أجلها السلاح. وتواصل نشاطهم رغم همجية النظام والحصار المضروب حول مناطق الأنصار حتى بدأت الحركة بالانتعاش من جديد، فساهم الأنصار في دعم وإسناد الانتفاضة الطلابية في أربيل والسليمانية عام 1984 ولعبوا دورهم في حماية المؤتمر الوطني الرابع للحزب عام 1985 وقاموا بنشاطات واسعة وسطروا صفحات بطولية مجيدة في معارك شهرزور وقرداغ وكرميان وقلعة دزة ودربنديخان وكفري وطوزخرماتو والعمادية عام 1984 ـ 1985 وساهموا في تحرير مانكيش وسيطروا على مطار بامرلي لثلاث مرات وضربوا مواقع السلطة في القوش. كما ساهموا في معارك نريكين عام 1986 وقاموا بتحرير

ناحية نوجول واقتحام فوج سوتكي وقائمقامية شقلاوة ودخول جامعة صلاح الدين وخاضوا عشرات المواجهات والمعارك الأخرى، وتوجوا هذه المعارك بالالتحام بالانتفاضات والهبات الجماهيرية في مدن وقصبات كردستان ربيع عام 1987. وشهدت مناطق أربيل معارك بطولية واسعة مع قوات النظام من ابرزها معارك: حسن بك في دشت أربيل، وقرجوغ، وهيلوة، وبستانة، وهنارة... إلخ، واستطاعت فيها المفارز الأنصارية احتلال العديد من الربايا والسرايا والحصول على كميات من السلاح والعتاد وأجهزة الاتصالات والسيارات. ووصل الأمر حدّ خوض معارك جبهوية ضد قوات النظام، كما حصل في معارك (بنباوي ودول سماقولي) التي استمرت 11 يوماً. وحدث ذلك بعد رجوع (اوك) إلى خندق المعارضة، والذي ترك أثراً إيجابياً على مجمل الوضع والنضال الذي تخوضه الحركة الأنصارية.

ونجحت مفارزنا الأنصارية في مناطق أربيل وكرميان خلال ذلك في مقاومة إحباط الضغوط العسكرية الرامية إلى إجبارها على ترك تلك المناطق، والتي كانت تتعرض لها ليس فقط من جانب قوات السلطة، بل أيضا من طرف قوات (اوك). علماً أنها لم تكن تعمل إلّا على مقاتلة قوات السلطة، باعتبار أن (اوك) طرف من أطراف المعارضة.

وقد ساهمت بكفاحها البطولي سابق الذكر وصمودها في مناطق نشاطها في تقوية موقف الحزب خلال مفاوضاته اللاحقة مع (اوك) التي تتوجت بإحلال السلام.

وقد واجهت حركة الأنصار الآلة العسكرية الجهنمية للنظام الدكتاتوري في هجماتها قبل فترة إيقاف الحرب العراقية ـ الإيرانية وبعدها في مواجهات باسلة وفي معارك مختلفة شملت كافة أجزاء كردستان في مناطق سوران وبهدينان رغم عدم التكافؤ في ميزان القوى واستخدام النظام الأسلحة الفتاكة الكيمياوية والجرثومية والفسفورية ضدّ الجماهير والحركة

الأنصارية. وكان من أخطر الضربات التي وجهت آنذاك ضربة الطيران الحربي الكيماوية لمقر قاطع بهدينان يوم 5 حزيران 1987 والتي أصيب فيها ما يقارب 150 نصيراً.

## سابعاً: العلاقات التحالفية

ما أن وصلت الطلائع الأولى لأنصار حزبنا الشيوعي العراقي إلى المواقع الجبلية حيث قواعد القوات المسلحة (ب، م.) للأحزاب الكردستانية، حتى وجد الرفاق الترحيب الحار منها. ولكنهم وجدوا في ذات الوقت، مع الأسف الشديد، الصراعات الدموية فيما بينها، مما دفع الحزب إلى رفع شعار وقف اقتتال الأخوة، إلى جانب تكوين الجبهة كخطوة أولى نحو إقامة التحالفات الجديدة. إلّا أن تلك الصراعات عرقلت عقد أي شكل من أشكال التحالفات والجبهات المرجوة، وحالت دون عقد الاتفاق الرباعي بين (اوك) و(حسك) و(حدك) و(حشع/ منظمة إقليم كردستان)، هذا الاتفاق الذي اقترحه هندرين عام 1980 على الأطراف المذكورة في لقاءات ثنائية، وقدمت بصدده صيغة مكثفة لمسودة برنامج الجبهة الوطنية الديمقراطية التي كان يمكن تحويلها إلى الجبهة الكردستانية منذ ذلك الحين.

وجراء هذه الصراعات انبثقت الجبهة الوطنية القومية الديمقراطية (جوقد) دون السماح لـ (حدك) بالمشاركة فيها رغم مطالبة حزبنا و(حسك) بذلك، مما دفعهما لإقامة (جود)، بالتعاون مع (حدك)، ورافقت ذلك ملابسات ومشاكل لم يجر حلها بمرونة ومن منطلق الحرص على توحيد القوى الكردستانية والمعارضة العراقية. وانجر الحزب بالتالي إلى الاصطدامات مع (اوك) كطرف في (جود): في قرية ورتية عام 1981، أحداث بشت آشان الأولى ثم الثانية عام 1983 ومعارك سفين عام 1984 وبعض المعارك المتفرقة الأخرى، وقدم خلال ذلك ضحايا غالية غير قليلة وأثرت هذه الأحداث سلباً

على حركتنا الأنصارية التي لم تنبثق إلّا لمحاربة النظام الدكتاتوري في بغداد وللمساهمة في الإطاحة به.

إن الانقسام الذي شهدته القوى المسلحة في كردستان والصراعات الدموية التي امتدت لسنوات، حتى عقد الجبهة الكردستانية عام 1988 بين ذات الأطراف المتصارعة بالأمس، ألحقت أضراراً جسيمة بحركة المعارضة العراقية وخاصة بحركة التحرر القومي الكردي وبسمعتها، وأثرت سلباً على دعم الرأي العام لها وعلى مزاج الجماهير وبعثت اليأس في أوساطها.

وكان النظام الدكتاتوري في بغداد قد سعى وكرس كل جهده طوال سنوات من أجل الوقيعة بين أحزاب وقوى المعارضة، ومن خلال المناورات والمفاوضات، ومن خلال الاندساس والتضليل ونجح في ذلك إلى حد بعيد اكثر من مرة، مع الأسف الشديد. ولا بد من الإشارة إلى الدعم الكبير والتعاون المشترك مع الأطراف الكردية المناضلة في كل من إيران وتركيا، التي نسج الحزب وحركته الأنصارية علاقات نضالية جيدة ومتينة مع العديد منها.

## ثامناً: الحرب العراقية ـ الإيرانية

من الأحداث البارزة والمؤثرة على الحركة الأنصارية اندلاع واستمرار الحرب العراقية ـ الإيرانية التي كانت لها تأثيرات متناقضة ومتباينة. في 22 ايلول عام 1980 اعلن النظام الحرب على إيران وبذلك كشف بصورة ملموسة عن عدوانيته. وجراء الحرب اضطر النظام الدكتاتوري إلى تكريس القسط الرئيسي من إمكانيته المالية والدعائية والعسكرية ضدّ إيران، ولم يعُد يمكنه الانفراد بالحركة الأنصارية. وقد اضطر إلى سحب الكثير من الربايا المزروعة في كردستان العراق، مما سهل تغلغل القوات المسلحة الكردية (ب، م.) وقوى الحركة الأنصارية التابعة لحزبنا إلى العمق في كردستان، وأصبح نشاطها يمتد إلى الكثير من المجمعات القسرية وحتى مدينة أربيل.

لقد وضعت الحرب بعض اطراف المعارضة العراقية في مواقع متقاربة واحياناً متطابقة، مع إيران رغم تناقض أهداف إيران مع أهدافها ولو بدرجات متباينة، ومن هنا أصبحت إيران تتعامل مع القوى المسلحة للأحزاب الكردستانية كقوى حليفة لها موضوعياً، وأخذت تعمل على تلبية بعض مطالبها في مداواة الجرحى وشراء المؤون وأحياناً نقل السلاح عبر أراضيها وتقديم بعض المساعدات المادية لبعضها. وكانت إيران تستهدف من وراء ذلك احتواء القوى الكردستانية وفرض شروطها عليها، إلى جانب الاستفادة من محاربتها لنظام صدام حسين.

وفي مرحلة معينة دخلت القوات الإيرانية أرض كردستان العراق، وتداخلت تحركاتها مع تحركات بعض القوى المسلحة للأحزاب الكردستانية وتجاوز الأمر أحياناً مجرد التداخل، مما أساء إلى سمعة الحركة التحرّرية الكرديّة، وأثير لغطٌ بأن استخدام الأسلحة الكيمياوية والعمليات البربرية على بعد مئات الكيلومترات من الحدود ومن القوات الإيرانية مردّه تعاون القوى الكردستانية مع إيران.

وتطورت علاقات بعض هذه القوى مع إيران إلى حد التعويل على الحرب وعلى استمرارها في إسقاط النظام بعيداً عن التقدير بأن سقوط النظام على أيدي القوات الإيرانية لن يوصلنا إلى أهدافنا الأساسية في إقامة نظام ديمقراطي يقرّ بالحقوق القومية المشروعة للشعب الكردي.

إن هذا الوضع لعب دوراً مخدراً أدى إلى عدم التهيؤ لاتخاذ أية إجراءات من قبل بعض القوى الناشطة في كردستان في حالة توقف الحرب. وانتهى الأمر إلى مباغتتها بوقف الحرب، وإلى الحاق أضرار جسيمة بحركتنا المسلحة.

إن موقف الحزب من الحرب العراقية ـ الإيرانية وإدانته لها ومطالبته بوقفها

الفوري ظل ثابتاً في مختلف مراحلها، ولم يعتمد الحزب على هذه الحرب لتحقيق أهدافه. فقد سبق له أن رفع شعار إسقاط السلطة قبل اندلاعها.

وارتباطاً بذلك وبموقف إيران المعادي للشيوعية لم تتطور علاقتنا معها، كما لم تستفد حركتنا الأنصارية منها، بل ساءت العلاقات أكثر مع دخول القوات الإيرانية وبعض القوى الموالية لها أراضي كردستان، حيث اضطررنا إلى الانسحاب من تلك المناطق، مما ترك آثاراً سلبية على حركتنا الأنصارية.

وفيما يتعلق بتركيا، فقد كانت لها مصالحها مع النظام واتفاقاتها الأمنيّة لحماية الحدود، كما كانت لها مخاوفها من تطور الحركة القومية الكردية وتحقيقها أهدافاً قومية ديمقراطية، ولذا استمر تأثيرها السلبي على الحركة الأنصارية وازداد في فترات معينة، وخاصة إبان التدخل العسكري (التركي) في أيار 1983 في بهدينان.

## تاسعاً: انتكاسة الحركة الأنصارية

يبدو لأول وهلة أن الحركة الأنصارية أخفقت في النهوض بدورها في الإطاحة بالنظام الدكتاتوري بسبب من توقف الحرب العراقية ـ الإيرانية واستخدام الأسلحة الكيمياوية.

ولكن الحقيقة هي أنه لم يكن بمقدور الحركة الأنصارية في كردستان العراق ولا الكفاح الممكنة الأخرى فالحركة الأنصارية رغم أهميتها ليست إلّا جبهة من جبهات النضال، تصب جهودها الكفاحية في مجرى الكفاح التاريخي العام للشعب بمختلف الأشكال والأساليب في سبيل الإطاحة عاجلاً أو آجلاً.

لقد قامت الحركة الأنصارية وبدأ الكفاح المسلح في كردستان قبل أن تنشب الحرب. ولم تكن الحركة تستند إلى هذه الحرب في ظهورها وتطورها، كما أنها ظلت تتواصل في نشاط مستمر محسوس لأكثر من عام، ورغم استخدام الأسلحة الكيمياوية في أكثر من موقع وبنطاق واسع نسبياً.

لقد اختل توازن القوى في الحرب العراقية ـ الإيرانية لصالح العراق جراء الموقف الدولي، وتعززت إمكانياته العسكرية وأسلحته الكيمياوية بدعم دولي، مما أدى إلى إجبار إيران على الموافقة على وقف الحرب.

وهيأ إيقاف الحرب نفسه ظرفاً ملائماً داخلياً ودولياً للتركيز على كردستان، وقد استغل النظام ظروف تلك الحرب وتوقفها فاستخدم الأسلحة الكيماوية وأقدم على عمليات الأنفال، مما أثر على الكفاح المسلح معنوياً وعملياً.

وقد فوجئت بعض القوى التي كانت تعول على إيران بموقفها عندما قبلت بوقف الحرب، ولم تحسب حساباً لمثل هذا اليوم. أما حزبنا فقد قصر في عدم وضع خطة لمجابهة مثل هذه الحالة.

إن الصراعات المسلحة طيلة سنوات بين القوى الكردستانية حالت دون تطور إمكانياتها لتكون بمستوى الأحداث ودون تعاونها في وضع خطة مجابهة سليمة، وتدبير وسائل الوقاية ووسائل الدعاية لنشاطها. ومع هذا لعبت الجبهة الكردستانية (التي انبثقت عام 1988 باتفاق هو أول من نوعه، بين جميع الأحزاب الكردستانية وحزبنا الشيوعي العراقي، الذي تم التوقيع على اتفاق في مقر قيادته في منطقة خواكورك) دوراً هاماً في تقليص عدد الضحايا ودرء مخاطر روح الإحباط.

لقد انتكست الحركة المسلحة في كردستان العراق وانسحبت الوحدات الأنصارية مع سائر قوات (ب، م.) من سائر مناطق كردستان باستثناء (خواركوك) حيق مقر (م. س.)، وظلت الوحدات الأنصارية تخوض معارك ضارية في خواركوك إلى جانب قوات الحزب الديمقراطي الكردستاني وبفضل الوجود الكبير لها، ضد الحشود الضخمة للقوات المسلحة للنظام ولأكثر من خمسين يوماً وكان آخرها معارك (قبر ظاهر).

وانسحبت وحداتنا الأنصارية وبعد ذلك في ظروف غاية في الصعوبة

والتعقيد إلى الشريط الحدودي في كوكا ونوكان وناوزنگ. وكانت كل التوقعات تؤكد أن إمكانيات الحركة الأنصارية لم تستفد، هذا ما جاء في استنتاج تقرير ل. الإقليم عام 1988.

وكان النظام قد استبق هجومه الواسع على مناطق كردستان باللجوء إلى اسلوب المناورة والخداع وذلك بتسريب أحاديث عن التفاوض مع أطراف الحركة بهدف إحداث البلبلة في صفوف الأنصار مما أثّر سلباً على استعداداتها.

ورغم الانتكاسة التي أصابت الحركة بعد عمليات الأنفال سيئة الصيت وتوقف الحرب العراقية الإيرانية واضطرار وحدات الأنصار و(ب، م.) الأطراف الكردستانية الأخرى إلى الانسحاب نحو الشريط الحدودي مع إيران وتركيا، فإن النشاط الأنصاري لم يتوقف. إذ استطاعت مفارز أنصارية اختراق خطوط قوات النظام ونزلت إلى العمق في مناطق أربيل وكفري ورانية وقامت بنشاطات أنصارية.

وفيما بعد لعب الأنصار إلى جانب بيشمرگة القوى الكردستانية الأخرى دورهم، سواء من كانوا داخل المدن أو الذين نزلوا من الشريط الحدودي، في انتفاضة آذار البطولية.

## عاشراً: نقل مسؤولية الحركة الأنصارية إلى ل. الإقليم

كانت مسألة قيادة الحركة الأنصارية التي أنيطت بمنظمة إقليم كردستان عام 1988 من القضايا الشائكة، منذ تشكيل الفصائل وازدياد عددها. وكان ينمو بشأنها اتجاهان:

الاتجاه الأول يعتبر التنظيم الحزبي هو الأساس سواء كان خارج أو داخل هذه الفصائل وما الحركة الأنصارية إلّا الساعد القوي لدى التنظيم.

الاتجاه الثاني يعتبر التشكيل العسكري هو الأساس، وهو المعني بمختلف النشاطات في هذه المرحلة.

وبنتيجة ذلك نشأ الخلاف ليس فقط بين العمل العسكري والتنظيم، وإنما بين المستشار السياسي والآمر العسكري داخل الفصائل، وحول من هو المسؤول الأول: المستشار السياسي أم الآمر العسكري؟

وللأسف لم يحسم هذا الصراع وفق المبادئ والأصول الحزبية، وإنما أخذ يتعمق مع تمسك كل طرف برأيه. وألحق هذا الصراع ضرراً غير قليل بالحركة الأنصارية.

وحينما أقرت (ل. م.) في اجتماع حزيران ـ تموز 1988 ربط الحركة الأنصارية بمنظمة الإقليم مجدداً، جاء هذا القرار متأخراً وترافق مع الهجوم الواسع الذي قامت به السلطة على المناطق المحررة في كردستان، وبالتالي لم تتح الفرصة الكافية لامتحان هذا القرار على أرض الواقع وخاصة في تلك الظروف الصعبة، مما كلفنا خسائر كبيرة.

## الخلاصة

شكلت حركتنا الأنصارية في الثمانينيات صفحة مشرقة في مسيرة حزبنا ونضاله وأعادت له هيبته في أوساط الحركة الوطنية العراقية والقوى التقدمية والعالمية، ومكنته من البقاء على أرض الوطن ومواصلة نشاطه السياسي والتنظيمي والإعلامي والعسكري، ولعبت دوراً في الحيلولة دون تشتت قوى الحزب في المنفى، ورفعت معنويات أعضائه الذين قدموا التضحيات بنكران ذات عال دفاعاً عن قضية الشعب وعن الحزب وسمعته وعززت ارتباط الحزب بالشعب والوطن بالرغم من صعوبة الظروف الموضوعية والذاتية ورغم الأخطاء والخسائر التي كان من الممكن تجنّب الكثير منها.

إن انتقال الحزب إلى المعارضة ورفعه شعار إسقاط الدكتاتورية وانتهاجه أسلوب الكفاح المسلح كأسلوب رئيسي للنضال، كل ذلك حتمه الواقع الموضوعي وطبيعة السلطة في البلد ونهجها القمعي الدكتاتوري المعادي لمصالح الشعب، والهادف أساساً إلى تصفية القوى السياسية في البلد.

وعلى أساس هذا الواقع رسم الحزب سياسته في مجابهة العنف الرجعي الشامل للدكتاتورية وبالصيغة التي تم إقرارها في اجتماع (ل. م.) في تشرين الثاني 1981.

وكان الشكل الملموس لتجلي هذا الأسلوب في كردستان تشكيل فصائل الأنصار وفقاً للظروف الملائمة وإمكانية تحقيقه. وعلى الرغم من النواقص والتقصيرات التي رافقت نشوء وتطوير الحركة ووجود خلافات في الرأي من أعلى الهيئات إلى أدناه حول محتوى هذه الحركة وطبيعة نشاطها وأشكال إدارتها، يمكن القول إن النشاط العسكري الذي مارسه الأنصار كان عاملاً مؤثراً في بقية أشكال النضال التي مارستها منظمات الحزب سواء في المناطق المحررة أو المدن الكردستانية، وحتى على التنظيم في مختلف مدن العراق.

إلّا أنه جرى في الممارسة العملية فهم خاطئ لتطبيق أسلوب الكفاح المسلح كأسلوب رئيسي للنضال، حيث تمّ التعامل معه بصورة مبالغ فيها، وصار وكأنه الأسلوب الوحيد.

كذلك جرى زجّ حركة الأنصار في معارك كبيرة غير مبررة (رغم بطولة الأنصار واستبسالهم في هذه المعارك) إلّا أنه كان يمكن تجنبها وتفادي الخسائر الجسيمة التي تحملها الحزب، وكان ذلك أحياناً بسبب أخطاء في تقدير الموقف السياسي من قبل قيادة الحزب، كما حصل بشكل واضح عند دخول الحزب كطرف في الصراع بين القوى الكردية، وما نتج عنه في انتكاسة بشت آشان عام 1983.

لقد كان للخلافات بشأن حركة الأنصار وضرورتها وطابعها في النضال، داخل قيادة الحزب، الأثر السلبي على الحركة وتطويرها وبرز اتجاهان خاطئان تمثل الأول في التقليل من شأن الحركة الأنصارية والثاني في المبالغة بدورها وأهدافها والتقليل من شأن الأساليب الكفاحية الأخرى. وكان لذلك تأثيره السلبي على مجمل الحركة.

ولم تستطع الحركة الأنصارية لحزبنا التحول إلى حركة جماهيرية تشمل الريف والمدينة (رغم توسع تأثيرها على الجماهير في بعض الفترات وخاصة في 82 و84 و87)، باستثناء أربيل ونجم ذلك عن عدة عوامل، منها ما هو ذاتي يتعلق بإمكانيات الحزب واستمرار الضربات لمنظماته وآثار ذلك على مجمل نشاطه، ومنها الصراعات غير المبدئية التي نشأت بين التنظيم المدني وكوادر الحركة الأنصارية، وتأثرنا بأساليب القوى الأخرى، واكتساب بعض رفاقنا عادات وسلوكيات غريبة عن الروح الشيوعية هذا إلى جانب الآثار السلبية للقتال بين القوى الكردية وما خلفه من روح الإحباط واليأس بين الجماهير، والآثار السلبية على الحزب بعد دخوله كطرف في هذا الصراع.

وهناك من ناحية أخرى عوامل موضوعية منها نجاح السلطة ـ إلى حد معين ـ في عزل الحركة عن الجماهير عبر إجراءات مختلفة (سياسة الأرض المحروقة، تشكيل الأفواج الخفيفة، قرارات العفو، الإجراءات الأمنيّة، تسليح سكان العديد من القرى، ملاحقة عوائل الأنصار... إلخ).

ولقد استخدمت السلطة كل إمكانياتها وخبرة أجهزتها في العمل المضاد للأنصار والسعي إلى اختراق الحركة والعملاء، مما أدى إلى وقوع ضحايا وخسائر وفي نفس الوقت كانت خبرة الحركة في هذا المجال وإجراءاتها المقابلة دون المستوى المناسب.

ولم تستطع الحركة الأنصارية لحزبنا تجاوز الأساليب العسكرية المتوارثة تماماً.

وكان من السلبيات الأخرى حرمان الأنصار من فترات استراحة ضرورية لتجديد قواهم، وإكساب الحركة سمات التجنيد الإلزامي بهذا الشكل أو ذاك.

لكن وجود حركة الأنصار وتوسع عملها وتأثيرها، لعب دوره في خدمة عملية إعادة بناء التنظيم في عمق الوطن، حيث أصبحت مناطق الأنصار خير موقع للقيادة ومتابعة الخطوط التنظيمية.

كما وفرت الحركة الأنصارية الإمكانية لانتقال مركز قيادة الحزب إلى كردستان.

وشكل وجود الحركة الأنصارية المسلحة وفعالياتها قوة معنوية للرفاق في مختلف أرجاء العراق ودافعاً لمواصلة النضال وإعادة بناء التنظيم، إلّا أن أخطاء وقعت في هذا المجال أيضاً، حيث تحشّد الكادر الحزبي المعني بإعادة بناء التنظيم في عمق الوطن، وبشكل علني، في مواقع الأنصار. وهو ما يتناقض وسرية العمل والصيانة، وقد ترك كذلك انعكاساً سلبياً على حركة الأنصار. مما اضطرت قيادة الحزب إلى توزيع الكادر على القواطع الأنصارية بهدف إخفاء مهماتهم وصيانة تحركاتهم ومن أجل استثمار إمكانياتهم الفكرية والسياسية.

إلّا أن التناقضات والصراعات برزت بين العاملين في المجالين المدني والعسكري، وخلقت بعض المتاعب سواء للعمل الأنصاري أو لإعادة بناء التنظيم في العمق، وأدت إلى استشهاد بعض الكوادر المكلفة بإعادة البناء في خضّم العمل الأنصاري.

وبالرغم من قرار الحزب العمل على إعادة بناء التنظيم في عمق البلاد باعتباره المهمة رقم واحد، وهو ما أكدته اجتماعات (ل. م.) ووثائق الحزب، إلّا أن التوجه نحو هذه المهمة رافقه التقصير في ما يتعلق بالمساعدة المالية وإعداد الكادر وتسهيل مهمة الاتصالات وتعزيز الاحترام المتبادل والتعاون بين الرفاق العاملين في المجالين العسكري والمدني.

لقد انتكست الحركة الأنصارية عام 1988 لأسباب ذاتية وموضوعية بعد أن تركت دروساً غنية للحزب ومسيرته، ولعموم الحركة الوطنية في بلادنا.

وقد بينت لجنة إقليم كردستان في اجتماعها بعد الانتكاسة، أن الحركة الأنصارية في كردستان لم تستنفد طاقاتها رغم ما أصابها من ضعف وانتكاس.

وأشارت إلى احتمال بروز أهميتها من جديد، رغم أن المرحلة الجديدة تتسم بازدياد أهمية ودور أساليب الكفاح الأخرى بالمقارنة مع دور حركة الأنصار.

وبينت أحداث انتفاضة آذار المجيدة عام 1991 من جانبها أهمية الدور الذي لعبته خبرة سنوات في الحركة الأنصارية. وفي نشاط الرفاق الأنصار في الانتفاضة حيث لعب رفاقنا الأنصار بالتلاحم مع رفاق التنظيمات دوراً فعالاً في قيادة معارك الانتفاضة.

ويتوجب التوقف بكل إجلال واحترام أمام ذكرى العديد من الأنصار، رفاقاً وأصدقاء، الذين سقطوا شهداء وغذت دماؤهم روح العطاء والمواصلة وأعطت للحركة الأنصارية معاني في البطولة ستبقى خالدة أبد الدهر.

وختاماً لا بد من الإشارة إلى أن تقييم الحركة الأنصارية هذا تقييم أولي لا يشمل إلّا جوانبها العامة ودروسها الهامة.

أما التقييم التاريخي الشامل والعسكري للحركة، فيحتاج إلى دراسات تفصيلية مستقبلية مبرمجة تعتمد من الوقائع والشواهد والمصادر الموثوقة ما هو أكثر بكثير، لكي تأتي أكثر دقة وشمولية.